وتر

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر والمؤلف مقدما.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.

الكتاب: وتر

- **المؤلف: فرح ياسين**
- **نوع العمل: رواية**
- **الطبعة الأولى 1440 هـ - 2020 م - القاهرة**
- **الناشر: ببلومانيا للنشر والتوزيع – مصر**

- رقم الإيداع : 2018 / 1685
- **الترقيم الدولي (ISBN): 978-977-6754-91-1**
- الغلاف: صفاء جولحة
- تنسيق وإخراج: غاردينيا محمد
- تدقيق: رنا أبو حلوة – أحمد كوكش
- المدير العام: جمال سليمان
- العنوان: عنوان (1): 15 شارع السباق – مول الميريلاند – مصر الجديدة
  عنوان (2): 38 شارع عمر المختار – الأميرية – القاهرة
- تليفاكس: 0020226061014
- محمول: 00201208868826 – 00201065534541 – 00201210826415
- صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/
- الموقع الإلكتروني: www.bbibliomania.com

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر، ودون أدنى مسؤولية على دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

+201065534541 +201208868826 fb.com/Books.Bibliomania/ fb.com/bibliomania.eg/ insta.books.bibliomania/ ببلومانيا ـ Books fb.com/groups/Bibliomania.Books/ @BibliomaniaEg

www.bbibliomania.com

2020

- رواية -

وَتَرْ

فرح ياسين

الإهداء

إلى أبناء الفنّ والسماء
من يُنصتون للألوان ويُحدّقون في الموسيقى.
إلى حزن النساء، ويأس الرجال.
وإلى الأحلام التي تتحوّل إلى قصائدٍ وأغانٍ بدلاً من أن تتحقق.

الشُكر الأعظم

إلى كتف أبي وقلب أمي.
إلى كلّ من زرع وردةً داخل هذه الرواية ولو بِكلمة.
وإلى روحِ مُعلّمتي "فاتن". ستبقين على قيدِ الحياة في جميعِ دفاتري.

"حين كان الجميع يؤمنون بجمال زخرفة الكمنجات، كنّا نؤمن بجمال صوت الوتر.

كانوا يرون لمعان الزخرفات، وكنا نلمس الصدأ، صدأ الوتر..."

الوتر الأوّل

الأمر أشبه بأن تصرخ في منتصف الحفلة،
فيظنُّ الجميع أنّك تغني،
ويكملون الرقص...

" الحزن يدوم إلى الأبد "

فان غوخ

ـ دعنا نقف لحظة.. لنفهم الحقيقة، أو بالأحرى لنصدّق ما نحاول تكذيبه.
دعنا نعترف أنّه لا شيء جميل في هذا العالم يدوم إلى الأبد. نحن نشعر بنشوة كلّ شيء لمرّة واحدة أو لمئة مرّة لكن في النّهاية هناك فراقٌ ينتظرنا عند نهاية الطريق. كنشوة الأغنيات والموسيقى الشهيّة، نغرق نحن حتى آخر نقطة في عمق النغم، ثمّ سكتة موسيقيّة واحدة، تجهضُنا إلى هذا الواقع الرماديّ من جديد. لا شيء يدوم يا عزيزي سوى الأحزان وندوب الذاكرة...
ـ ونحن... ألن ندوم؟
ـ لو كنّا كذلك، لما كنت تراني الآن هنا...
ـ دائماً ما كنت أراكِ. دائماً.

بتوتّر وبخطوات متثاقلة تتقدّم نحو باب المكتب. نادراً ما يستدعيها مدير المكتب إليه، ربّما بسبب عملها المتكامل دوماً، لكنّها تخاف أن يكون سبب استدعائها هذا هو ما تفكّر به وتخشاه الآن.
تغطّي نصف وجهها بشعرها كالعادة، تدقّ ثلاث دقّاتٍ على الباب ثمّ..
ـ تفضّل
ـ مراد، أخبروني أنّك طلبتَني
ـ أجل سيلينا تفضّلي أرجوكِ بالجلوس، أحتاج إلى الحديث معكِ
تجلس بهدوء، وفي داخلها ينهشها الخوف مما سيقول
ـ هل حديثنا عن العمل؟
ـ أجل سيلينا.. حسناً سأبدأ لكن أريدك أن تعلمي أنّ الأمر خرج عن سيطرتي..

أنتِ تعلمين أنّك صديقتي قبل أن تكوني موظّفة لديّ هنا، تعلمين أنّني سأقف دوماً بجانبكِ وأنّني أخشى عليكِ كما يخشى الأخ على أخته تماماً
يتلعثم ثمّ يأخذ شهيقاً فزفيراً
ـ لا بأس مراد.. أكمل أنا أسمعك مهما كنتَ ستقول
ـ سيلينا.. بعد حادثتكِ تلك حاولت جاهداً ألّا أشعركِ بأيّ تغيير أثّر على عملكِ، وأتمنى أن أكون قد نجحت في هذا لفترة قصيرة. لا يمكنني أن أنكر أنّكِ أفضل صحفيّة ومذيعة عملت هنا، لا يمكن لأحد إنكار ذلك، أنتِ من الأشخاص القديمين هنا والذين بدأوا منذ تأسيس القناة وأنتِ من أسهم في وصولنا إلى هنا، لكنّ الأمر خرج عن السيطرة الآن.. تلقيت اليوم العديد من التقارير التي...
يصمت لثانيتين مرتبكاً
ـ التي ماذا؟ أكمل..
ـ يطالبون بإزالتكِ من القناة.. أعلم أنّ الأمر لن يكون سهلاً عليكِ أبداً، صدّقيني أنا أيضاً لا أطيق نفسي حين أخبركِ بذلك.. لكنّني آسف.. آسف على كلّ هذا السوء. حاولت جاهداً إدراك الوضع، لكنّني فشلت. مدير القناة مصمّمٌ على رأيه، الجميع يعتبر أنّ وجودكِ لم يعد منطقيّاً بعدما أصابكِ من ذلك الحادث.
ثمّ هناك اعتراض من بعض الفتيات الموظّفات أنهنّ أحقُّ منكِ بمكانكِ ولم يعد بإمكاني إسكاتهنّ أكثر وقد تمكنَّ من إقناع المدير بذلك، أنا آ..
ـ توقّف مراد.. لا بأس، لا داعي للتأسّف أكثر. أتفهّم كلّ شيء صدقني. كنت أتوقّع ذلك في أيّة لحظة. سآخذ أغراضي من المكتب وأرحل حالاً، شكراً لك على كلّ شيء قدمته، سررتُ كثيراً بمعرفتك...
ـ سيلينا أنا آسف
ـ أخبرتك لا بأس..
تنهض وتشعر بقدميها متحجّرتين. هي تكذب في قولها لا بأس وتعلم ذلك، تريد أن تصرخ، أنا أنتمي لهذا المكان!! لكن تعلم أنّه ما من أحد سيعير اهتماماً لذلك.
تصل إلى الباب وتشرع في الخروج، ثمّ فجأة تستدير لتسأل آخر سؤالٍ لها:
ـ مراد، أنا فقط أريد أن أعرف أمراً واحداً قبل رحيلي، اعتبره آخر معروفٍ ستقدّمه لي.

ـ تفضّلي سيلينا
ـ من هنّ الفتيات اللواتي اعترضن على وجودي ليأخذن مكاني؟ علاقتي جيّدة مع الجميع هنا إلى حدٍّ ما، ولم يُشعِرني أحدٌ أنّ مكاني هنا مزعِج
ـ آسف لكن حقاً لا يمكنني إخبارِكِ، أنتِ تعلمين أسرار العمل وكيفية وجوب التعامل معها مهما كانت صغيرة
ـ أرجوك مراد، لا تقلق لن أثير أيّة مشاكل..
ـ لا سيلينا، لا أستطيع. أرجوكِ تفهّمي وضعي.. لكن يمكنني إخبارِكِ بشيءٍ واحدٍ فقط على أمل ألّا ترحلي من هنا وأنتِ مستاءة منّي
ـ وما هو؟
ـ لم يكنّ مجموعة من الفتيات الموظّفات، كانت فتاة واحدة هي من اعترضت على وجودكِ هنا، واستطاعت إقناع الجميع للوقوف في صفّها
ـ ألن تخبرني من هي؟
ـ أخبرتكِ بما أستطيع
ـ حسناً..
إذاً أتمنى لكم جميعاً التوفيق في عملكم حقّاً.. حتّى تلك الفتاة، الوقت سيكشف كلّ شيء
ـ شكراً سيلينا، وأنتِ أيضاً إن احتجتِ أيّ شيء، فرقمي معكِ.
تومئ برأسها، ثم تعود إلى طريق الرحيل.
خيبة أُخرى، خسارة أُخرى بعد كلّ تلك الخسائر، لكن مع هذا لا بأس، حقّاً لا بأس، بعد ذلك الحادث أصبحت تتقبّل كلّ الخسائر ببرودٍ مخيف.
حين يفقد الإنسان سنده في الحياة، لن يحزن على خسارة أيّ شيء أو أيّ أحد. لن يحزن لأجل رحيل صديقٍ عابر. لن يقيم مأتماً لأنّه خسر عملاً طمح له في حياته.
لن يحزن لأجل التفاصيل الصغيرة، فخسارته هي فاجعة الأحزان الكُبرى.
تدخل مكتبها لتجمع الأغراض منه والأسئلة والأجوبة تتخبّط في رأسها.
تعلم أنّ مراد ليس مسؤولاً عن إخراجها من العمل وتصدّق كلامه تماماً أنّه فعل ما بوسعه، فهو من وقف بجانبها بعد خروجها من المشفى وساعدها للتأقلم وأقنعها بالعودة للعمل. لطالما علاقتها مع أغلب الموظّفين والموظّفات كانت جيّدة خاصّة أنّ جميعهم تعاطفوا معها بعد حادثتها، ما عدا تلك الفتاة.. من هي؟ ولماذا؟ ألم يكفها خساراتها كلّها

تلك؟ تريد الآن أن تجعلها تخسر عملها الذي تشغف به! ولقد نجحت في ذلك.. لكن ربّما هي على حق.. فمكانها لم يعد هنا، هي أصلاً لم يعد لها أيُّ مكانٍ في هذا العالم.
انتهت من وضع جميع أغراضها في صندوق ما عدا شيئاً واحداً.. هو الكاميرا. لطالما رافقتها هذه الكاميرا منذ بداية عملها. الآن ستخرج معها أيضاً من هذا المكتب للمرّة الأخيرة. وضعَتها في الصندوق، تأمّلت المكان وكأنّها تريد تقبيل كل تفصيلٍ به للمرّة الأخيرة.
لماذا النّهايات موجعة بهذا الشكل؟ لماذا تجعلنا ننزف وقتاً لا ينتهي؟ لماذا نحن ننتهي والألم لا ينتهي ...؟

خرجت من المكتب وأغلقت الباب ...تاركة ورائها نصف الحياة الذي كان قد تبقّى لها.

****

أخرجت مفاتيح المنزل من حقيبتها وشرعت بالدخول، لكنّها توقفت في اللحظة الأخيرة وأعادت المفاتيح إلى حقيبتها ورنّت الجرس، كالغرباء، هذا ما تفضّله رانيا.
لطالما بدأت تلاحظ تقلّبات رانيا ـ زوجة عمّها ـ في الفترة الأخيرة. هي لا تريد استقبالها للعيش معها في منزلها لكنّ عمّها رفض التخلّي عنها بعد ذلك اليوم...
تتنهّد، تستجمع صبرها ثمّ تطرق الباب:
ـ أهذه أنتِ، أهلاً.. لكن ما الذي أتى بكِ مبكّراً؟
ـ يمكنكِ القول أنّه تم طردي من العمل...
ـ ماذا؟ لكن لماذا؟
تبقى صامتة، لتكمل رانيا بنبرة الشماتة:
ـ كنت أتوقّع أن يفعلوا ذلك في أيّة لحظة بعد ما حصل لكِ..
ـ الجميع كان متيقناً من ذلك.
ـ إنّه أمرٌ منطقي بعدما حصل لكِ من تشوّهات، لا عليكِ.
تحدّق في عينيها بألم، لكنّ شيئاً ما جعلها تبتلع انزعاجها من تلك الكلمة، لتردّ بهدوء:
ـ أجل معكِ حق، لن يرغب أحد برؤية هذا الوجه... العالم يرغب دائماً برؤية الوجوه الجميلة وحسب.

ـ هكذا هي قوانين الكون!
ـ أدرك ذلك، لا بأس.
تقول لا بأس مرّة أُخرى.. لكنّ الأمر مؤلم، موجع، إنّه محرق، لاذع. الدموع تتسابق على مشارف السقوط لكنّها مرّة أُخرى تمنع نفسها من حقّ البكاء حتى.. كم مرّة يجب أن تسمع هذه الكلمة بعد؟ مشوّهة.. كيف سترافقها هذه الكلمة مدى حياتها؟
تخرج من شرودها لتعود إلى رانيا، هذه المرأة التي تنتهز أيّة فرصة لتذكّرها بعجزها وخسارتها، وقبحها.
ـ سيلينا لقد نسيتِ هاتفكِ هنا، وقد اتصل سامي عدّة مرّات بكِ
ـ حسناً سأعاود الاتصال به، شكراً. بالمناسبة، أين عمّي وأين غيث والباقون؟
ـ ذهبوا لشراء بعض الحاجات للعشاء، أوه العشاء.. لقد أُنهِكتُ تماماً. إنّني أعمل في هذا المنزل وحدي منذ الصباح وأُعِدّ الطعام وأنظّف! تبّاً للبؤس الذي أنا به!
ـ لا تقلقي، الآن بما أنّني فرغت من العمل سأتولّى أعمال المنزل جميعها وحدي ويمكنكِ الارتياح طيلة الوقت.
ـ أتقصدين أنكِ لن تجدي عملاً آخر؟!
ـ سأحاول.. لكنّ فرص نجاحي في ذلك قليلة
لاحظت انزعاجاً على وجه رانيا وكأنّ الأمر لم يرق لها، لتسارع في اختصار الحديث:
ـ خالتي سأذهب لأبدّل ملابسي، أتريدين منّي شيئاً؟
ـ لا، لا شيء.
اتّجهت إلى غرفتها محاولة كتم انزعاجها واستجماع أكبر قدر من الصبر قبل أن تبدأ رانيا بمحاضرة أخرى عن تعبها في المنزل وعملها و.. و.. و...
أمسكت الهاتف، ثلاث مكالمات من سامي ورسالة:
"حبيبتي إن كنتِ مشغولة في العمل اتّصلي بي فور انتهائك"
تمعّنت الكلمة "حبيبتي"
أحقّاً ما زالت حبيبته؟ خطيبته؟ أيحبّها أم لا؟ مازال يريدها رغم كلّ ما حصل أم لا؟ سيبقى أو سيرحل؟ كلّ تلك الأسئلة التي تخشى إجابتها.
تحبّه هي، تخشى فراقه لا بل تكاد تفقد صوابها لمجرّد التفكير في الأمر. تخاف أن يتركها في أيّة لحظة كما جرى في عملها منذ قليل. ما الذي يجبره على البقاء؟ تسأله

كل مرّة هذا السؤال، وفي كل مرّة تكون إجابته أنّه الحب.. حب الروح وليس حب الجسد. تنظر إلى نفسها في المرآة، نصف وجهٍ، والآخر مغطّى بشعرها البني المائل للسواد الذي يصل لتحت كتفيها بقليل. النصف الأيسر الظّاهر من وجهها به بعض الندوب وبعض آثار الحروق الواضحة تماماً. تُزيح شعرها عن نصف وجهها الأيمن تتأمّل وجهها كاملاً، تتأمّل ندوبها واحدة واحدة
هنا كانت ابتسامتي
هنا كانت شامتي
هنا كانت ملامحي الضائعة...
تشعر بالألم يخنقها، تريد أيّ شيءٍ يخفّف عنها هذا الألم. أيّ شيءٍ يسندها ويسند رأسها الثقيل هذا، قليلاً قليلاً، حدّ الصمت والصوت.
الكمان.
الموسيقى، إنّها وككّل ليلةٍ بحاجة إليها، إلى العزف، إلى الاستماع. ربّما الموسيقى هي الدائرة الوحيدة المتبقية لهذا العالم المليء بالزوايا الحادّة. ولهذا، دائماً ما كانت الموسيقى نافذتها وسط الضباب، وملجأها الوحيد.
تأخذ القوس، تسند كلّ رأسها وكلّ تعبها على الكمان.
أوّل سحبةٍ على الوتر تُشعرها باختناقٍ وارتياح
أمّا مع السحبة الثانية وحيث بدأ النغم ينطلق بدأت دموعها بالتجمّع
ثمّ دفعةً واحدة، تسقط كلّ خمس دمعات معاً ومعها تستعيد ذلك المشهد، مشهد الفاجعة التي ألمّت بها منذ شهور...

****

" لكنّني لا أتذكّر الجسور

لا أتذكّر البحار

فقط أُسرعِ في سباقٍ دائم

من اختياري واختيارك

وداعاً للحياة التي أعيشها..."

إيميلي ديكنسون

بصعوبةٍ فائقة أحاول فتح عينيّ، ما زلت بين الوعي واللّاوعي، ممدّدة على السرير هناك في تلك الغرفة البيضاء ومحاطة بالأجهزة الطبيّة. أسمع صوت طنين الأجهزة في أُذني، أحاول الالتفات لكنّني لا أستطيع. أشعر بألم لا يوصف في رأسي المغطّى بالشرائط الطبيّة، وهناك أنبوب يصل بين يدي وأحد تلك الأجهزة.

تدريجيّاً أستعيد وعيي لأدرك أنّني في المشفى، أحاول تذكّر أي شيء من الذي حصل لكنّني لا أذكر سوى أصوات صراخ ونيرانٍ تلتهم ما حولي. كلّما حاولت تذكّر المزيد أشعر بالضياع، بمتاهات تلتهمني وألمٍ حادٍّ في رأسي. لكن لماذا رأسي مغطى بهذه الطريقة التي تمنعني من الرؤية بوضوح؟!

فجأة يقاطع ضياعي دخول الطبيب:

ـ آنسة سيلينا.. حمداً لله على سلامتكِ، لقد استيقظتِ أخيراً والحمد لله.

ـ ما الذي جرى؟ هل أنا في المشفى؟ ولماذا؟

ـ أجل لقد تمّ نقلك إلى المشفى وقد أمضيتِ يومين هنا والآن صحوتِ

ـ لكن لماذا؟ أرجوك ما الذي حصل؟ وأين والداي؟

يصمت الطبيب للحظات، وأبادله الصمت مع انتظار الإجابة. يستجمع قواه ويأخذ شهيقاً ثم يباشر بالكلام:

ـ آنسة سيلينا، أنتِ تعلمين الحرب التي تعيشها مدينتنا، في كلّ يوم يموت الكثير، والكثير من الأطفال تنقضّ عليهم الحرب إمّا بناب الموت أو بناب اليتم. وكلّ شخص في هذه المدينة معرَّض للموت، للفقد، للهجرة. كلّ شخص في هذه المدينة معرّض لأن ينسى الحياة في أيّة ثانية. أريد أن أخبركِ بما حصل معكِ الآن لكن يجب أن تعديني بأن تبقي قويّة.

شعرتُ بقلبي يهبط إلى قدمي، يبدو أنّني وليمة الحرب اليوم. حاولتُ النظر من خلال تلك الشرائط الكثيرة التي تغطّي وجهي إلى الطبيب، أريد التحديق به وقراءة ما سيقول قبل أن يقول، أريد أن أعرف الآن ما حصل!

ـ أرجوك أكمل!! ماذا حصل؟ ما الذي جرى؟ والداي هل هما بخير أم لا؟؟ أين هما قل لي الآنّ!

ـ أرجوكِ آنستي فلتهدئي. حسناً سأخبركِ بكلّ شيء...

حسب معلوماتي أنّ المنطقة التي تسكنينها مع عائلتكِ اضطربت الأوضاع فيها واشتدّت النيران والقصف بها ما دفعك مع والديكِ للهروب طلباً للنجاة كباقي العائلات في منطقتكم..
أُصغي إليه حرفاً حرفاً وأتذكّر تدريجيّاً ما يقوله
ـ أجل هذا صحيح، لقد ركبنا بسيارة والدي و... لا أذكر بعد ذلك ما حصل...
ـ بعد ذلك وللأسف تعرضتم لحادث. هو ليس حادثاً تماماً، بل أنّ قذيفةً سقطت بالقرب الشديد من سيارتكم أثناء القيادة وقد كان هناك العديد من الضحايا معكم. قمنا بنقلكِ مع والديكِ إلى هنا. استطعتِ أنتِ النجاة، لكن للأسف مع أضرار في وجهكِ ناتجة عن الحريق، وقد سبّبت تشوّهاً في نصفه الأيمن والبعض الآخر الأقلّ ظهوراً في النصف الأيسر، والتي ستبقى ظاهرة رغم الكثير من العمليّات التجميليّة.
أمّا بالنسبة لوالديكِ، فقد رحلا...
حاولنا بجهد إنقاذهما لكن مع الأسف إصابتهما كانت بالغة للغاية...
" شعرتُ بجنازةٍ في دماغي
المُعزّون ما برحوا يدوسون بأقدامهم
يدوسون جيئةً وذهاباً
حتى بدا
وكأنّ وعيي ينفجر خارجاً..."
" والديكِ رحلا" هكذا وبكلّ بساطة يقولها، يتركها معلّقة في الهواء، في الصدى، تأبى أذناي أن تستقبلا هذا الهراء!
ـ مهلاً ماذا تقول؟ والداي أنا رحلا؟ أحقّاً أين هما؟
الصمت.. يبتلعه وينهشني، لأصرخ بأعلى صوتي في وجهه:
ـ أسألك أين هما!! قل لي أين هما الآن!
ـ أخبرتكِ.. رحلا.
ـ لا أنت تكذب.. أنت كاذب!
ـ أنا آسف آنستي.. الموت في هذه لم يعد مزحة أو كذبة. لم يعد قدراً بعيداً. لا آنستي.. الموت أصبح أقرب إلينا من حلم الغد. في هذه اللحظة وفي الغرف المجاورة لغرفتكِ الآن، هناك العشرات يموتون في الغرف المجاورة.

ما أودّ قوله هو أنّ عليكِ تقبّل الأمر كما هو وكيفما كان.. المدينة تحتضر ونحن هنا جميعاً ضحايا كل شهقة هواء تحاول أخذها. أعلم أنّ الأمر ليس سهلاً كما الكلام، أن تفقدي أقرب الناس لكِ في ومضة عين دون حقّ الوداع حتّى! لكن هذه هي قوانين الحرب وعلينا احترام ألاعيب القدر...

"وكأنّ السماوات جميعاً أصبحت جرساً،
والكون مجرّد أُذنٍ.
وأنا والصمت وجنسٌ غريب من المخلوقات
يُحدث دماراً هنا..."

يتكلّم ويتكلّم ويتكلّم.. هو لا يعلم عمق الجرح الذي خلق للتو! يقول أنّهما رحلا! ماتا! كيف!! كيف وليس لي سواهما!!!

كل كلام الطبيب ومحاولات مواساته لفاجعتي كانت مجرّد ضباب وضوضاء، أنا لم أعد أفهم ما يقول، ولا أريد ذلك.

اجتاحتني نوبة صمت، ابتلعتني.

كلّ الحروف والألحان والظلال هربت، لم يعد لديَّ سوى شهقة الصّدى. كان هدوءاً مخيفاً، مرعباً، هدوء ما قبل العاصفة.

كيف تركاني؟ أمي كيف تركتني؟ أبي كيف تركني؟

كان الأمر أشبه بأن تترك شجرتك التي زرعتَها، وتستودعها رعاية المطر.. دون قدرٍ معلوم، هكذا رحلا، ليتركاني مُعلّقة في غياهب الغد.

فجأة صرت أصرخ! أهذي! أبكي.. أبكي رغم أنّ تلك الشرائط اللعينة التي تلفّ وجهي كانت تحرمني من الشعور بحرارة دموعي.

صوتي ملأ الغرفة، اخترق الجدران، دخلت بنوبة هيستيريّة من البكاء والصراخ بجملٍ متقطّعة وغير مفهومة تتخلّلها شهقات بطعم الاستغاثة.

كلّ ما أذكره بعد تلك اللحظة صوت الطبيب وهو يأمر الممرضة بـِ:

"أعطِها إبرة مخدّر بسرعة!"

"وبعدئذ تحطّمت دعامةٌ في العقل،
وسقطتُّ إلى أسفل، وإلى أسفل

وكنتُ في كلِّ سقطةٍ، أرتطم بعالمٍ،
وانتهت معرفتي
في تلك اللحظة..."

****

آخر سحبةٍ على الوتر، ومعها، هطلت آخر دمعة على ذاك الكمان الذي يربّت على كتفها لينتهي آخر مشهد من الجزء الأوّل لفاجعتها التي تستعيدها كل يوم. أمّا الجزء الثاني لتلك الفاجعة فهي تستعيده في كلّ لحظةٍ تقاطعها عيون الناس أو توقفها المرايا...
قاطع شرود ذكرياتها ذلك رنين هاتفها مع اسم يظهر على الشاشة "سامي" تستجمع قواها وبصوت مرتجف ترد:
- أهلاً سامي، كنت سأتصل منذ لحظات...
- لكن أين أنتِ بحقّ السماء! لماذا لا تجيبين على اتصالاتي؟!
- لقد نسيت هاتفي في المنزل، لا داعي للغضب
- لا، لا لست غاضباً عزيزتي لكنّني خشيت أن يكون قد أصابكِ مكروه..
- لا عليك.. في كل الأحوال لا تقلق، لن يصيبني مكروه أكبر مما أصابني.
- ولماذا تقولين هذا الآن؟!
- لا شيء.
تصمت لثانيتين محاولةً ابتلاع حزنها، ليسألها:
- هل أنتِ بخير؟
لم تستطع كتم بكائها، حتى انهارت على الهاتف..
- سيلينا... ما رأيك أن نلتقي؟
- أجل سامي، أنا حقّاً بحاجة إليك الآن.
سأنتظركِ في المقهى المعتاد، أحتاج ساعة للوصول من عملي إليكِ، كوني هناك بعد ساعة، اتفقنا؟
- اتفقنا.
تغلق الهاتف وهي ترتعش من البكاء، تبدّل ثيابها للموعد، تفتح درجها وتضع يدها على علبة الماكياج الخاصة بها، ثمّ للحظة تتوقف.

جميع هذه الألوان الآن لا تُفلح في تغطية هذه الندوب الشاحبة.
ولكن سابقاً، ماذا كانت تغطّي...؟
لطالما كانت عادة وضع الماكياج عادة روتينيّة بالنسبة إليها قبل تشوّه وجهها. تشرد في النظر لنفسها بالمرآة مرّةً أُخرى، كم كانت غبيّة! حين كانت تتمنّى في الماضي أن تكون أجمل، حين كانت دوماً لا تعجبها ذاتها، لا تعجبها ملامحها.
تدرك الآن أنّه لا يوجد فتاة في هذا العالم لا تنظر لنفسها في المرآة كل يوم صباحاً وتتمنّى تغيير شيءٍ ما في ذاتها. أدرك أنّها كانت كباقي الفتيات اللواتي لا يفهمن أنهنّ جميلات كيفما كنّ وبكل الطرق. كانت كأيّة فتاة، يصعب عليها أن تتقبّل ذاتها كما هي، وذلك أمرٌ مؤلم بحق. لكنّ الأكثر إيلاماً، هو أنّ الجميع يثبت لهنّ ذلك بمعايير غبيّة.
تبدأ بوضع مساحيق التجميل تلك تدريجيّاً على أمل أن تخفي شيئاً من ندوبها.. في كلّ مرّة تقف بها أمام المرآة تتذكّر تلك اللحظة، النصف الثاني لفاجعتها، اللحظة التي أزالوا بها الشرائط عن وجهها. حين استغرقت نصف ساعة تحدّق بصمت في ملامحها باحثةً عن نفسها.
تلك اللحظة التي انهارت بها حين رأت وجهها مشوّهاً بتلك الطريقة المُفجِعة... تتذكّر كم بكت ومازالت تبكي..
تغلق علبة الماكياج بعد انتهائها، تتأمّل ندوبها التي فشلت في تغطيتها ككلّ مرّة... وتمضي.

****

مع كلّ أغنيةٍ جميلة، أحاول أن أقنع نفسي بأنّ هذا العالم سيغدو أفضل.
أقنع نفسي بأنّ طريق الحزن هذا قصير، مسافته بطول العقدة بين حاجبي فان غوخ.
لكنّني لا أدري كيف أجد هذا الطريق يمتد، قليلاً قليلاً، من عقدة حاجبي فان غوخ إلى أذنه اليسرى، حيث لا توجد فرصةٌ أخيرة لسماع أيّة أغنيةٍ جميلة مجدداً، أبداً.

“When will I see you again?”

" متى سأراك مجدداً؟"

“you left with no goodbye not a single word was said”

" رحلت بدون وداع لم تقل كلمة واحدة "

بأعلى صوت يستمع للأغاني، لا يكترث بكلّ الضجة، تنهشه الكآبة، لا يرى شيئاً سوى السواد العقيم.
يشعر بِـ" أديل " تصرخ نيابةً عنه في تلك الأغنية:
"But don't you remember? Don't you remember? The reason you loved me before?"
" لكن ألا تذكر؟ ألا تذكر.. سبب حبّك لي من قبل...؟"
"Baby please remember me… once more"
" حبيبي أرجوك تذكّرني... مرّة أُخرى! "

أحقاً نسيَت؟ نسيَت لماذا أحبّته، ولماذا بقيت معه كلّ هذا الوقت؟ هل نسيَت هي سبب حبّها له بهذه البساطة؟! ولكن ماذا كان ذاك السبب أصلاً!
يتأمّل في الأغاني، وفي الأسئلة التي تتخبّط في رأسه.
يتأمّل في هذا السواد الذي يغطّي كلّ شيء، ولا بقعة نورٍ واحدة حتّى تستطيع إرشاده إلى طريقها. وحدها بقايا العطر من لقاءهما الأخير هي بوصلته، لكنّها تجعله يتوه أكثر في معمعة الاتجاهات المبهمة هذه!
كل شيء أسود، المكان والزمان الملامح والأغاني والذكريات.
كل شيء أسود في رأسه، وفي نظره.
حتّى اللون الأسود كباقي الألوان له درجات، لكنّه كان يرى سواد ظلّها هو أجمل درجة، ورحيلها هو السواد الأقبح...
يسمع صوت الباب، وخطوات تسير باتجاهه، في الفترة الأخيرة بات يحفظ كلّ شيء يستمع إليه لدرجة أنّه أصبح يميّز صوت خطوات كل شخص من الآخر.
ـ إنّه أنت جواد؟
ـ أجل.. كيف حالك اليوم؟
ـ وما الفرق بين اليوم والأمس وما قبله؟ إنها لم تعد حتى الآن.
يقولها ببحّة متألّمة وهو ينفث دخان سيجارته بنهم.

ـ هي لن تعود وأنت تعلم ذلك! ثمّ كيف تنتظرها بعد كل ما فعلته بك!
ـ ربما ستعود وتشعر أنّها كانت مخطئة، أنا واثق هي تحبّني وما زالت وستبقى. من الصعب أن تدفن حباً بحجم المحيط في رمل ذاكرة تخشى موج الفراق. أريدها أن تعود يا جواد، أنا لا شيء بدونها، أنا مهترئ، والعتمة تنهشني، كانت شمعتي الوحيدة في كل هذا السواد.
ـ لكنّها لن تعود يا آدم! لن تعود وكفى! انظر إلى نفسك، لم تبقَ أغنية كئيبة في تاريخ الفن لم تستمع إليها! ثمّ ما بالك تلتهم كلّ هذه السجائر التهاماً! ألا ترحم صحّتك؟ أنا أخشى عليك صدّقني.
ـ وما نفع الخوف من دخان السجائر إن كان القلب محترقاً ومتفحّماً بالأصل؟
ـ هذا ليس منطقيّاً! أنت تتعذّب من أجل أحدٍ لم يكترث قط. لقد تركَتك عند أوّل انهيار لك، فبدل أن تعيد بناءك، داست على حطامك بكعبها وأكملت السير، كفاك يا رجل! كفاك!
ـ ربّما معها حق.. أنا لم أعد أصلح لأيّ شيء يا جواد! ولا أيّ شيء.
ـ ليس صحيحاً يا آدم، لكنها لم تكن تريدك في حبّها، أرادت الجانب الماديّ منك وليس المعنوي، فقط تأمّل في كلامي وستجد كلّ شيء يبدو جليّاً أمامك.
ـ لا أريد.. لا أريد سوى انتظارها.
ـ يبدو أنّ عذابك هذا سيستغرق وقتاً..
ـ ربما هذا الوقت هو للأبد.
يمسك جواد بكتفه ثم يهمس له:
ـ ستتجاوز كلّ هذا
يسود الصمت لدقائق، وينهي آدم سيجارته. ينظر جواد إلى الساعة ثمّ يكمل:
ـ أنا مضطر للذهاب الآن، إن احتجت أيَّ شيء دع والدتك تتصل بي إن وجدتَ أنت صعوبة في ذلك، أتريد شيئاً قبل رحيلي؟
ـ والدي...
ـ لا تقلق أنا أعتني به، لقد دخلت غرفته قبل الدخول إليك.
ـ حسناً..
ـ إلى اللقاء، وآمل أن تفكر قليلاً في كلامي.

ـ شكراً على كلّ شيء.
ـ لا داعي للشكر يا أخي.... إلى اللقاء، أراك غداً.
واحدة، اثنتان، ثلاث. ثلاث خطوات ثمّ خرج وأغلق الباب.
ها قد عاد وحيداً في هذا السواد اللئيم من جديد. لطالما اخترق السواد حياته عدّة مرّات، مرّة حين فقد نظره، ومرّةً أخرى حين تركته لارا، وأما المرّات التي بعدها فهي كلّ مرّة يرحل فيها جواد، صديقه الوحيد الذي تبقّى له.
لقد سانده في صعابه جميعها، حين أُصيب بالعمى، وحين مرِض والده، حين فقد منزله وأعماله، وحين رحلت لارا..
لارا.. لارا.. لارا.. وكأنّ لارا هي محور كلّ هذا الألم!
لم يكن يتوقع للحظة أن تتركه بالطريقة التي فعلت بها ذلك. كان يظن أنّ الحب يمكن أن يتجاوز كلّ شيء وأيَّ شيء، لكن عند أوّل جدار.. ارتطم هذا الحب، وانهار، وتلاشى بعيداً. حتّى الفراق كان بارداً، عكس ما توقعه تماماً.
" لكنّها ستأتي، ستعود "
تمتم في قلبه، أطفأ أغنياته، ونام..

“When will I see you again…?”

" متى سأراك مجدداً...؟"

****

" نحن محطّات أكثر من كوننا بشر. ولربّما ستأتي الساعة المحدّدة يوماً، وسيحين موعد الرحلة، وسأكون في النافذة الأخيرة من قطاري، ألوّح لك بيدٍ صفراء وأحاول كسر الزجاج كي لا أغادرك. وسأصرخ ربّما، سأصرخ كثيراً! لكنّك لن تسمعني لأنّ صفارة القطار التالي ستكون أعلى من صوتي، ولأنّ موعد مغادرتي قد حان بقدومه. هكذا هو الأمر...التجاوز. "
ـ أذكر أنّني لم أصدّقكِ حين قلتِ ذلك الأمر...
ـ بالنسبة لي، ما زلت أؤمن بذلك.

ـ وأنا...
ـ أنت ماذا؟
ـ أصبحت مؤمناً بذلك أيضاً... أؤمن الآن بأنّني محطّة، وأؤمن أنّ آلاف القطارات قد عبرَتني وغادرَتني، إلّا قطارَكِ. هو الوحيد الذي مازال وسيبقى راسخاً فوق سككي الصدِئة...

دخلت المقهى برأسٍ مخفوض خوفاً من أن يلحظها أحد. الجميع يحدّق بها ولا تستطيع أن تميّز نظرات الشفقة من نظرات الاشمئزاز أو نظرات الخوف. تلتفت يميناً ويساراً باحثة عن وجهه لتهرب إليه من هذا المكان الضيق. تراه عند الزاوية يلوح لها بيده أن تأتي، تتقدّم نحوه بسرعة وكأنّها وجدت ملاذاً آمناً أخيراً.
ـ مرحباً عزيزتي
ـ مرحباً، شكراً لقدومك.. إنّني في أمسّ الحاجة إليك
ـ أقولها لكِ للمرّة الألف، لا تشكريني لأنني بجانبكِ. أنتِ خطيبتي أوّلاً، والأمانة التي تركها صديق والدي القديم لنا، والأهم من ذلك كلّه أنّكِ حبيبتي التي أحبّها! والآن أخبريني، كيف حالكِ؟ أو قبل ذلك دعيني أطلب لنا فنجاني قهوة!
تراقبه بهدوء وهو يتحدّث مع النادل، تحدّق به وكأنّها تريد أن تدخل لعينيه الزرقاوين وتغرق بهما، تريد الاختباء بوجهها ذاك، تريد إخفاء وجهها حتّى عنه هو!
حالما انتهائه يسألها:
ـ والآن أخبريني كيف حالكِ؟ ولماذا كلّ هذا الحزن؟
ـ لقد طردتُ من العمل.
ـ أعلم ذلك وقد حزنت كثيراً، ولكن لا تقلقي سنجد لك عملاً أفضل منه بمئات المرّات.
ـ لا بأس لا أريد، لقد كان هذا العمل هو شغفي في الحياة، ولكنّني فقدته ولن يعوضني أيّ شيء آخر عنه، ثمّ من سيرغب بتوظيف فتاة مشوّهة...انسَ الأمر.
أخبرني كيف حالك أنت؟
ـ أنا بخير سيلينا.. لكن بعد كلامك هذا لم أعد كذلك.
يمسك بيديها، ثمّ يكمل:
ـ إنّني معكِ وأحبّكِ ويجب أن تبقي أقوى لأجلنا!

ـ لكن ما الذي يدفعك لهذا...؟
تقولها بصوتٍ مرتجف.
ـ إلى ماذا؟
ـ أنت لست مضطراً أن تقضي بقية حياتك مع امرأةٍ مثلي يا سامي.
ـ أتحاولين إثارة غضبي؟
ـ لا سامي... لكنّني في كلّ مرّةٍ أحدّق بها في مرآتي أتساءل، أحقّاً تحبّني بعد كلّ هذا، ما حصل لوجهي ولملامحي.
ـ أنتِ تكررين هذا الكلام كثيراً سيلينا!
ـ لأنّني أخاف! أرجوك أن تفهمني... كل ما أريد قوله هو، إن أردت الرحيل أو أن تتركني يوماً فارحل الآن أرجوك لأنّني أقدّر رحيلك الآن بل وأطلبه. لكن أرجوك.. أرجوك إن لم ترحل الآن لا ترحل غداً بطريقة تدمّرني، لا ترحل فجأة لدرجة تباغت روحي حتّى الاختناق. أخاف أن أفقدك بالطريقة التي أخاف الفقد بها. أخاف أن تكرهني في ذروة حبي لك.. لذا سأعيدها لك الآن، إن كنت تشعر أنّك لن تستطيع إكمال حياتك معي فلتتركني الآن وكن واثقاً أنّني لن أحزن أبداً، لكن أرجوك لا تحاول الرحيل لاحقاً بطريقة تفجعني بمزيد من الفقد! ارحل لأنّني أطلب منك ذلك، لكن لا ترحل لاحقاً بطريقة تشعرني أنك مللت من وجهي المليء بالندوب هذا! كل الأشياء تتركني الآن، حياتي، عملي، وكلّ شيء. إن أردتَّ أن تتركني أنت أيضاً، فلن ألومك يا سامي.
أنهت كلامها بنفسٍ واحد وكأنّه واجب عليها قوله. لم ترفع نظرها عن فنجان القهوة الذي أمامها منذ بدأت. والآن ها هي تنتظر الرّد على ما قالته بقلبٍ مرتجف. ترفع رأسها تدريجيّاً باتجاه عينيه الزرقاوين وشعره الأشقر. تريد أن ترى ملامح الإجابة في عينيه قبل أن ينطق بشيء.
ـ سيلينا... تعلمين كم أحبّكِ، تعلمين أنّي لن أتخلّى عنكِ فلماذا تقولين هذا؟ إنّني أحبّكِ بكل ما تملكين وما لا تملكين. أنتِ في نظري وحتّى بعدما حصل، أجمل امرأةٍ في الكون. أرجوكِ ألّا تعيدي هذا الكلام مجدّداً... اتفقنا؟ لا تطلبي مني الرحيل مجدّداً!
ـ أنا لا أطلبه! أنا أخافه!
ـ وأقسم لكِ أنّه ما من داعٍ للخوف...

تبتلع خيبتها دفعة واحدة، شيءٌ ما يجعلها خائفة من كلّ شيء، لكن دوماً ما تجد عند سامي ما يشعرها بالسَكينة. تنظر في عمق عينيه، تبتسم من كلّ قلبها، ثمّ تأخذ شهيقاً عميقاً بهدوء.
تشرب رشفة من القهوة ثمّ تسأله بعد أن هدأت:
ـ بالمناسبة.. من أين عرفت أنّني طُرِدت من العمل؟
ـ آه.. إنّني قابلت لارا اليوم بالمصادفة، وأخبرتني بذلك.
ـ غريب مع أنّني لم أخبر أحداً قط حتى لارا!
يصمت لثانيتين، ثمّ يقول باندفاع:
ـ قد تكون ميساء هي من أخبرتها! لا تنسي أنّها معكِ في العمل ولا بدّ أن تعرف بذلك بشكلٍ فوريّ.
ـ أجل صحيح.. ربّما.
ـ أنتِ محظوظة بصديقتيكِ! خاصّة لارا يبدو أنّها تحبّكِ جداً!
ـ إنّهما أكثر من صديقتين!
ـ أتمنّى أن تبقوا معاً للأبد وألّا يفرّق بينكنّ شيء... بالمناسبة، شقيق لارا ـ أنور ـ ماهر في العمل! إنّه من أفضل سائقي شاحنات النقل لدينا في الشركة
ـ هذا ممتاز! وكيف أحوال الشركة؟
ـ إنها بخير لا تقلقي...

كان المقهى ذو أثاثٍ عصري، بأجواءٍ شتويَة، صوت الموسيقى الكلاسيكيّة يتسلّل بين كل اثنين، ورائحة الأسرار فاضحة في كل الزوايا.
تبدّل مزاجها في ساعة واحدة، معه فقط تكون هكذا، تشعر أنّها لو منحته كلّ ما تملكه وكلّ ما لديها لن يكفيه لأنه ما زال يحبّها رغم كل ما حصل لها، هي تستطيع أن تضحّي بكلّ شيء وبأيّ شيء فقط في سبيل حبّه هذا!
يقاطع شرودها بسؤاله المباغت، وكأنّه يقرأ جبينها
ـ سيلينا، بالنسبة للعمل أردت أن أحدثكِ في بعض الأمور..
ـ أجل بالتأكيد، ماذا هناك؟

ـ كنت أفكّر في أن تضعي حصّتكِ باسمي إن لم يكن الأمر يشكّل مشكلةً لديكِ... تعلمين أنّني الآن وبعد وفاة والدكِ أصبحت أدير حصّتنا في الشركة وبالنسبة لحصّة والدكِ التي أصبحت لكِ أنا أتولّى أمورها أيضاً كما تعلمين. لكنّني رغم الوكالة التي منحتِني إيّاها إلّا أنّني أجد صعوبة كبيرة في العمل على هذا النحو، لذا وجدتُ أن أقترح عليكِ ذلك... إن كان ذلك لا يزعجك، وطبعاً الأمر في النهاية يعود إليكِ، ولا أريد أن تفهمي طلبي هذا بشكلٍ خاطئٍ أبداً، أتمنّى ذلك.
لم تتردّد لحظة واحدة في الإجابة:
ـ لا طبعاً.. طبعاً ذلك لا يزعجني البتّة! على العكس لا يوجد شخص غيرك أستطيع الوثوق به في مثل هذه الأمور. من جهتي أنا موافقة وليس لديّ أيّة مشكلة ولا أريد للعمل أن يتوقف لحظة واحدة. لا أريد لتعب أبي عبر السنين أن يلمسه الغبار... لكن كما تعلم يجب أن أخبر عمّي قبل كلّ شيء وأن أطلِعه على الأمر ففي النهاية هو كأبي وليس من اللائق عدم إخباره.
ـ بالتأكيد! في الوقت الذي ترينه مناسباً تحدّثي معه وأخبريني بجوابه.
ـ أجل حسناً...
يقاطعهما رنين هاتفه، ثلاث رنّات ثمّ يرفض الاتصال.
ـ أجب لا عليك إن كان اتصالاً مهمّاً.
ـ لا.. لا أبداً إنّهم من العمل.
يتلو كلامه صفير رسالة على الهاتف " أنا قادمة إلى المقهى المعتاد، سأنتظرك هناك..."
يقرأ الرسالة وتتّسع عيناه بتوتر، يقف على عجل ثم يقول:
ـ يثيرون الغضب هؤلاء الكسالى!عزيزتي أنا آسف لكن يبدو أنّهم لا يستطيعون العمل ساعة واحدة بدوني وعليَّ الرحيل..
تبتسم
ـ لا عليك سامي، أذهب إلى عملك وإلّا تأخّرتَ عنه. ربّما يريدونك لأمرٍ ضروري.
ـ أنا آسف لكن سأعوّضكِ عن هذا
ـ لا تعتذر عن هذا! والآن كفاك انشغالاً هيّا!
أحبّك.

ـ وأنا أحبّكِ.. وداعاً..
ترك الحساب على الطاولة ومسرعاً ممسكاً بهاتفه خرج من الباب على عجل وبتوتّر.
تنظر سيلينا إلى المكان وهي لا تزال في مكانها. تتأمّل الكراسي الخشبيّة وأغطية الطاولات الخمريّة المخمليّة. تتأمّل الجدران ذات الطلاء الذهبي والثريّات المُعلّقة في السقف، وكأنّ هذا المكان قصر وليس مجرّد مقهى! تلفت نظرها الساعة الذهبيّة المُعلّقة على الجدار هناك.. كم هي جميلة تلك العقارب التي تشير إلى الساعة الثامنة...
الثامنة!
تقف على عجل لتتدارك الوقت، تأخذ حقيبتها ومعطفها وتمشي مسرعة باتجاه الباب.
تدرك أنّها إن تأخّرت أكثر فستدخل في جدالٍ مع رانيا هي بغنىً تامٍّ عنه.

****

نطيلُ التحديق بأنفسنا كثيراً، نحن الذين لا نجيد رسم الفراغ، ولا نعلم ما هو لون الحياة.

ما زال محدّقاً في السقف لمدّة ساعة ونصف منذ استيقاظه، يشعر أنّه قذر!
هو طالب في هندسة الميكانيك منذ سنتين. يشتُم دراسته التي لم يخترها ككلّ صباح. كم كان يرغب وبشدّة في أن يحقّق حلمه وحلم والده بدخوله كليّة الطب لكنّه فشل.
فاشل! أوّل كلمة سمعها عند تسجيله في كليّة هندسة الميكانيك، ومنذ ذلك الوقت إلى الآن ما زال يسمعها بعد كلّ عمل يقوم به، وإن لم يسمعها فهو يراها في نظرات والده والآخرين. مع أنّ كليّة الهندسة من أعلى الكليّات أيضاً، لكنّ الطب كان أمنيته منذ الطفولة وأمنية والده في أن يرى ولده الوحيد طبيباً وأن يكون هو والد الطبيب.
حين تلقّى علامة الثانويّة وأدرك أنّها لن تؤهله لدخول الطب قاطعه والده لمدّة أسبوع رغم أنّ له قلباً أبيضاً لا يستطيع الحقد على أحد، ومع ذلك فلم يستطع كتم غضبه الناجم عن خيبته تجاه ابنه بعد كلّ ذلك الجهد وكلّ تلك المصاريف التي أنفقها على معاهده الدراسيّة وغيرها علّه يجنيَ الطب في النهاية. لم يستطع تقبّل فكرة أنّه فشل في ذلك، ونسبَ هذا الفشل إلى تقصيرٍ من ابنه.

وهو شخصيّاً، أُصيب بألمٍ نفسيّ. "إن لم ينجح المرء في تحقيق حلمه الوحيد والأعظم فلماذا سيبقى على قيد الحياة؟" كان يسأل نفسه ذلك السؤال طوال الوقت وهو حبيسٌ في غرفته هارباً من تأنيب والده، بقي كذلك إلى فترة لا بأس بها للحين الذي قرّر به المحاولة للعودة إلى الحياة لكن بحلمٍ ليس بحلمه...

حين دخل كليّة الهندسة لم يكن راضياً عن اختياره لكنّه أقنع نفسه بها على أنّها المستقبل البديل له طالما أنّ علاماته تؤهله لها، لكن مع ذلك والده أيضاً لم يكن راضياً أبداً، دائماً ما يحمّله مسؤولية الخذلان في تحقيق ذلك الحلم.

"الطب أو الفشل!" شأنه شأن باقي الأهالي الذين يحصرون قدرات أبنائهم بين هذين الخيارين ... لطالما كان هو محطّماً أكثر من والده بعدم تحقيقه الحلم الذي أراد، لكنّ والده كان يلومه على ألمه! وها هو في كلّ صباح يستيقظ به للذهاب إلى الجامعة، يحدّق بالسقف، يتخيّل السترة الطبيّة على قامته، وسماعات الطبيب تحيط بعنقه، يتخيّل أنّه حقّق ما أراد، ثمّ يعود إلى الواقع ليُصدَم أنّه شيء لم يكن يرغبه يوماً.

ـ غيث، ألم تستيقظ بعد؟ الفطور جاهز.

ـ قادمٌ أمّي.

ينتشل نفسه من سريره، يخرج متّجهاً لغسل وجهه، ليرى سيلينا مقابلته متّجهة إلى غرفة الجلوس.

ـ سيلينا! صباح الخير

ـ صباح الخير غيث، كيف حالك لم أركَ البارحة بتاتاً

ـ أوه أنا بخير لكن عدتُّ للمنزل مُنهكاً في غيابكِ وخلدت للنوم. لكن أنتِ لماذا لم تذهبي لعملك؟

ـ ألم يخبروك، لقد تركت العمل، أو بالأحرى هو تركني.

ـ حقّاً! لكن لماذا؟!

ـ بسبب وجهي

تبتسم بنوعٍ من اللامبالاة لتُظهِر عكس ما تشعر به، ثمّ تكمل:

ـ لا يهم، هيّا اغسل وجهك وتعال لتناول الفطور.

ـ حسناً أنا قادم...

لطالما كان يشفق عليها، هو عكس والدته رانيا تماماً، لديه قلب طيب جداً، ويحاول دائماً التخفيف عن سيلينا. شأنه شأن والده الذي رفض التخلّي عن ابنة أخيه لحين أن يأتي موعد زفافها، الاثنان يتقبّلان وجودها هنا، إلّا رانيا.

ـ صباح الخير أبي

ـ صباح الخير

بهدوء كعادته يجلس على طاولة الفطور ليبدأ، يتأمّل شقيقتيه التوأم ـ سمر ورغد ـ اللتين لا يستطيع أن يبدأ صباحه دونهما

ـ صباح الخير يا أميرات

تردّ الطفلتان بابتسامة واسعة

ـ صباح الخير أخي

ينظر إلى سيلينا

ـ لم تخبريني سيلينا لماذا تركتِ العمل؟

تسارع رانيا بإجابته:

ـ ليست هي من تركته، هم طلبوا منها ذلك بسبب وجهها.

تكمل سيلينا عنها بهدوء:

ـ أجل غيث، قال لي مراد أن إحدى الفتيات أقنعت المدير بإنهاء توظيفي لأنّ مكاني لم يعد مناسباً لوظيفة كهذه، أنت تعلم... ليس من المنطق أن أبقى.

ـ لا بأس سيلينا، لا تحزني، فليذهب العمل إلى الجحيم.

يخاطبها عمّها مخفّفاً عنها، ليكمل غيث:

ـ أجل سيلينا لا بأس لا تزعجي نفسك بهذا الأمر، نحن هنا معكِ وستجدين عملاً أفضل منه.

ـ شكراً غيث...أنا ممتنة لوجودكم بشكلٍ كبير...

ـ ما هذا الكلام يا ابنتي! أنتِ أمانة والديكِ، لا تشكريني على هذا، بالطبع لن نتركك.

تراقب رانيا بصمت وتستمع إلى الحديث، تأخذ نَفَسَاً ماكراً ثم تسأل:

ـ ها سيلينا ألم تحدّدوا موعد زفافكم بعد؟ لقد طالت خطوبتكما أنتِ وسامي!

تحدّق سيلينا في كوب الشاي الذي أمامها. في كلّ مرّة تسأل رانيا ذات السؤال رغم أنّها تعرف إجابته. تكرر بملل ذات الإجابة:

ـ لا لم نحدّده، ففي كلّ مرة اسأل سامي فيها عن هذا الأمر يكون جوابه أن ننتظر قليلاً حتّى ينظّم أعمال الشركة من جديد ويستطيع أن يملك الوقت الكافي لزفافنا وتنظيمه. أنتِ تعلمين خالتي بعد وفاة والدي أصبح هو يتولّى أعمال الشركة في كثير من الأمور، لذا ليس عليّ سوى الانتظار هذه الفترة.

ـ آمل ألا يطول عمله هذا أكثر!

تحدق سيلينا بها وقد سئمت من كلامها الملغوم ذاك، ثمّ ترد ببرود:

ـ وأنا أيضاً آمل ذلك!

كالعادة تلتزم الصمت بعدها، تنظر إلى عمّها، ليومئ لها رأسه أنَّ " لا بأس.."

فتكتم انزعاجها كالعادة. لطالما يؤلمها أن يكون عمّها خاضعاً لزوجته بهذه الطريقة، كان زيدان رجلاً طيباً وذو أخلاق، رجلاً يحترم زوجته ولا يقلّل من شأنها أبداً. كان يحبّها حبّاً جمّاً ما يعميه عن كلّ تصرفاتها ومكرها. يريد دائماً أن يعيش في عائلة هادئة ما يجعله يتجنّب المشاكل معها، ولربّما هذا ما جعلها تطمع بحبّه الكبير لها وبأخلاقه لتفرض نفسها دائماً. وأمّا ما زاد الأمر سوءاً فهي الحرب التي ألمّت بالبلاد ما أدى إلى تراجع وضعه الماديّ والذي قلب رانيا إلى الوجه الحقيقي..

رغم أنّها لا تعيش في شقّة مأجورة كأغلبية الناس الذين تضرّروا من الحرب، ذلك لأنّ سيلينا بعد حادثة وفاة والديها أعطت عمّها نصف ما ورثته من والدها باعتباره شقيقه الوحيد إضافة إلى حاجة عمّها للمال في تلك الفترة، وبهذا لم تذق رانيا طعم التشرّد أبداً. بل وإنّها استطاعت إقناع زوجها بأن يضع هذا المنزل باسمها! ومع ذلك فباتت تحقد عليه وتتذمّر بسبب تراجع عمله. دائماً ما تستمر بمنحه شعور أنّه ناقص منذ أن تحوّل عمله إلى سائق مأجور على الميكرو باص بدلاً من مالكٍ لشاحنتي نقل. ولكن ما ذنبه أنّ الحرب دهست ما يملكه بومضة عينٍ واحدة؟!

هي لا يهمّها.

كلّ ما يهمّها هو أنّ معدّل دخل زوجها انخفض وهذه الحياة لا تليق بها بعد أن كانت ابنة واحدٍ من أكبر تجّار البلد قديماً. كانت من مهووسي الماركات الباهظة، تحبّ المطاعم الفخمة، العطور الثمينة، المجوهرات، الكثير من المجوهرات! كانت الأموال ومظاهر الثراء هي أكثر ما يهمّها في هذه الحياة. وأمّا زوجها زيدان فكان راضخاً لها تماماً، كان يحبّها حبّاً كبيراً يجعله يصمت على كلّ أعمالها. إضافة إلى قناعته أنّه مقصر

بحقّها وبحقّ أولاده، إنّها تردد عليه ذلك الأمر طوال الوقت لحين أن أصبح لديه شعور العجز والتقصير الحق.
رغم أنّه يعمل ليلاً نهاراً ليؤمّن جميع المتطلّبات وليغطّي احتياجات رانيا المكلِفة، إلّا أنّ امرأةً لا تشتري إلّا أغلى شيء من كلّ شيء لم يكن ليكفيها دخل سائقٍ على الميكرو باص.

****

"هذه الزرقة الشاسعة ليست إلّا جمهوراً عريضاً من الأشياء التي لا تأتي..."

إيفا خليل

ملامحنا الباهتة لا أحد يحاول تلوينها، لأنّ الجمال يشفع والقبح إثمٌ لا ذنب له.
ـ لماذا يعتقد الجميع أنّ عكس الألوان هو الأسود والأبيض؟
ـ لا أعرف... الجميع ينبذهما رغم أنّهما في الأصل ألوانٌ أيضاً.
ـ ربّما نحن ملوّنان بهما، ملوّنان بالأسود والأبيض مثل بيانو.
ـ مثل بيانو مليء بالغبار، لن يرغب أحدٌ في لمسه، إلّا شخصٌ واحد...
ـ من!
ـ الذي سيرغب في سماع الموسيقى.

ببطء يقف على قدميه ممسكاً بعكّازه التي يمقتها. يأخذ شهقة ثمّ يبدأ يجول يميناً يساراً بالعكّاز لئلّا يصطدم بشيء في تلك الغرفة الرماديّة حيث الكآبة تملأ المكان. يحاول التكهّن أين وضعت أمّه السجائر التي تخشى عليه منها. يتّجه إلى اليمين حيث تخبّؤها هناك دائماً، رغم أنّه أعمى إلا أنّه لا زال يحفظ معالم منزله تماماً وهذا الأمر الذي تنساه والدته في كلّ مرّة تحاول تخبئة سجائره عنه.
يتحسّس سطح المكتب حتى تصل يده إلى تلك العلبة الكرتونيّة صغيرة الحجم.
"ها هي.." يهمس في نفسه.

فجأة يأتي صوت ثلاث طرقات على الباب:
- تفضّل
- كيف حالك اليوم؟
- أهلاً جواد.. أتيتَ في وقتِك، أشعل لي السيجارة من فضلك.
يتأمّله جواد بألم وهو يخاطبه مؤنّباً:
- كم سيجارة تدخّن في الساعة يا رجُل! كفاك حقّاً.. ألا تدرك عدد أعقاب السجائر التي دخّنتها اليوم؟ إنّها تملأ المكان!
- لا يهم.. أشعلها وحسب.
لكن جواد لا يجيب، ليسحب آدم ولّاعته من جيب سترته الخاصّة ويشعلها بنفسه.
يتقدّم جواد مندفعاً، ينتزع السيجارة من فمه ليرمها بعيداً ويصرخ في وجهه:
- أخبرتك كفى!
يبادله الآخر الصراخ:
- ولكن ما بك! وما شأنك أنت أصلاً!
- شأني أنّك صديقي ولن أتركك تحترق من أجل تلك الغبيّة!
تبقى السيجارة مشتعلةً على الأرض، ويستمر الصراخ
- لا تقل عنها غبيّة! أنا هو العاجز الأحمق هنا وحسب
- بل هي الأنانيّة التي تركتكَ في منتصف الطريق وأنت تعلم هذا، تعلم أنّها تخلّت عنك في ثوانٍ وعن حبّكما بسبب أمرٍ لا ذنب لك فيه!
- كفى جواد! كفى!
تحترق السيجارة، ويعلو الصراخ
- ليس كفى! أنت تموت هنا من أجل ظلّ امرأة باهت وهي لا تفعل شيء سوى أنّها تكمل حياتها بمنتهى البساطة والمتعة مع رجلٍ غيرك!!
- كفى الآن كفى أصمت الآن!!
الدّخان الضئيل يصعد إلى جدران الغرفة، والصراخ يعلو ويعلو
- لن أصمت!
ويعلو...
- أخبرتك أن تصمت وإلّا ستندم!

الاحتراق أكل جسد السيجارة الهزيل، وصرخ جواد عالياً:
ـ لقد تزوّجت البارحة أيّها الأحمق ألا تفهم!!!
تنطفئ السيجارة بعد عذابٍ طويلٍ من الاحتراق البطيء،
يصمت هو،
ويسكت الصراخ في تلك الغرفة الشاحبة.
ما الذي يجعلنا نحاول الإمساك بالماء... رغم يقيننا الدائم أنّه سيتسرّب من بين أصابعنا، غير مبالٍ بالعطش الذي يسكن خطوط الأكُفّ.
هل يبكي؟ لقد بكى كثيراً..
هل يصرخ؟ لقد ابتلع الحزن صوته..
هل يتأمّل صورتها ثمّ يمزقها إلى أشلاء؟ لقد حرمه العمى من حقّه في هذا.. يكاد صوته يخرج من حلقه وهو يردّد:
ـ لارا، لارا تزوجت حقّاً؟
ـ أجل..
ـ لقد كانت تحبّه حقّاً! لقد نسيَت يا جواد! أحقّاً فعلت!
ـ أجل آدم أجل! لقد نسيَتك وفعلت ذلك حقاً! رأيتها البارحة في المحكمة، وكانت برفقته واستطعتُ اكتشاف الأمر، لقد تزوّجت من الرجل الذي اختارته عوضاً عنك وهي تدوس فوق رمادك، وأنت هنا ماذا تفعل؟ تستمرّ في الاحتراق لأجلها كالغبي!
ـ لقد كانت تقول الصدق حين رحلت! ظننتها ستعود، ظننتُ أنّ كلّ شيء سيكون كابوساً أستيقظ منه على صوتها... ظننتُني سأستيقظ يا جواد!
ينهار على الأرض، يشعر أنّه في دوامة سوداء، هو حقّاً كذلك، يلتهمه العمى من عينيه، لا يرى شيئاً سوى صورتها في رأسه، ينهار بكامل قواه ليشعر بجواد يجلس بجانبه بهدوء
ـ لا بأس آدم، ربّما هذا الأمر خيرٌ لك أنّك تخلّصت من فتاة مخادعة وحبّها كان مجرّد كذبة مبنيّة على أمورٍ مؤقتةٍ منك.
ـ لكنّني أحبها يا جواد! لقد أحببتها أكثر من أيّ شيءٍ في حياتي، لقد كنت مستعدّاً لأمنحها حياتي بأكملها رغم عجزي وخساراتي!
ـ لكنّها لم تكن لتستحق ذلك...

يتأمّل في ملامحها التي في رأسه، يتأمّلها ورائحة السيجارة التي ماتت للتو لا تزال تعشّش في أنفاسه. يحاول حرق ملامحها العالقة أمامه، يغمض عينيه بشدّة، يغمضهما أكثر وأكثر، ليكتشف أنّ رموشه هي التي تحترق من لسعة الدموع وليس طيف صورتها...

القصيدة تموت
الأغنية تصمُت
اللوحة تبهُت
ونحن،
نبقى نحاول الإمساك بالماء دوماً، رغم ثقوب أيدينا البالية.

****

" انتهيت أخيراً! "
تقولها وهي تمسح الغبار من على آخر تحفة مصفوفة على الطاولة الجانبيّة لغرفة الجلوس. تشعر بالإرهاق بعد عمل متواصل من الساعة الواحدة ظهراً حتّى الساعة السابعة مساءً. حرصت على تنظيف كلّ البيت غرفةً غرفة وزاويةً زاوية، إرضاءً لرانيا، حيث أنّه هذا اليوم الأوّل لجلوسها في المنزل، ما يجعلها متوتّرة لئلّا تثير كيدها.
تذهب للاستحمام لتخرج بعد نصف ساعة وهي تجفّف شعرها، تتفقد هاتفها لكن لا يوجد ولا أيّة مكالمة من أيّ أحد، لا يوجد سوى رسالة واحدة يتيمة من سامي. تفتحها بلهفة
- مرحباً سيلينا، لم تخبريني أسألتِ عمّك بخصوص ذلك الموضوع؟
"تبّاً لقد نسيت!" تتمتمُ في سرّها، ثم تقرّر أن تحدّث عمّها بعد العشاء. تعود للهاتف حتّى تجيب على رسالة سامي، ثمّ تشردُ للحظات.. تتأمّل الرسالة "مرحباً سيلينا".
لم يكتب حبيبتي، لم يكتب عزيزتي. لم يسألها عن حالها حتّى كما كان يفعل سابقاً.
إنّه حتى لم يتحدث إليها منذ لقاءهما الأخير في المطعم، كلّ ذلك يدفعها للخوف، تتذكّر كيف كان حبّهما قبل حادثتها، حين كانت فتاةً كأيّة فتاة، لها ملامح وابتسامة يمكن للكاميرا أن تلتقطها.
تتذكّر كم كان ينهكها سامي باتصالاته العشقيّة، تتذكّر كم كان مهتمّاً بها وبكلّ شيء وبأيّ شيء.

هي لا تنكر أنّه لايزال بقربها، لا تنكر أنّه يستحمل قبحها ربّما! لكنّها تشعر به الآن أنّه مرغمٌ عليها وليس مغرماً بها.
تشعر أنّ هناك شيئاً ما انطفأ داخله تجاهها، تشعر بكمٍّ من البرود واللامبالاة.. لكنّها ورغم كلّ ذلك تحبّه ومتأكدة من حبّه لها وهذا ما يجعلها تكمل حياتها متمسّكةً به كخيط النجاة الأخير.
تخرج من شرودها، لتدخل في سؤالٍ آخر يخطر في بالها منذ أيام، ميساء ولارا.
لقد مضت فترة لا بأس بها دون أيّ لقاء أو مكالمة من إحداهما!
تبعث برسالة إلى الاثنتين لتطمئنّ عن حالهما، إنّها الرسالة الخامسة هذا الأسبوع التي ترسلها لكلتيهما ولكن دون أيّ جواب، تقفل الهاتف بتنهيدة عميقة ثمّ ...
فجأة ينتفض جسدها على أصوات تصرخ:
ـ وماذا يجب أن أفعل لكي أرضيكِ إذاً؟ كم تريدين أن أحضر لكِ في اليوم؟ أتريدين مليوناً في اليوم؟ أجيبيني!
تخرج بسرعة لترى ما الذي يجري في غرفة الجلوس، لتجد رانيا تكمل الصراخ:
ـ اذهب وانظر إلى باقي العائلات يا زيدان، اذهب وانظر للحياة التي يعيشونها! أتحسب نفسك تبذل مجهوداً كباقي الرجال! وهذه الأموال من ستطعم؟ إنّها لا تكفي حتى لإطعام واحدة من بناتك!
ـ ليس من الضروري الإسراف كل يوم في الطعام الجاهز! يمكنكِ أن تطهي بهذه الخمسة آلاف ما يشتهيه غيركِ ويتمنى رؤيته! لماذا لا تنظرين إلى النعمة التي أنتِ بها؟ لماذا دائماً ما تقارنين ذاتكِ بمن هم أعلى منكِ وليس بمن هم أشدّ بؤساً منكِ؟ لا تريدين أن ترتدي إلّا من أغلى الماركات، لا تريدين أن تأكلي إلّا من المطاعم، لا تريدين التنزّه إلّا في أغلى الأماكن! نحن لا نعيش حياة عادية ولا نعيش في ظروفٍ عادية يا رانيا أتفهمين! نحن نعيش في زمن الحرب والجميع يعاني من ذلك! ولكن أتعلمين ما الفرق بينكِ وبينهم؟ أنّ الجميع يرضون بحالهم ويعيشون على ما قسم الله لهم من رزق، إلّا أنتِ! مع أنّكِ لم تتذوقي من عفن الحرب شيئاً!!
تصرخ رانيا بكلّ صوتها:
ـ تبّاً لك وللحرب ولكلّ هذه الحياة البائسة التي أعيشها معك يا زيدان!
ثمّ تتجه إلى غرفتها لتصفع الباب بأقوى ما لديها.

يبقى زوجها زيدان محطّماً يابساً في مكانه ككلّ مرّةٍ يتشاجران بها، وككلّ مرّة في النهاية سيشعر أنّه الحقير الوحيد هنا ظانّاً منه أنّه مقصر.. وككلّ مرّة ستستغل رانيا هذا الشعور لتضخّمه في نظره.
تتجه سيلينا نحو عمّها بعد أن صبّت له كأساً من الماء بيديها المرتجفتين
ـ لا عليك عمّي.. تعال واجلس لترتاح قليلاً..
يشرب جرعة من الماء بنفسٍ متقطّع، ليردّ عليها:
ـ ماذا بوسعي أن أفعل! ماذا! إنّ العجز يأكلني تماماً دون القدرة لي على إرضاء أحدٍ أو تحريك ساكن!
ينهار بالبكاء، وكأنّه ليس هو، يشعر أنّه يحمل الكون كلّه فوق ظهره العجوز ذي الفقرات الملتهبة. هكذا هي الحرب، تضع الهدايا الثقيلة فوق أكتاف الجميع.
ـ لا عليك عمّي.. العجز يأكلنا جميعاً لكنّ الله يرى ذلك.. لا تقلق سأذهب غداً وأسحب من أموالي لك ويمكنك تلبية طلبات رانيا دون أن تتشاجرا هكذا.
ـ لا سيلينا، لا. لقد أنفقتِ علينا الكثير منذ جلوسكِ هنا وهذا لا يجوز. هذه الأموال هي حصّتكِ من والدكِ، غير أنّكِ أعطيتني حصّتي منها. لا تقلقي سأحاول أخذ بعض الدَين من الرجل الذي أعمل عنده ككلِّ مرّة.
ـ ما هذا الكلام عمّي! أنت أبي ولا فرق بين الأب وابنته، بل إنّ هذا واجب عليّ. وإنّي أطلب منك للمرّة المئة أن تجعلني أضع جميع أموالي تحت تصرّفك، لكن أرجوك لا ترفض ككلّ مرّة.
ـ أنتِ فتاةٌ طيّبة يا سيلينا...طيّبة جدّاً وأنا أقدّر لكِ ذلك. ولكنّني قلتها لكِ من قبل يستحيل أن أقبل بهذا. لقد منحتِني حصّةً من ورثتكِ واشتريت هذا المنزل ولا أقبل أن آخذ ما تبقى لكِ. أنتِ فتاة في مقتبل العمر ولا تعلمين ما يمكن أنْ تتعرّضي له في حياتكِ. وبالنسبة للمبلغ الذي ستمنحينني إيّاه أنا أعدكِ بأن أعيده لكِ بطريقةٍ أو بأُخرى.. أعدكِ.
ـ أنا لا أريد استعادته يا عمّي، اعتبره هديّة مني لسمر ورغد ولا أريد أيّ اعتراضٍ آخر! اتفقنا؟
ـ اتفقنا...
تطبع قبلة على جبينه، ليبتسم لها الآخر والدموع تجري بين تجاعيد وجهه بصمت.
بعد ساعة.. تعود لغرفتها تنظر إلى الهاتف

" لديك ثلاث رسائل جديدة "
تفتح أوّل رسالة، من ميساء:
ـ أهلاً سيلينا، أنا بخير شكراً لكِ. إنّه ضغط العمل أنتِ تعلمين، القناة وأعمالها الشاقة...
الرسالتان الثانيتان، من سامي:
ـ سيلينا
ألم تحدّثي عمّكِ بعد؟!
أما الاسم الثالث " لارا " فلا يوجد أيّ رسائل، مع أنّ الهاتف يظهر أنّها قد قرأت جميع ما أرسلته لها خلال هذا الأسبوع.. لكنّها تتجاهل.
هذا التجاهل، يجمع بين مئة شعورٍ آخر... الخذلان، الفقد، الوحدة، العزلة، وكل ما ينتمي إلى رماديّة الوقت.
مع أنّ طريقة ميساء كانت جافّة أيضاً في الرد، إلا أنّها على الأقل لم تتجاهلها. تشرد في تساؤلاتها، لماذا تغيّرتا هكذا فجأة.. منذ حادثتها تدريجيّاً بدأت علاقتهنّ معها تتقلّص، وتتقلّص، وتتقلّص، حدّ هذا الجفاء.
دائماً ما كانت علاقة لارا وميساء فيما بينهما أقوى وأقرب من علاقتهما بها ولكن ليس بهذا الشكل ولا لهذه الدرجة! هناك أمرٌ ما، هي تشعر بذلك، لكنّها لا تعلم ما هو، أو متى قد خُلِق، لا تعلم منذ متى بدأتا تدريجيّاً بالابتعاد هكذا وخاصّةً بالنسبة للارا...
تشعر بألم، بألمٍ كبير بسبب البعد والكره المفاجئ هذا. تتأمّل كلّ ذلك لتجد نفسها طرفاً ثالثاً وهميّاً لخيطٍ من طرفين.
تعود لسامي ـ والذي هو أيضاً تشعر بمشاعره تبرد تجاهها ـ تكتب له عن الشجار الذي نشب بين عمّها وزوجته موضّحة له أنّ الوقت غير مناسب للنقاش في مثل هذا الموضوع، لتغلق الهاتف بنفسٍ باهتة، وتنام.
إنّه لأمرٌ مؤلم أن يكون تجاهلكَ أسهل من دهس فراشة.

****

ـ لكنّك تأخرت وأنا لم أعد أطيق وجودك معها!
تقولها وهي تتنهّد وتتأفّف، ثمّ تكمل:

ـ سامي إلى متى يجب عليَّ أن أصبر! متى ستتركها ونعيش براحتنا وحدنا؟! أم أنّك مازلت تحبّها؟

ـ لارا هذا يكفي أيّتها المجنونة! إن كنت ما زلت أحبّها فلماذا تزوجتكِ؟ أجيبي! أنا أحبّ امرأةً واحدة فقط.. وهي أنتِ! لماذا تتفوّهين بهذا الكلام الفارغ الآن!

ـ إذاً أذهب وأخبرها بذلك وانفصلا!

ـ كم مرّة يجب عليَّ أن أكرّر؟!

يقولها ثم يستند إلى كرسيّ مكتبه المنزلي وهو يستنشق غليونه، ثمّ يكمل:

ـ أخبركِ للمرّة المئة، لا أستطيع أن أتركها أو أظهر لها رغبتي في الانفصال عنها قبل أن أضمن ما أريد!

ـ وبعدها؟

ـ وبعدها ستصبح الشركة كلّها باسمي، وسنعيش أجمل حياة قد تحلمين بها.. فقط أنا وأنتِ دون ظلّ امرأةٍ ثالثة يلاحقنا... أتفهمين!

تبتسم لمجرّد تخيّلها للفكرة وتملؤها السعادة.

الصداقة؟ أجل لقد داست على تلك الفكرة وعلى سيلينا تماماً!

الحُب؟ إنّه أَولى بالنسبة لها أن تعيش قصّة حبٍّ مع رجلٍ ثريٍّ ووسيم كسامي، على أن تكمل حبّها مع رجلٍ أعمى وعاجز كآدم!

فتاة جميلة مثل لارا تستطيع أن تنتقل من قلبٍ إلى آخر دون أن يرفّ لها رمش. تستطيع أن تنسى أصدقائها وأقرب الناس إليها في سبيل سعادتها. لأنّها تعلم أنّها بوجهها الجميل، بملامحها الشقراء، وعينيها الملوّنتين، تستطيع أن تكون الرّابحة دوماً في أيّة معركة، تستطيع خطف قلب أيّ رجل، سيقع بحبّها أيّ رجلٍ يرى ملامحها من النظرة الأولى، سيعتبرها ملاكاً مقدّساً دون أن يكترث بماهيّة قلبها. جميع الرجال يقعون بحبّها دون أن يكترثوا بماضيها الأسود وبأفعالها اللعينة، هي حلمٌ بالنسبة لكلّ أمّ في أن تكون زوجة لابنها.وهكذا هو القانون هنا، جمال غلاف الكتاب سيستتر عن قبح مضمونه.

****

بعد عودتها من نصف ساعة إلى المنزل حيث سحبت مبلغاً من المال لعمّها، قرّرت أن تحدّثه بخصوص موضوع سامي الذي ينتظر هو الآخر جوابه.
نظرت من خلف باب غرفة الجلوس لتتأكّد أنّه يجلس وحده، وكان كذلك بالفعل، طرقت الباب ثمّ تقدّمت إليه. يجلس سانداً خدّه إلى قبضة يده والهم يأكله.
جلست إلى جانبه بهدوء، ومدّت يدها بعطف:
ـ تفضّل عمّي هذه نقودك.
يتأمّل يدها التي لازالت ممدودة، يأخذ النقود بهدوء وكأنّها طوق نجاةٍ أتاه من السماء، ينظر إلى عينيها والدمع في عينيه مردّداً:
ـ اسأل الربّ أن يساعدني لأردّ لكِ كلّ هذا يا ابنتي، اسأله أن يعطيني القوّة كي أردّ لكِ كلّ هذا الجميل الذي تصنعينه لي!
ـ ما هذا الكلام يا عمّي! لقد تحدّثنا بهذا الأمر في الأمس، وكن واثقاً أنّني ابنتك الثالثة التي ستكون بجانبك في أيّ وقتٍ تحتاج فيه للمساعدة.
ـ شكراً لكِ يا ابنتي.. شكراً لكِ حقّاً
تبتسم له ابتسامةً مليئة بالحب، ثمّ تستمر:
ـ عمّي، كنت أريد أن أستشيرك في موضوع...
ـ أجل ابنتي تفضلي؟
ـ أنت تعلم أنّ سامي يدير حصّته وحصّتي في الشركة، وهذا الأمر يشكّل صعوبة بحكم أنّ أوراقاً كثيرة تحتاج إلى توقيعي وأنا لستُ متواجدة في الشركة لأنّني لا أفهم ماهيّة العمل هناك
ـ أجل هذا صحيح..
ـ ولذلك قد طلب منّي سامي أن أسجّل حصّتي في الشركة باسمه، حتّى يتمكّن من العمل بسهولة ودون عوائق. وبالنسبة لي كان جوابي أنّني لا أملك أيّة مشكلة ولكن طلبت منه أن آخذ رأيك أولاً، فماذا تقول؟
يحدّق في الأرض لخمس ثوانٍ وكأنّه يشكّ في أمرٍ ما، ثمّ يرد:
ـ سيلينا.. انظري، سامي هو خطيبك ولا يوجد فرقٌ بينكما أنتما الاثنان لأنكما ستصبحان شريكين في كلّ شيء في هذه الحياة، لكنّ ذلك لا يمنع أن تكوني حذرة!
ـ حذرة من ماذا؟ لم أفهم عمي

ـ حذرة منه.
تحدّق به وكأنّ كلامه يصدمها، ثمّ تدريجيّاً تفهم ما يحاول قوله ..
ـ فهمت عمّي... تقصد أنّ سامي قد يتركني في أيّة لحظة بسبب وجهي هذا، أليس كذلك؟
ـ سيلينا أنا لا أحاول إيلامكِ، لكنّني أخاف عليكِ خوف الأب على ابنته وأنتِ أمانةٌ واجبٌ عليّ حمايتها مهما كلّف ذلك، لذلك يا ابنتي فكّري في الأمر جيّداً ثمّ خذي القرار الصائب.
ـ لكن يا عمّي، سامي ليس كذلك، هو يحبّني بحق، رغم قبحي يحبّني، رغم عجزي يحبّني، رغم كلّ ذلك يحبّني...
ـ ورغم ذلك، فكّري جيّداً يا ابنتي، فكّري جيّداً.
تصمت قليلاً، تتنهّد، ثم تنهي الموضوع بـِ:
ـ حسناً عمّي أعدك ألا أستعجل في أخذ قراري..
ـ اسأل الربّ ألّا يضرّكِ في أمرٍ يا سيلينا.
ـ شكراً عمّي، وأدعوه أن يبقيكَ بجانبي
ثم تكمل:
ـ أتريد منّي شيئاً الآن؟ أشعر بالنعاس وسأخلد للنوم قليلاً
ـ لا أريد شيئاً ابنتي اذهبي ونامي.. أنا سأذهب للخارج قليلاً. سمر ورغد في المدرسة وغيث في الجامعة، ورانيا مازالت في غرفتها منذ الصباح ولا تريد الخروج لذا سأذهب كي لا نتشاجر.
ـ حسناً لا بأس...
تتجه إلى غرفتها، تغلق الباب، وتستلقي على السرير لتحدّق في السقف.
ماذا لو كان كلام عمّها صحيح؟ ماذا لو كان سامي حقّاً يريد سلبها ما تملك ثمّ تركها؟ ماذا لو كان سيتخلّى عنها؟ ماذا وماذا وماذا...؟ لكنّ الجواب ككلّ مرّة:
" لكن لا! هو ليس كباقي الرجال"
إنها جملة الفتيات الشهيرة والغبيّة التي يطمئنّ أنفسهنّ بها، لكن دائماً ما يكون ورائها شيطانٌ أسود على هيئة رجل.
تتفقّد الهاتف للمرّة العاشرة ولكن، ولا أيّة رسالة واحدة من سامي ...
وبعد التحديق في السقف لساعة كاملة، تأخذ قرارها.

لن يحبّها أحدٌ مثل سامي، ولا أحد، لذلك ستعطيه ما يريد...
هي لا تريد التفكير بالأمر حتّى!
ربّما لأنّنا في بعض الأحيان حين نمنح الثقة العمياء لشخصٍ ما لا يكون دافعنا هو الحب وحده، بل أيضاً خشيتنا الكبيرة من خسارته.

****

- أحبّكِ
- وأنا أيضاً أحبّك
- وداعاً
- وداعاً

يغلق الهاتف بعد مكالمة دامت لساعات كالعادة مع ليلى.
ليلى.. حبيبته الجميلة، ذات الشعر الكستنائي، والقلب الرقيق.
لعلّ غيث أحبّ كليّة الهندسة قليلاً لسببٍ واحد، وهو أنّه تعرّف على ليلى فيها. منذ سنَتين وإلى الآن يكبر حبّهما معاً كما الأزهار، يهيمان ببعضهما كلّ يومٍ أكثر وأكثر. وها هو يدرس وينتظر التخرّج ومن ثمّ العمل لتحقيق أكبر طموحاته، وهو الزواج بليلى.
يتنهّد مع ابتسامة الأحلام الجميلة، ثمّ يخرج مغادراً الجامعة متّجهاً إلى المقهى المعتاد الذي يجلس به لبعض التنفّس والترفيه.
إنّه مقهىً شعبي، يلجأ إليه الفقراء، التعساء، أصحاب الهموم والأحزان، يلجأ إليه الشباب المتسكّعون هنا وهناك، العجائز، العاطلون عن العمل، المتقاعدون، والعاشقون الهاربون من ضغط الحياة ... كغيث.
يجلس غيث، صاحب القوام الطويل والشعر البُنّي، على ذات الطاولة كلّ مرّة، طاولة بجانب النافذة، يراقب منها تعساء المدينة وسعداءها.
يأتي النادل والذي أصبح صديقه مع مرور الوقت وبعد أن حفظ وجه غيث في المقهى وطاولته المعتادة وشرابه المعتاد.
- أوه أهلاً بالسيّد غيث! أين أنت يا رجل لم تزرنا منذ أيّام!

يرد بابتسامة مرحّبة:
ـ أهلاً بك سعيد! إنّها ضغوطات الحياة يا أخي أنت تعلم لا مجال للراحة، كيف حالك؟
ـ أنا بخير، ولكن أعترف أيها الماكر أهي ضغوطات الحياة ام أنّك تائهٌ بالحب ها!؟ أم أنّك تزوجت في كل هذا الوقت ولم تخبرنا؟
يضحك الاثنان بسخرية، ليجيب غيث:
ـ زواج ماذا يا رجل ونحن بالكاد نلتقط لقمة عيشنا بالله عليك!
ـ أجل معك حق في هذا، صدّقتك أيّها المسكين، ومواساةً لك سأحضر لك قهوتك المُرّة كالعادة لكن هذه المرّة على حسابي.
يكمل غيث الضحك، ثم يشكره ويجلس منتظراً طلبه.
على الطاولة المقابلة، شاب في ثلاثينيات العمر، يرتدي قميصاً رماديّاً، يجلس وقد أنصت لحديث غيث مع النادل كاملاً. يستمر في مراقبة غيث بعمق وعمق وعمق وتدق في رأسه الجملة الأخيرة التي قالها "ونحن بالكاد نلتقط لقمة عيشنا" ثمّ يغادر طاولته ليخطو باتجاهه
ـ مرحباً يا أخ
ينظر غيث باستغراب ثم يرد:
ـ أهلاً أخي..
ـ آسف إن كنت قد أزعجتك ولكن هل تنتظر أحداً؟
ـ لا، لماذا؟
ـ في الواقع انتقلت للعيش في هذه المنطقة حديثاً وتعرّفت اليوم على هذا المقهى، لقد أحببته، لكنّي أشعر بالضجر. أرغب في لعب طاولة الزهر لكنّني لا أجد شريكاً في اللعب، أتشاركني طالما كلٌّ منّا يجلس بمفرده إن كنت تجيدها؟ ما رأيك؟
يحدّق غيث فيه بابتسامة ماكرة، ليجيب:
ـ أنا أفضل لاعب زهرٍ هنا ألم تعرف؟ ـ يضحك ثمّ يكمل ـ طبعاً أخي تفضّل بالجلوس أهلاً بك، أخبرني كيفَ هي قهوتك؟
ـ شكراً جزيلاً لك! إنها مُرّة..
يصيح غيث:
ـ سعيد! أحضر فنجانَي قهوة مُرّة بدلاً من الواحد من فضلك، وطاولة الزهر أيضاً.

لازال يحدّق الشاب به
ـ قهوتك مُرّةٌ أيضاً مثلي إذاً.. صدفة جيّدة للتعارف
ـ أوه أجل إنّها كذلك...
ـ ربما نعيش ذات مُرّ الحياة أيضاً، من يدري!
ينظر له غيث باستغراب وكأنّه يريد أن يسأله " ماذا تقصد؟ " لكنّه تراجع وأكمل:
ـ أجل ربّما، من يدري!
ـ أنا اسمي سامر، وأنت؟
ـ أنا غيث
ـ تشرّفنا يا غيث، هل تأتي إلى هذا المقهى دائماً؟
ـ أجل في معظم الأوقات حين أكون فارغاً من الدراسة والعمل
ـ أنت طالب إذاً! جميل ... ماذا تدرس؟
ـ هندسة الميكانيك
يقاطع حديثهما لثوانٍ النادل سعيد وقد أحضر القهوة ولعبة الزهر، يفتحها سامر بنظرة تحدّي
ـ حسناً إذاً أيّها المهندس، دعنا نرى من البطل هنا!
يبادله الآخر نظرة التحدّي ذاتها ويباشران اللعب.
كانت جولة تخلّلتها أحاديث عن كلّ شيء، عن الحياة والمدينة والناس، رغم أنّه لم يمضِ على تعارفهما سوى ساعة واحدة، إلّا أنّ سامر كان رجلاً ماهراً في خلق الأحاديث والعلاقات الاجتماعيّة بشكلٍ سريع، على عكس غيث.
في بعض الأحيان، نحن بحاجةٍ للكلام إلى الغرباء، إلى أشخاصٍ لم نلتقِ بهم من قبل، ولن نلتقيَ بهم مجدّداً ما يجعلنا نعترف بحزننا لمرّةٍ واحدة دون خوفٍ أو خجل. في بعض الأحيان يخنقنا الكتمان إلى حدٍّ يجعلنا ننطق بكلّ العبء الذي في قلبنا دفعةً واحدة بوجه شخص لا نعرفه. في بعض الأحيان، كلّ الذي نحتاجه هو شخصٌ يسمعنا دون أن يقول شيئاً...فقط يسمعنا.
ـ إذاً وهل هندسة الميكانيك كانت رغبتك وحلمك؟
ـ لا أبداً، في الواقع كان حلمي هو دراسة الطب.
ـ ولماذا لم تدرسه؟

يتنهّد غيث لثوانٍ ثمّ يكمل باستسلامٍ وهو يركّز في اللعب:
ـ لأنّ بعض الأحلام يجب أن تبقى أحلاماً وحسب.
ـ علينا ألّا نؤمن بالأحلام أساساً.
ـ ولماذا؟
ـ الأحلام لا تنتظرنا، إنّها دائماً تهرب ونحنُ دائماً ما نلحق بها في اتجاهٍ خاطئ. ستدرك هذا الأمر حين ترغب في عناق أحدهم عبر منامك الأزرق، لكنّك باستيقاظك ستُفسد كلّ شيء.
ـ أجل..هكذا.
ـ يبدو أنّنا خُلِقنا للكوابيس يا غيث؟
يقطب غيث حاجبيه قائلاً:
ـ لم أفهم!
لكنّ سامر يضحك بهدوء ومكر وهو يرمي النرد لآخر مرّة
ـ لقد أطحت بك!
لتنتهي اللعبة بفوزه وخسارة غيث الذي بقي محدّقاً به لثوانٍ، ثمّ يقول مبتسماً:
ـ حسناً، يبدو أنّك ماهرٌ حقّاً في اللعب
ـ وماهرٌ في الحصول على أصدقاء جيدين أمثالك بأسرع وقتٍ أيضاً، أليس كذلك؟
ـ وما أدراك أنّني جيّد وأنت لم تعرفني سوى للتو؟
يسأله غيث بسخرية، ليردّ الآخر:
ـ طالما أنّك لازلت تؤمن بالأحلام في مدينةٍ كهذه، فأنت إنسانٌ جيّد، ألا يكفي؟!
شيءٌ ما كان يلحُّ على غيث أن يبقى حتّى يفهم فلسفة هذا الرجل الملغوم أمامه، لكنّ الوقت أجبره على القيام مبتسماً ليقول:
ـ حسناً إذاً... لقد كانت فرصةً سعيدة أن ألتقي بك، لكن للأسف عليّ الرحيل الآن. والحساب مدفوع من قبل سعيد.
ـ شكراً لك أسعدني لطفك.
يتصافحان ثمّ يدير غيث ظهره للمغادرة، ليوقفه سامر في اللحظة الأخيرة وهو يهتف:
ـ أوه غيث! هل أنتظرك هنا غداً للهزيمة مجدداً؟
يرد غيث مبتسماً:

ـ إن كان لديَّ وقت أؤكّد لك سأعود لكن كي أفوز أنا هذه المرّة!
ثم يلوح بيده مودعاً، ويغادر.
الرماديّ...
كم يبدو واضحاً في بداية الأمر، قبل التحديق الطويل في جبهة اللوحة...

****

"كلّ الرّماح تزحف نحوي،

وصدري كحفنةِ ريحٍ تنزف بلا لون..."

فرح ياسين

اللوحة التي تنجح في رسمها من المرّة الأولى، لن تنجح في تكرارها.
الصداقات التي تسقط من الخريف الأوّل، لن تستطيع الإزهار مجدّداً.
الحبّ الذي ينطفئ من العاصفة الأولى، جميع المشاعر الملتهبة لن تستطيع إشعال نوره من جديد.
الخذلان الذي ينزف حدّ الجفاف، لن تؤثّر به السكاكين مرّةً أُخرى.
الاكتئاب الذي زارك في غرفتك السوداء، لن ينجح في تحطيمك مرّتين.
الأغنية التي أبكتك في الثالثة فجراً، لن تثيرك بقيّة النهار.
الذكرى التي لسعت حواسك بعد مرور سنةٍ عليها، ستبدو باهتة في السنوات الباقية.
لأنّنا خُلقنا من طين، أي أنّنا أوانٍ فخّاريّة، إن كُسرنا مرّةً لا يمكن إعادة إصلاحنا ولا كسرنا مجدّداً، بل نمضي بقيّة العمر قطعاً متناثرة...
ـ كيف يمكن رسم الفراغ؟
ـ بذات الطريقة التي يمكنك بها كتابة الصمت.
ـ والخذلان؟ هل يُرسم؟
ـ إنّه فقط يُروى بالقصص، حين تنظر إلى ندوبك، ثمّ تشعر بملوحته تنبت داخلك، قليلاً قليلاً...
ـ كيف نبكي دون أن نبكي؟
ـ نُغنّي.

ـ إنني أغنّي الآن... أغنّي كثيراً لكن لا أحد يلحظ ذلك. الأمر أشبه بأن تصرخ في منتصف الحفلة، فيظنّ الجميع أنّك تغنّي، ويكملون الرقص.
ـ إنّني أسمعها، صرختك العالية تلك، أسمعها جيّداً، ودائماً، فلا تقلق.

"مرحباً سيلينا، يجب أن تخبريني ماذا حدث من أجل موضوعنا، لأنّ العمل أصبح صعباً قليلاً ويجب أن أعلم ماذا قرّرتِ... "
ـ ها قد كتبتُ لها مجدّداً، ليس علينا الانتظار سوى القليل
ـ لقد امتدّ هذا القليل كثيراً يا سامي.
ـ كفاكِ الآن لا نريد فتح ذات الأسطوانة مئة مرّةٍ في اليوم! فقط الصبر، القليل من الصبر! اتفقنا؟
تبتسم بهدوء وتهمس له بمكر:
ـ اتفقنا
ـ إذاً عديني أنّكِ لن تُشعري سيلينا بشيء!
ـ أعدك
ـ حسناً إذاً يا سيدتي المُطيعة، أراكِ في المساء.. عليَّ الذهاب للعمل الآن، لا تنتظريني على الغداء، سأتأخّر
ـ لا عليك وضعت لك الطعام في علبة كي تأخذها وتأكل منها إن جعت
ـ شكراً حبيبتي
يطبع قبلة على جبينها، ثمّ يخرج لارتداء معطفه والرحيل.
يترك لارا تتنهّد بامتنانٍ كبير، ذلك الهواء الذي يخرج بارتياح من تنهيدتها هو دخان احتراقِ رجلٍ آخر.
يمكن للحبّ أن يدمّر بعضه أيضاً. قد يكون السبب الرئيسي لانتهاء قصّة حبٍّ ما هو الحبّ ذاته. يقع أحد الطرفين في حبّ شخصٍ آخر، فيدمّر الحبّ الأوّل ليبني الحبّ الثاني على ركام قلبٍ كُسِر... لكن في النهاية، مَا هو الحب الأصدق؟

****

" مرحباً سيلينا، يجب أن تخبريني ماذا حدث من أجل موضوعنا، لأنّ العمل أصبح صعباً قليلاً ويجب أن أعلم ماذا قررتِ ... "
تتأمّل الرسالة بعينيها الناعستين بعد استيقاظها للتوِّ من النوم. تحدّق في السقف لعشر دقائق بلا حراك، ثمّ تبتسم بهدوء وهي تفكّر كم سيكون من الجميل أن تذهب لسامي اليوم وتخبره أنّها جاهزة لوضع حصّتها في الشركة باسمه كي يستمر العمل بسهولة.
يخبرها حدسها أنّها ستكون خطوة جيّدة ليعلم سامي مقدار حبّها له والذي لن يغيّره شيء وأنّها تثق به أكثر من أيّ شخص كان، وأنّها ستكون خطوة جيّدة بعد برود دام لأيام دون أن تعلم سببه... لا يهمّ السبب هي لا تلومه على شيء، هي فقط تبقى ممتنة له لأنّه لم يتخلَّ عنها رغم ما حصل. ربّما من حقّه أن يشعر بالملل منها قليلاً لأيام، لكن اليوم ستزيل له هذا الشعور بتلوين هذه الأجواء الباهتة.
تنتهي من إنجاز أعمال المنزل، لترتدي ثيابها، تضع الماكياج رغم أنّها واثقة أنّه لن يخفي شيئاً من ندوب وجهها كالعادة... لكنها تتفادى الأمر هذه المرّة، تريد رؤية سامي بأسرع وقتٍ لأنّ الاشتياق ينهشها.
وبعد أن تأكّدت للمرة الأخيرة أنّها أنجزت كل ما يرضي رانيا، ترتدي كعبها وتخرج مُفعمةً باللهفة...

****

تنزل من التاكسي مرتديةً كعبها الأحمر وثوبها ذو الدانتيل الأحمر، حاملةً بيديها ذات الأظافر الملوّنة علبة الطعام التي نسيها سامي ...
تبتسم لارا متّجهة إلى باب الشركة وهي تفكّر، كم هو جميل أن تعيش المرأة دور الزوجة المثاليّة التي تهتم بتفاصيل زوجها وتخاف عليه من الجوع، ربّما كان هذا هو أقصى ما قد يصل إليه طموح لارا السطحي، أو إن صحّ المعنى، طموحها الغبي!
تدخل وتتجه إلى سكرتيرة مكتبه
- مرحباً، هل السيد سامي في مكتبه؟
- أجل سيدتي، لكن آسفة أخبرني ألا أُدخِل أحداً لأنّه يعمل.
أثناء ذلك.. تدخل فتاة إلى الشركة مرتديةً ثوباً أزرق سماويّ منقوشاً بأزهارٍ صغيرة. فتاة بنصف وجه والنصف الآخر مغطّى بشعرها البنيّ، سيلينا...

تتجه نحو سكرتيرة مكتب سامي وهي تراقبها من بعيد تتحدّث إلى امرأةٍ ذات ثوبٍ أحمر، والتي كانت في تلك الأثناء تكمل الحديث مع السكرتيرة:
ـ لا تقلقي أنا يمكنني الدخول، قولي له لارا هنا، أو أتعلمين لا تخبريه دعيها مفاجأة!
ـ لكنّه سيوبّخني!
ـ الأمر على مسؤوليتي
تقولها لارا وتتجه للدخول إلى مكتب سامي متجاهلة السكرتيرة
تدخل لارا المكتب، لتصل سيلينا إلى السكرتيرة بدورها هي الأُخرى، وهي تراقب المرأة تدخل لمكتب سامي دون أن ترى وجهها.
ـ مرحباً، كيف حالك!
ـ أوه سيدة سيلينا أهلاً! كيف حالك؟
ـ أهلاً بك أنا بخير، شكراً جزيلاً، هل السيد سامي موجود؟
ـ صراحةً هو في مكتبه، لكن للتو أتت إليه ضَيفة، أظنّ أنّ عليكِ الانتظار قليلاً
ـ لا بأس، دعيه يهتم بعمله أنا سأنتظر حتى خروجها
ـ لا، لا أظن أنّها تخصّ العمل، يبدو أنّها صديقته أو ما شابه
ـ حقاً؟ غريب.. أصدقاء سامي نادراً ما يقومون بزيارته هنا...
ـ أجل، ومع أنّني أخبرتها أنّ سيدي مشغول بالعمل، كانت إجابتها " أخبريه أن لارا هنا" ثم دخلت متجاهلة كلامي
ـ مهلاً لحظة! قلتِ لارا؟ لارا هنا؟!
ـ أجل اسمها لارا
ـ عليّ أن أدخل لرؤيتها، لم أرها منذ زمن! عن إذنك..
ـ حسناً سيدتي
رغم استغرابها من تواجد لارا هنا إلّا أنّها اتجهت بلهفةٍ إلى المكتب وهي متشوّقة لرؤيتها بعد هذا الوقت، إنّها فرصة جيّدة أيضاً للّقاء.

"أخاف أن أفقدك بالطريقةِ التي أخاف الفقد بها"

تهمّ على طرق الباب، لكن يوقفها صوت سامي من وراءه، تقرّب أذنيها قليلاً لتحاول فهم لهجة التوبيخ التي يتحدّث بها سامي، ثمّ بصمت ... تسمع:

ـ لكن لارا بحقّكِ ألم أخبركِ ألّا تأتي إلى هنا! كيف تتجاهلين كلامي!
ـ سامي أهدأ ماذا جرى لك!! عزيزي أخبرتك لقد نسيتَ علبة الطعام على الطاولة وأتيت لإحضارها لك، أهذا ذنبي أنّني أخشى عليك من الجوع؟
ـ تباً للطعام وللجوع! ماذا لو شاهدكِ أحد يعرفكِ هنا! ماذا لو أتت سيلينا بمحض الصدفة؟ أنتِ تقومين بوضعنا بمواقف نحن بغنىً عنها لارا! أتفهمين؟ نحن بغنى عن كل هذا!
تستمر سيلينا في الاستماع باستغراب، تحاول فهم ما الذي يجري لكنّها لا تفهم، تريد أن تدخل وتسأل سامي" ما الذي يجب ألّا أراه؟" لكنّ شيئاً ما يقول لها "ابقِ قليلاً"

"أخاف أن أفقدك بالطريقة التي أخاف الفقد بها"

ـ لكن أنا زوجتك يا سامي ومن حقّي أن أراك متى ما أشاء!
ـ لارا أتريدين إثارة جنوني! لقد تحدّثنا في الموضوع لتوّنا في الصباح!! ألم نتفق أن نصبر قليلاً؟! ألم نتفق أن تتحملي قليلاً بعد دون أن تحاولي فضحنا؟! ألم نتفق أن نعيش حياتنا سويّة لكن بعد أن نصبر؟ وبعد كل هذا تأتين إلى هنا! إلى عملي! إنّكِ امرأةٌ مجنونة بحق!
ـ كفاك سامي! كفى كفى كفى! لن يراني أحد وسيلينا أصلاً لا تأتي إلى هنا! كفاك خوفاً! تباً للجميع ولسيلينا ولكلّ الأشياء السخيفة هذه التي تفكر بها!
في لحظة كالسقوط من الطابق العاشر،
سندرك أنّ الخيبات هي هدايا من نحبّهم لنا....
تمسك سيلينا بقبضة الباب، وبكلّ إعصار قلبها تفتحه صارخة:
ـ لكنّني أتيت!!
الدهشة، الصدمة
الخوف
الهلع
الحزن، الألم، الانكسار
والخيبة.

جميعها في صرخة واحدة.
ثلاثة وجوهٍ تحدّق في بعضها،
وجه رجلٍ يلعن الصدفة
وجه فتاةٍ شقراء تأكله دهشة الانتظار
ونصف وجهٍ.. يتوضّع الجمر في عينيه، وابتلعت الطعنات ملامحه، وزادت فوق كلّ ندبةٍ فيه، مئة ندبة...

" أخاف أن أفقدك بالطريقةِ التي أخاف الفقد بها"

ـ سـ...سيلينا!
يهمس سامي اسمها بصوته المرتجف، وهو يتقدّم خطوة، ثانية، ثالثة،
ـ توقّف!
تصرخ
ـ سيلينا دعيني أشرح لكِ الأمر فقط! أرجوكِ! الأمر ليس كما تعتقدين!
ـ توقّف وأصمت! فقط أصمت! مازال صدى صوتك منذ لحظات وهو يعلن حبّكما يغلي في أذني سامي! لقد سمعتُ كلّ شيء سامي! كلّ شيء!
ـ سيلينا دعيني أشرح لكِ!
تكمل الصراخ وشهقات البكاء تخنق حنجرتها، والدموع تنهار على خديّها:
ـ ماذا تريد أن تشرح؟ تريد أن تخبرني متى تزوجتّما؟ تريد أن تخبرني متى دستما على قلبي؟ وأنتِ لارا؟ ألا تريدين إخباري بشيء؟ هيّا أخبريني هل سامي ماهرٌ بالحبّ أم لا؟
تحدّق لارا بعينيها بصمت لتكمل سيلينا:
ـ لطالما ظننتُك شقيقتي! عملت بأقصى جهدي كي أؤمّن لأخيكِ العمل هنا لأنتشلك من حالك البائس الذي كنتِ به! وهذه كانت مكافأتي؟! طعنة في الظهر!
يردد سامي:
ـ سيلينا فقط دعينا نتحدّث قليلاً أرجوكِ! أرجوكِ!

ـ قلت لك أصمت! عن ماذا سنتحدث؟ عن خطّتكَ الذكية للاحتيال عليَّ من أجل تحقيق أحلامك الورديّة معها؟
ـ لا.. سيلينا
ـ بل أجل سيلينا! أجل!
تصيح لارا، ثم تكمل:
ـ أخبرها سامي.. قل لها أجل وانهِ الأمر! إلى متى سنخبّئ زواجنا من كلّ هذا! لا تسألي كثيراً سيلينا سأجيبكِ أنا! أجل.. أنا وسامي متزوجان الآن وسامي لم يعد يريدك! أتفهمين؟ إنّه يحبّني أنا واختارني أنا! ماذا تريدين؟ أن تلوميه؟ ليكن بعلمكِ ليس ذنبه أن يتحمّل قبح وجهكِ بعد الآن! سامي رجل ومن حقّه أن يعيش حياةً طبيعية كأيّ رجلٍ آخر! ماذا كنتِ تتوقعين؟ أن تتزوجا وتكملا حياتكما بشكلٍ طبيعي؟ عليكِ أن تدركي أن ترك سامي لكِ هو نتيجة حتميّة لحادثتكِ!

" أخاف أن أفقدك بالطريقة التي أخاف الفقد بها"

ـ تبّاً لكِ وله ولحبكما القذر معاً!
تصرخ سيلينا بكلّ الحريق الذي في قلبها، تأخذ نفساً محترقاً بعمق، تخلع محبس خطوبتها والبكاء يلوّث عينيها دون أن تستطيع التوقف، ثم تنظر إلى سامي والبكاء ينهشها قائلة:
ـ لا يهم إن أحببت فتاةً أجمل منّي، لا يهمّني حبّك الجديد.. لا يهمّني أنّك حطّمتني لتوّك. لكن ما يؤسفني أنّ لحظة فراقنا لم تأتِ كما أريدها.. لم تأتِ أقل ألماً.
أتعلم؟ كان يمكن أن يكون فراقنا أفضل، كان يمكن أن يكون أطهر من ذلك حين طلبت منك الرحيل وفتحت لك الأبواب بمراسم وداع تواسي قلبي، لكنّك أبيت! لأنّك كنت تريد أن تكسر الأبواب وترحل عوضاً عن فتحها بسلام.
كان يمكنك أن ترحل حين كنت مستعدة لذلك وحين طلبت منك ذلك، كان بإمكانك أن تقول "نعم" حين سألتك إن لم أكن صالحة للحبّ بعد... أنا على وعي تام بأنّني فتاة لن يرغب بها أيّ رجل، فتاة بنصف وجه! كنت سأتقبّل فكرة رحيلك بأيّة لحظة، لكن لم يكن هناك داعٍ لتحطيمي قبل أن ترحل...

تقاطعها لارا وهي تحاول الانتهاء منها:
ـ أنتِ لستِ فتاةً بنصف وجه، أنتِ فتاة بوجهٍ كاملٍ، مشوّه! فتاة بوجهٍ كاملٍ مشوّه أتفهمين؟ تقبّلي حقيقة الأمر وحسب!

"أخاف أن أفقدك بالطريقة التي أخاف الفقد بها"

تشعر سيلينا أنّ لارا قد وشمت تلك الكلمة في قلبها بقطعةٍ من الجمر.
ترمي محبس الخطوبة بوجه سامي، ثم تنطق جملتها الأخيرة بصوتٍ مخنوق يكاد يخرج من حنجرتها:
ـ لكنّ قلبي لم يكن قبيحاً كما وجهي! كان بإمكاني أن أمنح الحبّ حياتي بأكملها حتى لو لم أكن أملك ملامح فاتنة! لأنّ الحبّ الماديّ سيزول عاجلاً أم آجلاً ولن يبقى سوى حقيقة المشاعر والحبّ المعنويّ، وهذا الذي لن يفهمه أحد.
يؤسفني يا سامي، يؤسفني جداً، أنّني فقدتك بالطريقة التي أخاف الفقد بها.
ثم تركض خارج غرفة المكتب، كإعصارٍ راح يلملم غبار خيباته بعيداً عن دوّامات الوجود.
قِطع الزجاج الحادّة والتي تجرحكم الآن، كانت نافذةً مسطّحة كلّ همّها هو أن تريكم النور. لكنّكم من كسرها، أنتم ماهرون دوماً بتحويل المسالمين إلى مُحطَّمين.

****

أجمل ما في المشي تحت المطر، أنّه بإمكانك البكاء دون أن يميّز أحدٌ دموع السماء من دموعك بعد أن يلتقي الاثنان على مسام وجهك...
وهكذا كان الأمر، تركض تحت المطر دون أن تعلم إلى أين تذهب بخيبتها الكبيرة والمضاعفة تلك. صوت القصف البعيد في المدينة يدوي مع صوت الرعد، وتقف هي في منتصف الطريق دون أن تعلم إلى حضن من تلجأ وإلى كتف من تستند، تبكي، تشهق، تجري هنا وهناك لتصل إلى مكانٍ أتت إليه بلا وعي.

لوحان من الرخام محفورٌ على كلٍّ منهما اسمٌ لأحدٍ ما، تجلس في المنتصف بينهما وهي تمّد يديها على تراب القبرين
"هل تشاهدان كلّ هذا؟"
تسند رأسها على شاهدة قبر أمّها، ثم تهمس بتعب:
"لا يداً قويّة تنتشلني من ضعفي، لا أيادٍ تنتشلني، جميعها تصفعني وحسب.
لماذا تركتماني في منتصف الطريق وحدي هنا أواجه كلّ هذا البؤس؟ لماذا؟!"
تتنهّد وتبكي وهي تحدّث خيال والديها تارةً وتجتاحها نوبة صمتٍ تارةً أخرى، تبقى على هذه الحال لمدّة ساعة ونصف كاملة دون الحراك أو الابتعاد عن قبريّ والديها.
صوت انفجارٍ قويّ يرعبها ويفزعها من مكانها مرغمة، ويشتدّ صوت الرصاص البعيد والاشتباكات، ترفع رأسها للسماء وهي تردّد في داخلها وتسأل نفسها ما حاجتنا للحرب؟ طالما نطلق الرصاص من زناد كلامنا، ونغتصب أحلام بعضنا، طالما نفخّخ كلّ غيمة قد يشرق الفجر منها على أحدٍ غيرنا.
ما حاجتنا للحرب طالما نهجر بعضنا دون تدخّل الحدود الجغرافيّة، طالما نلقي بعضنا في بحار الخذلان دون حاجةٍ لقوارب اللجوء، ونقذف صواريخاً من خيانات بدلاً من النيران. طالما ننام هانئين فوق لحم المتعبين. ما حاجتنا للحرب طالما لا نكترث لطرقاتنا المعبّدة بكسرات الخبز، ولا نحزن لجوع الطيور والأطفال، ونضرب الفقراء والحيوانات المشرّدة. ما حاجتنا للحرب طالما لا نؤمن بالحبّ...
نحن لسنا بحاجةٍ للحرب لأنّنا الحرب بذاتها! لسنا بحاجةٍ للحرب، فقلوبنا لم تعد قلوباً، إنّما منصات إعدام تقتل ما تبقى من أشلائنا.

يرن هاتفها للمرّة السابعة حيث لم تكن تسمعه. إنّه عمّها، تجيب بصوت مرتجف:
- أجل عمي...
- سيلينا أين أنتِ يا ابنتي عودي للمنزل بسرعة ألا تسمعين أصوات الرصاص!
- قادمة.
تلقي النظرة الأخيرة على قبريّ والديها وكأنّ لديها أمل واحد بالمئة أن يقوما لاحتضانها عند نظرة الوداع تلك، ولكن سرعان ما يتلاشى كلّ شيء وتمضي في طريقها وحيدة محطّمة...

كانت المخاطرة في استمرار حبّه كرقص الباليه على حافة بركان، وقد سقطت.

****

ـ أجل أبي لا تقلق أنا بخير، سأعود للمنزل حالما يهدأ الوضع قليلاً في الخارج، حسناً...وداعاً.
يغلق غيث الهاتف ليعود إلى سامر، في ذات المقهى وعلى ذات الطاولة التي تعرّفا عليها على بعضهما، يلعبان طاولة الزهر ذاتها وبذات التحدّي.
ينظر سامر إلى غيث بابتسامة ساخرة، ثمّ يقول:
ـ والدك هو المتصل؟
ـ أجل إنّه يطمئن إن كنت في مكانٍ آمن عن الاشتباكات
يبدأ سامر يقهقه بسخرية، ليكمل غيث ويسأله باستغراب:
ـ ولكن لماذا تضحك؟
ـ إذاً ... والدك يخشى عليك من الموت؟
ـ الخوف من الموت هو شيء خلق بالفطرة عند جميع البشر وليس فقط أبي.
ـ لكن ليس في حياتنا نحن وفي مدينتنا نحن وفي حربنا نحن
ـ ماذا تقصد؟ أنّك لا تخاف الموت؟
ـ إنّه لأمرٌ مؤلم، أن يصبح الموت شهيّاً بعد أن تتذوّق عفن الحياة ...
يقولها سامر وهو ينظر إليه بخبث، ثم يعود ليجلس بوضعه الطبيعي ويكمل:
ـ ونحن هنا جميعاً، نتذوّق عفن الحياة كلّ يومٍ بطريقةٍ أو بأُخرى، لذلك لا! أنا لا أخاف الموت بل إنّني أطلبه!
يحدّق به غيث بشيءٍ من الألم، الاقتناع، والاستغراب في ذات الوقت. من هو هذا الرجل؟ ما قصته؟ من أين يأتي بطريقته الفلسفية في الكلام؟ جميعها أسئلة تدور في رأسه، يحاول كتم نفسه عن السؤال دائماً، لكنّه في هذه اللحظة لم يستطع ذلك، ما جعله يسأل باستغراب:
ـ ما قصّتك أنت؟ ما هي القصة التي تخبّئها وراءك؟ من أنت حقاً؟!

ـ أنا أنت، من المستقبل.
يقولها بخبث ليحدّق به غيث ثلاث ثوانٍ محاولاً البحث في تلك الجملة المبهمة لجوابٍ عن سؤاله، لكن وبعد أن لمح سامر نظرات التعجّب والقلق في عينيه، يكمل مبتسماً:
ـ أنا من أتى به القدر ليثبت لك أنّك لست ماهراً في لعب الزهر يا سيّد غيث!
لكنّ ملامح غيث تبقى مجمّدة دون أن يبتسم، ثانية، ثانيتان، ثلاث...
ـ بماذا تحدّق!
يسأله سامر وهو يبتسم بمكر، ليدرك غيث أنّ شروده قد طال، يبتسم بوجهه هو الآخر بهدوء وكأنّه قد فهم رغبة ذلك الرجل بعدم التكلّم، أو لربّما فهم لعبته في ترك الوقت لكشف شيءٍ ما يخبئه وراء كلامه الفلسفيّ ذاك.
ـ إذاً هل ستأتي غداً؟
يسأله غيث محاولاً كسر الصمت الغريب ذاك
ـ أجل بالتأكيد.. إن كنت ترغب بالهزيمة للمرّة الثالثة!
ـ من يعلم، ربّما تنقلب الحظوظ! ـ يبتسم ثمّ يكمل ـ وداعاً الآن، عليّ الرحيل.
ـ وداعاً...
يودعه غيث ويمشي باتجاه باب المقهى، ليوقفه صوت سامر وهو يصيح:
ـ يا غيث! لا تخف من الموت في هذه الحياة البائسة! الموت لا يخيف، الحياة هي التي تخيف!
يضحك بصوتٍ عالٍ، ضحكة السخرية الماكرة تلك ويترك غيث معلّقاً في غموضه...

****

"نحن نحاول تجاوز المسافات، لذا نحن نركض ونركض ونركض
لكنّنا لا نصل أبداً، لأنّنا لسنا من نقطع المسافات، بل المسافات هي التي تقوم بتقطيعنا...
إنّني وحتّى هذه اللحظة، أنظر إلى شاشة الهاتف دون أن أقرأ الرسائل، لا أعلم لماذا لم أقم بحذف رقمك حتّى هذه اللحظة رغم أنّني لا أجيب على رسائلك ولا على اتصالاتك منذ ذلك اليوم. الجرح الذي تركته داخلي يا سامي عميق... أنت لا تعلم معنى ألّا أجد

حروفاً تعبّر عن حزني، ألّا أجد ألحاناً لأجسّد خيانتك لي.. إنّي أخاف تدنيس الموسيقى إن استمعتُ لأغنية حزينة بسبب خيانتك لي! أنا خائفة من كلّ شيءٍ الآن."

- إنها لا تجيب على رسائلي ولا على اتصالاتي، لقد أفسدتِ كل شيء يا لارا!
- أتريد القول أنّني المسؤولة الوحيدة هنا؟ ثمّ إنّها كانت ستعلم في نهاية الأمر.
- أجل كانت ستعلم لكن بعد أن نحقّق ما نريد وليس هكذا ألم تفهمي بعد!
"كلّ غبار الكون يتراكم عند مشارف ملامحك، هناك مؤامرة بين طقس كانون وذكراك ضد ما تبقّى منّي في سبيل الوصول إليك..
لون السماء كلون تراب يديك، غضب السماء مخيف كفقدك
وهذا الإعصار، هذا البرد.. حارقٌ، لاسعٌ... كصراط البعد الذي بيني وبينك.
حين شعرت أنّك بدأت تخلق مسافةً باردة بيننا، حاولت أن أعطيك كلّ شيء كي لا تبتعد عنّي، وذلك لأنّ ابتعادك يزيد من يُتمي، لكن يبدو أنّنا لا نستطيع خسارة ما لم نملكه أساساً..."
- حسناً سامي لا تصرخ أنا آسفة ولربّما الأمر هو غلطتي حسناً! ولكن بدلاً من أن تلومني الآن فكّر بطريقةٍ تجعل سيلينا تسامحك مجدداً!
- إنّها لا تجيب على اتصالاتي ولا على رسائلي، يبدو أنّها حسمت الأمر وقمنا بإفساد كلّ شيء.
- أرسل لها رسالةً صوتيّة
- لقد قمت بذلك، لكنّها لا تجيب.
" ثمّ أعود لأتمعّن برسائلك كل خمس ثوانٍ من الدقيقة... أتمعّنها وكأنّني أريد التهام الحروف. كلّ شيء يبدو جميلاً بها، حتّى تلك النقطة الباردة التي وضعتها آخر السطر.
أقوم بتشغيل آخر رسالة صوتيّة أرسلتها، لأسمع صوتك الذي اشتقته..:
- سيلينا.. أعلم أنّني مخطئ بشكلٍ لا يُغتفر، أعلم أنّك غاضبة منّي للقدر الذي يجعلك لا تردّين ولا بحرفٍ واحد على رسائلي ولا تجيبين على اتصال واحد من اتصالاتي.. لكن أرجوكِ، أرجوكِ.. إن كنتِ ستسمعين هذه الرسالة الصوتية وأنا متأكّد أنّكِ ستقومين بذلك، لذا أرجوكِ أطلب منكِ أن تمنحينني فرصة ثانية، أعلم أنّه أمرٌ مستحيل ولكن أعلم أيضاً أنّ قلباً كقلبكِ مقدّسٌ لدرجة يمكنه أن يمنحني فرصة ثانية، سيلينا أرجوكِ..

أعدك أنني سأقوم بإجراءات طلاقي من لارا بأسرع وقت، دعينا نفتح صفحة جديدة أرجوكِ ... سامحيني "
- إن لم تجبني أو تسامحني فكلّ شيء خطّطت له يا لارا سيتلاشى، وهذه خسارة كبرى لي!
- أكره قول هذا ولكن، عليك أن تكسب استعطاف قلبها من جديد، وهذا أمرٌ سهل مع سيلينا. أنا أعرفها، مهما كانت الصفعة التي تأتيها من أحدٍ تحبّه قويّة، فإنّها سوف تنسى في سبيل الاستمرار معه لئلّا تخسره. لذا من المحتمل أن تسامحك وألّا تخسر أنت شيئاً بالمقابل، من يدري!
- آمل ذلك.
" ما يؤسفني هو ليس أنّك تطلب شيئاً مستحيلاً وهو مسامحتك، لكن ما يؤسفني هو أنّك كنت تطمع بالسماح منذ البداية لذا ارتكبتَ خيانةً عُظمى دون أن يرفّ لكَ رمشٌ واحد! أعلم أنّني لست فتاة الأحلام التي تحلم بها في أحلامك الورديّة، وأنّني لن أكون كذلك يوماً. لست حسناء شقراء أو حوريّةً سمراء، لست من اللواتي تطلبهنّ والدتك من الله في كلّ صلاة. لا أملك سوى غمّازة واحدة هي الواضحة من معالم وجهي، لربما لا أملك عيون ملوّنة كتلك التي تستهويك، لكن صدقني أصبحت أملك الآن عيوناً سحريّة تستطيع أن ترى وبوضوح كلّ المنافقين من حولها وأصحاب الابتسامات المصطنعة والمجاملات الكاذبة. أعلم أنّنا نحن الفتيات "القبيحات" كما يتم وصفنا، نكون أحاديث الصباح لثرثارات الحي وأنّنا متبوعات بشفقةٍ مقرفة وبجُمل النميمة تلك، التي يحتسونها مع الكعك والقهوة صباحاً.
الفتاة في مجتمعٍ أحمق كهذا إن كانت تملك جمالاً من زوايا القمر ستكون ملاكاً طاهراً حتى ولو كانت تملك قلباً تسكنه الشياطين. وهذا هو الأمر الذي سيصعب فهمه عليك، وعليها، وعلى الجميع."
- سأحاول الاتصال بها من رقمٍ غريب علّها ترد، عليّ أن أصل إليها وأن أصلح الوضع قبل فوات الأوان.
" قد أكون أطلت الحديث، لكن عليك أن تتحمّل قليلاً وتقرأ لأنّني أظن أن هذه ستكون آخر رسالة تتلقاها مني. لقد فات الأوان يا سامي، لأنّني أدركت كلّ شيء الآن، أدركت أنّني لا أنتمي إلى قلبك لأنّك لم تعطني حقّ الانتماء يوماً، لذا فإنّني آسفة إن تركت وطناً

نبذني، آسفة إن تركتك. لطالما كنتُ دائماً هنا، إلى يمينك.. لكنّك كنت تتبع قلبك، وقلبك في الجهة اليُسرى... ولهذا لم يقدك إليَّ يوماً.
لذا أقول لك يا سامي في النهاية لأوفّر عليك عناء الاتصالات ومحاولات الاعتذار،
لا يوجد فرصةٌ أُخرى، لا يوجد مرّةٌ أُخرى، كلّ الطعنات هنا تنزف مرّة واحدة حتّى يجفّ الدم. يمكنك الرحيل، التجاهل، اللامبالاة، لكن في النهاية ستتمنّى تقبيل الظلال.
لا تطلب مني فتح صفحةٍ جديدة، لقد استنفذتَ جميع دفاتري...
أتمنّى أن تكون سعيداً في حياتك الجديدة معها.. وأيضاً لا تنسى أن تبلغها سلامي الحار.
وداعاً.... إلى الأبد ..."

ـ إرسال ـ
ـ إنّها هي!
ـ هل أجابتك!
ـ أجل، ها هي، رسالة طويلة
ـ اقرأها!

يضع سيجارته جانباً، ليبدأ بقراءة السطور الأولى قاطباً حاجبيه:
" نحن نحاول تجاوز المسافات، لذا نحن نركض ونركض ونركض
لكنّنا لا نصل أبداً. لأنّنا لسنا من نقطع المسافات، بل المسافات هي التي تقوم بتقطيعنا..."

****

ـ أجل عزيزتي، نحن بانتظار خروج الطبيب الآن ليطمئنّا عن حاله، ادعي له يا ليلى أرجوكِ...
ـ قلبي ودعواتي معه، سيخرج بالسلامة ولكن أنت فقط اصبر... وأنا هنا معك
ـ إنّني أحاول... شكراً لكِ على كلّ شيء يا ليلى... والآن عليّ أن أغلق الهاتف، أحدّثكِ حين أستطيع.
ـ حسناً عزيزي، كن بخير، إلى اللقاء.
ـ وداعاً

يغلق غيث الهاتف، يتنهّد بقلق، ثم يمشي مضطرباً أمام باب غرفة الإسعاف ذهاباً وإياباً.

تقف سيلينا بجانب باب غرفة الإسعاف وهي تبكي بصمت. ماذا لو غادر عمّها أيضاً هذه الحياة وتركها هو الآخر؟ تشعر بالنيران تأكل قلبها عندما يخطر في بالها هذا السؤال، لتبكي بحرقة أكثر وتدعو له قدر ما تستطيع أن يخرج من غرفة الإسعاف هذه بصحّة وسلامة...

ـ قبل ساعتين ـ

كالعادة وككلّ يوم، يخرج إلى عمله كسائقٍ مأجور على الميكرو باص. لكن اليوم وبعد شجاره مع رانيا بسبب النقود كالعادة، ولأنّ ما يحضره لها لا يكفي لشراء حذاءٍ واحد من ماركاتها السخيفة تلك، تبدأ التحدث وكأنّها امرأة تعاني أكثر من أيّة امرأة في هذه الحياة إلى أن تصل لنقطة الشجار مع زوجها، زيدان.

كلّ هذا الهم يتضاعف كلّ يوم أكثر من ذي قبل في قلبه، ولكن لا بدّ أن تأتي لحظة لينفجر بها كلّ شيء.

همّ دراسة ابنه الجامعيّة، همّ ابنتيه اللتين لا تزالا طفلتين في مقتبل العمر، همّ العمل، همّ المعيشة والمصروف، وهمّ الشجار مع رانيا رغم كل ما يعانيه من أجل أن يحصّل لها ولعائلته من حياة كريمة.

كل هذا الهم، لم يعد يتحمّله اليوم، للحظةٍ أتت على غفلة، أثناء عمله وتوصيله الركاب. شعر في البداية بصداعٍ شديد في رأسه، صداع وألم لا يمكن وصفهما، ثم بدأ يشعر بدوخة مريبة جعلته يوقف الميكرو باص جانباً كي لا يصطدم بشيءٍ ما أو يقوم بحادث دون أن يشعر.

وفي ثوانٍ كالوهم، يغيب عن الوعي، يغلق عينيه، وينشلّ عن الحركة تماماً... ليطلب له الناس الإسعاف وينقلوه إلى هنا.

ـ هنا، غرفة الإسعاف ـ

أثناء الدعاء والابتهالات التي تخرج على لسان سيلينا، أثناء تحديق رانيا في أرضيّة المشفى، أثناء مشي غيث المتوتر ذهاباً وإياباً أمام باب الغرفة، يخرج الطبيب وأخيراً.

ـ هل أنتم أسرة المريض؟

تتقدم سيلينا وغيث

ـ أجل أنا ابنه، أرجوك أخبرنا ما الذي حصل مع أبي! هل هو بخير؟ تحدّث أرجوك!

ـ لقد تعرّض والدك لجلطةٍ دماغيّة..

تحدّق سيلينا في عينيّ الطبيب، ويتوقف نظر غيث محدّقاً به هو الآخر وكأنّه يخاف ممّا سيقول.
- ماذا تقول! إنّ أبي بصحّةٍ ممتازة ولم يحدث هذا معه ولا مرّة على الإطلاق!
- إن كان الإنسان يقف على قدميه بثبات هذا لا يعني أنّه ليس متعباً في حقيقة الأمر يا بني، والدك واضح أنّه تعرّض لإرهاقٍ جسديّ ونفسيّ معاً وهذا ما أدى إلى جلطة مفاجئة.
يلتفت غيث لينظر إلى عينيّ والدته بنظرةٍ تلومها على كلّ ذلك التعب، ثمّ يعود للطبيب
- وهل هو بخير؟ قل لي أنّه بخير أرجوك تحدّث!
- لا تخافوا إنّه بخير الآن..
وكأنّ قطعة من الثلج سقطت على قلب سيلينا وغيث.. لكن ما لبثت أن بدأت تلتهب، حين أكمل الطبيب:
- إنّه بخير ولكن.. يوجد بعض المشاكل، هو لا يستطيع الحراك الآن فقد سبّبت له الجلطة شللاً في أعضاءه..
- ماذا تقول!!
تشهق سيلينا بصدمة وهي على وشك البكاء، أمّا غيث فيتحجّر في مكانه دون حراكٍ أو تصديق لما سمعه.
- كما سمعتِ آنستي، الأمر خارج عن سيطرتنا للأسف... حمداً لله على سلامته.
ينصرف، ليبقى الثلاثة، غيث، سيلينا، ورانيا.
منذ سماع غيث لقول الطبيب وهو يحدّق بوالدته بغضبٍ يأكل نظراته، يقترب منها والنار تكاد تخرج من عينيه:
- أعجبكِ هذا؟ أعجبكِ ما سبّبتِ له الآن؟ تكلّمي!!
- وما شأني أنا! إنّه شأن القدر أن يصاب بهذا، أتريد أن تحمّلني مسؤولية الأمر يا غيث أم ماذا؟!
- أجل أريد!
يصرخ غيث في المشفى، لتقترب منه سيلينا وتحاول تهدئته، لكنّه يكمل:
- أجل يا أمي! أنتِ المسؤولة عن كلّ هذا! أتعلمين لماذا أنتِ كذلك؟ سأخبركِ!

حين يعود للمنزل متعباً منهكاً بعد أن جاهد ليكسب لنا لقمة عيشنا، تقومين بإشعال نيرانك وتبدأين بالصراخ لأنّ النقود التي أحضرها لا تكفيكِ لتعيشي حياة الملوك التي تحلمين بها. دائماً ما تزيدين الهمّ عليه، إن لم تستطيعي شراء أغلى ثوبٍ في المدينة تصفينه أنّه رجل عديم المسؤولية. إن لم تستطيعي تناول الطعام الجاهز من المطاعم ككلّ يوم تصفينه أنّه أبٌ بلا رحمة لأولاده! كلّ الذي يقدمه لكِ لا يعجبكِ، تستغلّين حبّه اتجاهكِ بقلبكِ المتحجّر هذا! أنتِ من أوصله إلى هنا! انظري ماذا فعلتِ!!

تمسك سيلينا به:

ـ غيث.. هذا يكفي، نحن في المشفى ولسنا في المنزل أرجوك!

تردّ رانيا بغضب هي الأُخرى:

ـ كيف تتحدّث مع والدتك بهذه الطريقة! يكفيكَ صراخاً في وجهي!

ـ بل لا يكفي! لا يكفي! متى سترضين بالحياة التي تعيشينها ككلّ هؤلاء الناس؟ متى ستقتنعين أنّنا لسنا نعيش بأوضاعٍ عادية! أنّ الرجل الذي رضيتِ الزواج به لأجل نقوده قد انتهت نقوده الآن! نحن نعيش في حرب يا أمّي أتسمعينني في حرب! وهذا يعني أنّكِ لا تعانين شيئاً أمام مئات الناس أصحاب الفاجعات الأكبر من همّكِ لأنّكِ لا تعيشين ببذخ! أنتِ امرأةٌ بلا رحمة!

ـ كيف تجرؤ!!

تصرخ رانيا بكلمتها تلك وهي تصفع خدّه لاإرادياً بكلّ ما تملكه من انفعالٍ وغضب.

ثلاث ثوانٍ من الصمت القاتل وهو يحدّق في عينيها كنارٍ ثابتة في المنتصف.

ثمّ يهرول مغادراً المشفى بكلّ الإعصار الذي يلتهمه...

****

ـ دعني أساعدك عمّي..

تقرّب سيلينا كأس الماء من شفتيّ عمّها وتساعده على الشرب.

على الأريكة المقابلة تجلس رانيا، تتأمّل زوجها زيدان وهو على ذاك الكرسيّ. تتأمّل سيلينا وهي تساعده منذ أن عاد من المشفى، ترمقهم بنظرات اللامبالاة، المقت، بنظرات القرف حتّى! تقاطع سيلينا نظراتها الحاقدة تلك وهي تهمس بهدوء:

ـ الطبيب قال إنّ عودة عمّي للحركة تحتاج علاجاً فيزيائيّاً ربما
ـ الأمر يحتاج الكثير من الصبر، والوقت، والمال، لذا لا داعي لأن تقحمي نفسكِ في مواضيع لا تعنيكِ يا سيلينا.
تردّ عليها رانيا بنبرتها اللئيمة تلك، وكان زيدان العاجز عن الحركة يراقبها بصمت دون أن يستطيع تحريك أيّ شيءٍ منه عدا عينيه.
ـ خالتي لا عليكِ أنا سأتكفّل بهذا الموضوع..
ـ أنا لا يهمني هذا الموضوع، إن كنتِ تملكين المال فعالجيه لأنّ هناك ما هو أولى من علاجه بالنسبة لي..
تنظر إليها سيلينا بنظرات حقد لكلامها البغيض ذاك.
ـ وما هو الأهم من علاجه؟
ـ أشياء كثيرة! غيث ما زال يكمل دراسته الجامعيّة، وسمر ورغد لا تزالا طفلتين ولديهما مصاريف كثيرة، إضافة إلى مصاريف المنزل، والمعيشة.. كل هذا أليس مهمّاً يا آنسة سيلينا؟ ثمّ إنّ الأمل من عودته للحركة ضعيف جدّاً. وأنت يا سيد زيدان.. ماذا سنفعل الآن ها؟
ـ خالتي أترين أنّ وضع عمّي مناسب الآن لتحدثيه بهذا الموضوع؟
تنظر إليها رانيا بحقد، ليرتفع صوتها شيئاً فشيئاً:
ـ أتريدين أن تعلّميني متى يجب أن أتحدث إلى زوجي؟ أم أنّك تظنين أنّه بمساعدتكِ لنا بالقليل من المال فهذا يعني أن تتدخلي بيننا؟
تكتم سيلينا غضبها، وتستجمع صبرها، ثمّ ترد بهدوء تجنّباً لصراع هم بغنىً عنه:
ـ طبعاً لا خالتي ... أنتِ سيّدة المنزل هنا ولا كلمة تعلو فوق كلمتكِ، لكنّني أرى أن تحدّثي عمي بشأن هذا الموضوع لاحقاً لأنّه كما ترين بوضعٍ صحيٍّ سيء ولا يحتاج إلى الضغط إضافة لعدم إمكانيته على تحريك شيء من جسده سوى عينيه. ثمّ بخصوص مصاريف المنزل والمعيشة وأيّ شيء.. لا تقلقي بشأنها سأتولّى أنا كلّ شيء ريثما يسترد عمّي صحته. وكوني متأكدة أنّني بهذا لا أقدّم معروفاً لا بل واجباً، لأنّكم عائلتي وواجبي أن أقوم بهذا.
لكن رانيا لم تزد الأمر إلا سوءاً وبدأت تصرخ عالياً:

ـ لا سيلينا نحن لسنا بعائلتك! ولتعلمي أنّنا لا نقبل الشفقة منكِ حسناً! أتفهمين الآن؟ لسنا عائلتكِ! أنتِ مجرد ضيفة هنا في منزلي، عليكِ تذكّر هذا الأمر دائماً!
تنظر إليها بصدمة وكأنّ سكيناً قد انغرزت في منتصف قلبها بسبب ذاك الكلام، ويتأمل زيدان زوجته وهي تصرخ، ليبكي.. يبكي بكلّ حرقة وبكلّ صمت. دموعه تسيل على وجهه لكنّه عاجز عن رفع يده ليمسحها حتّى، فيزيده ذلك العجز ألماً وحسرة ويبكي أكثر كطفلٍ خائف. بينما رانيا لا تزال مستمرّةً في الصراخ أكثر وأكثر كبركانٍ ثائر، ليأتي غيث في تلك اللحظة داخلاً بقلق واندفاع بعد أن سمع صوت صراخ أمه قبل أن يفتح الباب..
سيلينا تبكي، والده يبكي، والدته تصرخ، وشقيقتيه تجلسان تتأمّلان الصراع بعيونٍ خائفة وحزينة.
يغلق الباب بسرعة، ثمّ يتقدّم ثلاث خطواتٍ ويخاطب الجميع بلهجة متوترة:
ـ ما بكم؟!! ما الذي يجري تكلّموا! ما بكِ أمي ولِمَ صوت صراخك يصل لخارج المنزل؟ لماذا سيلينا وأبي يبكيان تكلّموا!!
تصرخ رانيا بأعلى صوت:
ـ لأن حياتنا بائسة! بائسة!
يحدّق بها غيث، ثمّ يتجه بنظره إلى شقيقتيه
ـ سمر، رغد، اذهبا وألعبا في الغرفة هيّا...
ينتظر مغادرتهما ويتأكّد من دخولهما الغرفة، ثمّ يعود إلى والدته:
ـ أمّي! أرجوكِ اخفضي صوتكِ! وأشرحي لي ما الذي يجري بهدوء.. ما بكِ؟!
تكمل رانيا الصراخ قائلة:
ـ لا لن أخفضه! دعني أصرخ وإلّا سأختنق!
ـ تختنقين من ماذا؟!
تتجه بنظرها إلى زوجها زيدان، وتقترب منه وهي تكمل الصراخ:
ـ هيّا يا زيدان أخبره من ماذا! أخبره لماذا سأختنق.. أخبره أنّه الآن لم يعد بإمكانك العمل وأنّه لم يعد بإمكانك تحصيل مصروف المنزل ولا تأمين معيشتنا، ولا تأمين مصاريف دراسة ابنك ولا تأمين مستقبل ابنتيك، وأنّك عالة في هذا المنزل تنفق عليك

ابنة أخيك، أخبره أنّك أدنى من كلّ الرجال.. هيّا أخبره! لماذا أنت صامت أخبره! تكلّم هيا!!
- أمّي هذا يكفي!!!
يصرخ غيث بكلّ غضبه
تصمت رانيا وصوت أنفاسها يعلو، ليكمل الآخر صارخاً:
- ولكن ما بالكِ؟! ألا تشعرين! ألا ترين الوضع الذي هو به! آخر أمر كنت أتوقعه في هذه الحياة هو أن تكون أمّي بهذه القسوة...ثمّ على ماذا تلومينه؟ على مرضه الذي ابتلاه الله به؟ وكأنّكِ لا تعلمين أنّ هذا الوضع الذي هو به الآن نصفه بسبب الهمّ الذي تضعينه في قلبه كلّ يوم! كلّ هذا من أجل ماذا؟! من أجل النقود! لأنّكِ لا تستطيعين الشراء من ذات الماركات السخيفة التي تشتريها شقيقتكِ خارج البلاد؟ أم لأنّك لا تستطيعين تناول العشاء كل يوم في أرقى مطاعم المدينة كالسابق؟ أجيبيني... ألا تشعرين! تباً للمال وللمظاهر السطحيّة وللترف ولكلّ هذه الأفكار السخيفة التي تعكرين بها حياتنا!
يحدّق بوالدته، يزداد بكاء والده بصمت، وتقترب سيلينا من غيث وهي الأُخرى تبكي ثمّ تهمس له:
- غيث أرجوك... اهدأ، دعنا نأخذ عمّي إلى غرفته فهذا الشجار سيزيد الأمر سوءاً عليه!
تعود رانيا للصراخ:
- أنتِ اصمتي ولا تتدخّلي! اذهبي من هنا الآن! هيا اجمعي أغراضكِ وانصرفي عن هذا المنزل، ألا يكفينا همّنا لتزيدينا همّاً وعبئاً! هيّا أخرجي من المنزل الآن!!
يصرخ غيث:
- ولكن كيف تتحدّثين معها بهذه الطريقة! أمّي ما الذي جرى لكِ بحقّ السماء!! أتنسين أنّه لولاها لما كنّا نجلس في هذا المنزل الآن؟ أتنكرين الأموال التي تصرفها على المنزل؟ أتنكرين العبء الذي تحمله؟ كيف تطردينها من المنزل بهذه الطريقة أجيبيني؟!! كفّي عن التصرف بهذا السواد! فهذا يكفي والأمر لم يعد يطاق!
- تباً لها ولنقودها... وليتذكّر الجميع أنّ هذا المنزل باسمي أنا وأنّه ملكي أنا وأنّني أقرّر من سيبقى به ومن سيرحل، وأنا لا أريدها هنا، أتفهم!!
- لكنّها لن ترحل من هنا ولتعلمي هذا الأمر يا أمي!

تقول سيلينا والدموع تنهمر على وجهها:
ـ لا بأس غيث.. ربما سيكون رحيلي أفضل لتهدأ..
ـ لا سيلينا! أنتِ ستبقين هنا! أتفهمين!! وأنتِ يا أمي علمي أنّه إن رحلت سيلينا سأترك المنزل أنا أيضاً!
تحدّق به والدته بنظرة الغضب، وكأنّه بتهديده ذاك تمكّن من إسكاتها أخيراً.
خمس دقائق من الصمت والبكاء الأخرس. الجميع يحدّق في الأرض دون أن ينطق أحدٌ بأيّ حرف واحد.
يتقدّم غيث بعد أن تمالك أعصابه قليلاً ثمّ يكمل:
ـ لا أريد أن أسمع أيّ صوت صراخ في هذا المنزل! ولتعلمي أنّه ما من تغيير سيطرأ على معيشتنا. لا تخافي أمّي لن تعيشي حياة الفقراء التي ترينها في كوابيسك.
يتجه إلى والده، ويجلس على ركبتيه مخاطباً إيّاه:
ـ وأنت أبي.. كن مطمئنّاً، ربما ابنك خذلك مرّة في دراسته.. لكنّني أعدك هذه المرّة لن أخذلك وسأتحمّل مسؤوليّة المنزل، وسأساعدك حتّى تتعافى، أعدك.
يتأمّله والده بنظراته التي تملؤها الدموع والرضى. ثمّ يكمل غيث:
ـ دعني آخذك إلى غرفتك الآن لترتاح قليلاً، ولا أريد أن تحمل همّ أي شيء. وأنتِ سيلينا أذهبي إلى غرفتكِ وارتاحي قليلاً... وأنتِ أيضاً أمّي عليكِ أن تريحي أعصابكِ، ولا تقلقي بخصوص أيّ شيء.
ثم يجرّ كرسي والده بهدوء ويأخذه إلى غرفته، ويخيّم الصمت الكئيب على المنزل، والخوف من الغد يملأ الجميع.

****

ـ بعد أسبوع ـ
الساعة الثامنة مساءً، وبعد اليوم السابع من الشقاء الجديد ...
يطفئ غيث محرك الميكرو باص ويركنه جانباً، ثمّ ينزل بكلّ تعبه ويدخل المقهى المعتاد، وكالعادة ينظر فوراً إلى طاولته، وكالعادة أوّل وجهٍ يراه هو وجه سامر ملوّحاً له أن يأتي. يتقدّم بخطواته المتثاقلة نحوه ويرمي نفسه بكل تعب على الكرسي قائلاً:
ـ كيف حالك سامر؟

ـ غيث! ولكن أين أنت يا رجل! لم تأتِ إلى هنا كلّ هذه المدّة! هل أنت مريض؟
ـ لا لا.. أنا بخير
ينظر إليه سامر وهو يتأمّل تعبه، ثيابه المتّسخة بعض الشيء، شعره ليس مسرّحاً ككلّ مرّة. ليس من عادة غيث أن يكون بهذه الحال. كل هذا يدفع فضوله أن يكرّر السؤال:
ـ أنا لا أقصد التطفّل يا غيث، لكن حقاً ما بك! يبدو عليك التعب جليّاً..
يتنهد غيث بعمق، وكأنّ الهواء لا يسعفه ليتنفس بارتياح، وبعد تأمّلٍ دام لثوانٍ، يجيب على سؤال سامر:
ـ في الحقيقة لم أستطع القدوم إلى المقهى في الأيام السابقة لأنّني بدأت العمل ولم يعد هناك وقت لآتي إلى هنا. أنا أخرج إلى العمل من الصباح وكما ترى أعود منهكاً المساء.. لكن اليوم شعرت أنّي أريد القدوم لأتنفس قليلاً...
يقطب سامر حاجبيه باستغراب ثمّ يسأل:
ـ عمل؟ عمل ماذا الذي بدأت به؟
ـ سائق على الميكرو باص، لقد تسلّمت العمل عليه بدلاً عن والدي
ـ ولماذا؟
ـ لأنّه تعرّض لجلطة دماغيّة بشكلٍ مفاجئ، ما سبّب له الآن شللاً في الحركة
ـ ماذا تقول!
ـ كما سمعت
ـ وكيف حاله الآن!
ـ بخير... كما هو
ـ كان الله معكم يا غيث، آمل أن يتعافى بأسرع وقت... وأيّة مساعدة فإنّني جاهز يا أخي
ـ أشكرك يا سامر جزيل الشكر
يصمت سامر لثوانٍ، ثمّ يكمل باستغراب:
ـ وماذا عن دراستك؟!
كان هذا السؤال كغيمة سوداء تخيّم على غيث، دراسته... أجاب بصوتٍ مبحوح نابعٍ من غصّةٍ في قلبه:
ـ دراستي.. لا أعلم! إنّني أحاول التوفيق بينها وبين العمل قدر ما أستطيع!

ـ ولكن هذا أمر شبه مستحيل يا غيث! خاصةً أنّ طبيعة عملك هذا تقتضي أن تعمل من الصباح إلى المساء!
ـ إن اضطررت سأتركها.
ـ ولكن ماذا تقول؟! تترك دراستك بهذه البساطة!
ـ حين تخيّرك الحياة بين الحلم والكابوس في بعض الأحيان عليك اختيار الكابوس.. كي لا تُصدَم بوحشيّة الواقع. أجل يمكنني أن أترك دراستي بهذه البساطة لأنّ هناك ما هو أهم منها الآن... أبي بات غير قادر على الحركة كما تعلم، ولديّ شقيقتين في المدرسة، إضافة إلى مصروف منزلنا، ومصاريف جامعتي التي لن أقدر عليها، من سيؤمّن هذا كلّه؟ بات عليّ تحمّل مسؤوليّة المنزل عن والدي، لذا لن أقارن سوء ترك الدراسة بسوء أن تعيش عائلتي حياة البؤس!
يتأمّله سامر ببعضٍ من الأسف وبعضٍ من الخبث، ثمّ يضع كفّه فوق كفّ غيث المتعبة قائلاً:
ـ لا عليك...لا عليك. أنت بتصرفك هذا أظهرت مدى عظمتك وتضحيتك، والعمل ليس عيباً، وكن متأكدّاً أنّني هنا وبجانبك متى احتجتني.
ـ شكراً لك يا سامر، شكراً لك على كلّ هذا
يتبادل الاثنان نظرات الامتنان، ثمّ يتنهد سامر وهو ينطق ببرود:
ـ أتعلم.. أسأل نفسي كل يوم، ما ذنبنا أن نتحمّل هذا البؤس كلّه؟ نحن رغم شيبنا أصغر من أن نتحمّل هذا الخراب، نحن رغم رماديّة عمرنا مازلنا أطفالاً مشرّدين في معمعة هذه الحرب. هذه المصائب تأتينا من كلّ الجهات وبلا أسباب!
ـ بل يوجد أسباب، يوجد سبب لكلّ هذا البؤس الذي يصيبنا
ـ وما هو؟
ـ الحياة.
ـ معك حق، ولربما علينا تغيير هذه الحياة.
ـ لو كان بيدنا أن نغيّر شيئاً لفعلنا..
ـ لكنّ الأمر بيدنا حقّاً. إنّه بيد كلّ شخص يعيش تحت سماء هذه المدينة، تغيير الحياة وانتشالها من البؤس هو مسؤوليتنا أساساً.

جميع الناس في الحياة الطبيعية يرون الكوابيس في نومهم وحين يستيقظون يعودون إلى الواقع، أمّا نحن فنرى الواقع الذي نحلم به في نومنا وحين نستيقظ نعود إلى الكوابيس! علينا فعل شيء يا غيث لنعيش بسلام كباقي الناس، ألا تلحظ ذلك!

ـ ماذا تقصد وكيف؟

ينظر إليه سامر بابتسامته الماكرة تلك وكأنّه اقترب من اللحظة التي كان يخطط لها منذ البداية، ليجيب:

ـ ستعرف كلّ شيء في الوقت المناسب..

ثمّ يقف فجأة مودّعاً:

ـ والآن عليّ الرحيل، إن احتجت شيئاً أتصل بي، وداعاً أخي.

ـ وداعاً!

يقولها غيث باستغراب، ليتردّد السؤال ذاته الذي يتردّد في رأسه كلّ مرة، من هو هذا الرجل؟! فلسفته تربك الحديث ولكن في ذات الوقت تشعرك وكأنّه يحمل همّاً كبيراً، أو سرّاً كبيراً ربما. يُرجع رأسه المليء بالأفكار التي تتخبط هنا وهناك ويغطّي وجهه بكفيه المتعبتين من الغبار...

****

أن تكون عازفاً في مكانٍ لا يعترف به الآخرون بالموسيقى، هو كوجود ملاكٍ في منتصف الجحيم.

يُفتَح باب غرفتها بعنف لدرجة أفزعَتها ممّا جعلها تتوقف عن العزف برعب، وكان من فتح ذلك الباب، رانيا...

ـ ألم أقل لكِ أنّي لا أريد سماع أيّ صوت منك في هذا المنزل؟ ولا حتى آلتك الغبية هذه!

تجيب سيلينا بلهجة مرتجفة وما زالت دموعها التي هطلت أثناء العزف على خدّها:

ـ آسفة، لم أكن لأعزف لو أنّك لم تغادري المنزل كي لا أزعجك، ويبدو أنّني لم أنتبه لعودتك أنا آسفة...

ـ اسمعي أيّتها الفتاة، إنّ البؤس الذي أحتمله من عمّك يكفيني فلا تزيدي الأمر عليّ! ولتعلمي أنّني لو لم أخشَ غضب غيث ومغادرته المنزل لأخرجتكِ من هنا منذ زمن، لكنّني ما زلت أحتملكِ لأجله!

تنظر إليها سيلينا بعينين مليئتين بالحزن وتبقى صامتة رغم كلّ النار التي تريد أن تلفظها، ليس خوفاً.. بل لأنّ التعب من الكلام أكل صوتها. تختصر كلّ الألم وتقول:

ـ أجل خالتي... شكراً لكِ

تنظر إليها رانيا بعينين حاقدتين ومليئتين بالكلام، ثمّ تعدّل من وقفتها وتدخل الغرفة بخمس خطوات وكأنّها ستقبل على فتح حديثٍ ما، وتبدأ:

ـ أريد أن أخبركِ بشيء، اتركي هذه الآلة السخيفة من يدكِ واسمعيني جيداً

تعدّل سيلينا جلستها باستغراب

ـ تفضلي..

ـ لقد كنت عند صديقتي الآن، التي زارتنا منذ أيّام، أتذكرينها؟

ـ أجل...

ـ لقد حدّثتها عنكِ وعن خطيبك سامي الذي تركك حين زارتني، لذا لقد وجدت لكِ حلاً. ولأنّني امرأة لا يمكنها تجاهل الخير رغم كلّ هذا الذي يحصل لي، قررت أن أنفعكِ..

تقطب سيلينا حاجبيها باستغراب، ثمّ تجيب:

ـ حل؟ حل لماذا؟ وبماذا تريدين نفعي آسفة خالتي لم أفهم أيمكنك أن توضحي الأمر؟

ـ وجدت لكِ عريساً لا يمكن تفويته

ودون أن تمسك سيلينا أعصابها تضحك وتقهقه بسخرية ثمّ ترد:

ـ عريس؟! عريس لي؟ ومن قال أنّي أريد الزواج حتّى؟

ـ أنا قلت! من المؤكد أنّك لا تريدين إكمال حياتك هنا معنا! ثمّ بوضعك هذا فإنّه الرجل الوحيد الذي سيقبل بوجهك ولا يمكنك أن تفوتي هذه الفرصة.

تبتلع سيلينا كلام رانيا عن وجهها كالعادة بألم.. ثمّ تسأل:

ـ بغض النظر أنّني أرفض الفكرة تماماً، لكن لمَ قد يقبل بي هذا الرجل لم أفهم؟!

ـ هو رجلٌ في السبعين من عمره، زوجته ماتت منذ سنة ولديه شابّان تزوّجا وسافرا خارج البلاد وبقي وحده الآن وحالياً يبحث عن زوجة له حتى تعتني بصحته ولا يهمه شكلها.. والأهمّ من هذا لديه أملاك كبيرة وستعيشين معه بسعادة.

تتسع عينا سيلينا بدهشة وتقول بشهقة:
ـ ولكن ماذا تقولين؟! كيف يمكنكِ أن تقترحي عليّ الزواج برجلٍ في السبعينيات من عمره؟ كيف يمكن لكِ أن تتخيلي أنّني سأقبل!
ـ لكنّني لا أقترح عليكِ ألم تفهمي؟! لقد أخبرتهم أن يتقدّموا لخطوبتكِ نهاية الأسبوع وسينتهي الأمر
تنتفض سيلينا:
ـ هل تمازحينني أم ماذا!!
ـ طبعاً لا.
ـ كيف يمكنكِ أن تتصرفّي كمثل هذا الامر! كيف يمكنك!!
ـ هل جننتِ يا فتاة؟ هل فقدتِ عقلك؟ بدلاً من أن تشكريني أنّني وجدت لكِ رجلاً يحتمل وجهكِ هذا الذي تركككِ خطيبكِ بسببه؟ أهذا هو جزاء الخير الذي أقوم به؟ ثمّ ألم تسمعي ما قلت؟ إنّه مليء بالمال وسيغرقك به كذلك أنتِ أيضاً، إنّها فرصة لا تعوّض!
تصرخ سيلينا باكية:
ـ تباً للأموال وتباً للجمال وتباً للطريقة التي تفكرون بها! إن كنت قبيحة هذا لا يعني أن أجعل حياتي قبيحةً أيضاً! إن كان يملك المال هذا لا يعني أنّه إنسان صالح للزواج! وإن كان هناك رجلٌ تركني في منتصف الطريق أو أنّه لا يوجد رجلٌ سيقبل بي كما أنا في هذا العالم وإن لم يكن يوجد رجلٌ يمكن أن أكمل حياتي معه في هذا العالم فهذا لا يعني ألّا أكمل حياتي! أتفهمين؟! وأرجوكِ خالتي ألّا تعيدي فتح هذا الموضوع مجدّداً أرجوكِ!
تقول آخر كلمة والدموع قد أغرقتها وأنهك البكاء قواها، لتجيب رانيا صارخة:
ـ ومن أخبركِ أنّ الأمر بيدكِ أو أنّني أقوم بأخذ رأيكِ؟ ألم تسمعي ما قلت؟ لقد اتفقتُ معهم على كلّ شيء وسيتقدّمون لخطبتكِ في نهاية الأسبوع ولا أريد سماع أيّة كلمة أتفهمين؟ نحن الآن لدينا رجلٌ مريض وابنتان في المدرسة وابني غيث الذي ترك دراسته كي يحصّل لنا لقمة عيشنا، فلا ينقصنا فردٌ زائد ولا ينقصنا همّك!
ـ لكنّي أخبرتكِ أن أموالي هي أموالكم! لماذا تقومين بهذا؟ لماذا تأخذين من المصاريف حجّةً لطردي؟ لماذا فقط أخبريني!!
تأخذ رانيا شهيقاً بغضب ثمّ تجيب:

ـ أسمعي أيتها الفتاة، هذا المنزل لي، وأنا أقرّر من سيبقى هنا ومن لا، وأنا ببساطة لا أريدكِ هنا! لست مضطرة لتحمّلكِ في منزلي واستقبالكِ إلى الأبد! لذا ستتزوجين هذا الرجل وتذهبين للعيش معه ودون أي اعتراض وبذلك أكون قد أمّنت لكِ حياةً آمنة والله شاهدٌ على حسن نيتي!
ـ تنظر إليها سيلينا وتمسح دموعها ثمّ تقول:
ـ لن أتزوّجه! أتفهمين؟ لن أتزوّجه ولا يمكنك تقرير مصيري بهذه البساطة!
وبعد تلك الجملة التي اعتبرتها رانيا تحديّاً، اقتربت من السرير الذي تجلس عليه سيلينا، وبغضب وبكل قوّتها أمسكت بذراعها وسحبتها من عليه قائلة بنبرة مليئة بالغضب والكره والحقد:
ـ إن كنتِ لا تريدين الزواج به فاخرجي من هنا الآن هيّا!
ودفعت سيلينا خارج الغرفة، ثمّ بدأت تدفعها وتلك الأخرى تبكي وتحاول أن تقاوم دفعاتها لكنّ الألم والبكاء كانا يضعفانها، حتّى وجدت نفسها عند باب المنزل الذي فتحته رانيا بكلّ غضب وحقد ودفعت بسيلينا عبره خارج المنزل وأبقته مفتوحاً.
ثمّ اتجهت إلى غرفة سيلينا مجدّداً وفتحت خزانة ملابسها وبدأت تخرج الثياب منها، لتدخل سيلينا من جديد وتبدأ بالبكاء والصراخ:
ـ ولكن ماذا تفعلين؟ إلى أين سأذهب الآن! لماذا تقومين بكلّ هذا فقط أخبريني!
ـ لا يهمّني! فلتذهبي إلى الجحيم! إنّني قدّمت لكِ الجنّة وقد رفضتِها. إن كنتِ لا تريدين إكمال حياتك مع هذا الرجل فلتذهبي إلى الجحيم يا سيلينا أتفهمين؟ حاولت تأمين حياةٍ كريمةٍ لكِ لكن يبدو أن الأمر لا يليق بكِ، فالحياة الكريمة ليست لأمثالك، أنت تستحقين العيش بالشوارع كالكلاب تماماً!
ثمّ دفعت بها خارج المنزل مجدّداً ورمت لها ثيابها حتى جثت سيلينا على الأرض تبكي وتشهق دون أيّة قوة تنتشلها. تدخل رانيا وبعد ثوانٍ تعود بحقيبة مليئة بكلّ أغراض سيلينا التي في الغرفة وتقوم برميها قائلة:
ـ خذي! لأنّي لا أريد أيّ أثرٍ لكِ هنا
ثمّ تعود وتمسك بحقيبة الكمان وتهمّ على رميه لتنتفض سيلينا وكأنّ القوّة دبّت بها فجأة وتصرخ:
ـ إيّاكِ أن ترمِه!!

وتنتزعه من يديّ رانيا كأمٍّ تنتزع طفلها من أيدي المختطفين. تضمّه إلى صدرها والدموع قد أغرقت وجهها، فتكمل رانيا بحقد:
- هيّا أذهبي من هنا أنتِ وكل أغراضك! لا أريد رؤيتك هنا مجدداً ولا تعودي إلى هذا المنزل! أتفهمين؟! لا تعودي باكية مع دموع التماسيح هذه!
وتصفع الباب بكلّ قوّتها في وجه سيلينا المليء بالندوب والدموع...
تقف بكلّ عجزٍ وصدى صفعة الباب مازال يحفر أذنيها، عاجزة، وحيدة تقف هناك، كساعة رملية يُستَنزَفُ الوقت منها بلا صوت.
بكلّ تشردها وبؤسها منهكة القوى، تشهق دون أن تستطع أخذ الهواء، تشعر بالاختناق، تجلس على الأرض، تتأمّل ثيابها المبعثرة والحقيبة التي تضمّ أغراضها، وتنظر إلى الكمان الملتصق بصدرها وكأنّه صُلِب عليها أو أنّ أحزانها صُلِبَت عليه. تتأمّله، ودون إرادة تبدأ بتذكّر كل شيء.. تتذكر اللحظة التي قام والداها بإهدائها الكمان، ثمّ تتذكر والداها وكلّ اللحظات السعيدة معهما، اللحظات التي كانت بها تنعم بالأمان. تتنهد وتشهق وتبكي. لا تعلم إلى أين ستذهب الآن... كلّ الذي تعلمه أن المكان هنا خالٍ من الموسيقى، والأماكن الخالية من الموسيقى تشبه الجحيم.
تجد نفسها تلملم أغراضها وتضعها في الحقيبة وهي تتنهّد من البكاء، ثمّ تقوم بكلّ خيبتها الكبيرة وتسير إلى حيث لا تعلم، إلى اللامكان، إلى اللاوطن..
بنصف وجهٍ، وبكمنجةٍ كاملة.

****

ضوءٌ خافت في غرفة يبتلعها الظلام، كرسيٌّ بجانب النافذة، مطرٌ يكاد يحطّم الزجاج، وهو.
يجلس ويتأمّل كل شيء في الغرفة منذ أن دخلها وكأنّه يريد التهام التفاصيل، يتأمّل الصور، اللوحات، الألوان، رذاذ المطر الملتصق بالزجاج.
المكان باهت رغم كلّ الألوان، ملوّنٌ رغم كلّ الرماد. إنّه يأكل كلّ التفاصيل الموجودة هنا، يلتهمها بعيونه التي تحاول الاتّساع قدر ما تستطيع.
فجأة تنتفض جميع حواسه على صوت الانفجار القويّ في الخارج، ليقوم بتشغيل الأغنية ويرفع درجة الصوت إلى أعلى درجة فيشعر أنّه يقتل الحرب.

أليس التجاهل يقتل كلّ شيء؟
إذاً.. إن شغّلنا أغنيتنا المفضلة الآن وتجاهلنا صوت الرصاص، هل سيقتل هذا الحرب؟
يسأل نفسه هذا السؤال، ليجد نفسه يكافح من أجل مرارة الإجابة وحيداً هذه المرّة...

****

الوتر الثاني

وكأنّ الصمت أغنيةٌ جليلة،

تحلُّ على مشارف نجمك كلَّ يومٍ...

" أُطفِئت الأضواء كلّها، ومع ذلك لم يلحظ أحدٌ احتراقنا "
أحمد حجازي

- من أين يأتي الأبد...ذاك الأبد البعيد عن النهايات...؟
- لا يوجد أبد، ليس الأبد إلّا حُجّةً اخترعناها لنخدّر بها أنفسنا عن فراقٍ محتوم. الشلالات تركض للأسفل كي تنتحر، والدّخان يطير للأعلى كي يتلاشى. لذا لا تسلني أيّ الطرق الأكثر أمّاناً للبقاء، فالنهايات تحيط بنا من كلّ الجهات.
إننا محطّات مهما ازدحمت، ستتركها الحشود وترحل إلى قطارٍ منتظر في نهاية الأمر. وسنبقى فارغين، ممتلئين بآثار الأقدام المتّسخة وصدى الصرخات المليئة بالشتائم.
المؤسف في الأمر، أنّ كلّ ذلك سيتمدد مع السكك الصدئة، تماماً كما الندوب التي تبقى راسخة في منتصف الجبهة. جميع المواعيد ستنتهي.
- إذاً...لا شيء يدوم إلى الأبد!
- الحزن يدوم إلى الأبد، الحزن.

- بعد شهر -
الساعة العاشرة صباحاً، في حديقة عامة، على واحد من عشرات المقاعد العشوائية..
تجلس هناك، بشعرها الذي يغطي نصف وجهها وأمّا نصفه الآخر فقد تكفلت الدموع الباردة بتغطيته..
تشعر أن العالم يتقلّص ويتقلّص حتّى يتقيأها في ذروة الجحيم.
تجلس على مقعدٍ خشبيّ محطّم ومتّسخ، يهمله الجميع بسبب حطامه كما يهملونها بسبب تشوّهاتها، ينظر له الناس بنظرة نفور، كما يفعل جميع المارين حين تصادف نظراتهم

وجهها بعد أن يحدّقوا به لعشر ثوانٍ بنظرة النفور ذاتها، لا شيء يشاركها بطولة الهوامش سوى هذا الكرسيّ الآن.
تبكي بصمت و هي تتأمّل كلّ شيء، العاشقين، الأصدقاء، العائلات، جميع تلك الأمور التي أجهضتها، وتلك المرأة التي تراقبها بأسف من على الكرسيّ المقابل.
بدأت الدموع تخنقها تدريجيّاً و بدأ صوت تنهيداتها يعلو قليلاً، لا تعلم إلى أين يجب عليها الآن الذهاب، أو ماذا يجب عليها أن تفعل!
تبكي وتحرّك شفتيها بدعواتٍ غير مسموعة وهي تكلّم الله، رافعةً برأسها إلى السماء، تلك المرآة الوحيدة التي لا تكترث بقبح الوجوه.
ـ آسفة على التدخل، لكن هل أنتِ بخير يا ابنتي؟
تدريجيّاً تلتقط أنفاسها ثمّ تخفض رأسها باتجاه صاحبة الصوت، أنّها المرأة التي كانت تجلس على الكرسي المقابل وتراقبها منذ أن اجتاحتها نوبة البكاء. تمسح دموعها وهي تجيب:
ـ أجل، أعتقد.. شكراً لكِ، أنا بخير.
ـ أمتأكدة أنّكِ بخير؟
ودون أن تشعر تنهمر بالبكاء بغزارة وبكلّ حرقة وألم، تشهق وتبكي وكأنّها كانت تنتظر هذا السؤال منذ زمن " أمتأكدة أنكِ بخير؟ " لا هي ليستِ بخير!
تجلس المرأة بجانبها، ثمّ تضع يدها على كتفها وتمدّ لها اليد الأُخرى بمنديل.
" شكراً " تهمس لها بصوتٍ يكادُ يُسمع.
تنتظرها بكلّ صمتٍ لخمس دقائق وهي تبكي، ثمّ تدريجيّاً تتنهّد وتتمالك أعصابها من جديد، لتكسر الصمت بقولها:
ـ أنا آسفة.. لكن لم أستطع تمالك نفسي ...
ـ لا بأس يا ابنتي، البكاء يُريح النفس.
ـ أجل بالفعل...
وبعد أن مسحت دموعها وتوقفت تدريجيّاً عن البكاء، همست لها:
ـ أعلم أنّه لا يجوز لي التدخل، لكن إن أحببتِ أن تخبريني ما بكِ فأنا أسمعك يا ابنتي..
في البداية لم تنطق بكلّمة واحدة، ثمّ تدريجيّاً لم تجد نفسها سوى تقول " أنا اسمي سيلينا" ثمّ بدأت تخبرها أكثر وأكثر عنها. لم تجد نفسها سوى تحدّثها عن قصة وجهها المشوّه،

عن وفاة والديها، عن خيانة خطيبها وصديقتها لها، عن طردها من العمل، وعن رانيا التي طردتها من المنزل لأنّها رفضت مشروع الزواج برجلٍ عجوز، ثمّ توقفت عند تلك اللحظة التي صفعت بها رانيا الباب في وجهها لآخر مرة.

ـ أحقّاً يوجد من هم بهذه القسوة! وماذا حصل بعد أن طردتكِ!

أخذت نفساً عميقاً، ثمّ أكملت:

ـ في تلك اللحظة قرّرت أن أبدأ من جديد وأن أقف على قدميّ من جديد. توجّهت إلى البنك وسحبتُ مبلغاً من أموالي، وبدأت أبحث عن شقةٍ للإيجار إلى أن وجدتُ واحدة ليست ببعيدة عن هذه الحديقة، لكن ....

ثانيتان من الصمت..

ـ لكن ماذا؟

أجابتها دون أن تستطيع كتم دموعها من جديد:

ـ لقد عشتُ واحدة من أكثر لحظات حياتي رعباً في هذه الشقة ...

ـ لماذا؟!!

أخذَت نفساً عميقاً بتعب، لتكمل:

ـ كما قلتُ لكِ أنني استأجرتها وأسكنها وحدي، ويبدو أنّ هذا الأمر جذب اللصوص بشكلّ كبير.. كثيراً ما كنتُ أسمع أصواتاً في منتصف الليل بقرب باب منزلي، ويبدو أنّهم حين تأكدوا أنني أسكنها وحدي قرروا أن ينتهزوا الفرصة. ليلة أمس اقتحموا منزلي ولولا رحمة الله وانتباه أحد الجيران لهم وهم يدخلون وإنجادي لا أعلم ما كان سيصيبني حينها..

ثمّ أكملت وهي تتحدّث بشكلّ متقطّع:

ـ لقد كانت ليلة أمس من أكثر اللحظات رعباً التي عشتها وسأعيشها في حياتي، حين رأيتهم في منتصف المنزل ذابت عظامي واحترق دمي وتبخرت أنفاسي من شدّة الرعب! أنا لا أعلم كيف سأمضي بقية عمري على هذه الحال! وحيدة في المنزل لا أعرف طعم النوم من الخوف، أجلس طوال الوقت متوترة الأعصاب.. لا أعلم إلى متى سأستمر في العيش بهذا الوضع، حياتي انكمشت بين أربعة جدران أحدّق بها خائفةً من كلّ شيء!

تربّت المرأة على كتفها بحنان وتهمس محاولة تهدئتها:

ـ أرجوكِ يكفي بكاءً لقد كسرتِ قلبي!
لكنّها تستمر دون أن تستطع تمالك نفسها. تتوقف يد الامرأة فجأة عن التربيت على كتفها، وكأنّها تذكرت أمراً ما، ثمّ تسألها بنبرة متفائلة:
ـ أتعلمين! لقد خطر ببالي حلٌ مناسبٌ تماماً لوضعكِ.. فإن قبلتِ به، تكون مشكلّتكِ هذه قد حُلّت!
تتوقف عن البكاء وتنظر إليها باستغراب
ـ حل؟ حل ماذا؟
ـ انظري يا ابنتي..
تصمت لثانيتين، تعدّل جلستها، وتبدأ بالشرح:
ـ أنا وزوجي كبيران في السنّ قليلاً، وليس لدينا من الأبناء إلا شاباً وحيداً ولكنّه للأسف، أعمى الآن... وزوجي مريضٌ في الفراش بالكاد نستطيع تحصيل الأدوية له بعد خسائرنا المادية التي نجمت عن الحرب. لقد خسرنا جميع أموالنا وأملاكنا ما عدا البيت الذ نسكنه الآن. لا يهمّ... ما أريد قوله أنني ومع تقدّمي في العمر، وهمّ ابني وزوجي، لم أعد أستطع الاعتناء بالمنزل كما يجب، كما أنني لا أجد أحداً يساعدني بزوجي وبالعمل طوال الوقت.
لذا، ما رأيك أن تأتي معي وتقيمين عندنا، وطبعاً لن نريد شيئاً من المال مقابل إقامتك. كلّ الذي أريده أن تساعدينا قليلاً في تلبية حاجاتنا. نحن بحاجةٍ ماسّة إلى روحٍ شابّة في بيتنا، إلى من يساعدنا ولو قليلاً!

مجاناً مقابل مساعدتهم في المنزل وفيما يحتاجون؟
تحدّق بها خمس ثوانٍ، ثمّ تطيل الصمت بعد أن ابتلعها التردد فيما تجيب، لتلحظ المرأة تردّدها وتكمل:
ـ فكّري في الأمر يا ابنتي، على الأقل لن تعيشي لوحدكِ بعد الآن وتمضين حياتكِ بقلقٍ وخوف، ثمّ أنّكِ هذه المرّة استطعتِ النجاة، لكن ما الذي سيضمن لكِ في المرات المُقبلةً أن تجدي من ينجدك؟ كما ويوجد في منزلي غرفة فارغة يمكن أن تنامي فيها لوحدكِ ولن يزعجكِ أحد أبداً، فماذا قلتِ؟

تنظر إلى السماء بصمت وهي تحدّث نفسها، نصفها يخبرها أن توافق والنصف الآخر يُقلقها. تبقى صامتة لخمس ثوانٍ. تسأل نفسها داخلاً ما الذي يُقلقها! لن يحدث أمرٌ أسوأ ممّا أصابها، وإن حدث ففي كلّتا الحالتين هي خاسرة.

- موافقة.

تقولها بهدوء، ثمّ تكمل:

- ولكن، متى يمكنني الآنتقال؟ لأنّني لا أحتمل أن أنام في هذا المنزل ليلة واحدة بعد ما حصل في الأمس..

- لا عليكِ بخصوص هذا الأمر، يمكنكِ من الآن أن تذهبي لجمع أغراضك وسنذهب فوراً!

- إذاً تفضلي معي رجاءً إلى منزلي لأجمع الأغراض وننطلق من هناك، لا تقلقي ليست بالأغراض الكثيرة.

هي لا تدرِ إن كانت هذه بداية أو نهاية، كلّ الذي تريده ألّا تبقى عالقة في المنتصف.

****

يأخذ آخر نَفَسٍ من غليونه ثمّ يرميه بعيداً وهو يضع الهاتف على أذنه:

- آلو.. كيف هو الوضع أنور؟

- أهلاً سامي.. لا تقلق لقد تم التسليم وكلّ شيء بخير

- جيد جداً، هل استلمت؟

- أجل

- ممتاز، أراك في الشركة، كن حذراً.

- لا تقلق..

يطفئ الهاتف بابتسامة المكر، ثمّ ينظر إلى باب المبنى الذي يقف أمّامه. عليه ارتداء قناع الرجل المهزوم الآن، علَّ وعسى أن تسامحه وينجح فيما يسعى إليه. ربّما هذه الفرصة الأخيرة.

يصل إلى باب الشقة ثمّ يدّق الجرس بتوتّر، لتفتح له امرأة قاطبة الحاجبين، رانيا ...

- مر.. مرحباً خالتي..

تنظر إليه بنظرة لئيمة وابتسامة تملؤها السخرية، وترد:
ـ أهلاً بالسيد سامي! ماذا تريد؟
ـ أنا.. أنا آسف إن أتيت في موعد غير مناسب، لكن أرجوكِ عليَّ أن أرى سيلينا بشكلّ ضروري!
ـ سيلينا ليست هنا.
ـ أها.. متى يمكنني أن أعود لألقاها؟ أقصد ... متى تكون في المنزل؟
ـ ألا تفهم أيها الرجل؟ أقول لك ليست هنا، هي لم تعد تسكن معنا بعد الآن ورحلت منذ شهر وأخيراً!
ـ ماذا؟! إلى أين ذهبت؟ أين يمكنني أن أجدها!
ـ إلى الجحيم! وما أدراني أنا؟ ثمّ ماذا تريد منها؟ هل أفلستَ وتريد طلب سماحها كي تكتب لك أملاكها باسمك؟
ثمّ تضحك ضحكةً عالية مستفزّة وتكمل:
ـ لا عليك.. أتعرف لا ألومك، من المؤكّد أنّك لست مضطّراً لتكمل حياتك مع فتاةٍ كهذه! ولكنّك طمّاع أيّها الفتى، تريد جمال لارا ومال سيلينا ها؟ هذا كثير أليس كذلك؟
وتكمل ضحكها باستفزاز ثمّ تستدير وتغلق الباب في وجهه، وتتركه في حالة صدمة وكأنّه للتو وبعد كلّ هذا الوقت أدرك أنّه خسرها للأبد ... يشعر أنّه خسر صفقة كبيرة، صفقة بنى الكثير من طموحاته الخبيثة عليها..

****

الخبرُ المُفرِح، أنّنا كَبشرٌ في ذروةِ حُزننا نكون تُحَفاً فنيّة.
الخبرُ المؤسِف، أنّنا تماثيلُ مشوّهة، موضوعةٌ على هامش الفنّ السّاقط، وأحزانُنا لن توضع في متحف اللوفر لأنّها ليست ثمّينةً كتمثالٍ يونانيٍّ أبيض. ولن يتأمّل أحدٌ جروحنا كما يتأمّلون ابتسامة الموناليزا. ولن يتساءل أحدٌ عن سبب دموعنا المالحة كما يتساءلون عن سبب استخدام دافنشي للّون الأخضر الغامق بدلاً من الفاتح. بل إننا سنبقى كأُغنيةٍ رومانسيّة يعزفها بوقٌ مشوّهٌ وطبلٌ مثقوب. لن نثير إعجابَ أحد، ولن يُصفّق أحدٌ على صراخنا النشاز.

سريرٌ واحد، خزانة ملابس صغيرة، في غرفة تبدو أنّها أُقيمت لراحة الضيوف ونومهم فيها. لم يكن بها سوى نافذة واحدة وطلاء جدرأنّها كان باهتاً قليلاً.
أول ما وضعته بجانب السرير هو كمأنّها الذي يرافقها من خيبةٍ لأُخرى ومن سعادةٍ لأُخرى، ثمّ فتحت حقيبتها وأخرجت دفتر مذكراتها والكاميرا التي لم تستخدمها منذ أن تركت عملها. تأمّلتها بألم وبابتسامة حزينة، ثمّ تابعت ترتيب ملابسها وباقي الحاجات.
بعد انتهائها تماماً، همّت للخروج من الغرفة متّجهة إلى غرفة الجلوس. إلّا أنّها توقفت للحظة تتأمل باب الغرفة المقابل لها. لم يكن مُغلقاً تماماً، حيث يمكن رؤية القليل ممّا في داخل الغرفة، لكن مع هذا لم تستطع أن ترى سوى الظلام الذي كان يجتاح المكان.
تحدّق به لثوانٍ بقليلٍ من الفضول ثمّ قليلاً قليلاً تضع أذنها على الباب لتعلم إن كان هناك أحدٌ في الغرفة أم لا، لكنّها لا تجد سوى شيئاً واحداً... الصمت.
بقيت لخمس ثوانٍ على حالها لكنّها لم تستطع سماع أيّ شيءٍ سوى الصمت. ما أوحى لها أنّه لا يوجد أحدٌ في الغرفة.
تابعت مشيها نحو غرفة الجلوس، لتجد رجُلاً في السبعينات من عمره ممدّداً على الفراش، وزوجته تجلس بجانبه وهي تساعده على شرب الماء.. تهمس مبتسمة:
ـ صباح الخير
يردّ عليها الاثنان
ـ صباح الخير!
ثمّ يكمل الزوج بلهجةٍ مُتعَبة:
ـ اهلاً بكِ يا ابنتي، لقد حدّثتني زوجتي عنكِ، شرّفتي منزلنا
ـ شكراً جزيلاً لك يا عم، الشرف والسعادة لي بأن أسكن مع أهلٍ مثلكم.
ـ اعتبرينا والديكِ، وخذي راحتكِ في المنزل كما تشائين.
ـ شكراً لكم حقاً، شكراً على كلّ شيء
تردّ زوجته:
ـ لا داعي للشكر يا ابنتي صدّقيني، هيّا تعالي واجلسي معنا
ـ شكراً خالتي ولكن في الحقيقة كنتُ أريد أن أبدأ بتنظيف المنزل إن كنتِ لا تمانعين.
ومن أين تحبين أن أبدأ بالتحديد؟
ـ دعكِ من العمل الآن.. مازلنا في بداية اليوم

ـ لا عليكِ فأنا أتسلّى وأمضي الوقت
ـ حسناً، ما رأيكِ أن تبدأي بغرفة آدم؟ إنني لم أنظّفها منذ أيام
ـ حسناً، أين هي؟
ـ تعالي معي سآخذكِ إليها، أنّها أقرب غرفة إلى غرفتكِ
تصل الاثنتان إلى باب الغرفة، تحدّق سيلينا به لثوانٍ، أنّه الباب الذي كان يثير فضولها، إذاً ستدخله أخيراً.
تدّق والدة آدم على الباب ثلاث دقات، ثمّ تفتحه بهدوء وتهمس:
ـ صباح الخير عزيزي، ستدخل سيلينا لترتّب لك الغرفة قليلاً، أنّها الفتاة التي أتت إلينا في الأمس وحدّثتك عنها.
لكن تبقى الغرفة صامتة دون أيّ جواب، لتعود المرأة إلى سيلينا وتقول لها " يمكنك الدخول عزيزتي.. أنّه جالسٌ قرب النافذة، لا بأس لن يزعجه وجودكِ كثيراً "
تهزّ سيلينا برأسها بلطف ثمّ تدخل إلى الغرفة ...

" العزلة هي انتقاء نوع الألم ... "

في تلك الغرفة المُظلمة، الكئيبة، الرمادية، والصامتة.
لم يكن هناك خيط نورٍ واحد يتسلّل إليها رغم أنّ النهار كان في أوّله. النوافذ مُغلقة، والستائر تغطي حوافَ النافذة بإحكام لئلا يتسلل أيّ نورٍ منها، بالكاد تستطيع الرؤية. كانت باهتة.. شاحبة وخالية من أيّ لون...

" ما يشبه خلوَّك من خارجك وهبوطك الاضطراري في نفسك بلا مظلّة نجاة.."

تقدّمت سيلينا باتجاه النافذة قليلاً وعندها رأت من يجلس بالقرب منها.
شابٌ يبدو في الثلاثينات من عمره، بشرته الحنطيّة، عيونه الرمادية المتحجّرة، تحرسها رموشه الكثيفة، شعرٌ أسود كثيف ومبعثَر على رأسه بشكلّ فوضوي وعشوائيّ لكن بطريقة مثيرة. لحيته أيضاً، كانت كثيفة وكأنّ الزمن قد بنى أعشاشه بها، سوداء كلّون الغرفة وكظلّه الذي يقتحم المكان.
همست له سيلينا بخجل:
ـ مرحباً...

لكن لا جواب! كلّ ما كان يفعله هو الصمت، لا حرفاً ولا نغماً، وهذا ما زاد من خجلها. نظرت في أرجاء الغرفة لكنّها لا تستطيع رؤية أي شيءٍ بوضوح.
أخذت نفساً عميقاً ثمّ سألته:
- من فضلك، هلّا وصفت لي أين يمكنني إيجاد مفاتيح الآنارة؟
لكنّه أيضاً تجاهل سؤالها، وبادلها الصمت... هي الأُخرى اجتاحها الصمت أمّام حضوره الباهت هذا وبقيت صامتة تحدّق به وكأنّها تتأمّل لوحة غامضة وشاحبة لِ بيكاسو. بقيت تحدّق به وبالمكان لخمس دقائق، ثمّ اقتربت أكثر من النافذة حيث يجلس هو مقابلاً لها تماماً، أخذت نفساً عميقاً لمرّة ثانية ثمّ سألته:
- أريد فتح النافذة إن كنتَ لا تمانع.. لكن إن كان الأمر يزعجك لا بأس.
ضحكة، ضحكة مليئة بالسخرية صدَرَت عنه بعد صمتٍ طويل حالما أنّهت جملتها تلك، كان يضحك وكأنّه يستهزئ من أمرٍ ما قالته هي. تنظر إليه، ثمّ تبتسم باستغراب وتسأله:
- عفواً ... لكن هل هناك شيءٌ مضحِك في كلّامي؟
- شيء؟! إن كلّامك كلّه مضحك يا آنسة! أتصدقين.. لم أضحك منذ زمنٍ طويل، طويلٍ جدّاً ... لكنّ كلّامك هذا أجبَرني!
- حقاً؟! وهل الاستئذان لفتح النوافذ مضحكٌ لهذه الدرجة؟
- إن كنتِ تستأذنين ذلك من شخصٍ أعمى فأجل! أنّه مضحكٌ جداً سيدتي، لا بل أنّه مهزلة!
تحدّق بهِ سيلينا باستغراب وبصمتٍ أكبر، ثمّ تجيب:
- لكنني لا أظن ذلك!
- أوه حقّاً؟ رجلٌ لا يستطيع أن يميّز النور من الظلام، ماذا سيفعل له فتح نافذةٍ غبيّة! أتعلمين.. لا يهم، يمكنكِ تشغيل الآنارة الكهربائية من المفتاح وراء الباب وإن أردتِ فتح النافذة فافتحيها.. وذلك لأنّ الأمر لا يشكلّ فارقاً معي، لا أعلم إن أخبروكِ، لكنني أعمى كما ترين!

" العزلة مصفاة لا مرآة، ترمي ما في يدك اليسرى إلى يدك اليمنى، ولا يتغيّر شيء في حركة الانتقال من اللافكرة إلى اللامعنى..."

ـ لكن يا سيد لمعلوماتك.. إن كنت أعمى هذا لا يعني أنّك لا تشعر!
ـ ولمعلوماتكِ التي يبدو أنكِ لم تتلقيها في المدرسة الابتدائية، إدراك النور والشعور به مرتبط بحاسة البصر! والشخص الأعمى هو الشخص الذي يفقد هذه الحاسة! هل تعلّمتِ هذا في طفولتك أم أنّ المعلومة الجديدة أدهشتكِ؟!
كان يتكلّم بنبرةٍ لئيمة، وبأسلوبٍ بغيض، وهو يحدّق في الفراغ ويتكلّم معها دون أن يستدير إلى مصدر صوتها. لكنّها تتجاهل الأمر وكلّ ما يهمّها هو إثبات وجهة نظرها لهذا الرجل الغبيّ الكئيب الذي استفزّها بالدرأمّا الغبية التي يحيط بها نفسه!
كان الوقت عاصفاً، وصوت الأمطار وهي تتساقط كان عالياً من شدّتها، وصفير الهواء لا يتوقف أبداً، كان يوماً تشرينيّاً بامتياز! سكت الاثنان لثوانٍ واستغرقت هي بالتفكير والتحديق به، لا شيء في الغرفة سوى ظلّين وصوت الآنفاس، إلى أن جاء صوت الرعد قويّاً ليخرجها من صمتها.
تتقدم إليه بنظرةِ تحدٍّ، ربما لم يستطع رؤية تلك النظرة لكنّه كان يستمع إلى خطواتها الواثقة تقترب أكثر وأكثر منه.
خطوة، اثنتان، ثلاث..
توقفت فجأة
بات يشعر بوجودها ملتصقة من الكرسي الذي يجلس عليه، كان صامتاً هو الآخر وكأنّه ينتظر منها أن تقول شيئاً هأمّا بعد اقترابها ذلك، ولكن ...
فجأة سمع صوت إزاحة الستائر واستطاع تمييز صوت قفل النافذة وهي تقوم بفتحه.

وعلى مباغتة بلمح البصر، لم يعد يشعر بشيء سوى ذلك الهواء اللاسع يضرب بوجهه وهو يدخل بقوّة من النافذة الملتصقة به، والأمطار التي بدأت تنهمر وتدخل إليه لترتطم بوجهه بغزارة كبيرة لدرجة أغرقت شعره وجميع مسام وجهه وبلّلت ملابسه بثوانٍ قليلة من فتح النافذة.
ـ هل أنتِ مجنونة أيّتها الفتاة!!
يصرخ بها وهو يُرجِع بظهره إلى الخلف محاولاً الابتعاد عن العاصفة التي تدخل النافذة وترتطم به.
ـ لا على العكس، في هذه اللحظة تحديداً أشعر بعقلأنّيّةٍ كبيرة!

ـ ماذا تظنين نفسكِ تفعلين؟! كيف تفتحين النافذة والجوّ بهذا السوء؟! ثمّ ألا ترين أنّني أجلس ملتصقاً بها؟! أغلقيها بسرعة!!!
ـ إذاً ها أنت تعترف!
يصرخ:
ـ أعترف بماذا!!!
ـ أنك تشعر! أرأيت؟ رغم أنّك لا ترى المطر إلا أنّه بإمكانك الشعور به، بإمكانك الشعور بالهواء وهو يصفع خدّيك، وبالماء وهو يتغلغل في مسامّات وجهك، يمكنك الشعور بالبرد وهو يتسلل إلى عظامك. أنت تعترف أنّك تشعر بكلّ شيء رغم أنّك لا تراه! أليس كذلك؟

" العزلة هي انتقاء نوع الألم..."

لا صوت لجوابه، ولا صدىً لصوتها، كان صوت المطر وحسب، صوت الرعد، صوت الهواء، وصوت الأنفاس المُتعَبة.
كان صامتاً، غارقاً في كلامها وفي المطر معاً. لم يردّ عليها بحرفٍ واحد وعاد إلى الوضع الباهت الذي كان عليه حين دخلت سيلينا الغرفة في الدقائق الأولى، وكأن الرجل الذي كان يصرخ منذ ثوانٍ لم يكن هو.
وهي، كانت تقف منتظرةً جوابه حتّى يقول " أجل أعترف أنّني أشعر بهذا! "
ولكن عندما رأت أن المطر قد أغرق ثيابه ووجهه والهواء القاسي بات يضرب بصدره بشدّة وهو صامتٌ دون أيّةِ حركة، فقدت الأمل من انتصارها، وكانت قد فهمت رغبته بعدم التحدّث أكثر. لذا، أغلقت النافذة وهي تقول له كي تكسر حاجز الصمت الذي أخجلها "إذاً... الصمت علامة الرضى! وقد اعترفت بكلّامي! "
لكنّه أيضاً رغم ذلك لم ينطق بحرفٍ واحد، وبقيت عيناه اللتان جمّدهما العمى تحدّقان في الفراغ، وبقي وجهه بذات الاتجاه دون محاولةٍ منه أن يستدير إلى مصدر صوتها أبداً. همست له بهدوء:
ـ لا بأس، غداً ستشرق الشمس، وسنعاود فتح النوافذ..
ـ النوافذ المفتوحة ليست دائماً طريقاً للأمل... قد تكون سبيلاً للأنّتحار.

قالها ببرود وبصوتٍ يكاد يُسمَع.

في تلك اللحظة، أدركت سيلينا أن الآنسان الذي أمّامها يحتضر بصمتٍ منذ زمنٍ طويل...

" العزلة هي انتقاء نوع الألم..."*
حين تقابل إنساناً يتعفّن، ستؤمن بصدق القصائد.

أخذَت تنهيدةً عميقة، ثمّ خرجت من شرودها وعادت إلى أمر ترتيب الغرفة. التفتت لتبحث عن مفاتيح الآنارة من وراء الباب حيث قام بإرشادها منذ قليل. تقدّمت نحوها وقامت بإضاءة الغرفة الكئيبة الغارقة في الظلام، وهنا أصابتها الدّهشة ...
عشرات الرسومات على الجدران، مئات الألوان التي تغطّي كلّ الزوايا، الكثير الكثير من اللوحات هنا وهناك منها المُبهِر ومنها غير المُكتَمِل.
كانت الفوضى الفنيّة تملأ المكان، يمكنك أن تستنتج من اللحظة الأولى التي تراها أنّ هذه الغرفة هي غرفة رسّامٍ بلا شك! بدأت تتأمل كلّ شيءٍ بصمت. جميع اللّوحات وجميع الرسومات والخربشات الغير مفهومة والآنجازات الملوّنة العظيمة تلك. كانت تلتهم جميع اللّوحات بصمتٍ وبدهشة كبيرة خاصةً أنّها كانت تعشق الرسم رغم أنّها لا تجيده، لكنّ فتاةً تُقدّس حياتها للفن مثلها لا بدّ أن تغرق في اللّوحات والألوان بنشوةٍ عظيمة! شعرت للحظة أنّها ستترك كلّ شيءٍ على حاله. شعرت أنّ ترتيب هذه الفوضى هو جريمة!
ربّما الرّسامون هم الوحيدون الذين يحقّ لهم أن يقيموا الفوضى دون تأنيبهم، هم الوحيدون المسموح لهم أن يلطّخوا الجدران بألوانّهم دون مسحها، أن ينثروا أوراقهم هنا وهناك بشكلّ عشوائيٍّ يملأ كلّ المكان. فوضى الرسامين هي الفوضى الوحيدة التي لا يجب ترتيبها، لأنّ ذلك يُعتَبر جريمةً في حقّ الجمال! فوضاهم لا تحتاج إلى الترتيب، هي تحتاج إلى التأمّل فقط، التأمّل بدهشة وصمت تماماً كما كانت سيلينا في تلك اللحظة.

---

*محمود درويش

كان هو صامتاً لكن يثير فضوله لماذا صمتت هي الأُخرى هكذا ولا صوت لحركتها. يتساءل "أيُعقَل أنّها خرجت؟" لحين أن سمعها وهي تأخذ نفساً عميقاً بانبهارٍ عظيم، حين كانت هي في تلك اللحظة لا تلقائياً تبتسم عند النّظر إلى كلّ لوحةٍ والتأمّل بها.

ـ إذاً أنتَ رسّام!!
صاحت بها دون أن تشعر وبنشوةٍ عظيمة، عندها فهم سبب صمتها وعلم أنّها كانت تنظر إلى لوحاته، تلك اللّوحات التي اشتاق هو للنظر إليها بشكلّ كبير. ثمّ يعود صوت سيلينا وهي تقول بنبرةٍ مُندَهشة:
ـ أحقاً أنت رسمت كلّ هذا؟! الجمال يملأ المكان! أشعر أنّني لا أريد ترتيب أيّ شيءٍ من هذا الكمّ الهائل من الألوان واللّوحات!
لكنّه أيضاً هذه المرّة رغم كلّ كلامها بقيَ صامتاً، ومع هذا من شدّة دهشتها تجاهلت الأمر وأكملت:
ـ كم أنت محظوظ لأنّك رسّام!
ـ كنتُ كذلك.
يقولها بنبرةٍ باردة وباهتة، كان إنساناً باهتاً عكس لوحاته تماماً. تردّ عليه باستغراب:
ـ كنتَ ماذا؟
ـ كنتُ رسأمّا.
ـ والآن؟
ـ للمرّة الألف أذكّركِ أنني أعمى. أي أنني لم أعد كذلك ألا تفهمين!
تقطب حاجبيها وهي تنظر إليه باستغرابٍ كبير، تشعر أنّه يخلق الدرأمّا لنفسه من كلّ زوايا حياته، تحدّق به وبالعجز الذي يتكدّس في أحضأنّه، وتكتفي بالصّمت هي هذه المرّة.
تعود إلى اللّوحات وإلى أمر تنظيف الغرفة، تأخذ نفساً عميقاً وتستعد للبدء. تسحب هاتفها من جيبها وتفتح قائمة الأغاني كونها تحب الاستماع إلى الموسيقى والأغاني أثناء قيامها بأيّ عملٍ كان. وبما أن صوت المطر يملأ المكان، وهناك الكثير من اللوحات المبعثرة هنا وهناك، اختارت تشغيل إحدى المقطوعات الهادئة لبيتهوفين. أنّها الأنسب للتأمّل بهذه اللوحات بهدوء وعلى صوت المطر خارجاً.

مع أوّل نغماتٍ على البيانو الغامض ذاك، خرج هو من شروده ليتأمّل في ماهية الصوت. قليلاً قليلاً بدأ اللّحن يرتفع، وقليلاً قليلاً كان هناك شيءٌ ما يتحرك في قلبه مع كلّ نغمة. بدأت سيلينا تمسك اللّوحات وتتأمّلها وترتّبها بلذّةٍ كبيرة. تُعلِّق بعضها على الجدران والأُخرى تضعها على الطاولة، والغير مكتمل منها تضعه على الجانب الآخر لذات الطاولة، لحين أن لفت نظرها لوحة غير مكتملة لامرأةٍ ما، لا يوجد سوى عينين زرقاوين وقد رُسِم في داخلهما شيءٌ من النجوم، شعرٌ أشقر حولهما، وأمّا الملامح فكان مبدوء بها بشكلّ قليلٍ جداً من ناحية الذقن مما يصعّب على من يرى اللّوحة أن يتخيل وجه هذه المرأة. تتأمل سيلينا العينين الزرقاوين بعمق. تشعر أنّهما مألوفتان، تهمس له وهي في عمق تمعّنها:

- يجب عليك إكمال هذه اللوحة، ستبدو جميلة جداً!

كان هو شارداً في الموسيقى التي كانت تعصر قلبه وكلّ نغمٍ يذكرّه بلارا، كان اللحن كفيلاً بأن يعيد في ثوانٍ قليلة استحضار كلّ شيءٍ حاول نسيأنّه عبر شهور. لكنّ جملة سيلينا أخرجته من عِراك الذكريات ذاك وأثارت فضوله ليسأل بنبرةٍ باردة:

- أيّة لوحة؟

بدأت سيلينا تصف له ما ترى، والموسيقى ترشُّ الملح على جرح الذكريات

- عينا امرأةٍ زرقاوين كالمحيط وشعرها الأشقر كحقل القمح ...

شعر أنّ الدّم قد تجمّد في عروقه، والموسيقى الكئيبة تستمر في العزف وتعتصر قلبه، وسيلينا تكمل:

- أنها جميلة رغم أنّك لم تكمل رسم الملامح..

الموسيقى الباهتة، صورة لارا في مخيلته، ووجهها في تلك اللوحة التي لم يكملها، كلّ تلك الأشياء بدأت تتراكم وتتراكم..

- هل عدم رسم الملامح كان طريقتك الفنيّة لإظهار غموض شيءٍ ما؟ أم أنّك ستكملها بعد حين؟

تلتصق ذكرى لارا في مخيلته، ابتسامتها، نظراتها، غيابها، وخيانتها، وصوت الموسيقى تعزف والأمطار تهطل وجروحه تحترق ... كلّ ذلك تراكم عند شفتيه ليصرخ:

- كفى الآن! هذا يكفي! يكفي!

تنتفض من تأمّلها على صوت صراخه ذاك،
ـ ما.. ماذا هناك؟!
ـ أطفئي موسيقاكِ اللّ عينة هذه!
ـ هل الموسيقى تزعجك؟!
ـ جميع الأصوات تزعجني!
ـ أوه! لم أكن أعلم أن جميع الفنانين متشابهين.
يصمت دون أن يفهم قصدها، ثمّ يسألها بتردد:
ـ ماذا تقصدين؟
ـ أقصد... أتمنى ألّا ينتهِ بك الأمر كفان غوخ إن كانت جميع الأصوات تزعجك، تعلم، دائماً ما أشعر أنّ السبب الذي دفع فان غوخ إلى قطع أذنه اليسرى هو أنّ هناك أغنيةً ميّتة في أذنه، او لربما صدى صرخةٍ يستمرّ بالارتطام في رأسه. على ما يبدو هناك أغنية رمادية كبيرة تحيط بهذا الكون، لا يسمعها سوى الفنانين أمثالكم، وهذا ما دفع فان غوخ إلى قطع أذنه، وإلى الآنتحار في النهاية! ولربما هو ذاته الذي أدّى إلى صمم بيتهوفين!
ـ ما قد يدفع إنساناً إلى الآنتحار هو الصّمت أيّتها الامرأة، الصمت الذي لا يستطيع سماعه أحد.
تحدّق به مطوّلاً، تحاول فكّ شيفرة بؤسه لكن يصعب عليها ذلك. كان لوحةً غامضة مطليّةً بلونٍ واحد، لا شيء سوى صفحةٍ رماديّة تطلب منك أن تبحث عن الوجه الصارخ بها.
ـ ماذا تقصد؟
ـ ستفهمين ذلك قريباً، جميعكم ستفهمون ماذا أقصد.
عند سماعها جوابه الأخير ذاك، لوهلةٍ خطرت لها فكرة موتٍ سوداء، لكن سرعان ما حاولت تجاوزها لبشاعة التخيّل.
كان بيتهوفين لازال مستمرّاً في العزف بكآبةٍ بحتة، وكان قلب آدم لازال يعتصر مع كلّ نغمة، وصورة لارا في اللّوحة الغير مكتملة ملتصقة في خياله بحضرة ذاك المشهد الموسيقيّ.
ـ إذاً، هل ستكملها يوماً؟

تسأله سيلينا كمحاولة لكسر حاجز الصمت، إلّا أن سؤالها ذاك، المتناغم مع احتضار بيانو بيتهوفين، كان قد استفزّ مشاعره وكآبته كلّها دفعةً واحدة ليصرخ بشكلّ هيستريّ
ـ اصمتي! ألم تفهمي! أطفئي هذه الموسيقى اللّعينة وأتركي هذه اللوحات! الآن!
ـ حسناً حسناً أنا آسفة! سأطفئها ولكن لا داعي لهذا الصراخ!
تنظر له سيلينا بصدمة ثمّ بارتباك تطفئ الموسيقى، يعود ليأمرها بلهجة غاضبة ويده ترتجف:
ـ أعطني هذه اللوحة! هاتها!
تتقدم سيلينا منه وتضعها بين يديه بتوتر، يستشعر الورقة بأصابعه، يبدأ بلمس الألوان التي عليها، ثمّ وبأنفاسٍ عالية غضباً وتوتراً يبدأ بتمزيقها، يمزّق ويمزّق ويمزّق وكأنّه يحاول تمزيق صورة لارا من خياله، لكنّ الورقة تتمزّق وخيالها لا يزال ملتصقاً بعينيه.
ينثر فُتات الورق هنا وهناك ويبدأ صوت شهيقه وزفيره يزداد عالياً بسبب توتره وغضبه الهيستريّ.
الصمت يبتلع المكان من جديد، سيلينا تحدّق به وبكلّ شيء بصدمة، وهو يحدّق في ملامح لارا التي تأبى أن تزول رغم عماه، تهمس سيلينا بصوتٍ خافت ومتوتر:
ـ أ.. أنا .. أنا آسفة ...
ـ اصمتي!
يقولها بنبرةٍ غاضبة وكأنّه متعبٌ ممّا أثارته هذه اللحظات القليلة في قلبه. تصمت سيلينا كلّيّاً، ثمّ وبصمتٍ كامل تبدأ تلملم بقايا الورق التي نثرها في كلّ مكان، وتكمل ترتيب الغرفة بكلّ صمت محاولة ألّا تجعله يشعر بوجودها أبداً. يتحسس هو علبة الدّخان التي ترافق جيبه ويقوم بإشعال سيجارته بارتجافٍ لا يتوقف.
تتأمّله بألمٍ كبير... كان يشبه أُغنيةً حزينة بلُغةٍ أجنبيّة قد تسمعها مصادفةً على الراديو. أُغنية تستطيع أن تبكيك رغم أنك لا تفهم شيئاً منها.
تنهي ترتيب المكان بصمت ودون حرفٍ واحد وتجمع كلّ الأوساخ وأعقاب السجائر في كيس القمامة، ثمّ تتجه لمغادرة الغرفة.
كان يسمع صوت خطواتها هنا وهناك، خطوة، اثنتان، خمسة.. بخمس خطوات شعر بها وهي تبتعد باتجاه الباب بكلّ صمت، ثمّ لفجأة يعود صوتها ليهمس له بنبرةٍ هادئة يملؤها الألم:

ـ أتعلم؟ لن يفيدك هذا بشيء ...
تصمت للحظة ثمّ تكمل:
ـ لأنّنا حين نحذف الصور أو نقصّها، نعلم أنّنا نطبعها في ذاكرتنا.
وحين نقتل الرسائل بتمزيقها أو حرقها، نعلم أنّنا نحفرها ونحفظها كلّمةً كلّمة في قلبنا.
وحين نكره أغنيةً ما لارتباطها بذكرى قديمة، نعلم أنّنا نردّدها طوال الوقت في داخلنا.
لذا لا تتوقع النجاة وأنت بهذا اللون الرمادي العاجز!
ـ أخرجي ودعي هذه الجثّة الرماديّة تحتضر بسلام أيتها الامرأة.
يقولها وهو ينفث سيجارته ببرود دون أن ينطق بحرفٍ إضافيٍّ واحد.
لتخرج وتغلق الباب بهدوء، وتتركه يتأرجح في زوايا كلّماتها الواقعيّة بطريقةٍ مؤلمة.
باهتٌ هذا الرَجُل... باهتٌ وصامت!

عرف بيتهوفين أنّنا نُخلَقُ صُمّاً قبل أيّة علّة، ولكنّه أراد أن تصل موسيقاه، فأدرك الحيلة. لا يمكنك معالجة شيءٍ إن لم تصب به. " ضحى أخرس"

****

بعد خروجها تسند برأسها إلى الباب لحجم الكآبة والبؤس في تلك الغرفة الملوّنة. ما زال صوته وهو يصرخ " كفى" يضرب في رأسها. تنظر يميناً ويساراً لكنّها تدرك أنّ والديه لم يسمعا شيئاً بسبب بُعدِ الغرفة عن مكان جلوسهما أو لربما بسبب صوت التلفاز الذي كان يبثّ الأخبار بصوتٍ عالٍ. تتنهّد وقد شعرت بكمية العجز التي به قد أثقلت قلبها.
تتجه لإخبار والدته أنّها انتهت من ترتيب الغرفة، كانت تجلس وزوجها المستلقي على الأريكة وهما يشاهدان التلفاز. تتقدّم بخطواتٍ متثاقلة محاولةً ألّا تُظهر لهما ملامح الألم ممّا حدث. تقول محاولةً الابتسام:
ـ خالتي لقد انتهيت من تلك الغرفة ...
تردّ الأخرى بابتسامتها الحنونة:
ـ سلمت يداكِ عزيزتي!

ثمّ يكمل زوجها:
ـ تفضلي اجلسي لترتاحي قليلاً وتشربي الشاي معنا
ـ شكراً لكما، لكن هناك الكثير من العمل في المنزل ويجب أن أنّهيه
ـ لن يهرب العمل، اجلسي وارتاحي لا بدّ أن غرفة آدم أنّهكتكِ بفوضى اللوحات تلك ...
تأخذ سيلينا نفساً عميقاً وترد:
ـ لا على العكس ... لقد استمتعت بترتيبها كثيراً، أنا أحب الرسم وكانت أمنيتي أن أتعلمه. لذا استمتعت بتأمّل اللّوحات أثناء ترتيبها.
تسألها والدته:
ـ وآدم، من المؤكد أنّه بقيَ صامتاً كعادته.. أليس كذلك؟
ـ نعم...تقريباً.
تتنهّد الأُخرى بحسرة وهي تعطي سيلينا كأس الشاي الساخن، ثمّ يسود الصمت الغرفة لدقائق أثناء تقليب والدة آدم لمحطات التلفاز..
ـ أرجوكِ هلّا أعدتِ المحطة السابقة قليلاً!
تقولها سيلينا فجأة وهي تراقب الشاشة..
ـ أجل طبعاً
تعود بالمحطات واحدة إلى الخلف، تتأمل الشاشة بعينين مندهشتين ...
تلك المذيعة بشعرها البنيّ الفاتح الطويل، ملامحها الجميلة، ابتسامتها وعيناها، كانت هي! أنّها ميساء...!
تقف مكأنّها، المكان الذي بذلت سيلينا جهدها لتصل إليه وفي لحظة أصبح لغيرها، ها هي تبتسم للكاميرا بكلّ تواضع وحب لتبدو لمن يراها أنّها لم تسحق نملةً قط! لكن لا أحد يعرف أنّها قد داست في أحد الأيام بقايا صديقتها لتأخذ مكأنّها. بدأت تتذكّر كلّام "مراد" صاحب المكتب، عندما قال لها لحظة مغادرتها العمل " لم يكنّ مجموعة من الفتيات.. كانت فتاة واحدة " إذاً ميساء هي تلك الفتاة التي أقنعت مدير الشركة بعدم وجود مكانٍ لسيلينا لما حصل بوجهها، فتأخذه هي.
ها هي تتلقى الطعنة التالية بكلّ هدوء من شخصٍ آخر كان الأقرب إلى قلبها. كم هو قبيحٌ هذا العالم، تنظر إلى شعار القناة.. كم اشتاقتً لعملها!

تتنهّد بعمق وبألم كبير، تنظر إلى ميساء للمرّة الأخيرة، ربما هذا ما يرغبه العالم، يريدون الوجوه الجميلة فقط لتظهر لهم أمّام الكاميرات، لكن من المؤسف أنّه لا يوجد من يهتم لحقيقة الكواليس...

ـ هل هناك شيء يا سيلينا؟

تسألها والدة آدم باستغراب مقاطعةً تأمّلها الهادئ

ـ لا.. لا شيء، فقط أنّها القناة التي كنت أعمل بها وحين رأيتها لم أمنع نفسي من التوقف عندها.

تنظر إليها بحزن ثمّ تحاول التخفيف عنها:

ـ لا عليكِ عزيزتي..

تبتسم لها ثمّ تأخذ كؤوس الشاي الفارغة

ـ سأذهب لغسلها، هل تريدون شيئاً آخر؟

ـ سلامتكِ

تتجه إلى المطبخ مبتلعة خيبتها، لكن هذه المرة لم تبكِ، هناك شيءٌ ما كان يهمس في داخلها " لا بأس.. كلّ شيء سيكون على ما يرام .... "

****

يفتح باب المنزل وقد أثقله التعب، يدخل بهدوء وكالعادة أول ما يقوم به هو الذهاب للاطمئنان على حال والده.

ـ مرحباً أبي، كيف حالك اليوم؟

يهزّ برأسه بصعوبة أي أنّه بخير، يقترب غيث ويقبّل جبينه بكلّ الحب والتعب، ثمّ ينظر لأمّه ويلقي السلام بلهجةٍ باردة:

ـ مرحباً

ـ أهلاً يا غيث.. أعطاك الله العافية، سأقوم وأضع لك الطعام لا بدّ أنّك منهك.

ـ لا داعي لهذا، سأضعه بنفسي.

تنظر إليه رانيا وهي تقطب حاجبيها، ليتركها بصمت ويتّجه إلى غرفته لتبديل ثيابه.

تلحق به إلى الغرفة ثمّ تخاطبه بنبرة تأنيب:

ـ غيث انتظر! إلى متى ستعامل والدتك بهذه الطريقة؟! هيّا أخبرني!

ـ حتّى تعود سيلينا إلى المنزل!

تردّ عليه بلهجتها اللئيمة:
ـ هي لن تعود! لأنّ هذا المنزل ليس مكاناً لها. وليكن بعلمك أنّها وإن عادت فإنّي سأطردها مرّةً ثانية وثالثة وعاشرة! هي التي رفضت فرصةً ذهبيّة رغم أنني حاولت تأمين مستقبلٍ لها تحلم به جميع الفتيات. لكنّها رفضت وفي النهاية هي الخاسرة، لذا هيّا يا بُني.. كفّ عن معاملتي هكذا من أجل تلك الفتاة، هي ابنة عمّك أمّا أنا فأمّك!
ـ أولاً، هذا المنزل الذي تجلسين تحت سقفه الآن والذي تتباهين أنّه ملكٌ لكِ، لم تكوني لتحلمي به لولا سيلينا! ثانياً، لا يوجد أيّةُ فتاةٍ بعمرِ سيلينا تحلم أن تتزوج برجلٍ عجوز! وثالثاً يا أمي، سيلينا ليست ابنة عمّي وحسب! أنّها تماماً مثل شقيقتي، أقسم لكِ لو أن أبي ليس بوضعه هذا لكنتُ نفذتُ كلّمتي تلك حين وعدتكِ أن أترك المنزل إن طردتها منه. لكن أنا هنا الآن لأنّ أبي في حاجةٍ إليّ! أتفهمين!
تنظر إليه نظرةً مليئة بالحقد واللُئم ثمّ تخرج بغضب من غرفته، ليغلق الباب من بعدها ويستلقي على سريره بثياب العمل المتّسخة من فرط التعب، ويغرق ككلّ يومٍ في دوامة همومه وأفكاره. يومٌ جديد من العمل، بالكاد يستطيع أن يُغطّي مصروف المنزل دون أن يحرم عائلته من شيء. كم أنّهكه هذا العمل! طالب هندسة مثله لم يكن ليتصور يوماً أنّه سيعمل سائق ميكرو باص! لقد بحث عن مئة وظيفة وأكثر حسب دراسته لكنّه لم يجد. وظائف التعليم ممتلِئة في المدينة من جهة، ومن جهة أُخرى هو لم يتخرّج بعد ليستطيع إيجاد فرص عملٍ أوسع. كان العمل على هذا الميكرو باص بدلاً عن والده بعد مرضه هو الحل الأنسب والأسرع، فليس من المنطقيّ أن يترك عائلته بلا مصروف لحين أن يجد وظيفةً مناسبة. لذا، قرّر أنّه سيوفّق بين العمل والدراسة، ولكن... ها هو بعد أكثر من شهر قد اضطر لترك الدراسة نهائياً بعد أن رسب في امتحاناته نتيجة الآنشغال بالعمل، ورأى أن فكرة الإعادة وإكمال دراسته هي مصاريف زائدة في وضعهم الراهن حيث أنّ العمل لا يترك له لحظة واحدة مناسبة للدراسة.
ها هو.. الشاب الذي حلم بدراسة الطب، فدخل كلّيّة الهندسة، يعمل سائقاً على الميكروباص...
" هذه الحياة مهزلة ... مهزلة! "
يهمس في نفسه، ودون أن يشعر يغرق في نومه بجسدٍ خائر القوى ...

****

"ستبقين جرحاً في خاصرة سعادتي،

كالقوس الذي يداعب الوتر ليجبره على الآنين"

أحمد كوكش

هذا الحزن ملوّثٌ جداً، يصيب البجعات بالشلل، تعلن الحوريات انتحارها عند رؤيته، ويقتل الأغنياتِ بالصمت العقيم. ربما كان سيغدو ملوّناً كقُبلة، لو أنّ كفّك كانت بعمق الوسادة، لو أنّ الوسادة كانت بعمق السماء، لو أنّ السماء كانت تنبت تحت جلدي...

ـ كم يلزمنا من الوقت كي نتجاوز هذا الصمت وندخل حياة الصوتِ يا سيلينا...؟
ـ ولماذا قد نرغب بتجاوزه؟
ـ أريد التعري من الصمت، صوتي يخنقني.
ـ الحياة بدون صمت ستكون بائسة، تخيّل كلّمات أُغنيةٍ بلا مساحة لحنٍ فيها. فقط تخيّل يا عزيزي، مقدار التعب في قلوبنا الثقيلة لو أنّنا لا نعرف التنهيدة. أنّه تماماً مثل تعب وترٍ يعزف طوال حياته دون سكتةٍ موسيقيّةٍ واحدة. الصمت هو ظلّ الصوت يا عزيزي، ولنّ يرى ظلّك سوى من يتقن التحديق بك جيّداً في الظلام.

تقوم بمسح الماكياج تماماً من على وجهها استعداداً للنوم، وتغرق في النظر إلى نفسها في المرآة ككلّ يوم وهي تلعن ندوبها وملامحها القبيحة.

" اليوم رسمت صورتي الشخصيّة، ففي كلّ صباحٍ عندما أنظر إلى المرآة أقول لنفسي: أيّها الوجه المكرّر، يا وجه الآنسان القبيح، لماذا لا تتجدد؟
أبصق في المرآة، وأخرج..."

تتجه بنظرها إلى الكمان ثمّ تمسك به بكلّ هدوء، تريد وبشدّة أن تعزف في هذه اللّحظة تماماً لكنّها تخشى إزعاج أصحاب المنزل، لذا تحاول كبح رغبتها بالعزف وتبقى جالسة في مكانّها واضعة الكمان في حضنها وتكتفي بتحريك أوتاره بصمت وهدوء. يقتحم شرودها ذاك صوت نقراتٍ على الباب وصوت والدة آدم تستأذنها للدخول:
- عزيزتي سيلينا، أيمكنني الدخول؟
ترتبك سيلينا قليلاً وهي تفكّر بالأمر الذي لا تحبّه أن يحدث. ستراها بكلّ تشوهاتها وفوق هذا بدون الماكياج، تنزل شعرها على نصف وجهها بسرعة، ثمّ تجيب بارتباك:
- بالطبع! تفضلي.
تدخل بابتسامتها اللطيفة وهي تحمل غطاء سريرٍ سميك، تنظر إلى سيلينا وهي تضع الكمان في حضنها جالسة على طرف السرير، ثمّ تحدّق في وجهها بصمت للحظات وكأنّها لاحظت أنّه بدون الماكياج تبدو تشوّهاتها أوضح ممّا كانت تراها. وعندها أخفضت الأُخرى رأسها للأسفل خجلاً من وجهها وكأنّها فهمت ما تحدّق به. انتبهت إلى نفسها ثمّ قالت:
- أردت أن أحضر لكِ غطاء السرير هذا، أنّه أكثر سماكة من الذي على سريركِ فالجوّ باردٌ جداً. وأخبريني إن كنتِ تريدين شيئاً قبل النوم لا تخجلي يا ابنتي!
- أوه شكراً جزيلاً لكِ خالتي، أنا لا أحتاج شيئاً لا تخافي
- العفو عزيزتي
تعود لتنظر إلى الكمان الذي في حضنها،
- كم هي جميلة هذه الآلة!
- أجل.. كانت هدية من أمي وأبي
- رحمهما الله..
تصمت الاثنتان ثمّ تكمل:
- وهل تجيدين العزف عليها؟

ـ أجل بالتأكيد، أنّها ترافقني منذ سنواتٍ كثيرة، أنّها جزء من روحي.
ـ أوه كم هذا جميل! إذاً سأذهب للنوم الآن وأتركك تستمتعين بعزفك...
حين سمعت سيلينا هذه الجملة من فم المرأة المبتسم، ردّت عليها بانفعال:
ـ أتقصدين أن ذلك لا يزعجكم؟
ـ ما هو المزعج في الأمر؟ العزف؟ بالطبع لا! لا يوجد سبب لننزعج بالتأكيد. أنا وزوجي في الأصل لا يمكن أن نسمع الصوت، غرفتنا بعيدة عن غرفتكِ كما رأيتِ. وأمّا بالنسبة لآدم فأنتِ ترين أنّه يغلق باب غرفته طوال الوقت..
لذا لا بأس أعزفي بحريّة ...
ـ أوه شكراً جزيلاً لكم حقاً!
ـ لا داعي للشكر. أخبرناكِ أنّه منزلكِ يا عزيزتي، والآن عليّ أن أذهب للنوم فالنعاس أرهقني، تصبحين على خير.
ـ تصبحين على خير...
تذهب وتترك باب الغرفة مفتوحاً، لتبقى سيلينا وحدها في موعد مع الكمان أخيراً.
تأخذ نفساً عميقاً والأفكار تتخبّط في رأسها. والداها، عمّها، رانيا، سامي، لارا، والآن ميساء. أيّة معزوفة تستطيع أن تضمّد كلّ هذه الطعنات؟ تنظر إلى الكمان بصمت، لتجد نفسها تتجه إلى الطاولة التي تضع عليها أغراضها، تسحب دفتر النوتات الموسيقيّة، الصفحة الأخيرة، علامّات موسيقيّة سوداء وبيضاء متناثرة، خربشات تملأ الصفحة، وحده من كتب هذه المعزوفة يستطيع فكَّ شيفرة الخربشات هذه، أي أنّها الوحيدة التي تستطيع القيام بذلك، هي التي ألّفتها، سيلينا.
لأنّ هذه المقطوعة هي ترجمة مشاعرها، أنّها تنهيدتها الخاصة والتي لم يسمعها أحدٌ من قبل.
تغمض عينيها، تأخذ أعمق نفسٍ في التاريخ، وبكلّ قوّتها وضعفها، ستعزف...

" أريد أن أسافر في النجوم، وهذا البائس جسدي يعيقني"

" على ما يبدو هناك أغنية رمادية كبيرة تحيط بهذا الكون، لا يسمعها سوى الفنانين أمثالكم. وهذا ما دفع فان غوخ إلى قطع أذنه، وإلى الآنتحار في النهاية! ولربما هو ذاته الذي أدّى إلى صمم بيتهوفين! "
لازالت جملتها تلك تدق في رأسه، وذلك أمرٌ طبيعيّ بالنسبة لرجلٍ يفكّر طوال الوقت في أنّهاء حياته.

" ما قد يدفع إنساناً إلى الآنتحار هو الصمت أيتها الامرأة. الصمت الذي لا يستطيع سماعه أحد."
كان بائساً كنهاية فيلم التايتنك، لا يوجد فيه فرصةٌ أخرى لبدايةٍ جديدةٍ أبداً. قد ابتلع الاكتئاب حياته تماماً كما ابتلعت الأمواج بطل الفيلم. ولذلك أنّها الليلة الأخيرة له هنا.
" ـ ماذا تقصد؟
ـ ستفهمين ذلك قريباً، جميعكم ستفهمون ماذا أقصد. "
كان يتخيّل دائماً أنّ لحظة موته ستكون بين ذراعيّ الامرأة التي أحبّها، أو أنّه على الأقل سيحظى بعناقٍ أخيرٍ من أمّه وبنظرةٍ عميقة من والده. لم يكن يتخيّل ليومٍ أنّ نهايته ستكون هكذا، سوداء، باهتة، في هذه الغرفة الصامتة، وأنّه هو من سيصنعها بنفسه.
" ولكن كيف سينتحر رجلٌ أعمى مثلي، وهو عاجزٌ عن رؤية حبل المشنقة حتّى؟" صوتٌ يسخر منه في داخله، أيعقل أنّه عاجزٌ حتّى عن الموت؟
"لا!" يقولها بانفعال وهو ينهض من على كرسيّه " لازلت أحفظ ملامح غرفتي! أحفظ أين أضع تلك السكين الفضيّة الصغيرة، وأحفظ أين هي شراييني وأوردتي! إنني أستطيع رؤية نور الموت رغماً عن هذا العمى!"
كان يخاطب نفسه بألم وهو يمشي قليلاً قليلاً متحسّساً الطريق بعصاه إلى خزانته. دموعه الحارّة تنهمر بصمتٍ على لحيته الكثيفة، ولكن لا بأس، أنّها المرّة الأخيرة التي سيبكي بها. هذا ما كان على يقينٍ تامٍ به حين تحسس وجود السكين أخيراً في مكأنّها تحت ملابسه.

يداه ترتجفان، تنفسه مضطّرب، السكين فوق جلده، يردد:
" سأسمح للعجز أن يأكلّ كلّ شيء، إلّا أن أكون عاجزاً عن وضع نهايتي، عن وضع نهايةٍ لكلّ هذا! هكذا يا لارا، وأيها اللون الأسود في عيني، أنا عاجزٌ عن الحياة ولكنني لستَ عاجزاً عن الموت."
"للرماد طعمٌ مُر بالعادة نألفه، ثمّ ندمنه، كالحياة تماماً. كلّما تقدّم العمر بنا غدونا أكثر تعلّقاً بها، لأجل ذلك أغادرها في أوج اشتعالي...ولكن لماذا؟! أنّه الإخفاق مرّةً أخرى. لن ينتهِ البؤس أبداً"*
ثبّت السكين فوق معصمه، وها هو الآن، لم يعد يتطلّب الأمر سوى أن يسحب السكين فوق جلده. أخذ نفسه الأخير، و...
واحد
اثنان
ثلاثة...
"دو"
....

---
*رسالة انتحار فان غوخ لثيو "نبيل صالح"

ولكن هل للجراح صوت؟
"سي"
للحظةٍ ظنّ أنّ الأمر كان قد انتهى، ولكن سرعان ما بدأ يعود إلى وعيه ليكتشف أن السكين لازالت ثابتةً فوق معصمه، وأنّ يده لازالت بذات الارتجاف دون أن تتحرّك.
"لا"
إذاً... لم يكن صوت سكينٍ تمزّق الجلد، كان صوت قوسٍ يلامس الوتر. وتر كمنجةٍ هادئة حدّ التعب.
"دو"
لا يعلم من أين أتى هذا الصوت فجأة، لا يعلم من أين قفز هذا اللحن في اللحظة الأخيرة من محاولته لتحريك السكين بقسوة فوق معصمه. أهو من المذياع؟ من التلفاز؟ لا يهم... سيتجاهل الأمر ويتماسك أعصابه لينهي الأمر كوخزةِ إبرة.
"سي"
بعد صمته لثوانٍ، يأخذ نفساً مضطرباً، ثمّ يعود للتركيز مجدّداً. أجل، عليه التركيز، لا يريد أن يكون موته بطيئاً. لا يريد أن يكون فاشلاً حتّى في صنع نهايته.
"صول"، ثمّ سكتة موسيقيّة تجعل اللحن يصمت لبرهة.
ما يدفعه وبلمح البصر دون وعي، أن يأخذ نفسه الأخير، يثبّت السكين بقوّة مانعاً يده من الارتجاف هذه المرّة، و...
"دو"
تقفز السكين من يده
"تبّاً لك!"
يقولها بانفعال بعد أن عاد اللحن فجأة وأصابه بالذعر دون سابق إنذار.
"سي"
العَرق ينهمر من جبينه بغزارة، يداه ترتجفان، صدى وقوع السكين لازال في أذنه ومعصمه لازال متأهباً للحظة النحر. ومع كلّ هذا، الموسيقى مستمرّة...
صمت لثوانٍ متسمّراً في مكانه وهو ينصت إلى صوتها القادم من خارج الغرفة. هو على يقينٍ تام بأنّ والديه سيكونان نائمين في هذا الوقت، أي أنّ الصوت يستحيل أن يكون من تلفازٍ أو مذياع، غير أنّ غرفة الجلوس بعيدة وأصواتها لا تصل لغرفته.

يشعر بالغضب وهو لازال يرتجف، الغثيان، التوتر، أنّه عاجز حتّى عن عناق الموت كما يريد!
يأخذ نفساً عميقاً وهو يشعر بعَرقه ينهمر أكثر وأكثر.
فجأة بدأ يسمع صوت اللحن يرتفع بطريقةٍ تجبره على التركيز في ماهيّة الصوت والإصغاء. كان الصوت غريباً يمسك قلبه رغماً عنه.
كان لحناً حزيناً، هادئاً، بطيئاً لكنّه يثير العواطف بسرعةٍ قصوى، إن أنصتَّ إلى ذلك اللحن كما يجب يمكنك أن تشعر بالجمرة التي كانت تسكن في قلب مؤلّفها أنّها في يدك.
كان لحناً شتوياً، كان قاسياً وحنوناً، كان جرحاً كبيراً، وضماداً واسعاً، واسعاً جداً، لدرجة أنّه استطاع أن يمتدَّ إلى الغرفة المقابلة...
يجد نفسه يمسك بعصاه التي يحاول بها تحسّس الطريق ويتّجه قليلاً قليلاً إلى موقع باب غرفته حيث يأتي الصوت من الخارج. هو الرجل الذي لم يُغرِه الالتفات لمصدر صوتٍ منذ شهور يلتفت الآن بدون وعي باحثاً عن منبع هذا الصوت عنوةً عن بروده.
الموسيقى لا تستطيع تجاهل البؤساء.
كانت سيلينا تعزف وتعزف دون أن تتوقف، وكان هو مع كلّ نغمةٍ يتقدّم خطوة تلوَ خطوة وهو يتدارك طريقه بعصاه تلك.
وكأنّ الوتر كان صراطاً مستقيماً يحاول إنقاذه من جهنّم العمى إلى جنّة النّغم.
الكثير من الخطوات التي يملؤها الفضول، دقّات القلب المتسارعة مع الإيقاع، بعدها، استطاع أن يصل إلى الباب ويضع أذنه على سطحه الخشبي.

إن كان الألم إنساناً وله صوت، فمن المؤكّد أنّ هذه الموسيقى هي صوته. كان اللحن الذي يتسلل له يُمسِك بقلبه ويعتصره بألمٍ مرير، مرير لكنّه لذيذ!
ورغم اقترابه من اللحن أكثر إلّا أنّه مازال ضبابياً غير واضحاً بعض الشيء، لذا ودون شعورٍ منه يتحسّس قبضة الباب المعدنيّة ويفتحها وكأنّ شيئاً ما قد خدّره تماماً، أهو الفضول أم هي الموسيقى؟ لا يهم.. المهم أنّه يريد أن يقترب من الصوت أكثر.
لم يكن يرى الطريق، لكنّه كان يمشي إلى مصدر الموسيقى، كلّما اقترب أكثر أدرك أنّها آتية من الغرفة المقابلة لغرفته، وإذ به يصل عند باب الغرفة المفتوح حيث باتت الموسيقى تلتصق به الآن تماماً.

كانت سيلينا غارقة في العزف، مغمضةً عينيها ولذلك لم تنتبه لوقوفه عند الباب. وأمّا هو، مع عزفها ذاك كان يشعر أنّه يصرخ بصوتٍ عالٍ في داخله، وتلك الصرخات لم يستطع شيءٌ إخراج صداها من جدران قلبه سوى هذه المقطوعة التي يسمعها لأوّل مرّةٍ في حياته.
شعر أنّه يريد أن يبكي، أن يئنّ كذلك الكمان تماماً، لكنّه رغم ذلك بقي صامتاً مجرّداً من كلّ هالات الحزن أمام حضرة الموسيقى. بدأ يتذكّر كلّ شيء، وأيّ شيء. شعر بقلبه ينام بتعب، وبجسده يرتخي تماماً، للدرجة التي لم يشعر بها بشيء سوى بالصوت الذي يحتضنه، ما جعل عصاه ودون وعيٍ منه تنزلق قليلاً قليلاً من يده حتّى تسقط وترتطم بالأرض محدثةً صوتاً عالياً انتفضت عليه سيلينا بذعرٍ كبير. تنظر إلى مصدره فترى آدم واقفاً بكلّ هدوء على الباب ما يجعلها تشهق بفزعٍ دون أن تشعر. الصمت يسود لثوانٍ كثيرة، حين توقفت تلك الموسيقى وارتطمت العصا، خرج آدم من غرقه في غياهب الشعور واللاشعور وعاد في لحظةٍ كالوهم إلى وجوده الرماديّ وتدريجيّاً بات يدرك أين يقف بعد أن سمع شهقتها.
تحدّق به لخمس دقائق بكلّ صمت تماماً كما كان هو يحدّق في العدم بصمت. لم تكن لديه رغبة في الكلّام ولا في الاعتذار على إفزاعها حتّى. هو لا يعلم أيُّ مخدّرٍ هذا الذي أتى به إلى هنا. لكنّه بقي واقفاً في مكانه دون حراك.
تهدأ من فزعها تدريجيّاً وتبدأ أنفاسها تنتظم قليلاً قليلاً وهي مازالت تحدّق به، ثمّ بهمسٍ منخفض تقول وصوتها يرتعش:
ـ أ.. أتريد شيئاً سيد آدم؟
لكن لا صوت يصدر منه سوى أنفاسه، لتكرر سؤالها:
ـ هل أساعدك بشيء؟
ولشعوره بالإحراج يجيب بنبرةٍ باردة وبقليل من الارتباك بصوته الرجوليّ المبحوح:
ـ لا.. لا شيء، لقد كنتُ ... كنتُ أريد الذهاب لأحضر كأس ماء وقد سقطت العصا مني هنا.
تتأمّله سيلينا وهي تعرف أنّه يكذب، فوقوفه الثابت عند الباب بتلك الطريقة يدلّ أنّه كان يقف منذ زمنٍ هناك، لكنّها تتجاهل الأمر وتردّ عليه:
ـ أوه حسناً، يمكنني أن أحضره لك إن أردت

ـ لا.. لا بأس، سأحضره بنفسي ...
يلتفت ليغادر مكان وقوفه، فتقوم سيلينا وتتجه نحو الباب لتلتقط العصا من الأرض
ـ سيد آدم، نسيت العصا
يمدّ يده ببرود للفراغ فتضعها في كفّه، يشعر أنّه أمسك بالعجز مجدّداً.. ثمّ يسير بصمت متحسّساً طريقه إلى غرفته.
ـ سيد آدم ...!
يتوقف مكانه على صوتها مجدّداً
ـ كنت أريد أن اسألك إن كان صوت عزفي وصلك عالياً وأزعجك، هل هو كذلك؟ أنا آسفة حقاً لكنّ والدتك أخبرتني أنّه كونك تغلق الباب على نفسك فلن يصلك الصو..
ـ لا أبداً.
يقاطعها بانفعالٍ وبرودٍ معاً، ثمّ يكمل
ـ لا بأس، لم يزعجني.
تسأله مبتسمة ابتسامة خفيفة:
ـ وهل هذا يعني أنّه بإمكاني الاستمرار بالعزف؟
يتأمّل آدم في صوت سؤالها ذاك، كان يريد أن يقول "نعم رغم أنّك رششتي الكثير من الملح على جروحي!" لكنّه لا ينطق بحرفٍ واحد، ثمّ يُكمل تدارك طريقه بعصاه تلك حتّى يصل إلى الغرفة ويدخلها مغلقاً الباب بهدوء، تاركاً سيلينا خلفه تتأمّل رحيله الصامت الكئيب.
"إذاً هي التي كانت تعزف.." يقولها في نفسه. هي التي قاطعت جرحَ السكين ليده، لتجرح روحه بقوس كمانها.
بعد دقيقتين، وبعد أن عاد للجلوس في ذات المكان وفي ذات السواد، يسمع ثلاث دقّاتٍ على باب غرفته، ثمّ صوت سيلينا:
ـ أيمكنني الدخول؟
لكنّه لا يرد، ليسمع صوت الباب ينفتح بهدوء ومن ثمّ خطواتها تقترب منه حتّى تصل إليه تماماً، تهمس بصوتها:
ـ لقد نسيت أن تأخذ الماء الذي أردتّه، لذا أحضرته لك قبل أن تنام ...
ـ شكراً.

ـ العفو.
تتأمّله لثانيتين بصمت، ثمّ يبدأ بسماع صوت خطواتها تبتعد، لكنّه ودون إرادته وبرغبةٍ كبيرة وباندفاعٍ لا إراديّ يستوقفها منادياً:
ـ آنسة سيلينا!
تتوقف سيلينا وتلتفت إليه باستغراب، هذه أوّل مرة يناديها ويبادر هو بالكلّام، وعندما أدرك توقّفها أكمل:
ـ قد سألتيني إن كان بإمكانك الاستمرار بالعزف.
ـ أجل فعلت. لكنّك بقيتَ صامتاً ولم تجبني. لا بأس أحترم أنّ الصوت قد يكون مزعجاً، أنا آسفة..
ـ لكنَّ الصمت علامةُ الرضى. ألم تقولي هذا؟
تبتسم سيلينا رغماً عنها لثوانٍ،
ـ أجل قلت ...
ـ الصوت ليس مزعجاً، إنّه مؤلمٌ فقط.
ـ هناك أمورٌ تستحق أن نتألّم لأجلها، وأن نواجه ألمها دون هربٍ منه.
يصمت غارقاً في قولها، لم يجب سوى بـِ:
ـ يمكنك العزف إن أردتِ
ـ حسناً... يسعدني أنّ الصوت لا يزعجك. والآن طابت ليلتك.
لكنّه لا يردّ بكلّمة واحدة، حتّى أنّه ما زال مستغرباً من نفسه كيف تكلّم معها دون أن يشعر. تهز رأسها باستغراب ونصف ابتسامة تسخر من عدم فهمها هذا الرجل حتّى الآن، لتتركه وتبتعد عنه خطوةً خطوة. تخرج من الباب دون أن تغلقه و تتركه مفتوحاً وراءها عائدةً إلى الغرفة بينما لا زال يسمع صوت خطواتها تبتعد، قليلاً قليلاً، تماماً كصدى تلك المقطوعة التي مازالت تعزف في أذنيه.
تجلس على سريرها مجدّداً، تمسك بكمانها، لتعود وتبدأ بعزف ذات المقطوعة وبذات الهدوء والحزن، فيتسلّل الصوت مجدّداً إلى غرفته ولكن هذه المرة أوضح ويمكنه سماع كلّ نغمةٍ فيه وكأنّه ملتصقٌ بمصدر الصوت. ذلك لأنّ سيلينا تركت الباب عمداً لأجله كي يستمع.

استمرّت بالعزف، واستمرّ هو بالاستماع بصمت. كان كلّ الألم الذي في داخله يخرج متدفّقاً حتّى بات يبكي دون أن يشعر. استمرّ بالبكاء مع عزفها وبصراع الذكريات حتّى نام، وكانت أوّل مرّةٍ منذ شهور ينام وهو يشعر. كان الشعور يملؤه أخيراً رغم وجوده الباهت، وكأنّ قلبه كان مخدّراً من كلّ شيءٍ حتّى من الشعور بالألم، للحين الذي وخزت هذه المقطوعة مشاعره حدّ النزف والبكاء.
لقد غاب عنه كلّ شيء في حضرتها، غاب وجه لارا، وغابت رغبة الموت التي كانت تعانقه منذ قليل، وحتّى السواد الذي يسكن عيونه قد غاب. لا يعلم من أين أتت هذه الموسيقى فجأة تلك اللّيلة، كلّ الذي يعلمه أنّه لولاها لكانت روحه الآن في جحيم الموت.
كان هناك شيءٌ في داخله يخبره أنّ هناك سبباً واحداً للحياة، سببٌ كافٍ ليمنع إنساناً بائساً مثله من الانتحار، وهو أنّ هناك الكثير من الموسيقى التي لم يحظَ بلذّة تذوقها بعد.

أؤمن بأنّ السلم الموسيقيّ يقود إلى الفردوس.
أؤمن بالمعجزات، وبأنّ أغنيةً واحدة قادرة على إنقاذ مئات الأرواح الصامتة.

****

يقف ملتصقاً بالنافذة وهو يتأمّل الشوارع المقابلة له بصمت "كم هو سهلٌ شراء كلّ هؤلاء الناس إن كنت تملك السُلطةَ والمال!" يهمس في داخله بتلك الجملة وهو يدخّن غليونه ويبتسم ابتسامته الماكرة. يقاطع شروده فجأةً قبلة على خدّه وصوت لارا:
- صباح الخير عزيزي
- صباح الخير لجميلتي!
تُناوله فنجان قهوته، ثمّ تقف بجانبه عند النافذة
- بِمَ تفكّر منذ الصباح؟
- لا.. لا شيء
- ذات الموضوع أليس كذلك؟
- أيُّ موضوع؟
- سيلينا.

يتنهّد بعمق ثمّ يجيب:
ـ ليس من المعقول كيف اختفت يا لارا! إنني لا أجدها ولا أستطيع الوصول لأيّة معلومةٍ عنها ... لو أنّني أقابلها مرّةً واحدة فإنّني سأستطيع كسب قلبها مجدّداً والاستمرار معها حتّى تضع نصف الشركة باسمي، لكن عبثاً! اختفت للأبد ولن أستطيع الحصول على ملكيّة الشركة اللعينة هذه نهائياً!
ـ سامي عزيزي، عاجلاً أم آجلاً ستجدها وستكون هذه الشركة لك وحدك كما تريد أنا واثقة، فقط انتظر...
ـ الانتظار ... أجل هذا كلّ ما بوسعي فعله.
تصمت قليلاً ثمّ تعود وتسأله:
ـ سامي، إن كان نصف الشركة باسم سيلينا... ألا تجد صعوبة في العمل؟ أعني ألا يتوقف عملكم أحياناً من أجل توقيعها أو شيءٍ من هذا القبيل؟
ـ لا ليس كثيراً... أحياناً نواجه هذه العواقب لكنني أتدبّر الأمر.
ـ أوه هذا جيد!
ثمّ تكمل مبتسمة:
ـ وكيف تجد أخي أنور؟ أهو بارعٌ في العمل كزوجي؟
ـ أجل.. لا بأس به. إنّه يخطئ في بعض الأحيان لكنني أتحمّله من أجل أخته.
تضحك بينما يتأمّل وجهها ذو الملامح الفاتنة. يعيشان هكذا كلّ يومٍ دون أن يرفّ لهما رمشٌ لما اقترفاه.
حقيقةً لا تهمّهما القلوب التي داسوها من أجل حبّهما القذر هذا. المهمّ أنّ جمال لارا يروق لسامي الذي تخلّى عن سيلينا بسبب قبحها، وأنّ أموال سامي تروق للارا التي تخلّت عن آدم بسبب فقره وعجزه.

حين يكون الحبّ مبنيّاً على الجانب الماديّ، هل يكون حبّاً حقاً أم لعبة مقامرة؟
كلاهما يعلم الإجابة، لكنّهما يتجاهلانها في سبيل اللذّة.

يتجه سامي إلى مكتبه وهو يقول لها:

ـ بالمناسبة، شقيقك أنور سيأتي اليوم معي إلى المنزل على العشاء، لدينا بعض الأمور التي نحتاج لمناقشتها بخصوص العمل.
ـ حسناً، جيّد أنّك أخبرتني لأحضّر العشاء باكراً. ولكن أمور ماذا التي ستتحدثان بها؟ ألستم تنهون كلّ شيءٍ في الشركة؟
ـ أخبرتكِ، أمور عمل.
ـ أجل! لكنّ الأمر يحيرني صراحةً! أنور لا يعمل سوى سائق على شاحنة وينقل البضائع من هنا إلى هناك، لكنّ مكالماتكما كثيرة وأعمالكما لا تنتهي، أليس كذلك؟
ينظر لها وهو يقطب حاجبيه ثمّ بنبرة صارمة يردّ:
ـ لارا! أخبرتكِ مئة مرّة ألّا تتدخلي بعملي! أتفهمين؟!
ـ حسناً لا تغضب!
ـ والآن عليّ الذهاب، وداعاً.
يطبع قبلة على جبينها ثمّ يذهب ويتركها في فضولها. يحيّرها أمر عمل سامي وأنور كثيراً. تشعر أنّ هناك شيئاً ما لا تعرفه.

يركب سامي سيارته ثمّ يتصل بأنور:
ـ مرحباً أنور، كيف حالك؟
ـ أهلاً سامي، أنا بخير وأنت؟
ـ بخير. اسمعني جيّداً، حين تأتي إلينا اليوم إن سألتك لارا عن العمل ستجيبها كالعادة وإياك أن تخطئ بشيء!
ـ بالتأكيد! لا أحتاج إلى التنبيه بخصوص هذا الأمر لا تقلق.
ـ جيد، لأنّ فضولها يزداد كلّ يوم وأخاف أن توقعك بالكلام.
ـ لا تقلق لن يحدث هذا.
ـ حسناً، انتبه للعمل جيداً، وداعاً.
ـ وداعاً.
يغلق الهاتف ويشغّل محرّك السيارة متجهاً إلى عمله، عمله البريء. مجرّد مدير لشركة نقل، لكن لا أحد يعرف الوجه الثاني لعمله ذاك، تجارة المخدرات...

لطالما استغلّ عمله في شركة النقل بمكرٍ شديد، يجني الأموال الطائلة من هذه التجارة القذرة والتي لا يعرف بها أحد سوى أنورٍ شقيق لارا والذي يشاركه العمل بها بعد أن عاش حياة يملؤها الفقر. حين عرض عليه سامي أن يهرّب المخدّرات في الشاحنة التي يعمل عليها كسائقٍ عادي، كان واثقاً أنّه لن يرفض، فالأموال ستكون كفيلةً بإغرائه، وبالفعل هذا هو ما حصل، وما يستمرُّ بالحصول بكامل الهدوء.

****

ثلاث دقّاتٍ على الباب، يليها صوت جواد:

ـ صباح الخير آدم!

ـ أهلاً جواد.

يسمع صوت خطواته متقدّماً حتّى يشعر به يجلس بجانبه كالعادة

ـ كيف حالك؟

لكن آدم كالعادة أيضاً لا يجيب، يوقن أنّ جواد يعلم كيف هو حاله بالفعل.

يحدّق جواد حوله وهو يتأمّل الغرفة باستغراب، ليسأله بلهجة مندهشة:

ـ من رتّب لك الغرفة بهذه الطريقة الرائعة؟! أنا لم أرها بهذا الحال منذ شهور!

يجيب آدم بنبرةٍ ساخرة:

ـ وأنا لم أرها منذ شهورٍ أيضاً، حقيقةً لم أرَ أيّ شيء منذ زمنٍ طويل!

ـ بحقّك آدم! أجبني من رتّبها وأمّك بالكاد تستطيع حمل نفسها وأنت غارقٌ في سجن كآبتك!

ـ إنّها تلك الفتاة التي أحضرَتها والدتي، اسمها سيلينا، ستقيم معنا لتساعد والدتي في المنزل

ـ أوه! يبدو أنّ لديها ذوقاً فنيّاً رائعاً، لقد جعلت من غرفتك متحفاً يا رجُل

يشعر آدم بقليل من الفضول لرؤية غرفته، ثمّ يبدأ تدريجيّاً بتذكّر تلك اللحظة التي أتت بها سيلينا حين رتبت الغرفة. حين شغّلت تلك الموسيقى الحزينة على جهازها وبدأت تصف له لوحة لارا غير المكتملة. يذكر كيف صرخ في وجهها بحدّة، شعر بقليلٍ من تأنيب الضمير، لكنّه تجاهل الأمر فهو طبعاً لن يعتذر. لم يجبرها أحدٌ على نبش مقبرة أحزانه، لم يجبرها أحدٌ على تذكيره بلارا ... لارا ...

ـ جواد ...أتعرف شيئاً جديداً عن لارا؟
يتنهد جواد ويأخذ نفَساً عميقاً. في كلّ مرّة يجب أن يسأله آدم هذا السؤال، تزعجه فكرة أن يموت صديقه حسرةً من أجل فتاةٍ لم تكترث. لكنّه يضبط أعصابه مراعياً مشاعره ويجيب كالعادة:
ـ لا يا آدم، لا أعرف ... هي الآن فتاة متزوجة ولها حياتها الخاصة لذا من أين لي أن أعرف أخبارها، حتّى زواجها لم أكن لأعرف به لولا أنّي رأيتها في المحكمة كما قلت لك.
يصمت آدم مبتلعاً ألمه كالعادة، وكأنّه لا يستطيع تقبّل فكرة أن لارا قد تخلّت عنه، إلى الأبد...
صوت طرقاتٍ خفيفة على الباب يأتي ليقطع حديثهما
ـ تفضل..
يردُّ جواد، لتدخل سيلينا وهي تحمل كأسين من العصير، مغطّيةً نصف وجهها بشعرها وواضعة على النصف الآخر الماكياج الذي يدل أنّها بذلت جهداً كبيراً في محاولة تغطية الندوب وآثار التشوّهات التي تملأ وجهها، لكنّها كالعادة وككلّ مرّة وككلّ محاولة، تفشل في إخفاء ذلك.
ـ مرحباً
ينظر إليها جواد وهو يتأمّل وجهها قاطباً حاجبيه دون أن يشعر متأثراً بما يرى، تلحظ ذلك وتخفض رأسها بألم وخجل ليأنّب نفسه على تلك النظرة ثمّ يرد محاولاً تدارك الأمر:
ـ أهلاً آنستي! من المؤكد أنّكِ سيلينا التي رتبت الغرفة بهذه الطريقة الخيالية!
تبتسم قليلاً وترد:
ـ هذا من لُطفك... أجل أنا سيلينا
ـ تشرّفنا، وأنا جواد، صديق آدم
كان آدم العضو الصامت كالعادة، وكأنّه ليس موجوداً، كأنّه مزهرية على الطاولة أو جداراً من جدران الغرفة الأربعة.. جامدٌ صامت.
ـ تشرّفت بك سيد جواد
ـ شكراً لكِ

تضع كأس العصير أمّام جواد والكأس الآخر أمّام آدم
ـ أتريدان شيئاً قبل خروجي؟
ـ لِمَ لا تنضمين للجلوس معنا؟ تفضلي ...
ـ أوه شكراً، لكن لا أرغب في إزعاجكما..
ـ لا أبداً! تفضلي
تبتسم ابتسامة خفيفة بخجل ثمّ تجلس بإحراج، ليقول جواد محاولاً خلق حديث:
ـ منذ قليل كنت أبدي إعجابي لآدم عن ترتيب غرفته بهذه الطريقة، حقاً رائعة!
تبتسم له بامتنان بينما ينظر كلاهما إلى آدم بعد ذكر اسمه، لكنّه كان صامتاً يحدّق في العدم الذي يخلقه العمى في عينيه. تحاول إنقاذه من غرق شروده ذاك، تمسك كأس العصير وتقول:
ـ هلّا مددت يدك قليلاً سيد آدم؟
لكنّه عبثاً لا يجيب، ليمسك جواد بيده ويمدّها فتضع الكأس بها وتقول:
ـ عليك أن تشرب العصير، أمّك ماهرة في إعداده!
يمسك الكأس بصمت ورغماً عنه بعدما وضعوها في يده
ـ يتدلل علينا كثيراً أترين هذا؟
يقولها جواد ليضحك الاثنان، أمّا هو فغارقٌ في أفكاره عن لارا، لا طاقة لديه ليردّ بحرفٍ واحد أو يضحك أو يبكي. لا طاقة لديه لأيّ شيء.
كانت سيلينا تنظر إليه بألم وتتأمّله محتارةً في أمره
ـ لا تستغربي الأمر، إنّه صامتٌ طوال الوقت تقريباً ولا يتكلّم إلاّ في الحالات الطارئة.
" يبدو أنّ ليلة الأمس كانت حالةً طارئة. " تهمس سيلينا في سرّها وهي تتذكّر ثمّ تردّ :
ـ لا بأس، أنا أعرف هذا تماماً
ـ تعرفين ماذا؟
يسألها جواد
ـ هذا الشعور، أعرفه تماماً. أن يبتلع الصمت صوتك رغم كلّ محاولاتك للصراخ...
يركزّ آدم في جملتها تلك وكأنّها تصف ما في داخله تماماً، لكنّه وبلحظةِ انفعال تشبه محاولة الانتقام من شيءٍ ما، ينطق قائلاً:

ـ هه غريب، منذ متى والنّساء يشعرن!
ينظر إليه الاثنان بعد أن نطق بجملته تلك فجأة، تحدّق سيلينا به باستغراب
ـ ومن قال لك أنّنا لا نشعر؟!
ـ لا أحتاج لأن يقول لي أحدٌ هذا، اكتشفت ذلك بتجربتي الخاصة. أنتنَّ لا تعرفن معنى الألم حتّى.
ـ لا يمكنك تعميم اكتشافك هذا على الجميع، لا بدّ أنّك قابلت الامرأة الخطأ وحسب!
ـ جميعكنّ اختيارٌ خاطئ.
تقطب سيلينا حاجبيها وهي لا تفهم لِمَ قد يقول لها هذا الكلام شخصٌ لم تعرفه سوى من يومين!
تضبط أعصابها متجاهلةً إيّاه، لتنظر إلى جواد قائلة:
ـ والآن عليَّ الاستئذان منك سيد جواد فلديَّ بعض الأعمال، تشرفت بمعرفتك مجدّداً
يرد مبتسماً:
ـ الشرف لي آنستي ...
تخرج من الغرفة دون أن توجه كلمةً واحدة لآدم، ويسمع هو الآخر صوت خطواتها تبتعد قليلاً قليلاً حتّى يتبعها صوت إغلاق الباب وصوت جواد يهمس:
ـ لقد جعلتكَ تصمت بجدارة. التجاهل، إنّه أسلوبك.
يكمل ضاحكاً بسخرية حتّى يقاطعه صوت آدم وهو يسعل بشدّة
ـ هل أنت بخير آدم؟ صوت سعالك يبدو وكأنّك مريض
ـ لا، ربما القليل من البرد ...
ثمّ يمدّ يده إلى جيبه متحسّساً علبة دخانه حتّى يلتقطها ويفتحها ساحباً سيجارته.
ـ على الأقل احترمْ سُعالك وتوقف عن التدخين بهذه الشراهة ليومٍ واحدٍ فقط!
يتحسس الشعلة لحين أن ينجح في إشعال النار،
ـ وماذا سيحصل إن قمت بالتدخين وأنا سأسعل؟ أسوأ الاحتمالات أن أموت مثلاً؟ أوه ... أنت لا تعلم أنّه أفضل احتمال!
ـ آدم..
يشعر بيد جواد تمسك بيديه بهدوء وصوته الهادئ يُكمل:

ـ صديقي، أرجوك، أتوسل إليك! كُفَّ عن قتل نفسك بهذا البرود! أخرجْ من عالمك الكئيب هذا. الحياة يجب أن تستمر. أخبرني ماذا تريد أن أفعل لك كي تكُفّ عن صمتك المرعب هذا وعن موتك البطيء؟! أرجوك كفى يا آدم.. إن لم يكن من أجلك فمن أجل والديك!

يحرق سيجارته بأعمق نفسٍ له ثمّ يجيبه بصوته المبحوح والذي يوشك على البكاء:

ـ إنني أحاول، أحاول يا جواد لكنني لا أستطيع ... كيف لك أن تتوقع من إنسانٍ أن يُضيء مجدّداً والعمى يطلي السواد في عالمه رغماً عنه وفجأة! كيف تتوقع لرجلٍ قد تركته الفتاة التي عشقها بجنون ألّا يكره حياته! إنني أحاول يا جواد لكنّني أدور في ذات الدائرة، أدور وأدور وأدور دون أن أرى نقطة البداية من نقطة النهاية. الظلام لا يخيّم فقط على عينيَّ، لا بل على قلبي وروحي وشعوري. إنني متعبٌ يا جواد، إنني جثّةٌ باهتة وحسب!

ثمّ يدخل في نوبة سعالٍ حادّة ليسحب جواد السيجارة من يده وهو يتأمّله بألم

ـ لا بأس... لا بأس، اهدأ وحسب..

يربّت على يده بحنان لكنّه يعلم أنّ لا أمل في التخفيف من كآبته هذه.

إنّه حتّى لا يبكي، كلّ ما يفعله هو الصراخ بصمت.

****

ـ غيث ركّز معي أرجوك! أقول لك أنّهم سيأتون الأسبوع القادم وأبي مقتنع بالفكرة تماماً ولم أستطع مناقشته أبداً!!

ـ لكن يا ليلى أنتِ تعرفين وضعي حالياً! كيف سأجرؤ أن أفتح موضوعاً كهذا وحالي يُرثى لها!

ـ أتعني أنّك ستتخلى عني بهذه البساطة؟!

ينظر إلى عينيّ حبيبته ليلى والدموع تملؤهما. الفتاة الوحيدة التي أحبّها قلبه ويحبّها وسيبقى يحبّها، ها هي تخبره بأمر الشاب الذي تقدّم لها ويرغب والدها بتزويجها إيّاه. خسارة دراسته، خسارة صحة أبيه، خسارة مستقبله تقريباً، لكن لا! خسارة ليلى مستحيلة! هو لا يحتمل الفكرة حتّى، ليلى له فقط! الفتاة التي بنى معها أحلامه. هي

الحلم الوحيد المتبقي له من هذه الحياة ربما... ينظر إليها وهي تبكي بشدّة وتبادله النظر بألم وكأنّها تطلب منه أن ينقذ حبّهما. يمسك يديها ويشدّ عليهما، ثمّ يهمس بهدوء:
ـ ليلى! هذه الدموع التي سقطت الآن غاليةٌ جداً، ستكون غرامتها أنني سآتي غداً مع والدتي ببؤسي وحالتي المرثية هذه وسأنظر إلى والدكِ مباشرةً وأقول له " يا عم! أنا شابٌ خسر كلّ طموحاته في هذه الدنيا إلّا طموحاً واحداً، وهو الزواج بالفتاة التي يحبّها قلبه، فلا تكن قاسياً عليَّ أرجوك!" ثمّ سأبكي كالمساكين ومُشرَدي الطرقات ليشفق عليّ وتنجح خطتنا وتكونين لي وحدي! ما رأيكِ؟
تتوقف فجأة عن البكاء وتفتح فمها بابتسامة عريضة
ـ أحقاً غيث! أحقاً ستقوم بهذا غداً!!
ـ أتظنين أنني سأتركك بهذه السهولة!
تضحك بشكلّ هيستيري وكأنَّ هذا الكون كلّه لا يتسع لفرحتها. يراقبها الآخر بعينيه المليئتين بالحب والخوف معاً، ماذا لو خسرها؟ ماذا لو لم تكن له؟ ماذا وماذا وماذا.... لكنّه يحاول تجاهل كلّ تلك التساؤلات المُقلقة. على الأقل هو يحارب من أجلها، يحارب بما يملك ولا يملك.

****

" أريد أن أكونَ تنهيدةً في فمِ شخصٍ أخرس "

فرح ياسين

يؤسفني إخبارك بأنّ عيوننا لا تتّسع لالتقاط مشهد السماء كاملاً، ولهذا دائماً ما تكون سعادتنا ناقصة الاكتمال.
أحاول هنا أن أحشر لك بؤس الكون في زجاجة الكرز المُعتّق، أن أخبّئ كآبتك في سواد عين الحمامة، أن أتّهم النايات بالصخب وأخبرك أنّك الهادئ. أحاول إخفاء جراحكَ تحت جناح ملاكين، وإقناعك أنّ سقوطك كان جزءاً من رقصة بحيرة البجع. لكنّك تعلم، مثلما أعلم، أننا لسنا بجعات، بل تماثيل نوارس ثقيلة، لا يليق بنا سوى الغرق. ولهذا تفضحني الحقيقة دائماً، ولا أستطيع إنقاذ لوحاتك من اللون الأسود، ولا إنقاذك من صوت الكمنجات المكسورة.

الساعة الثانية عشرة ولا تزال مستيقظة تفكّر في كلّ شي وفي اللاشيء، لكن لربما الأمر الحقيقي الذي يجعلها مستيقظة هو نظرة جواد الأولى لها والتي لم تستطع نسيانها طوال النهار حتّى الآن. حين نظر إلى وجهها المشوّه بتلك الطريقة، وكأنّه يرى مقبرةً أمامه، أو لربما طيراً مقتولاً.
في كلّ مرّة تقرر أن تحاول تجاهل نظرات الناس لشكلها تتعرّض لموقفٍ محرجٍ كهذا يجعلها تكره نفسها أكثر وأكثر. تريد أن تثبت لهؤلاء الناس أنّها جميلة! "أنا لم أتخلَ

عن صديقٍ لي، لم أدهس قلب أحد ولم أؤذي أحداً بكلامي. أنا جميلة لكن لا ذنب لي بملامحي هذه!" تريد أن تقول كلّ هذا لكلّ إنسانٍ تصادفه في الشارع وينظر لها بقشعريرة، لكلّ امرأة وصفتها بالقبيحة، وللرجل الذي تخلّى عنها بسبب قبحها، لكنّها لا تستطيع.

هي لا تستطيع الصراخ، ولهذا هي تكتب، ولهذا هي تعزف...

تمسك بكمانها ككلّ ليلة بهدوء، تضع القوس على الوتر، تأخذ نفساً عميقاً، و...

صوتُ سعالٍ عالٍ يأتي من خارج الغرفة، تدرك أنّه صوت سعال آدم، تتوقف قليلاً ثمّ تعود للإقبال على العزف بعد أن صمت. تغمض عينيها وتسحب أول سحبةٍ على الوتر لكنّ صوت السعال عاد أشدّ من قبل.

تضع الكمان جانباً ثمّ تتجه لتضع أُذنها على باب غرفتها، كان صوت السعال قويّ ومستمر. تحاول تجاهل الأمر لكنّها لا تستطيع. تفتح باب الغرفة وتتّجه إلى غرفته وكلّما اقتربت كان صوت سعاله يبدو أعلى وأعلى. تطرق الباب لكنّه يكمل السُعال بشدّة دون أن يجيب.

ـ سيد آدم! هل أنت بخير؟ صوت سعالك يبدو قويّاً لدرجة أنّه وصل لغرفتي!

لكنّه لا يجيبها، وبما أنّها اعتادت أمر صمته وتجاهله هذا، تذهب للمطبخ ثمّ تعود بكأس ماء وتتّجه نحوه. كانت الغرفة مظلمة كالعادة ورائحة السجائر تخنق الأنفاس. هناك سيجارة مشتعلة في يده كلّما توقف عن السعال قليلاً استنشق منها ليزداد سعاله أكثر من ذي قبل.

تصدمها طريقته في قتل نفسه، لتتّجه إليه ودون شعورٍ منه تسحب السيجارة من يده ثمّ تطفئها

ـ من سمح لكِ! أعيديها هيّا!

ـ ومن سمح لك أن تقتل نفسك بهذه الطريقة؟

ـ أنا حرٌ بنفسي وبجسدي!

ـ لا لست حرّاً! جسدك وروحك أمانة لك!

ـ دعيني من نصائحك الفلسفية هذه وأعيدي لي السيجارة الآن!

ثمّ يسعل بشدّة ويشهق ليأخذ نفسه بصعوبة، تمدّ كأس الماء نحو يديه

ـ مدّ يديك وخذ كأس الماء لتشرب علَّ سعالك يهدأ

لكنّه يتجاهل الأمر ويستمر بسعاله الحاد، ما يجبرها أن تمسك بيديه وتضع الكأس بهما رغماً عنه. عند تلك اللحظة شعرت بيديه ساخنتين لدرجة غريبة، وبسرعة وضعت يدها على جبينه فشعرت به يغلي من السخونة أيضاً، لتستنتج أنّ هذا السعال وهذه الحمّى هي نتيجة مرضه

- جسدُكَ يغلي ومع هذا تدخّن! ألا تشعر بنفسك!
- أنا لا أشعر بشيءٍ أصلاً.
- سأوقظ والدتك
- لا! لا داعي لإقلاقها. إنّها مجرّد نزلة برد، تعب والدتي يكفيها.

يقولها بنبرةٍ جادّة، ليجعلها تحتار ماذا بوسعها أن تفعل

- أين تضعون الأدوية؟

لكنّه لا يجيب

- بحقّكَ أترك صمتك هذا الآن جانباً وأجبني أين تضعون الأدوية؟! حرارتك عالية جداً ويجب أن تأخذ الدواء
- في غرفة الجلوس، الدّرج الثاني لطاولة التلفاز .

تذهب بسرعة ثمّ تعود حاملةً معها كيس الدواء، لتعود للمطبخ وتحضر وعاءً به الماء والكحول وكمّادات. تنظر إليه يجلس على ذلك الكرسي، ثمّ تقترب منه:

- قف ودعني آخذك إلى سريرك
- الأعمى هو أكثر الناس حفظاً لتفاصيل الطرقات أيتها الامرأة، بإمكاني السير وحدي. لا تعامليني كطفل!

يجيبها بِحدّة وهو يسعل وبالكاد يقف ثمّ يتجه إلى سريره متحسّساً الطريق حتّى يصل. يلقي نفسه بكلّ تعبٍ عليه. تقترب بسرعة وترتّب له الوسائد ثمّ تسحب البطانيّة من تحته بهدوء وتغطيه بها. تنظر إليه وهو لا يزال يرتعش من برده والقشعريرة تسري في جسده لتذهب إلى غرفتها وتعود محضرةً البطانيّة السميكة الموضوعة على سريرها.

- سأضع لك الكمّادات لتمتصَّ حرارتك، والبطانيّات ستدفئك شيئاً فشيئاً.

ثمّ تأخذ حبّة دواء بعد أن تمعّنت بأسماء علب الأدوية الموجودة إلى أن وجدت ما تبحث عنه

ـ خذ حبّة الدواء هذه، ستساعدك على التحسّن، أنا آخذها دائماً في مثل هذه الحالات.. من المؤسف أنّنا في منتصف الليل ولا أعرف رقم أي طبيب هنا.. عند أوّل النهار يجب أن نحضر لك الطبيب!

ـ لا يهم...

يقولها بذات البرود ويمدّ يده ليأخذ حبّة الدواء، تعطيه الكأس ليشرب منه قليلاً ويستمر في السعال

ـ لا عليك، ستتحسّن...

يشعر بيديها وهي تضع الكمادات بهدوء على جبينه، وبلهفة القلق في أنفاسها. للحظةٍ بدأ يشعر بالنّدم على معاملته الجّافة لها دون ذنبٍ منها، ولا شعورياً بينما كان جسده يحترق من الحرارة، والعرق يملؤه والقشعريرة تسري به، يهمس لها بتعب بينما يدها تحطّ على جبينه:

ـ شكراً لكِ على هذا، وأنا آسف.

ـ آسف على ماذا؟!

ـ لا أدري. ربّما أزعجتُكِ قليلاً في اليومين السّابقَين، أعني.. في أول لقاءٍ لنا حين صرخت في وجهكِ وأنتِ ترتبين الغرفة، وفي تجاهلي لكِ، وكلامي معكِ أثناء وجود جواد.. لكن صدقيني الأمر ليس بيدي لأنّني..

ثمّ يقاطع السعال حديثه مجدّداً، لتقرّب كأس الماء من شفتيه ويشرب

ـ لا تُتعِب نفسك بهذا الكلام الآن، يجب أن ترتاح. ثمّ من قال لك أنّني منزعجة من أيّ شيء؟ ربما أنا لا أعرف ما سبب حالتك الكئيبة هذه لكن مع هذا فإنّني أحترم أنّك إنسان ولك طقوس آلامك الخاصة، أنت حرٌّ بشعورك حتّى ولو كان ألماً لذا لا تعتذر عنه!

تضع الكمّادة الرابعة وتتركها على جبينه قليلاً لتُحضِر كرسيّاً وتضعه بجانب السرير. يدرك جلوسها بقربه فيكمل بأنفاسه اللّاهثة:

ـ طقوس آلامي؟ وماذا يعني هذا تحديداً؟! منذ متى وللألم طقوس.

ـ طبعاً له طقوس، وطقوس الألم لها لذّة أكبر من طقوس الفرح حتّى.

يسأل بسخرية:

ـ وكيف هذا؟

ـ مثلاً، أنا حين أتألّم أمارس طقوس كآبتي بطريقتين، إمّا الكتابة وإمّا العزف!

ـ وهل أبدو لكِ كإنسانٍ يمارسُ أي أمرٍ من هذه الطقوس؟
ـ أجل طبعاً، أنت تتألّم، وتحاول الصراخ، لكن لا تستطيع. لذا، أنت تصمت بكلّ هذا الألم وكأنَّ الصمتَ أُغنيةٌ جليلة تحلُّ على مشارف نجمكَ كلّ يوم. أُغنية تردّدها وحيداً في قلبك. لا يجيد سماعها سوى من ينصت جيّداً. وهذا هو الفرق بيننا، أنا أقدّس آلامي بالموسيقى، وأنت تقدّسها بالصمت.
تزيل الكمّادة التي على جبينه لتضع واحدة أُخرى، وهو غارقٌ في كلامها. تبدو وكأنّها الشخص الوحيد الذي استطاع أن يترجم صمته على أنّه صراخ.
ـ صمتي هذا ليس من طقوس آلامي وحسب، صمتي هذا أصبح عادةً فيني. أنا الآن من شدّة ألمي وكآبتي ليس لي روحٌ للحديث إلى شخصٍ واحد، لا أطيق الحديث إلى أحد أو النطق بحرفٍ واحد. الصمت أصبح جزءاً منّي وليس كما تصفينه أبداً بـِ "الطقوس".
ـ كلامك غير صحيح أبداً!
ـ بل هو كذلك!
ـ دعني أشرح لك الامر... أتعلم أنا أؤمن ومن أعماقي بنظريّةٍ كونيّة اكتشفتها بقلبي وحسب. هذه الحياة عبارة عن سيمفونيّة، سيمفونيّة ضخمة! كلّ واحدٍ فينا يمثّلُ لحناً فيها، وكلّ لحنٍ منّا فيه الكثير من النغمات والعلامات الموسيقيّة السوداء والبيضاء، والسكتات أيضاً! السكتات هي جزءٌ أساسيٌّ لاتّزان الصوت وعلى هذا فإن كآبتك وصمتك لن يطولا مهما كان السبب، أتعرف لماذا؟ لأنّك دائماً ما تحاول الصراخ، دائماً ما تحاول قول الكثير لكثيرٍ من الناس، دائماً ما ترغب في فتح فمك والتحدّث عن أحزانك، تحاول وتحاول وتحاول... ثمّ تصمت! كسكتةٍ موسيقيّة تحاول استرجاع الإيقاع الضائع. إلّا أنّه ما من سيمفونيّة واحدة في التاريخ تتألّف من السكتات الموسيقيّة وحسب، أي أنّ صمتك سينتهي، لأنّنا موسيقى.. والموسيقى لا تصمت أبداً!
كان غارقاً في كلامها بينما تغيّر الكمادة له مرّةً تالية، غارقاً وكأنّه لأوّل مرّة ومنذ إصابته بالعمى يستطيع أن يرى شمعة! يرى النّور من بعيد في عينيه اللتين يملؤهما السواد.
لأوّل مرّة يشعر أنّ صمته جميل وله معنى، أنّ كآبته ليلٌ ستأتي شمسٌ وتزيله.
أخذ نفساً عميقاً ثمّ أجابها بأنفاسه المتقطّعة:
ـ حقيقةً، أشعر أنّك أقنعتني بشيءٍ ما لكن لا أدري ما هو ...

تبتسم سيلينا بصمت دون أن ترد
ـ أهو دوركِ الآن في الصمت أم ماذا؟
تضحك ثمّ تجيب:
ـ لا أبداً، أنا أبتسم لكلامك!
شعر في تلك اللحظة بفضولٍ غريب، شعر أنّه يريد رؤية وجهها، أن يرى ابتسامة الشخص الذي يحدّثه، لكنّه ودون شعورٍ منه بدأ وجهٌ واحد يدور في مخيّلته، وجهٌ يقترب ويقترب ويلتصق بنظره الأعمى.
تلحظ تغيّر ملامحه بشكلٍ مُفاجئ
ـ أأنت بخير؟ قل لي ما يؤلمك علّي أجد الدواء المناسب لحين طلوع الفجر!
ـ يؤلمني قلبي.
لا يعلم لماذا ينطق بكلّ هذا الكلّام، لا يعلم أصلاً لماذا يحدّثها بهذا العمق! وكأنّه كان يقف على شعرةٍ واحدة كي ينهار، وكأنّ صمته الذي خزّنه طيلة هذا الوقت بات يخرج الآن رويداً رويداً دون وعيٍ منه
ـ أشعر أنّني الفراغ العقيم في المسافة ما بين الظلّ والوجود.
تقطب سيلينا حاجبيها، تتأمّل رأسه المستلقي للخلف والكمّادة تغطي جبينه، شعره الأسود الكثيف والعشوائي، لحيته، والعرق الذي يغسل وجهه.
ـ لا أعرف إن كان يحقّ لي قول هذا.. لكن إن كنت تحتاج للكلام كي ترتاح فأنا جالسة هنا كي أسمعك، إن كان قلبك يؤلمك دعه يرتاح! ربّما الكلام سيريحه أكثر من الصمت.
يأخذ نفساً عميقاً والقشعريرة لا تزال في جسده، وما زالت سيلينا تبدّل الكمّادات له واحدة تلوَ الأخرى، وبحرارة جسده تلك التي تحاول الكمّادات إطفاءها، شعر أنّ قلبه أيضاً يحتاج إلى كمّادةٍ لتطفئ الحريق الذي أنهكه. لذا ودون شعورٍ منه، بات يروي كلّ شيء...

****

دعيني أحدثكِ عنّي حين كنتُ إنساناً على قيد الحياة... أي قبل شهورٍ من الآن وقبل أن أصاب بالعمى...
حين كنتُ أملك خمس حواس وقلباً واحداً... لم يتسع سوى لامرأةٍ واحدة، ولم يعشق غيرها...

كنت أدرس الطبّ وقد تبقى لي سنة واحدة على التخرّج، وقد كنّا نملك الكثير من المال... كان أبي له مجموعة محلّات ومجمّعات تجارية كثيرة، كنت أملك كل شيء!
كنت أملك تلك الفتاة التي أحببتها من أعماق قلبي، وقد اتفقنا أن نتزوّج بعد تخرجي مباشرةً، استهلكت كل مشاعري اتجاهها، بنينا أحلاماً كثيرةً سويّة واتفقنا أن نبقى معاً إلى الأبد، كانت تحلف لي أنّها من المستحيل أن تتخلّى عنّي لأيّ سببٍ من الأسباب ومهما كانت الظروف، ولكن، كانت تكذب ... ولم أستطع اكتشاف ذلك إلاّ بعد ذلك اليوم.
المنطقة التي كنّا نقيم بها كان حالها كباقي أرجاء المدينة، متوتّرة الأوضاع من الحين إلى الآخر، يوماً نسمع صوت القصف من بعيد ويوماً من قريب، ننام يوماً على صوت الرصاص ويوماً على صوت ضحكاتنا، لقد كنّا متأقلمين مع هذه الحرب تماماً كباقي الناس ... لكن لم نتوقع أن يحدث ما حدث.
لحظةٌ كالوهم في منتصف الليل، اشتدّ صوت الرصاص والاشتباكات، والقصف كان صوته عالياً جداً لدرجةٍ مرعبة، كنّا نشعر بكلّ قذيفة تنزل وكأنّها تسقط علينا.
شعرنا أنّ الوضع بات أخطر من كلّ مرة، وأنّ القصف قريبٌ من منزلنا بشكلٍ كبير لذا قررنا أن نسرع ونترك البيت.. أسرع أبي وأحضر حقيبة الأوراق الشخصية الهامة لنا والتي حضّرها منذ زمن تحسّباً لأيّ وضعٍ كهذا، عندما انتهينا بسرعة اتجهنا لنرتدي أحذيتنا ونخرج هرباً من المنزل، ولكنّنا لم نفلح...
لا أذكر شيئاً من ذلك المشهد سوى صوت القذيفة كان عالياً للدرجة التي شعرت بها أنّ أذني انفجرت، لا أذكر سوى الصرخات الأخيرة في تلك اللحظة قبل أن أشعر بشيء يدخل إلى عينيَّ بقوة ليجبرني على إغماضهما، وإلى الأبد ...
كلّ تلك الملحمة القاسية حدثت في ثانية! الحرب غير عادلة أبداً
حين استيقظت في المشفى لم أرَ شيئاً أبداً، كان كلّ شيء أسود، كان السواد يلتهم نظري تماماً رغم محاولاتي للتحديق بأيّ شيء، وبعد أن ذكّرني الطبيب بما حدث، ولماذا كنت في المشفى وقام بطمأنتي عن حال والداي، صمت للحظات ثم قالها بلهجة الأسف "سيد آدم، أنت استطعت النجاة بحياتك ولكن ليس بنظرك... للأسف قد دخلت شظايا إلى عينيك في لحظة سقوط القذيفة على منزلك، ما سبب ضرراً بهما حدّ العمى... "

لا أذكر بعدها الثرثرات التي بات يقولها وجمل المواساة السخيفة، بقي رأسي عالقاً بين حافتيّ السواد وكلمة العمى التي نطق بها.. حاولت فتح عينيّ والتحديق في أي شيء، حاولت إيجاد خيط نورٍ واحد، لكنّني حين فشلت علمت أنّه لم يكن يكذب ...
وهكذا، مرّ شهرٌ على إصابتي بالعمى لكنّها رغم ما أصابني لم تتركني! كانت تقول لي أنّها تحبني كيفما كنت، وأنّها ستبقى هنا بجانبي حتى لو لم أكن أراها.. لكن كلّ هذا الكلام قد تلاشى بعد شهور... حين بدأت تجارة والدي تتناقص وعمله يتعرّض للخسارات، مجمعاته التجارية تدمّرت واحداً تلوَ الآخر، وبدأت صحّته تتدهور، لحين أن وصلنا إلى حافة الإفلاس... لكنّ كلّ ذلك لم يكن يهمّني! لا إصابتي بالعمى ولا دراستي التي خسرتها ولا نقودنا التي خسرناها، كلّ الذي كان يهمّني هو وجودها بجانبي...
وللأسف، كان ما يهمّها هو العكس تماماً! قليلاً قليلاً بدأت تبتعد عنّي ، حديثها معي بدأ يقلّ، وجودها بجانبي بدأ يصبح نادراً، للمرّة التي غابت بها أسبوعاً كاملاً عنّي دون أن تجيب على أيّ اتصالٍ ولا أيّ رسالة من مئات الرسائل التي كنت أطلب من جواد أن يكتبها لها ، لم يخطر لي للحظة واحدة أنّها ستفعلها وتتخلّى عنّي، ظننت أنّها خائفة من أن نفترق ، من أن يقف ما حلّ بي في وجه حبنا، ظننت أنّها حزينة من أمرٍ ما، لذا وبكلّ اندفاع مشاعري وبكلّ خوفي عليها من الحزن وخوفي علينا من البعد، جعلت جواد يضغط لي على زر تسجيل الرسائل الصوتية، لآخذ نفساً عميقاً ثم أنطق بكلماتي تلك بكلّ توتر : " بعدكِ هذا يجعلني أتوه في معمعات ظلمتي، إن كنتِ تظنين أنّ العمى قد يحرمني من حبّي لك فأنتِ مخطئة، ولأثبت لكِ هذا سأسألكِ سؤالاً واحداً يختصر كلّ أمواج مشاعري لكِ ، هل تتزوجينني؟! "
انتظرت وانتظرت وانتظرت... حتى وصلني الجواب بعد ستّ ساعاتٍ من إرسال تلك الرسالة الصوتية، لا زلت أذكر كلمات رسالتها التي قرأها جواد لي في تلك الليلة.
" لا.. جوابي هو لا يا آدم! أنا آسفة، لا أعلم إن كنت ستسامحني، لكنّني أريد أن تعلم شيئاً واحداً، وهو أنّني تعبت من هذا الحب الذي انتهى ولم يعد بإمكاننا استعادته... أرجوك أن تسامحني، أنا آسفة يا آدم، آسفة ..."
رغم أنّ جواد هو من كان يقرأ الرسالة، إلا أنّني كنت أستطيع سماع صوتها من خلالها، لم أصدّق كلامها في بداية الأمر، بقيت أسبوعين كاملين لا أملّ من الاتصال على رقمها

والذي كان دائماً مقفل، لحين أدركت أنّها قامت بتغييره.. لم أستطع الوصول إليها ولا بأيّة طريقة، لم أعرف عنها شيئاً، بقيت غير مصدّقاً وأنتظر قدومها في أيّة لحظة، حتى أتى ذلك اليوم، الذي أخبرني به جواد أنّه رآها تعقد قرانها في المحكمة حين كان لديه عمل هناك... حين أخبرني أنّها تزوجت من رجلٍ يبدو عليه الثراء... عندها فقط صدقت أنّها كانت تقول الحقيقة، وأنّها رحلت... لكن ورغم ذلك ملامحها وحتى هذه اللحظة، لا تفارق عتمتي السوداء هذه يا سيلينا...

****

ينهي جملته الأخيرة تلك بأنفاسه المتقطّعة ومسام وجهه التي يملؤها العرق، حرارة جسده اعتدلت بعض الشيء لكن رغم ذلك القشعريرة ما زالت تسري في جسده.
تأمّلته بصمت بعد أن انتهى من كلامه، كانت ترى الألم الذي يجتاح صوته وهو يروي قصته.. هو الآخر كان يشعر أنّ كلّ هذا الكلام كان مكتوماً لزمنٍ طويل حتى انفجر الآن في كلامه إليها... هو لم يتحدّث بهذا العمق أبداً مع أيّ شخص منذ فترة طويلة، حتّى مع جواد، ولكن ربما الاعترافات الليلية تحتاج إلى منصتٍ جيد وكانت هي أفضل مثال لذلك.. بقيت الغرفة صامتة من صوتهما، لم يكن يسمع منها سوى صوت أنفاسها الهادئة، ولم يكن يشعر بشيء سوى بجلوسها بقربه، انتظرها أن تتحدّث بأيّة كلمة لكنّها لم تنطق، كانت تتأمّل حزنه الباهت بصمت... وكأنّ الأدوار انقلبت وابتلع الصمت صوتها هي هذه المرّة!

ـ لِمَ هذا الصمت!
ـ لا أعرف... لست سوى أفكّر
ـ بماذا؟
ـ أفكّر كم أنّ هذا العالم مقسومٌ إلى نصفين، الأول يعيشه بروحه ومشاعره، والثاني يعيشه بجسده وبما يملكه...
ـ وأنا من أيّ نصفٍ أُعتبر...؟
ـ من الأوّل
ـ وهي؟
ـ من الثاني

ـ وأنتِ؟
لا تجيبي، أظنّ أنّكِ من الأوّل
ـ ربما كذلك، للأسف.
تصمت لثوانٍ ثمّ تكمل:
ـ أتعلم، مأساتك هذه عظيمة.
ـ عظيمة! وما العظيم في المآسي يا سيلينا؟
ـ المآسي ستمنحك لذّة الشفاء، وألمك هذا يستحق أن تشعر به بطريقةٍ أو بأُخرى
ـ لكنّني..
ثمّ يتنهّد دون أن يكمل، لا رغبة لديه في شرح شعوره حتّى، مرّةً أخرى عاد إلى الصمت، لكن هذه المرّة تجيبه هي:
ـ أعرف، لكنّك متعبٌ حتى من الشعور، هذا ما وددت قوله ...
كان يريد أن يجيب ب " نعم! " لكنّه ابتسم... ابتسم بتعب كبير، وهي فهمت مقصده من تلك الابتسامة.
حرارته كانت ترتفع حيناً وتنخفض حيناً آخر، لذا لم تفارقه ...
وبقي الاثنان صامتان، دون أيّ كلمة أو حرفٍ أو نغم.. لم تعزف سيلينا في تلك الليلة ولم يسمع هو عزفها، كان دوره بأن يصمت ودورها بأن تنصت، كان دورها بأن تفهم لغته... كانا فقط يتبادلان الصمت، الصمت حتى الصباح وحدّ الغرق في أعماق الذات.

ربما لأنّنا ننتمي لأجراس الكنائس الصدئة وليس لجدرانها المزخرفة، ننتمي لجثث الفراشات اليابسة، وللجيوب المثقوبة، نرتدي الساعات المعطّلة علّنا نوقف الزمن، ندفن ذكرياتنا كجثثٍ زرقاء ونلقي عليها عزاء الصور.
إنّنا نعلم، أنا وأنت، أنّ أكفاننا ستكون من بتلات البنفسج ذات يوم، وهذا ما يواسي أرواحنا الفقيرة في الصبر على أجسادهم ذات اللون الفاقع...
****

مقهىً مزدحم، طاولة بقرب النافذة، أغنية شعبية لا علاقة لها بالمشهد الحزين، ورجلٌ محطّم قد خسر آخر أحلامه منذ أيّام ...

يفتح هاتفه ليتأمّل آخر رسالة، وآخر مكالمة، صوتها المكسور في تلك اللحظة لا يخرج من أذنيه، وعجزه عن كل شيء في تلك اللحظة ما زال يطعن روحه ...
"أحقاً ذهبتْ ؟!" يسأل بين اللحظة والأخرى، وسامر يحدّق به طيلة الوقت يشعر أنّه يحمل الكون على صدره، لا يستطيع التنفّس، ينهشه البكاء بين الحين والآخر، لم يكن يتوقّع أن يأتي هذا اليوم الذي سيخسرها به بكلّ هذه البساطة! يريد الآن وفي هذه اللحظة تماماً أن يذهب ويبكي على كتفها، أن يتأمّل عينيها ويحارب كل بؤسه بهما، يريد أن يصرخ أنّه لا يستطيع العيش دونها ... لكنّ كل شيءٍ انتهى، أجل! انتهى ...
ـ غيث! أتوسل إليك للمرة المئة أن تجبني! ما الذي حدث ولماذا أنت بهذه الحال! تكلّم ولو بكلمة واحدة!
بحرقةٍ وصوتٍ يكاد يخرج من فمه، يهمس
ـ خسرتها...!
ـ من هي؟!
ـ ليلى...
يحدّق سامر بعينين مندهشتين، لطالما كان غيث يحدّثه عن ليلى كثيراً وعن حبّه العظيم لها
ـ لكن كيف ولماذا؟!
يغلق غيث عينيه بصمت، تاركاً دموعه المالحة تحرق خدّيه، وهو يسترجع تفاصيل تلك اللحظة بحذافيرها...
****

ـ اليوم السابق ـ
مضت أربعٌ وثلاثون ساعة وخمسة عشرَ دقيقة وسبع ثوانٍ منذ زيارتي للتعرّف على والدها وحتّى الآن، لم تجب!
" أيعقل أنّ والدها لن يقبل؟! أيعقل أن تكون الظروف غير مناسبة لخطوةٍ كهذه كتوقعات والدتي؟ أيعقل أنّني لم أبدو شاباً لائقاً لها! "
أسأل نفسي مئة سؤال في الدقيقة الواحدة، لكنّني أجيب نفسي في ذات اللحظة " لا طبعاً! كلّ شيء سيكون على ما يرام، سيتحقّق حلمي الوحيد، سأكمل حياتي مع ليلى.."

شاردٌ في أفكاري أتذكّر تفاصيل الأمس والتي لم أستطع نسيانها، ابتسامة ليلى حين رأتني أدخل بيتها، عيناها اللتان تبرقان من شدّة الفرح، ثوبها الوردي الفاتح، شعرها المنسدل على وجهها... لا أستطيع أن أنسى أيّ شيء، أبدأ باسترجاع تفاصيل لقائي بوالدها، والأسئلة التي أجبتُ عنها وأنا خائفٌ أن أخيّب ظنّه

ـ إذاً ماذا تدرس يا سيّد غيث؟

ـ كنت طالباً في هندسة الميكانيك..

ـ كنتَ؟ أتعني أنّك تخرجت؟

ـ لا سيدي، صراحةً وبسبب وضع أبي الصحي الذي شرحته لحضرتك منذ قليل اضطررت لترك دراستي كي أعمل وأؤمّن مصروف المعيشة لعائلتي..

يشرب قليلاً من قهوته بينما غيث يحدّق به بتوتر، ثمّ يستأنف:

ـ أها .. أجل أجل.. وماذا تعمل؟

ـ في الحقيقة أنّني لم أترك وظيفة واحدة في مجال دراستي لم أتقدّم لها، لكن مع الأسف لم أنجح في الحصول على أيّة واحدة، حتى أنّني حاولت أن اعمل كمدرّسٍ في المعاهد أو مدرّساً خصوصيّاً.. لكنّك تعلم، لا أحد يثق بقدرات طالب لم يتخرّج من جامعته بعد... لذا يا سيدي اضطررت أن أعمل كسائق ميكرو باص حيث استلمت مكان والدي في العمل...

ـ سائق ميكرو باص!

يقول والدها بتعجّب

ـ أجل، أنت تعلم... في النهاية العمل ليس عيباً...

يشعر غيث بالحرج والتوتر أكثر وأكثر،

ـ أجل أجل طبعاً

يقولها ببرود وهو يهزّ رأسه، بينما غيث يتصبب بالعرق

ـ وهل لديك منزلٌ باسمك؟

ـ لا سيدي، إنّني مقيمٌ مع عائلتي، لكنّني أعمل بكلّ جهدي لشراء منزلٍ لي في أقرب وقت

ـ أتريد شراء منزلٍ من عملك كسائق ميكرو باص؟! هه، فلتنتظر مئة سنة أُخرى إذاً...

يضحك والد ليلى وهو يقول تلك الجملة باستهزاء، بينما أشعرُ أنّ سكيناً قد انغرزت في قلبي، لكنّني أتمالك نفسي من أجلها، من أجل ليلى ...
أتذكّر هذا الحديث جيّداً، وهو الشيء الوحيد الذي أخاف منه حتى هذه اللحظة.. وها أنا أنتظر منذ الأمس جواب ليلى لتخبرني بما حدث، ولأنّني على يقينٍ وأملٍ تامٍّ بأنّ إلهي وإلهها لن يرفض دعوات عاشقين مثلنا، ولهذا كان أملي تام بأنّ ليلى ستكون من نصيبي، أي أنّني بالأحرى أنتظرها لتخبرني متى يجب عليَّ أن أحضر والدتي كي تخطبها لي...
أعود إلى شاشة الهاتف التي أتأمّلها كلّ ثانيةٍ منتظراً أيّ رسالةٍ أو مكالمة من ليلى..
وبينما أتمعّن بالشاشة بتوتر، يهتزّ الهاتف فجأة في يدي لمكالمة آتية وفوراً أقدِم باستعجال على الرد ظاناً أنّها ليلى أخيراً، لكنّني أنتبه أن الرقم لم يكن رقمها بل هو رقمٌ غريب..
ـ آلو
ـ غيث....
إنّها هي! إنّها ليلى! تنطق بإسمي ثم تشهق وهي تبكي دون أن تستطيع الكلام، تتّسع عيناي بقلق ثم أرد بتوتر:
ـ ليلى! لماذا تبكين! أجيبي ما بك!
ـ غداً
ثم تصمت وهي تشهق باكية أكثر وأكثر..
ـ غداً ماذا! أكملي لا تخيفيني أكثر تكلّمي!
ـ غداً خطبتي على ذاك الشاب يا غيث! غداً! والدي أخذ القرار عنّي وحسم أمره واتّفق معهم يا غيث!
أشعر أنّ الزمن توقّف عند تلك الجملة، أريد أن أنطق لكنّني لا أستطيع، أقنع نفسي أنّها تقوم بمزحةٍ ما لتفاجئني في النهاية، ثم أعود وأسألها بصوتٍ مرتجف ومبحوح:
ـ ليلى ... أخبرتكِ أنّني لا أحب هذا المزاح!
ـ لكنّني لا أمزح يا غيث! ليتني كنتُ كذلك.. ليت كلّ هذا الكابوس الذي أعيشه الآن هو مجرّد مزحة...!
تبكي بحرقةٍ ثم تكمل:

ـ في الأمس أتى إليَّ والدي وقال لي أنّه اتخذ قراراً بتزويجي من ذاك الشاب، بدأ يشرح لي أنّ مستقبلي مع رجلٍ ثريّ مثله وأنّ لديه منزل ووظيفة وأنّه يريد أن يؤمّن على ابنته وعلى حياتها، حين بدأتُ أصرخ وأقول أنّني لا أريد إلّاك بدأ غضبه يزداد ويزداد... للحظة التي أخذ منّي هاتفي وكسره لنصفين، ثم اتّفق مع أهل الشاب على خطبتي غداً وزواجي بعد يومين ... إنّني أموت هنا يا غيث! لا أحد يفهم أنني لا أريد إكمال مستقبلي سوى معك.. أنا لا أريد حياتي إن لم تكن أنت بها يا غيث! أنا لا أريدها أتسمعني!

ثم تشهق وتبكي بأنفاسٍ متقطّعة، صوت بكائها يدخل في أذني كالرصاص، يبتلع الصمت صوتي، أشعر أنّ جسدي بات مُخدّراً، أريد أن أجيبها لكنّني لا أستطيع، هي الأخرى لا تنطق بشيء سوى باسمي والبكاء، ثم اسمي والشهقات المحترقة، ثم اسمي والأنفاس المتقطعة...

ـ ليلى ...

أقولها بنبرة صوتٍ محترقة من الألم:

ـ ليلى أعطِني والدكِ الآن!

ـ لا أستطيع.. إنّني أتحدّث إليك سرّاً من هاتف والدتي دون أن ينتبه إليّ أحد.. إنّهم يخنقوني تدريجياً يا غيث! يريدون منّي أن أنساك، هم لا يعرفون بما أشعر.. لا أحد يعرف لا أحد!

ثم يختفي صوتها فجأة وتصمت، لأناديها بقلق وبقلبي الذي توقف عن العمل:

ـ ليلى! أأنتِ بخير؟؟ أجيبيني أين ذهب صوتكِ!

ـ اسمع أيها الشاب، لا نصيب لك عندنا، ومن الأفضل لك أن تنسى اسم ابنتي للأبد وألّا تجلب المشاكل لنفسك، فخطوبتها غداً وستصبح من نصيب رجلٍ آخر.. لذا أقولها لك وبالتفاهم، انسَ فتاةً اسمها ليلى وعلّ القدر يعوضك بفتاةٍ تستحقّك..

ـ س..س.. سيدي! أرجوك دعني أوضح لك الأمر! إن كان الأمر بخصوص المال فإنّني سأعمل ليلاً نهاراً كي أؤمّن منزلاً، سأفعل المستحيل كي أؤمّن لابنتك حياةً كريمة لأنّني لا أقبل لها إلّا ذلك أرجوك سيدي! أمهلني بعض الوقت فقط، أمهلني شهراً واحداً! أعدك سأعمل ليلاً نهاراً، أقسم أنّني لن أنام كي أجني ما أستطيع من المال! أرجوك! إنّني شابٌ كباقي شباب هذه المدينة يا سيدي، وأنت تعلم وضع الجميع في هذه الحرب فما

ذنبي بذلك؟! أرجوك لا تجعل حلمي الأخير يتلاشى أمامي كالأحلام التي سبقته.. أرجوك يا سيدي! أعطِ حياتي فرصةً كي تستمر
ـ أنا لا أرمي ابنتي للهلاك وأدعها تفوّت النعيم ... تشرّفت بمعرفتك، وكما قلت لك، كن شاباً محترماً وانسَ ابنتي للأبد وإلّا ستندم! وداعاً.
صوت ليلى تصرخ " غيث! أرجوك يا أبي ...! "
ثم انتهاء المكالمة.
هكذا، وبكلّ هذا البرود.. انتهى كلّ شيء! دون نظرة وداع، دون أيادٍ تلوّح من بعيد، دون وعودٍ أخيرة... كلّ شيء انتهى بهذا البرود المفاجئ.. للأبد.
"أنا لا أرمي ابنتي للهلاك وأدعها تفوّت النعيم "
هذه الجملة التي دخلت لأذني كريحٍ من لهب، كسهمٍ مغطّسٍ بالسّم.. هل أصبحت أنا "هلاكاً " حقاً؟ ولماذا؟ لأنّني الشاب الذي حلم بأن يدرس الطبّ ولم يحقق حلمه؟ لأنّني الشاب الذي دخل كليّة هندسة الميكانيك ولم يستطع إكمال دراسته؟ لأنّني الشاب الذي لم يستطع إيجاد وظيفةٍ بين ناسٍ لا يؤمنون بمهارة المبتدئين؟ لأنّني الشاب الذي بات يعمل كسائق ميكرو باص طوالَ النّهار لإطعام عائلته؟! لماذا أنا الهلاك وغيري هو النعيم؟! لأنّ غيري يملك أموالاً طائلة وأنا لا أملك!
لكنّ غيري لا يملك شيئاً واحداً أملكه أنا، الحب الصادق ... هذه الحقيقة التي لن يدركها أحدٌ يوماً... في هذا الكوكب الغبي الذي يعيش من أجل الحياة الماديّة، تاركاً الحياة المعنوية تندثر مع غبار الأرواح.. سأحبّها حتى انقباض روحي الباهتة دونها... وهذا هو الأمر الوحيد الذي لن يستطيعوا منعي من فعله أبداً.

****

يتأمّله سامر بصمت بعد أن انتهى من كلامه، يستطيع أن يرى لهيب الألم في عينيه دون أن تستطيع أيّ مواساة إطفاءه، ينظر إليه بعمق وهو يفكر كيف يمكنه أن يجعل غيث يثق به، ولربما هذا الوقت هو الأنسب ليقوم بذلك وحال غيث هي أنسب حال ليدخل سامر حياته لتحقيق ما يريد، تماماً كما يفعل مع الكثيرين ...
وبينما كان يبكي بصمت خافضاً نظره إلى الطاولة، يقوم سامر ويقرّب كرسيّه منه، ثم يضع يده على كتفه بثبات، ويهمس في أذنه:

ـ هذا يكفي يا صديقي، إنّ الله لم يكتب لهذه الفتاة أن تكون من نصيبك، ولربّما هذا أمرٌ خيرٌ لكليكما!
ـ كانت آخر أملٍ لي يا سامر، إنّني الآن جثّة! جثّة تعمل لتأمين حياة لعائلة، أنا لم أتوقّع أن يأتي يومٌ كهذا وأكون ما أنا عليه الآن... إنّني أختنق! لا أستطيع تخيّل أنّني قد خسرت ليلى وأنّها لغيري الآن! لا أستطيع يا سامر لا أستطيع ...!
ثم يُجهش في البكاء أكثر، ليشدّ سامر على كتفه بقوّة ويهمس:
ـ إنّني أعلم يا غيث مدى عمق حزنك ومأساتك الآن ... لكن أتعلم أمراً، مع مرور الوقت ستكتشف أنّ مصيبتك هذه التي تبكي من أجلها لا تستحق البكاء أمام مصائب الآخرين، وستكتشف أنّ حياتك البائسة هذه هي جنّة بالنسبة لحياة غيرك... الوقت سيغيّر كل شيء يا صديقي صدّقني!
ـ الوقت قد توقّف لحظة خسارتها يا سامر.. أتفهم ما أقوله؟!
ـ أجل.. أفهم.. وأنا هنا بجانبك وسأبقى بجانبك حتى يعود الوقت للمضي قدماً من جديد
يضع غيث رأسه على كتف سامر بكلّ تعب، وكأنّه السند الوحيد له في هذه اللحظة، هذه اللحظة.. التي شعر بها غيث أنّ سامر أنقى إنسانٍ تعرّف عليه طوال حياته!
ولكن... لا أحد يعلم حقيقة ما في داخل الآخر أبداً... لا أحد!
****

تقومُ بوضع خربشاتك التي ترسمها في كلّ زوايا الدفاتر وفي جميع الهوامش، أنت لا تجيد الرسم، أنت فقط تحاول تجسيد خدوشك، لكنّك دائماً ما تفشل في رسم النزيف.

ـ إذاً أيها الطبيب، كيف حاله؟
يسأله جواد قاطباً حاجبيه بقلق، وسيلينا ووالدته يقفان إلى جانبه، أما هو، آدم، فيحدّق في الظلام وهو يسمع حديثهم والعرق لازال يسيل من جسده ويشعر ببردٍ كبير، يسمع صوت الطبيب يرد:
ـ يبدو أنّه مصابٌ بنزلة برد ولديه حمّى كبيرة، تبدو مناعته ضعيفة، هل تعرّض في الأيام الأخيرة لهواء بارد؟ أو لربما انتقل من جوٍّ دافئ إلى بارد فجأة؟

عند سماع سيلينا تلك الجملة تذكّرت فوراً ذلك اليوم حين فتحت عليه النافذة فجأة لربع ساعة تاركةً المطر يبلّله وصقيع الهواء يضرب في صدره بينما كان جالساً في غرفته الدافئة، تنظر إليه وهي تعضّ شفتيها بصمت لكن لا تعرف إن كان هو أيضاً قد تذكّر ذلك الموقف، لذا تبقى صامتة، لحين أن يجيب آدم على الطبيب:

ـ أجل، لقد تعرّضت! أحدهم منذ يومين فتح النافذة فجأة بينما كنت أجلس ملاصقاً لها وجعل العاصفة بأكملها تدخل إلى غرفتي! يبدو أنّ مرضي هذا بسبب ذلك!

تنظر إليه وهي لا تزال تعضّ شفتيها، لا تعلم أيجب أن تضحك أم تشعر بالندم على ذلك، لكنّها أيضاً تبقى صامتة خجلةً من موقفها أمام والدة آدم.

ـ من الذي سيفتح النافذة عليك في مثل ذلك الجوّ يا بنيّ!

تسأله والدته باستغراب، ليردّ ببرود:

ـ شخصٌ مجنون حاول تطبيق نظريّته الفلسفيّة عن الشعور واللاشعور على جسدي!

والدته، جواد، والطبيب، الثلاثة ينظرون إليه باستغراب دون أن يفهموا كلمةً واحدة مما قال! أما سيلينا، فوضعت يدها على فمها محاولة كتم ضحكتها قدر ما تستطيع لئلّا تنفجر.. تعود والدته وتسأله:

ـ لم أفهم كلمة واحدة مما قلته يا آدم! عن ماذا تتحدّث؟!

ـ يبدو أنّه بدأ يهلوس من شدّة حرارة الحمّى! أيعقل ذلك أيّها الطبيب؟!

تقولها سيلينا بسرعة لتسبقه، خوفاً من حرجها أمامهم إن تكلّم عمّا فعلته به، يجيبها الطبيب:

ـ أجل بالتأكيد، أيّ مريض في حالته يهلوس هكذا، ليس بالأمر المهم ...

ورغم تعبه وعدم قدرته على الكلام، يقول محتجّاً وكأنّه يتحدّاها:

ـ لا أنا لست...

ـ لا بأس سأصف له مجموعة من الأدوية وعليه أخذها بانتظام، كما أنّه يجب أن تراقبوا حرارته طيلة النهار والليل، إن بقي بهذه الحال اتصلوا بي، وهذا رقمي.

يسحب بطاقته ليأخذها جواد، بينما سيلينا تنظر إليه وهي لا تزال تضحك دون أن تظهر ذلك وتتأمّل خيبته في فضحها.. يوصل جواد الطبيب إلى باب الخروج ويعود إلى الغرفة قائلاً:

ـ سأذهب الآن وأحضر هذه الأدوية ثم سأعود لأجلس معه وأراقب حرارته كما قال الطبيب، أتريدين شيئاً خالتي قبل خروجي؟
ـ لا يا جواد، لا نعلم كيف نشكرك على هذا
ـ ما هذا الكلام، لا شكر على واجب! وفي المرّة القادمة حين تمرّون بمثل هذه الحالة عليكم أن تتّصلوا بي.
ـ في الحقيقة أنا لم أكن أعلم بحالته! قد كنت نائمة وسيلينا لم تشأ إيقاظي، لولاها لكان وضعه الآن مأساويّاً، لقد قضت طيلة الليل تضع له الكمّادات وتعطيه الادوية لحين طلوع الفجر واتصالنا بك.
ـ ما هذا الكلام يا خالتي، أنا لم أفعل شيئاً.
تبتسم لها والدته بامتنان ثم تكمل:
ـ تعالي لتناول الفطور الآن، وأنت يا جواد تناول الفطور معنا قبل أن تحضر الدواء، هيّا تعال!
تخرج والدته من الغرفة ويتبعها جواد وسيلينا، لكنّ الأخيرة تقف عند الباب قبل خروجها ثم تنظر إليه متسائلة إن كان نائماً أم أنّ الصمت مبتلعٌ صوته كالعادة، فتسأل بصوتٍ منخفض:
ـ أتريد شيئاً قبل أن أغادر الغرفة؟
ـ وهل الشخص الذي ينطق بالهلوسات دون أن يشعر يعرف إن كان يريد شيئاً؟
يقولها بصوته المبحوح ذاك، لتبتسم وتكتم ضحكتها ثم تكمل:
ـ حسناً إذاً، إن استيقظت من هلوساتك وشعرت أنّك تريد شيئاً سنكون في غرفة الجلوس والآن عليك أن تنام لترتاح ...
يتنهّد وهو يبتسم بتعب قاطباً حاجبيه متظاهراً بالانزعاج، لكنّه يعرف أنّه من الداخل ورغم مرضه وتعبه كان يضحك بأعلى صوت...
تبتسم هي الأخرى لتتركه بهدوء، ويدخل في نومٍ عميق، بجسده المتعب وروحه التي ترى شمعةً تُضاء قليلاً قليلاً من بعيد في وسط كلّ ذلك الظلام...
ـ أشكركِ من قلبي سيلينا، لقد قضيت الليل بأكمله ساهرةً على آدم لا بدّ أنّك تعبتِ كثيراً يقول والد آدم وهو يجلس على طاولة الفطور أمامها

ـ لا أبداً عمّي، لقد كنّا نتحدّث طوال الوقت ولم أشعر بمرور الوقت ولا حتى بالتعب أبداً
ـ تتحدّثون! آدم كان يتحدّث طوال الوقت!
تقول والدته بنبرةٍ متفاجئة، لتردّ سيلينا مبتسمة باستغراب لصدمتها تلك:
ـ أجل يتحدّث! لماذا أنتِ مستغربة هكذا!
ـ لأنّه صامتٌ طوال الوقت وإن نطق فهو لا يقول سوى جملة واحدة أو كلمة واحدة، ولا يفتح الأحاديث الطويلة مع أحد، وأنتِ تقولين أنّكم أمضيتم الوقت تتحدّثون، لقد سررت بالأمر!
يُعقّب جواد بلهجةٍ مازحة:
ـ هذا صحيح! أطول حديثٍ يفتحه معي مدّته عشر دقائق، وهو لا يقوم بهذا الإنجاز مع أيّ شخص، يبدو أنّ المرض أنساه أجواءه الكئيبة تلك.
ـ وعن ماذا تحدّثتم؟
يسألها والده، لتحتار بماذا ستجيبه فهي لا ترغب أن تقول " عن الفتاة التي كسرت قلبه!" لذا تختصر كلّ شيء وتجيب:
ـ عن الحياة.. أجل، تحدّثنا في مواضيع مختلفة فقد كنّا نملك وقتاً طويلاً ومللنا الصّمت
يهزّ رأسه مبتسماً، وتنظر سيلينا إلى عيون والدته وهناك فرحةٌ تنمو بصمتٍ داخلهما. تتساءل داخلها باستغراب "ألهذه الدّرجة كان الحزن يبتلع هذا الرجل؟! للدرجة التي أصبح اللحظة التي ينطق بها لحظةً لا تُصدّق!"، تشعر أنّها أنجزت مهمّةً صعبة في حالة كهذه.
بعد انتهائهم من تناول الفطور ذهب جواد وعاد بالأدوية، دخل غرفة آدم بهدوء لئلّا يوقظه من نومه، لكن ما إن سمع الآخر صوت خطواته حتى همس بتعب:
ـ جواد؟
ـ أوه هل أيقظتك!
ـ لا أبداً، أنا مستيقظ بالأصل
ـ كيف أصبحت الآن؟
ـ أفضل قليلاً ...

ـ حسناً أحضرت لك الأدوية اللازمة يجب أن تأخذ حبّة من كل علبة ثلاث مرّات، وأنا سأنام هنا الليلة كي أراقب حرارتك كما طلب الطبيب ولتأخذ الدواء في وقته
ـ جواد، لا داعي لكلّ هذا، أنت تتعب نفسك كثيراً معي!
ـ كفاك بحقك الآن يا آدم! هيا مدّ يدك وخذ حبّة الدواء
يأخذها بهدوء ويتحسّسها ثم يشربها مع كأس الماء الذي وضعه في يده
ـ بالشفاء
ـ شكراً لك.
تمرّ الساعات حتى الثانية عشرة والنّصف، ليرنّ هاتف جواد ويوقظ آدم من نومه الخفيف
ـ آلو، أجل أنا هو... أوه الآن!! حسناً، سأحاول المجيء... وداعاً
يغلق الهاتف وهو يقطب حاجبيه بارتباك
ـ ما الأمر جواد؟
ـ لا.. لاشيء
ـ تكلّم!
ـ يحتاجونني في العمل، الآن!
ـ إذاً اذهب ماذا تنتظر؟!
ـ كيف سأتركك بهذا الحال!
ـ جواد! أنسيت أنّ هناك ثلاثة أشخاصٍ معي في هذا المنزل، أذهب الآن ولا تقلق، هيّا!
ـ حسناً حسناً ... دعني أنادي والدتك أوّلاً
ـ والدتي ستكون نائمة ...
ـ إذاً؟
ـ يمكنني الاعتناء بنفسي!
ـ بحالتك هذه؟ مستحيل!
يتنهد آدم بعمق، ثم يرد:
ـ حسناً.. إن كنت ستعيق عملك لأجلي، يمكنك مناداة سيلينا أظن أنها تسهر كلّ يومٍ إلى هذا الوقت، لكن لا توقظ والدتي فهي متعبة بما فيه الكفاية لتسهر الليل فوق رأسي
ـ أجل حسناً دعني أناديها

يتّجه جواد إلى الغرفة المقابلة بسرعة، ثلاث دقّاتٍ على الباب، وتفتح سيلينا وقد حاولت تغطية وجهها بشعرها قدر ما تستطيع، لينظر إليها جواد ويلحظ أنّ ملامحها قد تغيرت، ثم ترد:
- أتحتاج شيئاً جواد؟
- أجل سيلينا، أنا آسف لكنّني مضطرٌ للمغادرة من أجل العمل وأريد أن أسألك إن كان بإمكانك الجلوس مع آدم بقيّة الليل ...
- أوه أجل بالتأكيد، يمكنك الذهاب لا تقلق
- حسناً تعالي بسرعة لأعلمك بمواعيد الأدوية
يدخلون غرفة آدم، وهو ينصت لوقع خطواتهم ثم صوت جواد يتبعه صوت سيلينا
- حبّة من كل واحدة عند الساعة الثالثة تماماً
- حسناً...
- شكراً جزيلاً لكِ، والآن عليّ الذهاب
- لا عليك، بالتوفيق!
- شكراً
يبتعد صوت خطواته قليلاً قليلاً حتى يختفي، ليسود الصمت الغرفة، كلاهما لا يسمعان شيئاً إلا صوت أنفاسهما، تنظر إليه هي، وينظر هو إلى الظلام في عينيه لم ينطق هو بأيّ كلمة وهي كانت غارقة بأفكارها...
تنظر إلى المرآة المعلّقة على الحائط بصمت، تتذكّر كيف نظر لها جواد منذ قليل وهي لا تضع الماكياج كما تظهر أمامهم كالعادة إنّ ذات المشاهد تتكرّر كلّ يوم وذات النظرات تراها كلّ يوم وذات الإحراج من قبحها تلحظه في عيون شخصٍ ما كلّ يوم...
أكبر مصيبةٍ يمكن أن تحدث للمرء، هو أن يكره ذاته ...
أكبر مصيبةٍ يمكن أن تحدث للفتاة، هو أن ترى نفسها قبيحة، وأن تؤكّد لها نظرات الجميع على ذلك.
يقاطع تأمّلها البائس في المرآة صوت سعال آدم الحاد، لتخرج من شرودها وتقول بصوت خافت:
- سأصبّ لك الماء علّه يساعدك
- لا، لا أريد، شكراً.. لكن أتعلمين بماذا يمكنك أن تساعديني حقّاً؟

ـ بماذا؟
ـ أرجوكِ، أريد أن أدخّن الآن! أؤكّد لكِ أنّها ستساعدني على التحسّن!
ـ مستحيل!
ـ لكنّني لا أستطيع التّحمل، الأمر ليس بيدي!
ـ حين يعود صديقك جواد يمكنك طلب ذلك منه، أما أنا فآسفة
يتأفّف منزعجاً وهو يعرف أنّ محاولة إقناعها لن تنجح، ليعود صوت سيلينا ويسأله:
ـ بالمناسبة، ماذا يعمل جواد حتى يخرج في مثل هذا الوقت لعمله؟
ـ إنّه محامٍ، ودائماً ما يكون مشغولاً هكذا بقضاياه..
ـ يبدو عمله متعباً
ـ أجل.
ـ وكيف حالك أنت الآن؟
لكنّه يصمت دون جواب، لا يعرف إن كانت تسأله عن حال صحته الجسدية أم النفسيّة بعد أن روى لها قصّته في الأمس، لذا يكتفي بالصمت بدلاً عن الكذب بالإجابة "أنا بخير."
تستغرب صمته هذا الذي يرحل حيناً ويعود حيناً آخر، تراه وهو يحاول النجاة لكنّ الصمت يبتلعه رغماً عنه.
ـ صمتك أغنية ...
تقولها وهي تدندن كلمات أغنيةٍ في داخلها، لتفتح هاتفها دون أن تشعر وتشغّل واحدة من أغانيها المفضّلة.
صوت ثمانية نغمات على البيانو يقتحم أذنيه رغماً عن صمته، ثم تبدأ كلمات الأغنية بالتسلل إليه، وسيلينا صامتة، وهو صامت.
"It takes a lot to know a man"
" يتطلّب الأمر كثيراً لمعرفة رجل "
وكأنّها توجّه كل كلامها له عبر أغنية، وكأنّها تجعل الموسيقى تتحدّث بدلاً عنها.
ـ هل حقّاً لا يمكنك القيام بأيّ شيء دون سماع الأغاني؟!
يقول آدم فجأة، ثمّ يكمل بسخرية:
ـ إنّني أتساءل ما هي الأغنية التي تساعدك على مضغ الطّعام يا ترى!

ـ حسناً إن كانت هذه نكتة فيسعدني إخبارك بأنّك ماهر في إلقاء النّكات السخيفة! أما إن كان سؤالاً يثير فضولك، فحقيقةً إنّي أحب سماع الموسيقى الكلاسيكيّة أثناء مضغ الطّعام ...

يقطب آدم حاجبيه باستغرابٍ لثوانٍ، ثمّ ينفجر من الضّحك دون أن يستطيع منع نفسه. تنظر له سيلينا وتبدأ بالضّحك هي الأخرى، لتكمل:

ـ أوه ما بك إنّني لا أمزح! حقّاً عليكَ أن تجرّبها عند تناولك للطعام، إنّها تضيف مذاقاً خاصّاً!

ـ هل يضيف البيانو نكهة الفلفل؟

تردّ ضاحكة:

ـ مرّةً أخرى أنت ماهر في إلقاء النّكات السخيفة!

ـ شكراً يا آنسة الموسيقى الكلاسيكية!

يضحك عالياً دون إرادةٍ منه، لحين أن يقاطعه السُّعال فجأة وبقوّة دون توقّف، فتسرع وتعطيه كأس الماء كي يشرب، يصمت الاثنان دون صوتٍ في الغرفة إلّا صوت الأغنية:

"It takes a lot to know a woman"

" يتطلب الأمر كثيراً لمعرفة امرأة "

يشعر أنّ كلمات الأغنية تشبهه، يشعر أن الأغنية كتبت لأمثاله، وعندها فهم ما كان قصدها حين قالت له " صمتك أغنية.."

ـ أحقّاً لديكِ أغنيةٌ لكلّ شيء؟

ـ ربما... أتعلم، أؤمن أنّ كلّ عصفورٍ يموت يتحوّل إلى أغنية، كان لديّ الكثير من العصافير في سماء قلبي، وأما الآن، فإنّني أملك قائمةً طويلةً من الأغنيات...

ـ لماذا تقومين بهذا؟

يسألها فجأة وهو يلقي برأسه المتعب على الوسادة، وقد تبدّل صوت ضحكه إلى لهجةٍ عميقة:

ـ أقوم بماذا؟

ـ بإيذائي! أنتِ منذ أن أتيتِ إلى هنا وأنتِ تضعين الأغاني والموسيقى حيناً أو تعزفين حيناً آخر، لكنّك لا تعلمين كيف يؤذيني كلّ هذا..! لا تعلمين كم يدهس قلبي!

ـ بلى أعلم، لكنَّ الموسيقى هي الشيء الوحيد الذي يؤذيك ويشفيك في آنٍ واحد.
ويجب أن تكون ممتنّاً لأنك تشعر بالألم عند سماعك لها..
ـ لن أكون سعيداً بألمي أبداً!
يصمت قليلاً ثم بلهجةٍ ساخرةٍ يكمل:
ـ ثمّ إنّ الأغاني تستحضر الشياطين أيتها المرأة، هذا ما تقوله جارتنا العجوز.
ـ الأغاني لا تستحضر الشياطين، الأغاني فقط تستحضر أرواح الذكريات حتّى تعضّك من قلبك وتنهش ذاكرتك
تصيب جملتها تلك صميم قلبه، فيسكت للحظات دون جواب

"It takes a lot to breathe, to touch, to feel"

" يتطلّب الأمر الكثير للتنفس، للمس، للشعور"
ـ حين تفارق شخصاً قريباً لقلبك، احزن، ابكِ، تألّم بكل ما تستطيع... لكي تشعر بلذّة الشفاء منه بعد فترة! في الوقت الذي ستفكّر به بالرحيل، عليكَ ألّا تحاول التراجع لأنّك في تلك اللحظة ستكون قد نفذت من الضماد، لا تتمسّك بالشيء الذي تركك ...
ـ لكنّي لم أستطع اتّخاذ قرار الرحيل بعد! إنني عالقٌ في مثلّثٍ حادّ الزوايا بين صورتها وحبّها وفراقها، كلّ زاوية تطعنني من جهة... إنّي لا أستطيع الصراخ أو البكاء، إنني مجرّد من كلّ درجات الشعور من دونها، حتّى الألم يبدو باهتاً دونها...
ـ أنت من تصنع نفسكَ باهتاً يا آدم، وأنتَ من تلوّنها... أولستَ رسّاماً؟ إذاً فأنت أعلم الناس بقدرة الألوان على تغيير مصير اللوحة...
ـ كنتُ رسّاماً ... قبل أن يصيبني العمى
ـ ومازلت رسّاماً! لأنّ العمى الحقيقي هو عمى البصيرة وليس البصر!
نحنُ ليس علينا أنّ نرى الأشياء، بل علينا أن نشعر بها وحسب دع كلّ شيءٍ يتغلغل في عمق روحك واترك جسدك بعيّداً...

"What are you so afraid to lose…?"

"ماذا تخشى أن تفقد...؟"
كانت كلّ كلمةٍ منها تجعله يشرد لمئة عام، وكأنّها كانت تعيد صياغة مفهوم الحياة له من جديد.. كلّ ما تفعله هو منحه الموسيقى والأغاني والكلام الذي يدخل في صميم

الروح كخيطٍ من نور، وكلّ ما كان يفعله هو الصمت والاستماع والغرق في حديثها قليلاً قليلاً ليجد نفسه يبدأ بالكلام دون أن يشعر، وهو الذي ابتلعت الكآبة صوته لشهور. كانت هي تصعد السّلّم الموسيقي، بينما هو عالقٌ في قاع الصّمت... حتى أمسكت به وانتشلته عبر أغنية!

ـ فيما تفكّر؟

تسأله في تلك الغرفة الصامتة، ليجيبها بصوته المبحوح:

ـ في كلامك ... ربما حقّاً أحتاج أن أصرخ وأبكي وأتألّم، ربّما سأشفى.

ـ إذاً ماذا تنتظر! أفعل كلّ هذا إن كان يريحك...

يضحكُ بسخرية في عمق ألمه قائلاً:

ـ في داخلي صرخةٌ مدويّة يمكنها أن تعزف على ألفِ بوقٍ معاً... أتريدين أن أوقظ الجميع وأبدو كالمجانين!

ـ بالتأكيد لا، أنا لا أطلب منك الصراخ بشكلٍ حرفيّ!

ـ إذاً ماذا!

ـ ما أريد قوله أنّك حين تريد أن تصرخ، غنّ.

حين تريد أن تنزف، ارسم.

حين تريد أن تسقط، ارقص.

حين تريد تفادي الفناء، عِش للنصف الأوّل من تلك الكلمة ... " الفن".

ثم تبتعد وتحضر كرسيّاً لتجلس مقابل وجهه، وهو غارقٌ فيما قالته، أحقّاً تؤمن لهذه الدّرجة بأنّ الفن يمكن أن ينقذ حياتنا من الكآبة ؟! يسأل نفسه باستغراب، ويبقى الاثنان في حالة صمتٍ لعشر دقائق مستمّرة، ولا صوت في الغرفة سوى آخر ثلاث نغماتٍ من موسيقى الأغنية التي انتهت للتو، لقد تسلّل صوتها إلى أذنيه كلحنٍ مسروق من سيّارةٍ عابرة..

ـ كم أنتِ جميلة يا سيلينا ...

بعفويّةٍ يقول تلك الجملة وبصوته المبحوح ذاك، ثم يصمت، ليتركها معلّقة بأطّراف تلك الكلمة التي لم تسمعها منذ زمن.. منذ زمن طويلٍ جداً، طويلٍ لدرجة التعب! ورغم أنّه سكت بعد أن قالها إلّا أنّها كانت مازالت تسمعها تدّق في رأسها، تدور وتدور وتدور، كررت صدى جملته تلك تماماً كما يكرر المرء في داخله دون أن يشعر أغنيةً أحبّها حدّ

الغرق. " كم أنتِ جميلة يا سيلينا " جملة واحدة كانت كفيلة لجعلها تسترجع زمناً طويلاً ومشاهداً كثيرة وصوراً متعددة ...
ـ م.. ماذا قلت؟
تسأله بصوتٍ متقطّع، وكأنّها تشكّ فيما سمعت، تسأله ذاك السؤال بلهجةٍ توحي أنّها تريد أن تسمع الجملة التي قالها مراراً وتكراراً ومراراً وتكراراً ...
يجيبها آدم باستغراب وبنصف ابتسامة:
ـ قلت كم أنتِ جميلة يا سيلينا! لماذا استغربتِ الأمر؟
لكنّها تصمت دون أن تجيب وهي غارقة في كلّ حرفٍ من تلك الجملة، جعلتها تشعر بشيءٍ لم تشعر به منذ زمن، وحين لحظ آدم صمتها الغريب والمفاجئ ذاك، همس بلهجةٍ مازحة:
ـ أوه لم أكن أعرف أن الفتيات يخجلن لهذه الدرجة!
لكنّها لم تجب، ودون شعورٍ منها، تنظر إلى المرآة المعلّقة والتي كانت تحدّق بها منذ قليل تتمعّن ملامحها المليئة بالندوب وآثار التشوّهات، وجهها الباهت، جسدها، شفتيها، تتمعّن وتتمعّن وتتمعّن بكلّ شرودٍ وغرق يملأُه الصمت منذ قليل، كانت تنظر إلى نفسها، إلى ذات الوجه والملامح والقبح، عبر ذات المرآة، كانت ترى امرأةً قبيحة تخجل من ملامحها، كانت ترى سيلينا التي رآها جواد منذ قليل بدون أيٍّ من مساحيق التجميل والتي جعلتها تخجل وتتألّم من نظرته، أما الآن، فهي تحدّق في ذات الملامح وعبر ذات المرآة لترى امرأةً جميلة، امرأةً اعترف بجمالها رجلٌ أعمى! لكن لا بأس... ربما لو لم تكن جميلة حقّاً لما شعر بذلك! تقنع نفسها بهذا القول كي لا تفسد النشوة التي زرعتها جملته العفويّة تلك في داخلها، هي الآن بدون الماكياج وبدون أيّ محاولة لإخفاء قبحها، ترى سيلينا الجميلة... الجميلة وحسب!

" لم تكن جميلة تماماً، لكنّها كانت مثل الفن، لا ينبغي أن يكون جميلاً على الدوام، ولكن يجب أن يجعلك تشعر بشيء..."

ـ بوكوفسكي ـ

****

الوتر الثالث

إن صرخ العالم في وجهك،
غنِّ في وجهه.

"إنّنا دائماً ما ننظر لأنفسنا عبر المرايا المكسورة، ثمّ نتّهم ملامحنا بالاعوجاج"

فرح ياسين

هل جرّبت الانتحار اللذيذ؟ أن تستمع لأغنياتك بأعلى صوت غير مبالٍ بالآلام التي تحفر دهاليز أذنيك، أن تتعاطى الكافيين في فناجين القهوة وكؤوس النسكافيه المتتالية، متجاهلاً التحذيرات الطبيّة لأضرارها.
أن تقضي ليلتك ساهراً لا تنام حتّى الرّابعة فجراً من أجل إكمال لوحة من رسم يديك، ناسياً أضرار الأرق مستمتعاً بالغوص في ألوانك وأغنياتك.
أن تتورم أصابعك من العزف المنهك لإتقان سطرٍ موسيقيّ واحد، فتعزف وتعزف وتعزف، حتّى تحفر الأوتار بصماتك وتتّصل بأوردتك.
أن تمشي تحت زخّات المطر غير مبالٍ بالمرض، أن تبكيك نهاية فيلم، أن يسيطر كتابٌ ما على كلّ حواسك.
أن تستمرّ بحبٍ تعرف نهايته البائسة، لكنّك رغم ذلك تستمر وتستهلك جميع مشاعرك تجاهه، فلا يبقى لك عند الفراق سوى دموعك المالحة وأغنياتك الطويلة...
هل جرّبت الانتحار اللذيذ؟ لا تقلق، أؤكد لك أنّه انتحارٌ حلال في شرع الحالمين...

ـ أنا أنتحر في سبيلك ألف مرّة.. أشنق نفسي بأغنياتك، ألسع عينيَّ بصورتك، أدّقُ صوتك على جدران رأسي، وأمضي إليك بلا حراك، الآن قد فهمته تماماً.
ـ ما هو؟
ـ الانتحار اللذيذ.

****

- إنّه الشهر الرابع يا جواد، وإلى الآن لم يخرج من هناك.
- أقسم لكِ أنّني أفعل كلّ ما بوسعي.
- إن كنت كذلك لماذا لم نستطع حتى الآن التقدّم بخطوة واحدة! لماذا يا جواد لماذا!! نحن نجلس هنا دون أن نستطيع فعل أيّ شيءٍ له! كيف سننقذه من هذه الورطة التي لا ذنب له بها أجبني كيف! كيف!
- سيلينا!
يتنهّد بتعب وهو يحاول إمساك نفسه كي لا ينهارا سويّةً، ثمّ يتابع بهدوء:
- أعدكِ سيكون كلّ شيءٍ بخير، أعدك سنخرجه من هناك.
- لقد تعبت من تعبه... كيف سنخرجه ونحن إلى الآن لا نملك طرف أملٍ في ذلك...
- لا أدري، ولكن، ألا تؤمنين بالمعجزات يا سيلينا؟
صمتٌ في منتصف البكاء، شرودٌ كبير، صوتٌ متعب يردد:
- أجل... أؤمن، أؤمن بالمعجزات.

****

واعذريني إن حطّ غراب كآبتي هذا على كتفكِ من دون إذن، لكنّ الطيور تبني أعشاشها أينما شعرت بالأمان.

" لماذا لم تكن أنت مثله؟! أسأل نفسي هذا السؤال الآن وفي هذه اللحظة، لماذا يا سامي لم تكن رجلاً يعشق بحق كما عشق آدم حبيبته؟
أعلم أنّ الإجابة ستكون "بسبب قبحي" لكن ما يحيّرني حقّاً الآن هو إن كنتَ تحنّ لشيءٍ مثلما يفعل هو، هل تراك تذكرني في الأغاني مثلما أفعل؟ لا أظن ذلك...
في كلِّ صباح أقرر أن أنساك، لكنَّ قراري يتلاشى ليلاً عند سماع أول أغنية...
أتعلم يا سامي؟ أعلم أنّك حاولت استغلالي كي تحقق ما تحلم به، لكن يؤسفني أنّك فشلت، أجل يؤسفني جدّاً! أنت حتى لم تعلم ما هي الطريقة للوصول إلى قلبي السّاذج مجدّداً، طوال هذا الوقت لم تكن تعرفني ولم تعرف ما يسعدني وما يرضيني، لم تعرف السّلاح الذي يساعدك على اقتحام مشاعري عنوةً عنّي.

رغم قذارة جرمك كان يمكن بإهدائك مقطوعةٍ موسيقيّة واحدة لي أن تطهّر كل شيء، كان يمكن لكمنجةٍ واحدة أن تعتذر عنك، ويمكن لثقوبِ ناي أن ترمّم فجواتك، كان يمكن لصوت تشيللو أن يجعلنا ندرك قبح الفراق أكثر، ويمكن لثلاثةِ مفاتيح في بيانو أن تهدينا فرصةً أخيرة.
بإمكانك التّرفع عن الاعتذار ولكن... كان يُمكن لأيّ نغمٍ بلا صدى أن يصلح ما أفسدته أنت، لكنك لم تحاول حتى!
كان طريق السّماح كالصّراط المؤدي لقلبي، وكنت أنتَ كافراً بحبّي، مثقلاً بذنوبك القبيحة، لدرجةِ أنّك سقطت في جحيم الغياب قبل أول خطوة...
لا أعلم لماذا أكتب لك الآن، لكن كلّ الذي أعلمه هو أنّني تمنيت لو كنت رجلاً يحبّني لدرجة التي تجرح الأغاني قلبه بسبب فراقنا... تماماً مثل آدم."
تسحب القوس بكلّ هدوء وألم وأنفاسها مليئة بالكلام، تبدأ بعزف ذات المقطوعة تلك التي ألّفتها بنفسها وبجروحها، وتستمرّ بالعزف لربع ساعة غارقة في موسيقاها كالعادة، وفجأة، يقاطعها صوت طرقٍ على الباب ليجعلها تتوقف وتصحو من غرقها ذاك، تنظر إلى السّاعة لتجدها تشير إلى الثانية والنصف منتصف الليل، تستغرب الأمر فالجميع نائمون لكنّها تضع الكمان جانباً وتقوم بفتح الباب بهدوء.
- آدم! أخبرني أتحتاج شيئاً؟! هل عاد إليك التعب أم ماذا؟!
يبقى صامتاً للحظات ثمّ يجيب بتوتر وهو يحدّق في الظلام وفي صوتها:
- لا لا أنا بخير، إنّني.. إنّني فقط أردت...
يصمت بارتباك،
- أردت ماذا؟
- أردت أن أقول لكِ شكراً...
- شكراً؟! على ماذا؟
- على تعبك أثناء مرضي وسهرك البارحة معي حتى تعافيتُ تماماً... في الحقيقة شعرتُ كم كنتُ لئيماً معكِ منذ قدومك، لكن صدّقيني أنا لستُ كذلك، لذا أحاول أن أكون لطيفاً، تعلمين...
تبتسم سيلينا بصمت، ثمّ تردّ عليه بلطف:

ـ لا عليك، أنا أتفهّم وضعك بعد مأساتك تلك.. ولا داعي لشكرك لي، لا بأس أنا لم أفعل شيئاً يستحّق الذكر...
ـ بلى فعلتِ، فعلتِ
يصمت بارتباك، لتنظر إليه باستغراب وتسأله:
ـ أهناك شيءٌ آخر تودُ قوله؟ يبدو أنّ هناك ما يشغلك
ـ أوه لا.. في الحقيقة إنّني ...
ـ ماذا؟
ـ لقد كنتُ مستيقظاً ولم أستطع النوم كالعادة، ثمّ بدأ صوت عزفك يصل إلى غرفتي، ولم أشعر بنفسي إلا أتبع صوت اللحن حتى وصلتُ إلى بابك وطرقته...
ـ أوه حسناً أنا آسفة، لا عليك، سأتوقّف عن العزف حالاً يمكنك أن تنام.. آسفة مجدداً
ـ لا!
يقولها بانفعال، لتقطب حاجبيها وتنظر إليه مجدداً باستغراب، فيلحظ هو الآخر انفعاله،
ـ أقصد لا.. لم يكن قصدي أنّ العزف أزعجني، لقد قصدتُّ أنّه خطفني بعض الشيء.
في الحقيقة أنا لا أترك غرفتي كما ترين، لكنّ هذه المقطوعة تجعلني أتبعها رغماً عنّي..
لا بأس، لن أقاطعكِ أكثر، أعتذر، سأعود إلى غرفتي، طابت ليلتك.
تبتسم بهدوء وهي تستوقفه..
ـ يسعدني جدّاً أنّها تترك أثراً بك...
يصمت ثانيتين ليردّ بلهجةٍ غريبة:
ـ أجل، إنّه أثرٌ عميق، يمكنه أن ينقذ الإنسان من المرّة الأولى...
ـ ينقذ؟!
تقولها باستغراب لكنّه يستمرّ بالصمت متذكّراً كيف انتشلته موسيقاها في ذلك اليوم.
يصمت الاثنان للحظات وهما يقفان مقابل بعضهما أمام الباب، يسألها بتردد:
ـ إن كنتِ ستستمرين في العزف الليلة، هل تمانعين أن تبقي الباب مفتوحاً وأن أجلس قربه لأسمع بوضوح؟ إن كان ذلك لا يزعجك طبعاً... رجاءً.
ـ تجلس قرب الباب؟!
ـ أجل، لكن لا بأس إن كان الأمر مزعجاً... أوه أو أتعلمين، سأذهب للنوم.

ـ لا طبعاً... يمكنك أن تبقى لا بأس في هذا، لكن لا تجلس عند الباب فالأرض باردة وأنت لم تتعافى بشكلٍ جيّدٍ بعد، تفضّل يمكنك الدّخول والجلوس
ـ حقّاً؟!
يقولها مبتسماً، لربما كانت هذه المرّة الأولى التي تراه فيها سيلينا مبتسماً حقّاً، تبتعد عن الباب ثم تهمس:
ـ ادخل واتّجه يميناً كي تجلس على الكرسي
يدخل بهدوء وهو مستغربٌ من نفسه حتّى! متى نسيَ ظلمته؟ متى نسيَ كآبته وآلامه؟ متى خرج من غرفته دون شعورٍ منه؟! كيف أتى إلى هنا وكيف جذبه اللحن، هو لا يعرف، كلّ الذي يعرفه أنّه يشعر بالخير الذي لم يشعر به منذ شهور.
حتّى الأفعى يمكن استدراجها بالموسيقى دون أن تقاوم لذّة النغم والرقص، فما بالك بالإنسان الجريح المتعب؟
يتحسّس الكرسيّ الذي أرشدته إليه سيلينا قليلاً قليلاً ثم يجلس بهدوء وصمت، لتجلس هي الأخرى على كرسيٍّ مقابلٍ له وتصمت أيضاً، خمس دقائق كاملة من الصمت ثمّ تمسك الكمان بتوتر لتبدأ بالعزف للجمهور الوحيد الذي يجلس أمامها.
تبدأ بهدوء، ثمّ ترتفع بالنّغم تدريجياً.. تنزل، ثم تصعد، تصرخ حيناً وتئنّ حيناً آخر! كانت تعزف بغرق، مغمضة العينين، ناسيةً وجوده أمامها حتّى.. وهو الآخر كان ثملاً في نبيذ النّغم، كان يشعر بتلك المقطوعة تتغلغل داخل قلبه وجسده وروحه، كانت تحرّك كلّ شيءٍ داخله، كانت تجبره على الشعور بالحزن كما يجب، كانت تجبره على البكاء والشعور بحرارة الدموع...
بقيت تعزف وبقي يتألّم لساعة كاملة ولبضعِ سنينٍ للوراء ربما...

آخر لحنٍ، وآخر سحبة قوسٍ على الوتر... مع انتهاء تلك المقطوعة عاد كلٌّ منهما ليدرك أين هو وماذا يفعل، تفتح سيلينا عينيها بهدوء بعد انتهائها لتجد آدم جالساً بصمت والدموع تتغلغل بمسام وجهه بوضوح، تنظر إليه بأسف وبعينين حزينتين، لكنّها في ذات الوقت تشعر أنّها قامت بإنجازٍ كبير حين استطاعت موسيقاها إبكاء ذاك الرجل الباهت الشعور...

استمرّ بكاؤه بصمت رغم انتهاء الموسيقى، لكنّها لم تنطق بكلمة واحدة ولم تزعج قُدسيّة شعوره أبداً.
ـ أيُّ حزنٍ هذا الذي يجعلكِ تعزفين بكلّ هذا الألم.
ـ الجروح كفيلة بأن تجعلنا فنانين...
ـ أشعرُ بالألم كما لم أشعر به من قبل يا سيلينا...أتساءل، هل هذا سيجعل منّي فناناً؟
ـ أوَلست كذلك!
ـ لا أدري...
ـ لا تقلق، نحن جميعاً ننتمي للفنّ
ـ نحن ننتمي للكواليس، الكواليس مؤلمة.
ـ بلى... إنها كذلك.. ولكن علينا أن نكافح.
ـ كيف نكافح وكلّ ما في العالم يصرخ في وجهنا
ـ إن صرخ العالم في وجهك، غنِّ في وجهه.
يبتسم، يتنهّد، يزفر، يردّد بتعب:
ـ أريد أن أرتاح.
ـ من ماذا؟
ـ من كلّ شيء.
ـ معك حق، كلّ شيءٍ مُتعِبٌ هنا.
ـ أين هنا؟
ـ هنا، على هذه الأرض، نحن نتعب من المشي ومن الركض، من الوقوف ومن الجلوس، من الحبّ ومن الكره، من التنفس ومن الاختناق، من الصراخ ومن الصمت، كلّ شيءٍ متعبٌ.
ـ والطيران... هل هو مُتعِب؟
ـ لو لم يكن متعباً، ما الذي سيدفع العصافير لتترك السماء وتنزل إلى هنا.
ـ أين هنا؟
ـ على هذه الأرض...

يتنهّد بهدوء، يأخذ سيجارةً من جيبه، يحرقها في فمه، ثمّ يكمل:

ـ وموسيقاكِ أيضاً..
ـ ما بها؟
ـ إنّها مُتعِبة.
تبتسم بلا مبالاة
ـ آسفة إن سببت لك التعب إذاً
ـ على العكس، لولاها لم أكن لأتذكّر كيف يبكي الإنسان بكلّ هذه العواطف المتشابكة... بالمناسبة من هو صاحب هذه المقطوعة؟
ـ الفتاة التي عزفتها لك منذ لحظات.

يعود برأسه المتكئ على الكرسيّ إلى الأمام مردّداً بانفعال:
ـ أنتِ؟! أحقاً أنتِ؟!
ـ أجل أنا!
ـ أوه! أتعلمين أنّكِ صاحبةُ تحفةٍ عظيمة! لا أصدّق أنّك من ألّف هذا الكمّ الهائل من المشاعر!
تجيب بخجل وبابتسامةٍ صغيرة:
ـ شكراً لك، هذا يعني الكثير...
يصمت آدم وهو لا يزال غارقاً في عمق المرأة التي أمامه، ليعود ويسألها بلهجةٍ جادّة:
ـ أحقاً يا سيلينا... ماذا فعلت لكِ الحياة لتعزفي بهذه الطّريقة المؤلمة؟!
تبتلع أنفاسها وتصمت دون إجابة، ليقول بارتباك:
ـ آسف... حقّاً لا أقصد التطفّل، يمكنكِ تجاهل السؤال، إنّني مازلتُ متأثّراً بموسيقاكِ تلك وحسب..
ـ لا أبداً ليس الأمر كذلك، لكن ظننت أنّ والدتك أخبرتك بقصّتي حين أتيت، لا بأس...
ـ حقيقةً لا أذكر أنّها أخبرتني سوى عن موتِ والديكِ، وخروجكِ من منزل عمّكِ، لكنّها لم تذكر أيّة تفاصيل أخرى، وإنّني أشعر بشيءٍ ما وراء كميّة العزف المؤلم هذه...
تأخذ نفساً عميقاً، لا تعرف من أين ستبدأ برواية مأساتها، لكنّها تجد نفسها تروي الخيبة الأكثر وجعاً والتي تركت الندبة الأكبر.

ـ لن أطيل عليك بالحديث... فالتفاصيل التي لا تعرفها يمكن اختصارها ببضع جمل. القصّة هي أنّني كنتُ خطيبةً لرجلٍ أحببته من عمق قلبي، استنزفت كلّ مشاعري تجاهه، حاولت أن أفعل أيّ شيءٍ كي يبقى بجانبي ... لأكتشف أنّه كان يستغلّني تدريجيّاً ليحصل على ما أملك من المال وبعدها فقط يقوم بتركي.

ثم تصمت لثوانٍ ودموعها تبدأ بالتّجمع في عينيها دون أن تتحكّم بنفسها، وتكمل:

ـ لكن حقيقةً ليست هذه هي مأساتي ... مأساتي العظمى أنّه تخلّى عنّي بسبب ما حدث لي في تلك الحادثة ليتزوّج سرّاً من الفتاة التي كنتُ أظنّها صديقتي، لا بل شقيقتي وأكثر...

ـ آسف، لكن أيّة حادثة؟ وماذا أصابكِ حين تعرّضتِ لها؟!

ـ الحادثة التي توفيَ بها والديَّ وقد كنت معهما حينها، لقد... لقد تشوّه وجهي، لقد أصبحت فتاةً قبيحة ومشوّهة في ذلك اليوم.

ـ مشوّهة؟!

تحاول كتم بكائها لكنّها لا تستطيع.

ـ أجل مشوّهة، لقد شوهتني الحرب، شوهني النّاس، كلّ شيءٍ كان يتسابق ليترك ندوبه فيّ..

من صوتها المكسور استطاع أن يدرك أنّها تبكي، بدأ يسمع صوت بكائها بحرقة وشهقاتها المليئة بالآلام والأوجاع تزداد بصمت، شعر بقلبه يعتصر على حزنها ذاك وهو لا يستطيع فعل شيء ولا حتّى رؤية ملامحها الحزينة، يقف قليلاً قليلاً من مكان جلوسه ويبدأ بالمشي متتبعاً صوت شهقات بكائها المنخفضة، حتّى يصل تماماً إلى قبالتها حيث تجلس، ينخفض أمامها ويجلس على ركبتيه بهدوء، تنظر له بصمت وهي غارقة بالبكاء ودون أن تنطق بكلمة.

ـ لكنّكِ جميلة يا سيلينا! جميلة بالطريقة التي لا تعرفينها...

جملته تلك لم تزدها سوى بكاءً، وكأنّها شعرت أنّها مصدرٌ للشفقة، ذات الشعور الذي تمتلئ به عيون الناس التي تنظر إليها، لكنّه رغم بكائها الذي ازداد أكمل قائلاً:

ـ إنّني لم أعرفكِ منذ زمنٍ بعيد، لاأعلم كيف تبدو ملامحكِ حين تبتسمين، أو كيف تبدو عيونكِ الذابلة عند البكاء، لا أعرف من تشبهين، أمكِ أم أباكِ أم جدتكِ، لا أعلم كيف هي ملامحكِ في الصور ولا حتى في الواقع، لربما تشبهين غيمة، أو نجمة، أو زهرةً

بريّة. كلّ الذي أعلمه يا سيلينا، أنّكِ أنتِ بما أنتِ، تبدين كالشّامةِ التي تخوض حروب بقاءها بين مئات الندوب، كالنقش الهندسيّ على جناح فراشة...

ألم أخبرك في الأمس أنّكِ جميلة؟ لقد فعلت، لقد أخبرتكِ أنّكِ كذلك وأنا الذي لم أرَ وجهكِ يوماً! وهذا أكبر دليلٍ على جمالك! أن يشعر بجمالكِ رجلٌ أعمى لم يعرفكِ سوى لبضعةِ أيّام، فهذا أكبر دليلٍ على روعتك!

يسمع صوت بكاءها ينخفض تدريجيّا..

ـ شكراً لك..

ـ إنّني لا أقول هذا لتشكريني، انظري، وجهكِ، والديكِ، خطيبكِ وصديقتكِ، زوجة عمّكِ، كلّ هذه المآسي ولا زلتِ تكملين حياتكِ بشكلٍ طبيعي، تعزفين وتسمعين الأغاني، تتألّمين وتضحكين، قارني نفسكِ بي الآن، في الحقيقة أعترف بعد قصصكِ هذه أنّني أنا القبيح هنا!

يتابع بلهجةٍ ساخرة:

ـ قبيحٌ ولئيمٌ وأعمى، إنّني فارس أحلام كلّ فتاة، ولا يمكنكِ أن تنكري ذلك!

تضحك سيلينا وسط بكائها دون أن تستطيع منع نفسها، ليسمعها هو الآخر ويبدأ بالضّحك معها، ثمّ تضيف لكلامه:

ـ ولا تنسَ خاصيّة إلقاء النّكات السخيفة، أنت بارعٌ بها حقّاً!

ـ ليست سخيفة لقد استطاعت إضحاككِ يا ناكرة الجميل! يا صاحبة موسيقى المضغ الكلاسيكيّة!

ينفجر الاثنان من الضّحك دون توقّف ودون سبب مقنع! هما فقط كانا يضحكان وكأنّهما لم يعرفا الضحك لسنينٍ طويلة...طويلةٍ جداً...

ـ أشعر وكأنّنا في فيلم!

يقولها فجأة في منتصف ذلك

ـ ماذا تقصد؟

ـ أقصد، منذ قليلٍ كنّا نبكي، وها نحن الآن في نوبةِ ضحك! منذ أشهرٍ لم تعرف شفتاي كيف يمكن أن ترتفع أطرافها للابتسام، أمّا الآن فإنّني أضحك دون أن أشعر حتّى! أشعر أنّني في فيلمٍ مكتمل، مشاهدٌ حزينة وأُخرى سعيدة، مشهدٌ لكشف الأسرار وآخر للحظات الصمت، ألا تشعرين بذلك؟

ـ أجل أشعر...
ـ لا أدري كيف استطعتِ فعل هذا، لكنّك قمتِ بإنجاز!
أقصد... استطاعتكِ على جعلي أضحك بهذه السرعة.
ثمّ يستأنف بسخرية
ـ حقيقةً كنتُ أظنُ أنّ هذا الشعور كان قد تحجّر لدي!
ـ أنا لم أفعل شيئاً، لكنّنا ربّما نسلك ذات الطّريق البائس وهذا ما جعلنا نحوّل البؤس إلى مهزلة...
ـ ربّما من المضحك قول هذا ولكن، حقيقةً أشعرُ أنّني التقيتُ بكِ سابقاً
ـ ربّما...
ـ ربّما؟
ـ أقصد، الأشخاص المتشابهون يشعرون بذلك دائماً.
ـ حقّاً؟ وبماذا نحنُ متشابهان؟
ـ أنا مثلك، أعرفُ طريق الغرق جيّداً، لذا بِتُّ أتعلّق بظلّي رويداً رويداً، أنا أعرف كيف يمكن للمرء أن يصرخ بصمت، أن يخبر أسراره بأغنية، وأعرف أنْ لا أحد سيفهمه... أنا أعرف الظلام في عينيك، أنا وأنتِ في ذات البؤرة السوداء لكن بطرقٍ مختلفة، أنا وأنتِ على ذات المنصّة وتحت ذات الأغنية نرقص لذات الجمهور السّاخر من رقصتنا البائسة... هذه الندوب الكثيرة تجعلُ وجودي مزدحماً رغم الفراغ.
كلانا في ذات الفاجعة، أنت لا ترى شيئاً وتحزن، وأنا أرى كلّ شيءٍ ينهشني.
ـ أستطيع أن أتحمّل رؤية مليون ندبةٍ في وجهي كلّ يوم، على ألّا أمُضي بقيّة عمري أرى الوجود أسوداً، أن أكون أعمى.
ـ أنت ترى الوجود أسوداً ليس لأنّك أعمى، بل لأنّه أسود بكلّ درجاتِ الشياطين، لا ترغب بالشفاء من العمى كثيراً، فالنور ليس كما عهدته، والوجود أصبح أشدَّ عتمةً من عينيك...
ـ لا بأس... في كلتا الحالتين ما الفائدة من الكلام، إن تمنيت أو لم أتمنى، إنّني أعمى وسأبقى كذلك للأبد.
ـ عليك أن تؤمن بالمعجزات، المعجزات تحصل.
ـ لم أُصادف واحدةً من قبل لأؤمن بها.

ـ الوقت لم ينتهِ، الطريق طويل، حتماً ستحصل لك معجزةٌ ما.
يتأمّل في كلامها عميقاً، يبتسم بهدوء وهو يهمس:
ـ أنتِ جميلة يا سيلينا... عليك إدراك ذلك
ـ شكراً لك، أنا ممتنة لكلّ هذا..
ـ لكنّني لا أقول هذا لمواساتك!
ـ إنّني لا أعلم كيف يمكنك أن تقول عنّي جميلة وأنت لا تراني...
ـ لأنّكِ تشبهين الموسيقى، والموسيقى لم تُخلَق للرؤية بل للشعور، أنتِ تشبهين موسيقاكِ كثيراً!
تتأمّلهُ مطوّلاً بنشوةٍ كبيرة، كان اللون الورديّ يسري في كلّ خلية من وجهها الباهت عند كلامه ذاك.
ـ وأنت تشبه لوحاتك كثيراً ... تحاول إخفاء آلامك لكنّ الألوان الباهتة تفضحك
يصمت بألم متذكّراً لوحاته، لتكمل:
ـ أنت فنانٌ يا آدم، يمكنكَ تلوين أكثر الأشياء بهتاناً في هذا العالم، ولهذا عليكَ أن ترسم!
ـ كيف لرجلٍ أعمى أن يرسم!
ـ أتريد منّي أن أعيد شرح نظريّتي للشعور وإدخالك في زكامٍ جديدٍ أم ماذا؟!
يضحك بصمت ثم يرد:
ـ انسي الأمر، لا رغبة لي في الأمر حتى...
ـ لماذا لا تحاول؟!
يردّ بانفعالٍ وبنبرةٍ غاضبة:
ـ لأنّني لا أريد تذكّر وجهها ألا تفهمين! إنّني لا أرى شيئاً سوى وجهها الملتصق في مخيلتي، ولا أريد تذكّرها أو رسمها! إنّني أريد الهروب منها وحسب!! أريد الهروب من عجزي!
تحدّق به بدهشة، كيف تبدّل حاله بثوانٍ! كان رجلاً عميقاً لا يمكنك الوصول إليه مهما اقتربت منه، بل عليك الغرق به، كان رجلاً كطقس سبتمبر، لا يمكنك فهمه، يقترب منكَ حدّ الالتصاق بروحك ثم يرحل كغيمةٍ رماديّة تتلاعب بأنفاس الربيع، كان يشبه تدرّج الألوان ما بين الأسودِ والأبيض.

خمس ثوانٍ من الصّمت المتبادل، وسيلينا لا زالت تحدّق به، وهو لا زال عالقاً بنبرة صوته الغاضبة والمكسورة، جالساً على ركبتيه أمام سيلينا، يأخذ نفساً عميقاً ثم يهمس بصوتٍ مكسورٍ ومتعبٍ وخافت:

- أنا آسف لكنّني ...

يقولها بلهجةٍ متقطّعة وسيلينا لا زالت تتأمّله، ثمّ وقبل أن يكمل جملته يلقي برأسه على ركبتيها المقابلتين له بهزيمةٍ وتعب، كطفلٍ ضائعٍ وصل إلى حضن أمّه دون أن يرى من الطريق شيئاً...

برأسه المنحني على ركبتيها غرق في البكاء باستسلام دون أن يشعر بشيء، وسيلينا تتأمّله بدهشة وقد شهدت للتو انهيار رجلٍ استند عليها باستسلام.

- أنا آسف يا سيلينا لكنّني ضعيف! أنا رجلٌ عاجز بقلبٍ مبتور! فكفّي عن تذكيري بهذا الشيء أرجوكِ...

- آدم...

تهمس اسمهُ بحزن، لكنّه لا يجيب بل يكتفي بالبكاء بصمت دون خجلٍ من دموعه رامياً رأسه في حضنها بتعب، تغمض عينيها لثوانٍ وتأخذ نفساً عميقاً بحجم السماء، شعرت وكأنّ تضميد هذا الطير الجريح المرتمي في حضنها هو مسؤوليتها الوحيدة في هذه اللحظة، وضعت يدها بحنانٍ وصمت على رأسه، ثمّ اقتربت وهمست في أذنه:

- لا عليك، سيكون كلّ شيء على ما يرام ...

- سيلينا...

- السماء في كلّ مكان، أُخبِر نفسي بهذا الأمر دائماً ما يجعلني أشعر أنّ الخير قريبٌ دائماً، طالما حضن السماء يحيط بنا فكلّ شيءٍ سيكون على ما يرام، لا تقلق...

- هل تؤمنين بالمعجزات يا سيلينا..

- أجل، أؤمن.

- هل الموسيقى معجزة...؟

- أؤمن أنّ الموسيقى قادرة على تحويل البُعدِ ما بين كوكبين، إلى المسافة بين جناحيّ حمامة، لذا أجل، هي معجزة!

- اعزفي الموسيقى مجدداً إذاً، لتحصل معجزة تنتشلني من هذا الليل.

تنظر له مطوّلاً وبهدوء تزيل يديها عن رأسه، يرفع هو وجهه قليلاً قليلاً من حضنها، ليشعر بها تترك الكرسيّ وتجلس بقربه على الأرض، إلى يساره، شعر بوجودها الدافئ اقترب منه أكثر وصوت أنفاسها بات أقرب، وكان السكون والصمت يبتلعه وهو لازال يشعر بحرارة دموعه على مسام وجهه تنزلق ببطء.
"دو" فجأة، سمع ذاك الصوت... لحن الكمان الذي ينقذه من البؤس وينتشله من صمته في كلّ مرّة، لكنّ هذه المرة كان اللحن ملتصقاً به، يربّت على جروحه بحنان تماماً كما ربّتت هي على رأسه، انغمرت بعزف ذات المقطوعة للمرّة الثالثة هذه الليلة والكمان يستند على كتفها الأيسر كانت غارقة بعمق الرجل الحزين الذي بقربها، تشعر به فجأةً يميل قليلاً قليلاً من شدّة التعب ويستند على كتفها الأيمن بصمت، فيسري الأدرينالين في عروقها كما يسري اللحن في أذنه...
ـ أنا آسف يا سيلينا...
ـ أنا هنا، والموسيقى، والسماء، يمكنني حمل تعبك هذا كلّه، لا تقلق...

لم يعرف هو كيف يمكن للإنسان أن يستسلم بطمأنينة لإنسانٍ آخر إلّا في تلك اللحظة.
وأمّا هي... في تلك اللحظة حيث بات رأسه المتعب وكمانها كلٌّ منهما على كتف، قد شعرت أنّها سيّدة الأرض والزمن، وأنّها أجمل نساء العالمين...
****
ـ مستحيل! ولا تعيدي فتح هذا الموضوع معي أبداً يا أمي! أتسمعينني؟ أبداً!
يقولها غيث بنبرة حازمة وهو ينظر في عيون والدته مباشرةً، ثمّ يكمل:
ـ أنا لا أفكّر بهذا الموضوع بتاتاً ولا أظن أنّني سأفكر به لزمنٍ طويل... انتهى الأمر.
تردّ عليه رانيا بغضب:
ـ لا يحقّ لك هذا يا غيث! أنا والدتك وهو والدك وأنت ابننا الشاب الوحيد ولا يحقّ لك أن تحرمنا من الفرح بك ورؤية أولادك! ثم ما بك؟! كلّ هذا لأن تلك الفتاة التي تدعى ليلى لم تتزوّج بك وتزوّجت بغيرك؟! ألم يخلق الله غيرها من فتيات أم ماذا؟ تبّاً لها ولوالدها الذي رفض شاباً مثلك، عليك أن تنسها وتكمل حياتك وتتزوج! ثمّ إن الزواج سينسيك مئة فتاةٍ مثل ليلى تلك.

- لا أمي! لا وألف لا! هذا يكفي، لا تعيدي ذكر اسم ليلى، لا تضغطي عليَّ أكثر أرجوكِ! أنا لا أرغب في الزواج الآن، ثمّ كيف تريدين منّي أن أتزوّج وأن أنجب أطفالاً بهذه الحال؟! إنّه أمرٌ مستحيل!
- وكيف كنت ستتزوج من ليلى إذاً؟ هيّا أجبني!
يقف غيث بغضب وهو لا يعرف كيف سيتخلّص من هذا النّقاش الملتصق به منذ أسبوع، ينظر إلى والدته ثمّ إلى والده الذي كان يجلس على كرسيّه متابعاً الحديث، لكنّ شلّله يمنعه من الكلام والحركة، كلّ ما يستطيع فعله هو التحديق في عيون ابنه غيث بألم.
يأخذ غيث نفساً عميقاً ويحاول تماسك أعصابه مكملاً الحديث مع رانيا:
- أمي، منذ أسبوعٍ إلى الآن لم تكفّي عن الحديث في هذا الموضوع وأنا اكتفيت! أرجوكِ افهمي أنّني راضٍ بحياتي هكذا الآن بدون زواج، لا تظنّي أن الزواج سيجعل حياتي أفضل أو أنّ أيّ امرأةٍ ستجعلني أرتاح! على العكس تماماً!
- لكنّه سيريحنا أنا ووالدك على الأقل إن لم يكن سيريحك أنت! كفَّ عن التفكير بنفسك وحسب!
- أفكّر في نفسي!
يقولها بصدمةٍ ثمّ يكمل:
- كيف لا أفكر في نفسي وأنتِ تريدين منّي أن أتزوج! إنّه قرارٌ يخصّ حياتي أنا يا أمي! ثمّ كيف سيجعلكم زواجي مرتاحين أنتِ ووالدي؟ هيّا تكلّمي!
- بالطبع سيجعلنا نرتاح!
تصيح في وجهه بغضب
- أنت تتعب خارجاً في العمل وتعمل طوال اليوم لتحضر لنا النّقود وأنا أقدّر ذلك، لكنّك يا غيث لا ترى ما يجري طوال النّهار! لا أحد يشعر بي في هذا المنزل، لا أحد!
يقطب حاجبيه باستغراب، يحدّق في والدته رانيا وقد بدأت دموعها الخبيثة تنزل على خدّيها.
- أمي لماذا تبكين! وما الذي يجري طوال النّهار هيّا أخبريني؟! هل أنتِ مريضة؟ أمي أرجوكِ كفّي عن البكاء وأجيبيني الآن!!
يسألها بقلق، لتستغل لين قلبه في تلك اللحظة وتصرخ:
- أجل يا غيث! لا أحد يشعر بي هنا ولا حتّى أنت! أنا متعبة!

ـ متعبة من ماذا؟!
ـ منه!

تقولها وهي تشير إلى زوجها زيدان الجالس على كرسيّ المُقعدين ذاك، دون أن تبقي ذرّة احترامٍ واحدة لمشاعره، تتسع عيون غيث بصدمة ويسألها بعدم تصديق:

ـ م.. م.. من أبي! أنتِ متعبة من أبي يا أمي!

ينظر زيدان إلى ابنه غيث ولزوجته رانيا واحداً تلوَ الآخر، شاعراً بسكين العجز تنهش جسده المشلول، لم يكن يتوقع للحظة واحدة من حياته أنّه سيصبح يوماً عالةً على زوجته التي منحها كلّ شيء يملكه لإخلاصه في حبّه لها، وأنّه سيصبح حِملاً ثقيلاً على ابنه، وأنّه سيصبح ظلّ أبٍ بلا فائدة لطفلتيه التوأم... لم يكن ليتوقع ذلك لحين تلك اللحظة، التي جعلته يدرك أنّ الحرب تجعل الرجال يقضمون العجز بأسنانهم الصدأة مرغمين...
يعود بنظره إلى رانيا وهي تردّ على غيث:

ـ أجل يا غيث، أنا متعبة من والدك! أنا هنا لوحدي أقوم بالاعتناء برجلٍ مُقعَد، إطعامه وإشرابه، تغيير ثيابه، أخذه للسرير وانتشاله منه، وحتّى أخذه للحمام! انا لم أعد أستطيع احتمال حياتي أبداً بهذه الحال! لقد تعبت وأنا أقضي حياتي أعتني برجلٍ عاجز! لست مجبرة على تحمّل كلّ هذا وحدي أنا!

ـ كفى!

يصرخ غيث مندهشاً من كلام أمّه التي تهين والده بكلامها ذاك وأمامه متجاهلة مشاعره تماماً، يكمل بلهجةٍ مصدومة ومتألّمة:

ـ لكنّه ليس رجلاً عاجزاً، إنّه زوجكِ ووالدي يا أمّي! كيف يمكنك الكلام بهذه الطريقة أخبريني!

ـ لأنّني تعبت! تعبت يا غيث وأنت لا تريد مساعدتي بأبسط الأمور حتّى!
أنت لا تفكّر سوى بنفسك، أمّا والدتك المتعبة ووالدك المُقعَد هذا لا تفكر بهما أبداً
ثمّ تعود من جديد وتبكي بخبث لتستعطف قلب غيث الذي يردّ عليها بألم:

ـ كيف لا أفكّر بكما وأنا أعمل ليلاً نهاراً من أجلكما! أنتما والداي فكيف لي ألّا أفكّر بكما يا أمي! ماذا بوسعي أن أفعل أكثر من الذي أفعله أخبريني!

ـ تزوّج!

ـ أنتِ تعودين لذات النقطة مجدداً! ما بالك أخبريني! وكيف لزواجي أن يحلّ أمراً كهذا!
أمي أرجوكِ لا تخلطي الأمور ببعضها هكذا! أرجوكِ هذا يكفي!
ـ نحن نحتاج لفتاةٍ تساعدنا في المنزل يا غيث أثناء غيابك ألا تفهم هذا!
يضع غيث يديه على رأسه شاعراً أنّ الكون يضيق ويضيق ويضيق، يأخذ نفساً عميقاً وهو يناجي الإله في داخله، ثم يعود صوت رانيا ويخاطبه بلهجةٍ حازمة:
ـ اسمع يا غيث! غداً سأذهب وأطلب يد ابنة خالتك جمانة لك، وإن رفضت الأمر فأقسم لك أنّ قلبي لن يسامحك أبداً! أتفهم يا غيث؟ سأغضب عليك أمام الله للأبد لأنّك لم تفكر إلّا بنفسك ولم تجعل لراحة والدتك اهتمام!
يشعر بالاختناق قد أمسك أنفاسه وأنّ كلّ شيءٍ تقلّص في حياته لتبقى حدوده فجأة بين بقعة سوداء كانت تتفشّى أمامه يوماً بعد يوم، وها هي غطّت كلّ شيءٍ بالكامل وهو ينظر إليها بلا حراك عاجزاً عن فعل أيّ شيء سوى المشاهدة بألم، كان يصنع فيلم حياته الخاصة لكن بطريقة الحياة والحرب والعجز وليس بطريقته هو، لم يضع البداية التي رغب بها ولا الأحداث التي تمنّاها، وها هي النهاية تفرض نفسها عليه تدريجيّاً وتمسكه من يده العاجزة عن المقاومة حتّى.
يرتمي على الكنبة، قبالة والده المشلول عن كل شيء إلّا البكاء، كانت الدموع هي الجزء الوحيد الذي يتحرك وسط شلّله ذاك، يحدّق في والده العاجز، ثمّ في والدته التي تنتظر جوابه الحاسم، ثمّ في شقيقتيه اللتين تراقبان هذه الزوبعة بصمت، يغلق عينيه بألم شديدٍ شديد، ثمّ يغطّي وجهه بكفّيه المتعبتين، يتنهّد بعمقٍ كبير، يسأل ويجيب نفسه في داخله "ماذا ستفعل يا غيث؟ أنت تخسر كل شيء تدريجيّاً، دراستك، مستقبلك المهني، وليلى... انتهينا في هذا الطريق البارد جدّاً يا ليلى... لقد تزوجت ليلى يا غيث، وماذا عنك؟! لكن الزواج بغيرها لن ينسيني إيّاها، وإن لم أتزوج ماذا سيحدث؟ لن تتحقق مطالب أمي وستبقى تستثقل عجز أبي بعد كلّ هذا العمر، إنّها تهينه يا غيث! والدك يُهان من قِبَلِ والدتك بسبب عجزه! لا... يستحيل أن أسمح لأمي أن تكرّر ما قالته أمام أبي، وأمي؟ ستغضب عليَّ طوال حياتها لأنّني لن أحقق لها ما تريد.. أتريد أن تخسر رضا أبويك أيضاً يا غيث بعد أن خسرت كلّ حياتك التي حلمت بها؟ ألا يكفيك ما أنت عليه من بؤس! "
ـ غيث!

يخرجه صوت رانيا من غرقه الصامت الذي دام لثوانٍ لكنّه كان كافياً لاسترجاع كلّ خيبات حياته، يزيل كفّيه عن وجهه ويعود لينظر إلى والده المقابل له ولنظرات والدته التي لا تحتمل زوجها، لم يعلم بماذا يجيب، بقي صامتاً يحدّق في عيون والدته وكأنّه يناجيها أن تخفف همّه، وفي تلك اللحظة تنطق والدته مكملة:
ـ إذاً، ماذا قلت يا غيث؟ إنَّ جمانة هي ابنة خالتك وهي لفتاةٌ جميلة بحق، غير أنّني خالتها وستساعدني في المنزل وفي الاعتناء بوالدك أثناء غيابك دون أن تشتكي وتتعب، فهيّا اختر الآن يا غيث، إمّا رضا والدتك عليك ومراعاتك لمشاعري ومشاعر والدك، وإمّا تفضيل نفسك علينا وغضبي عليك حتى آخر يومٍ في حياتي!
يحدّق في عينيها لخمس ثوانٍ وهو يرى الماضي والحاضر والمستقبل يحترق بنارٍ باردة، ثمّ يأخذ تنهيدةً عميقة يختصر بها كلّ حسرات الأحلام..
ـ افعلي ما تريدين يا أمي...الحياة قد فاتتني وانتهى الأمر.
يقولها بيأس لتحدّق به رانيا وتتسع عيونها بفرحٍ، ثمّ تزغرد بنشوة الأمّ المنتصرة، ووالده العاجز يراقب حزن ابنه الذي ينطفئ رويداً رويداً، وزوجته التي تتسرّب الأنانيّة من ابتسامتها.
وأمّا غيث، فقد غادر إلى غرفته بصمتٍ مطلَق، بقلبٍ خدّرته الآلام، تاركاً أيامه تأتي كما تريد، دون أن يشتهي منها شيئاً بعد الآن...

****

المرايا تكذب دائماً. وحدها اللوحات هي الصادقة.

" لكنّني لا أريد السقوط في هذه البؤرة المعتمة، شيءٌ ما يجعلني أتشبث ببقايا الهواء وظلال من يرحلون، لا شيء ينتشلني من كآبتي هذه عدا تلك الأغنية الميّتة في أذني. كلّ هذه الوجوه الرمادية تنهش ما تبقى، جميع تلك الذكريات تعضّني من قلبي، وأجنحة الملائكة بعيدة جداً عن هنا... كلّ تلك القداسة قد رحلت، جلال النشوة الأولى أصبح باهتاً، ولم يتبقَ لنا منّا سوى الرمل الأسود... تعال وخذ كلّ هذا الغبار الذي تركته في عيني، أخرج من جميع تلك الأغاني، أريد أن أسمعها دون تذكرك لمرة واحدة فقط! "
ـ سيلينا، هل أنتِ مستيقظة؟!

ينتشلها صوت آدم وطرقه على الباب من غرقها في الكتابة وفي ذكرى سامي التي تأبى تركها بسلام، تبتسم بصمت وهي تنظر إلى الساعة التي تشير إلى الرابعة فجراً، أصبح الأمر واضحاً أنَّ آدم اعتاد القدوم إليها كلّ يومٍ في هذا التوقيت حتى ولو لم يسمعها تعزف.

تفتح الباب بهدوء لتجد آدم مستنداً إلى طرف الحائط

- ما زلت مستيقظاً! أخبرني أتحتاج شيئاً؟

يعدّل وقفته بسرعة بعد أن سمع صوتها ثم يقول بارتباك:

- أوه لا.. في الحقيقة إنّني.. لم أسمعكِ تعزفين الليلة، أتساءل إن كان بكِ خطبٌ ما؟!

- لا أنا بخير شكراً لك.. لكنّني متعبة قليلاً ولم أرغب في العزف

- متعبة؟ من ماذا؟ أهو دورك في المرض أم ماذا؟

- لا ليس مرضاً، ربما بعض الضيق ليس إلّا ...

يردّ بإحراج:

- أوه حسناً ... أنا آسف على الإزعاج، إن احتجتِ أيّ شيءٍ سأكون في غرفتي، آسف على إزعاجكِ مجدداً

- لا أبداً ... لا بأس!

ترد عليه سيلينا لكنّه يبقى واقفاً مكانه دون حراك وكأنّه لا يرغب في العودة إلى غرفته، لتبتسم وهي ترى تردده ذاك وتقول:

- يمكنك الدخول يا آدم! يبدو أنّك تشعر بالأرق

- في الحقيقة نعم، لكن لا أريد إزعاجك

تجيب بلهجةٍ مازحة:

- أنت تزعجني كلّ ليلة، لا بأس بهذا أيّها اللئيم!

- حسناً وفي الحقيقة أنتِ فتاةٌ تستحق الإزعاج!

يقولها وهو يضحك معها، مقترباً من الباب وكأنّه كان ينتظر أن تدعوه للدخول منذ أن فتحت له، تبتعد هي الأخرى عن الباب كي تدعه يدخل.

يمشي متجهاً إلى مكان جلوسه المعتاد وقد حفظ الطريق جيّداً، ثمّ يتحسّس الكرسي ويجلس بهدوء.

- إذاً، إن لم تكوني تعزفين فماذا تفعلين إلى هذا الوقت؟

ـ لاشيء... كنت أكتب وحسب.
يقطب حاجبيه باستغراب ثمّ يجيب:
ـ إذاً ... أنتِ عازفة وكاتبة أيضاً؟!
ـ لا حقيقةً... لا أظنّني كاتبة، إنّه مجرّد نوعٍ من ترجمة المشاعر، الكتابة والعزف هما ملاذي الوحيد...
ـ لعلّي أقرأ لكِ يوماً ما...
ـ سيسعدني ذلك كثيراً
ثمّ تجلس على الكرسي الآخر وتسأله:
ـ وأنت؟!
ـ أنا ماذا؟
ـ أتساءل كيف كانت حياتك قبل حادثتك؟ ماذا كنت تفعل سوى الرسم؟
ـ لا شيء يُذكر... كانت حياتي روتينيّة، بين دراسة الطب، والرسم، الخروج مع الأصدقاء، والحب... وهكذا ...
ـ ألا تشتاق لدراستك؟
ـ هه، تقصدين أشتاق للطب؟!
يقولها بسخرية ثمّ يكمل:
ـ حقيقةً يؤلمني أنّني لم أستطع إكمال دراستي بعد كل سنوات التعب وكان قد تبقى سنة واحدة لي على التخرج، لكنّني رغم ذلك لا أشعر بالفرق ولا بالاشتياق، لأنّني لم أحبّ الطب يوماً قط!
ـ لم تحبّه!
ـ لا أبداً
ـ إذاً لماذا اخترته في الأصل!
ـ تحقيقاً لرغبة والداي...
ـ غريب كيف أنّك لا تحبّه... مع أنّه حلمٌ عالٍ كالسماء بالنسبة للبعض!
ـ لكنّ السماء حين تصير سقفاً، سيشنق الطّير نفسه بدل أن يطير!
تصمت للحظات وقد تذكّرت ابن عمّها غيث، تجد الفرق بين غيث وآدم، الأوّل كان حلم حياته الأعظم أن يدرس الطّب لكنّه لم يستطع تحقيقه، أمّا الثاني فقد درس الطّب وهو

مرغم، وكأنّ الحياة تلعب بأدوارنا وتبدّلها في مسرحيّةٍ هزليّة، ما هو كابوسٌ للبعض، هو حلمٌ وردي للبعض الآخر، إنّهم يرسمون لنا حدود السّماء ثمّ يقولون "هيّا طيروا بِحُريّة!"
ـ إذاً وما كنت تحلم أن تدرس أساساً؟
ـ كنت أريد وبشّدة دراسة الرسم... ولكن والداي كانا دائماً ما ينظران إلى فرق المستقبل بين الرسم والطب، ولهذا دخلته مرغماً.
ـ لا تقل هذا يا آدم، لا تيأس! يمكنك متابعة حلمك وحلم والديك معاً، أن تستمر في دراستك وتستمر في الرسم وتنمي قدراتك به أكثر وأكثر، وبعد تخرّجك يمكن أن تدرس ما كنت تطمح إليه من الأساس، سيكون ذلك رائعاً!
يبدأ آدم بالضحك فجأة، تسأله باستغراب:
ـ ما بك؟!
ـ حلمي وحلم والديّ وأتخرج ثمّ أستمر في الرسم؟! جميل.. جميل جداً!
يضحك أكثر وأكثر لكن بطريقة ساخرة ويتابع:
ـ بربّكِ أجيبيني من الأعمى هنا أنا أم أنتِ؟!
ـ لا أنت ولا أنا!
ـ شكراً على المواساة يا سيلينا، هذا لطفٌ منك
يقولها وهو لا زال يضحك بسخرية من نفسه ومن عماه ومن ظلامه وكآبته ومن كلّ شيءٍ يحيط به
ـ أوّلاً أنا لا أواسيكِ أبداً، وثانياً، يمكنك أن ترسم وتلوّن في أشدّ البقع ظلاماً، وثالثاً، أنت لا تعلم متى يمكن أن تأتي اللحظة التي ستستعيد نظرك فيها وحينها يمكنك أن تكمل دراستك وجميع أحلامك، فقط تفاءل قليلاً ويكفيك سخريّة!
ـ أتفاءل؟! أوه أجل تعلمين إنّه أمرٌ سهل جدّاً، أنا لست يائساً يا سيلينا لكن الحياة الطبيعية ليست لأمثالي.
ـ إذاً دعها تصبح لأمثالك! أنا لا أفهم كيف يمكن لرجلٍ مثلك أن يحيط نفسه بهذه الهالة الرماديّة! قلتها لك من قبل وأقولها الآن، هناك أشياء لا يجب أن نراها، بل يجب أن نشعر بها، والفنّ هو أعظم تلك الأشياء... إنّ الفنّ مخلوقٌ للشعور به وليس لرؤيته وحسب!

كان يخجل من عجزه وكآبته أمام كلامها العظيم هذا في كلّ مرّة، يضع يده على جيب بنطاله متحسساً لعلبة السجائر بينما سيلينا تراقبه وهي جالسة أمامه، تبتسم بصمت وهي تتأمله متهرّباً من كلامها عبر التدخين، صمتت الغرفة في تلك اللحظات بينما سيلينا تنظر إليه وهو يفشل في إشعال سيجارته للمرة الثالثة، دائماً ما يُذكّرها هذا الرجل بأغنياتٍ مختلفة ... تمسك هاتفها وتضع أغنية لتكسر الصمت الذي ولِد للحظات، صوت Lana Del Rey أوقظ حواسه فجأة وهو غارقٌ في ظلام عينيه، يسألها وهو يستنشق الدّخان بعد أن نجح أخيراً في إشعاله:

ـ ألا تنفكين عن سماع الأغاني للحظة واحدة؟

ـ ألا تنفك عن التدخين بشراهة ليومٍ واحد؟

ـ السجائر تساعد على التئام الجروح ...

ـ والأغاني تساعد على التئام الجروح أيضاً!

“there's something in the wind, I can feel it blowing in”

" هناك شيءٌ ما في الرياح، أستطيع الشعور بهبوبها على "

ـ حسناً ربما ... لكن بالنسبة لي السجائر هي الدواء الأفضل الذي يساعد على الاستمرار في هذه الحياة

ـ بل تساعد على الموت! أنت تدخّن بشكلٍ كبير وكأنّك تحاول الانتحار!

يضحك ثم يقول بسخرية:

ـ أصبتِ! أحاول الانتحار.

“it's coming in softly, on the wings of a bomb”

" إنها تهب عليّ بنعومة، على أجنحتي القاسية "

ـ هناك ألف طريقةٍ أخرى لتنتحر بشكلٍ أفضل من التدخين هكذا!

يضحك مرّة أخرى بصوتٍ عالٍ ثم يقاطعه السعال للحظات، ليكمل:

ـ هذا جميل، منذ قليل تعطيني نصائح لأكون أقوى، والآن تعطيني نصائح لأنتحر بشكلٍ مثالي! كيف تنصحينني أن أنتحر آنستي؟ قفزاً من الطابق العاشر أم أقطع أوردتي بالسكين؟
ـ لا طبعاً، أنا لا أطلب منك الانتحار الذي يؤدي إلى الموت، بل ذلك الانتحار الذي يجعلك على قيد الحياة.
ـ كُفّي عن الفلسفة الُمعقّدة أيتها الفتاة!
ـ هل جرّبت الانتحار اللذيذ؟
ـ عفواً؟ لم أفهم..
ـ أن تستنزف كلّ لذّةٍ في الحياة مقابل الشعور بالسعادة للحظةٍ واحدة!
تتأمّله بصمت لثوانٍ..
ـ لا عليك، ربما ستفهم ذات يوم...
تردّ عليه بنفَسٍ واحد وكأنّها تبرهن بثقة نظريّةً ما:
الظلام في عينيه، والسيجارة في يده، وهي جالسة قرب ظلّه عند ركبتيه، والأغنية طرفٌ ثالث في الحوار بينهما ...

“I've been thinking it's just someone else's job to care, but who am I to wanna try, but..”
" كنت أفكر إذا ما كان هناك شخصٌ ما يحاول الاهتمام بي، لكن من أنا كي أحاول، لكن... "

يستنشق آخر نفسٍ من سيجارته بشراهة، لتأخذها سيلينا من يده وتطفئها. يقول مخاطباً طيفها الذي يشعر به جالساً أمامه، وهو يخرج الدّخان من فمه:
ـ أتعلمين يا سيلينا؟ لقد ولدت وفي داخلي مغارة، كهفٌ كبير.. كبير جداً! ولدت والفراغ يملأُني، في داخلي لا شيء سوى الحطام، جدار قلبي كان شفافاً، ونزيف أوردتي غير مرئي، صراخي ليس له صدى، وأنيني باهت، خافت، غير مسموع، جئت إلى هذا الكون لكنّه لم يصل إليّ بعد، فتحت عينيّ حين كانت جميع الأبواب مغلقة.. أحياناً أدرك أنّني أعمى وفارغ ومنهك وكئيب منذ أن ولدت وليس منذ تلك الحادثة، حتى حين

وقعت بالحب، كانت نهايتي باهتة... دائماً ما أسلك الطريق الذي يؤدي إلى المقابر، لذا لا تظنّي أنّني سأكون أفضل إن حاولتِ تلوين الحياة في عيوني، لأنّني إنسانٌ أعمى بالفطرة، لم أرَ من الحياة شيئاً حتى في أوج تحديقي بها.
لا تحاولي تلوين رجلٍ باهت... ربما عليكِ العزف له وحسب.

"Change is a powerful thing; people are powerful beings…
Trying to find the power in me to be faithful"
" التغيير شيء قوي، الناس مخلوقات قوية... أحاول إيجاد القوّة في داخلي لأكون مؤمنة... "

ـ لا أعلم، لكن هناك شيءٌ ما يجعلني أؤمن بأنّ قلبك هو علبةُ ألوانٍ كبيرة بالرغم من أنّك تُصرّ على الإمساك باللون الأسود دائماً، أنت رجلٌ يحمل نفحَ الفنّ في روحه، ومن يحمل الفنّ في داخله لن يموت يوماً.
ابتسمَ ابتسامةً عميقة، ابتسامةً عريضة جدّاً، شعرت سيلينا وهي تنظر إليها بشيءٍ من الدفء، لتسأله باستغراب:
ـ لماذا تبتسم!
ـ بسببك!
ـ بسببي؟!
ـ أنتِ جميلة بطريقةٍ غريبة، بل عميقة! تشبهين لوحة لا أستطيع تخيلها، لوحة مليئة بالألوان والألغاز والحياة والندوب ...

الخجل؟ لا، لم يكن الخجل ما شعرت به سيلينا في تلك اللحظة، ربما هي لم تعلم بماذا شعرت لأنّ جميع خلجات ذاتها اختلطت سويّة لتتركها صامتة، مبتسمة بنصف وجهها المغطى بشعرها، وجهها المليء بالندوب وآثار التشوّهات ذاك كان يبتسم كما تبتسم نجمات هوليوود للكاميرات بكلّ ثقة! شعرت لوهلة وبلا سبب أنّها تريد أن تضمّ هذا الرجل الذي أمامها لبقيّة حياتها دفعةً واحدة، لأنّه أخبرها أنّها "جميلة"، كانت عيناها المتسعتان من الفرح تحدّقان بوجهه وهما مملوءتان بالامتنان، بالشكر، بكلّ قصائد

الفرح، تمنّت لو أنّه يرى نظراتها في تلك اللحظة ليشعر بكميّة السعادة والامتنان التي زرعها للتو ويفهمها، رغم أنها ليست المرّة الأولى التي يخبرها بها هذا الأمر، إلّا أنّ لغتها في تلك اللحظة كانت متشابكة دون أن تعلم أين يقع طرف النطق ليردّ على كلامه، لكنّها استجمعت مشاعرها الذائبة وردّت عليه بهمسٍ دافئ:

ـ وربما أنت أقوى رجل في العالم، لأنّك استطعت رفع الابتسامة على شفتين شاحبتين منذ زمن! شكراً على هذا الكلام... شكراً وحسب.

ـ أنا لا أجاملك.

ـ وهذا ما يجعلني سعيدةً أكثر.

يتحسّس علبة السجائر مرّةً تاليّة ويشعل سيجارته بإتقان، يأخذ النفس الأول ويخرجه قائلاً وهو يبتسم نصف ابتسامة:

ـ أحياناً أتساءل وأنا مستغرب أيّ رجلٍ غبي هذا الذي قد يترك امرأةً تملك كلّ هذه المشاعر!

ـ رجلٌ كان يحدّق في وجهي طوال الوقت، ولم يلمح قلبي مرّةً واحدة ...

ـ ألا تشتاقين له؟

ـ أظنّ أن نوبات الاشتياق قد غادرتني منذ زمن... كلّ ما أشعره الآن تجاهه هو الكره ربما.

ـ الكره؟! إذاً ألم تحبيه؟!

ـ أحبه؟!

تسأله بلهجةٍ ساخرة، ثم تكمل:

ـ لم أكن أحبّه وحسب ... كنتُ أحاول بذل حياتي بكاملها لأبقى معه، للأبد ...

ـ إذاً أنتِ لم تكرهيه ولن تنجحي بذلك ما دمتِ أحببتهِ لهذه الدرجة ...

ـ أتعلم معنى أن تكره شخصاً من شدّة حبّك له؟ إنّه تماماً مثل أن تملّ من أغنية بسبب شدّة حبّك واستماعك لها... إنّه حبٌّ رمادي، يكون باهتاً في نهاية الطريق، حين تتّخذ قراراً بالتخلي.. لتهمس في داخلك ولآخر مرّة "هذا الشخص ليس لي!" تماماً كذات الشعور حين تتجاوز سماع أغنية مللتها رغم أنّها كانت المفضّلة عندك في أحد الأيام، لكنّك من شدّة الحب ستكره... وهذا ما أصبحت أشعر به، في النهاية أنا لا ألومه، كانت المخاطرة في استمرار حبّه كرقص الباليه على حافة بركان، وأظنّ أنّني سقطت ...

ـ ربما أنتِ لست بحاجةٍ لرجل لا يقدّر قيمتك الحقيقية، كوني ممتنة للقدر أنّه أزاله من طريقك

ـ طبعاً.. أشكر الربّ على ذلك.

ـ هه، لا أعلم من الأكثر بؤساً، أنا أم انتِ!

تبتسم باستسلام للأمر الواقع وهي تتجه بنظرها إلى النافذة..

ـ يا إله الجمال!

تقولها وهي تشهق بإعجاب

ـ ماذا هناك؟!

ـ السماء... مظهرها يبدو مدهشاً بطريقةٍ غريبة يا آدم... إنّها رائعة!

بقيت تحدّق بعينيها المتسعتين إعجاباً، لا بل ذهولاً بمنظر السماء، كان منظر الشروق يحبس الأنفاس..

صمت آدم وكأنّه شعور بالأسف على نفسه، كان يشتهي أن يرى المنظر الذي جعلها سيلينا تندهش هكذا، لقد اشتاق للسماء حقّاً...

ـ يجب أن ترى هذا المنظر بطريقةٍ ما!

ـ أجل، وأنا كنت أتمنّى ذلك أيضاً.. أن أرى هذا المنظر، أتمنى أن أرى أيّ شيءٍ وحسب...

تتأمّله بألم، تريد أن تنقذه من سواده الكئيب هذا لكنّها لا تدري كيف ... تحدّق به وتحدّق بالنافذة والتفكير بآلامه يزعجها، لترى شيئاً أسود على الرّف القريب من النافذة.

ـ أجل! هذه هي!

ـ ما هي!

ـ الكاميرا!

ثمّ يشعر بها تنهض من أمامه بسرعة لتبتعد خطواتها قليلاً ثمّ تعود للاقتراب وتقول:

ـ سأصوّر لك منظر السّماء الآن!

يردّ بسخرية:

ـ هه، وكأنّ الأمر مهم! وكأنّني أعمى عن الواقع، أمّا عن الصور فإنّني أملك أشعة ليزر تمكّنني من تجاوز العمى ورؤيتها!

ـ لا داعي للسخرية هكذا! أنا جادّة! سأقوم بتصوير السماء لك ليس من أجل أن تراها الآن، بل كي تراها لاحقاً!
ـ ومن الأحمق الذي أخبرك أنّني سأرى لاحقاً؟
ـ أظن أنّه أنت!
ـ أنا!
تضحك وترد:
ـ أجل! أنت قلت لي أنّه في حال وجدت متبرّعاً بعينيه وكنت تملك النقود، يوجد أمل في أن تستعيد نظرك.
ـ أجل لكنّني ركزت على الشَرطين أيتها الذكيّة: وجود متبرع، وجود النقود، أرغب بتذكيرك باستحالة وجودهما ...
ـ أوه لا يهم، أنت تثرثر كثيراً! سأقوم بتصويرها لك فحسب..
ـ مجنونة...
يتبع كلمته تلك صوت الكاميرا تلتقط الصورة، ثمّ صوتها تهمس:
ـ تبدو رائعة!
ـ أتمنى أن تكون الكاميرا جيدة كي أرى الصورة بوضوح
ـ لا تقلق، إنّها كاميرا رائعة، رافقتني طوال سنين عملي
ثمّ عادت لتجلس عل الأرض قبالته، وهي تمسك الكاميرا بيديها، وبدأت تهمس له:
ـ ألا تريد رؤية الصورة؟
ـ كفّي عن الجنون أيتها الفتاة!
ـ لا حقّاً، أسمع سأجعلك تراها
ـ جيّد، تملكين قدرات خارقة أيضاً؟!
ـ أجل طبعاً!
ثمّ تكمل:
ـ الشمس في بداية طريقها للظهور، لا يبدو منها إلّا أوّلها وما زالت بعض النجوم المتأخّرة تظهر بشكلٍ عشوائيّ قبل أن تختفي، السماء أرجوانيّة وورديّة وحمراء وزرقاء.. كلّ الألوان امتزجت بخليط مبهر يتغلغل بين الغيمة والأخرى... وخيوط

الشمس المتسلّلة بخجل تمتد بعيداً ...بعيداً جدّا، هناك إلى الأفق الذي نتمنى لمسه بأيدينا...
كان المشهد لا تلقائياً يتشكل في مخيلته التي يملأها السواد، كان يرى السماء بالطريقة التي تصفها له، غرق في تخيّل المشهد وهو يبتسم لتلحظ سيلينا ابتسامته اللاإرادية تلك وتهمس:
- أليست جميلة؟
يأخذ نفساً عميقاً، ثم تتسع ابتسامته أكثر
- إنها كذلك... إنّها جميلة...

"There's a change going to come
I don't know where or when
But whenever it does, we'll be here for it"

"هناك تغيير سيأتي إلينا
لا أعلم أين ومتى
لكن في أيّ وقت يأتي
سوف نكون هنا من أجله"

يمكن للوطن أن يكون على هيئة امرأةٍ قرمزيّة، يمكن للخذلان أن يكون على هيئة رجلٍ من صوّان.
يمكن للفرح أن يكون على هيئة أغنية، يمكن للحزن أن يكون على هيئة أغنية ولكن برفقة ذكرى تعيسة.
يمكن للحياة أن تكون على هيئة عينين تراقبهما طوال الوقت، يمكن للموت أن يكون على هيئة عينين لا تراك...

****

الجدران مطليّة بالأبيض، غطاء السرير الجديد أبيض، وفستان زفافها الذي ترتديه أبيض ... لكن رغم ذلك فإن الكحل الأسود المختلط بدموعها يجعل كلّ شيءٍ يبدو أسود، أسود وحسب.
تجلس على حافة السرير، تبكي بصمت بعد أن أدركت أنّ أحلامها الوردية قد تلاشت في هذا اليوم، لم تتمنى أن تتزوّج بهذه الحال، ولا من هذا الرجل، لم تتمنى الزواج من أيّ رجلٍ أصلاً... إلّا من واحدٍ حرمها حظها منه.
في الجانب الآخر... يقف هو هناك، ينظر لها، لنفسه، للغرفة، لقدره، لأحلامه التي اندثرت، للحياة التي تضحك عليه من بعيد، وللفيلم الذي يلعب دور بطولته دون أن يختار ذلك، يغمض عينيه لخمس ثوانٍ، يتنهد بعمق...
يفتحهما لكن المشهد مازال ذاته، لم تتبدّل الفتاة التي تجلس على السرير، ولم تتبدل الغرفة، ولم يتبدّل مكانه، إنّه الواقع إذاً، لا مهرب من إدراك الحقيقة...
يأخذ نفساً عميقاً مجدداً، ثمّ يهمس في سرّه مخاطباً نفسه: "حسناً.. كُن إنساناً جديداً بحياةٍ جديدة مع فتاةٍ وعائلة جديدة من اليوم... انسَ كلّ شيء منذ هذه اللحظة يا غيث ولتكن حياتك منذ الآن من أجل إسعاد هذه الفتاة ومن أجل العائلة التي ستصنعها معها وستبذل كلّ ما تملك من أجلها... انسَ يا غيث وابدأ من جديد."
يدخل بتوتر إلى الغرفة لتمسح هي دموعها بهدوء برأسٍ منخفض تغطيه الطرحة البيضاء، التوتر يتملّك كليهما، لكلٍّ منهما قصةٌ حَلُمَ بها غير هذه القصة التي يعيشها الآن، لكنّ كلاهما اختار أن يحاول دفن آلامه بصمت والاستسلام لسخريّة القدر...
يقترب بارتباك منها ثمّ يجلس بهدوء على حافة السرير، ينظر إليها وهي منخفضة الرأس وآثار الكحل تفضح بكاءها للتو، يبتلع أنفاسه ثمّ يهمس لها بدفء:
- جمانة...
تنهمر دموعها مجدداً بهدوء وبصمت مطلق، لكنّه يحاول تهدئتها قدر ما يستطيع علّه يخلق حياةً جديدة وسعيدة معها وهادئة منذ أول يوم، يمسك بأطراف طرحتها ثمّ يرفعها بهدوء مبتسماً، يقترب منها ثمّ يقبّل جبينها بهدوء وصمت ليطمئنها.
يتأمّل وجهها الحنطيّ، شعرها الكستنائيّ، وعيونها البنيّة الغامقة، يهمس في داخله "إنّها لا تشبهكِ يا ليلى... لا توجد امرأةٌ في هذا الكون تشبهكِ..." لكنّه يحاول طرد تلك الأفكار

من رأسه ليحقّق الوعد الذي قطعه على نفسه منذ قليل، أن ينسَ كلّ شيء ويبدأ من جديد.

يلحظ توتّرها ودموعها التي لم يفهم سببها حتى الآن، لكنّه يهمس لها بدفء مجدّداً:

ـ جمانة... لماذا تبكين؟ هل هناك شيء يزعجك؟

لكنّها لا تنطق بحرفٍ واحد، ليكمل:

ـ عليكِ أن تخبريني ما الذي يبكيكِ... فمن الآن ما يزعجكِ يزعجني وما يسعدكِ يسعدني، أليس كذلك؟ هيّا انظري إليّ وأخبريني لماذا تبكين؟

تبتلع دموعها وتردّ عليه بلهجةٍ متقطّعة:

ـ ل... لست أبكي

ـ إذاً انظري إليّ...

ترفع وجهها بهدوءٍ إليه وتنظر له بعينين حزينتين، لتجد تلك الملامح تنظر لها بدفء مع ابتسامة تحاول بعث الاطمئنان في داخلها،

ـ أنتِ جميلة جداً يا جمانة ... مباركٌ لنا بحياتنا الجديدة..

يبتلع أنفاسه للحظة ثمّ يتابع:

ـ أريدك أن تعلمي أنّني سأبذل كلّ ما أملكه لتكوني امرأةً سعيدة، أعدك أنّني سأعمل ليلاً نهاراً كي ألبي لكِ كلّ ما تريدينه، ولن أقبل أن تنامي يوماً حزينةً منّي، آمل يا جمانة أن أكون زوجاً صالحاً يسعدك طوال حياتك ولا يحزنكِ أبداً، لا تقلقي أبداً ولا تخافي، أنتِ من هذا اليوم أصبحتِ زوجتي التي لن أقبل أن تكون حزينةً أبداً، اتفقنا؟

تغمض عينيها لئلّا تهطل دموعها أمامه مجدداً، تبتلع خيبتها وتهزّ رأسها باستسلام، ليبتسم هو الآخر في وجهها بهدوء.

هو يعلم أنّ هذا الكلام يخرج تلقائيّاً من فمه لأنّه يقوله كمن يؤدي واجباً عليه، يعلم لو أنّ هذه الفتاة كانت ليلى لكان سيقول أموراً كثيرة وسيضحك كثيراً ويشكر الله كثيراً... لكنّه يطرد صورة ليلى وهذه الأفكار مجدداً من رأسه، ويركّز في البداية الجديدة التي يحاول صنعها مع فتاة أخرى.

رغم أنّه يعلم في داخله أنّ الحسرة على ليلى لن تفارقه للحظة، لكنّه يقنع نفسه الآن بأنّه يعيش دور الزوج السعيد في ليلة زفافه.

لكن لا أحد يمكنه قتل الحقيقة، قد تتوالى كثيرٌ من النساء على سرير رجلٍ ما، لكن دائماً لن تغفو تحت وسادته سوى صورةٍ لامرأةٍ واحدة ...

****

ـ كتب الأديب الكفيف طه حسين لزوجته سوزان
"بدونكِ أشعر أنّي ضرير، أمّا وإنّي معكِ، فإنّني أتوصّل إلى الشعور بكلّ شيء."

مرَّ أسبوع، أي سبعة أيامٍ كاملة خلالها التقطت سيلينا الكثير من الصور له...
أصبح منتصف الليل هو موعدهم المعتاد دون أن يتّفقوا على ذلك، كان آدم يتبع صوت عزفها كلّ ليلة حتى يصل إلى غرفتها، وفي الليلة التي لا تعزف بها يذهب إليها بحجّة الاطمئنان والسؤال عن سبب صمتها، كان هناك شيءٌ ما يدفعه للخروج من غرفته كلّ ليلة للجلوس والحديث معها والاستماع للأغنيات وليرى عبر عينيها ما لا يستطيع رؤيته بعينيه... كانت تصف له السماء التي تظهر من النافذة كلّ يوم ومن ثمّ تلتقط له صورةً للمنظر، وتخبره في كلّ مرة أنّه سيأتي يوم ويستعيد نظره ويرى جميع هذه الصور التي تشهد على سهرهما الطويل كلّ ليلة، وبالمقابل كان هو دائماً ما يسخر من أملها البريء هذا.

ـ خالتي، انتهيت من تنظيف المطبخ كما أنّ الغداء جاهز، هل تودّون تناول الطعام؟
ـ سلمت يداكِ، لا عليكِ سأضع الغداء أنا بعد قليل فلسنا جائعين الآن، ولكن هلّا سألتِ آدم إن كان جائعاً من فضلك؟
ـ حسناً سأفعل
تبتسم سيلينا وتتجه إلى غرفته التي قليلاً ما تدخلها إلّا عند تنظيفها، ذلك لأنها تحبّ أن تترك خصوصيّته المقدّسة جانباً لئلّا يزعجه الأمر.
ثلاث دقاتٍ على الباب، ثمّ صوته:
ـ ادخل
ـ إنّها أنا
ـ أجل أعلم ...ومن غيرك يزعجني في منتصف شرودي وصمتي؟

ـ يبدو أنّك نسيت جواد
ـ جواد ليس مزعجاً!
ـ وأنا لست كذلك، ثمّ أتريد أن أذكرك من يقوم بإزعاج الآخر كلّ ليلة؟
ـ أجل! أنتِ تزعجينني بعزفكِ
ـ أوه! ولهذا تأتي طالباً أن تستمع إليه عن قرب!
ـ لا يهمّ.. في النهاية عليكِ أن تكوني ممتنة لأنّني جمهوركِ الوحيد هنا
ـ أنا لا أحتاج إلى جمهورٍ كي أعزف.
ـ حسناً كفّي عن الجدال ولا تكوني عنيدة لمرّة واحدة!
ـ هذا يعني أنّني ربحت!
ـ ربحتِ؟! ربحتِ ماذا!
ـ ربحت الجدال!
ـ ربّاه! ما الذي أتي بكِ إلى هنا هيّا قولي وحسب!
ـ أتيت لأسألك إن كنت جائعاً فأضع لك الطعام، لكن يبدو أنني سأغيّر رأيي
ـ أوه حقاً؟ وما الغداء اليوم؟
ـ المعكرونة! تبدو رائعة عليكَ تذوّقها!
ـ من طهاها؟ أنتِ!
ـ أجل طبعاً!
ـ يستحيل أن أتذوّقها
ـ ألا يمكنك ألا تكون لئيماً لمرّةٍ واحدة!
يضحك بخبث ثمّ يجيب:
ـ حسناً سأحاول...
ـ إذاً هل أحضر لك الطعام؟
ـ لا.. لا أريد أكلها
ـ بحقك الآن كفَّ عن هذا!
ـ لا لا.. لا أقصد لأنّك أعددته، لكن حقّاً لا شهيّة لي على الطعام ...
ـ هل أحضّر لك شيئاً آخر؟
ـ لا داعي لذلك...

يتنهد بعمق ثمّ يقول بهدوء:
ـ أووه سيلينا، أتعلمين ما أشتهي في هذه اللحظة!
ـ ماذا!
ـ أشتهي وبشدّة تناول الذرة الصفراء وشمّ رائحتها والشعور بمذاقها يتغلغل في فمي.. أوه كم تبدو شهيّة!
تقطب حاجبيها مبتسمة:
ـ الذرة! بحقّك! ما الذي ذكّرك بها الآن وفي منتصف الشتاء؟
ـ لا أدري، لقد رغبتها وحسب...
ثمّ يسمع خطواتها تقترب منه تدريجيّا إلى أن تصل لقبالته وتقول بلهجةٍ متحديّة:
ـ إذاً دعنا نتناولها!
يبتسم هو الآخر نصف ابتسامة ويرد:
ـ كفّي عن لعب دور المرأة الخارقة أمام هذا الأعمى!
ـ لكنّني خارقة حقّاً يا سيّد لئيم
ـ لست لئيماً!
ـ بل أنت كذلك!
ثمّ تبتعد وتقول بلهجة التأنيب والسخريّة:
ـ لا يهم، لكن يبدو أنّك فوّت فرصة تناول الذرة السّاخنة، ذات الطعم الشّهي، والرائحة الخارقة، والمملّحة بشكلٍ مثالي، مع بخارها الذي ينبعث في هذا الجوّ البارد
وتتركه متّجهة إلى الباب لتخرج، خطوة، خطوتان، ثلا..
ـ حسناً دعيني أتناولها الآن إذاً أيتها المحتالة!
يقولها بنبرةٍ مستعجلة بعد أن اشتهاها بما فيه الكفاية عبر وصفها، وكأنّ شهيته قد انفتحت دفعةً واحدةً، تضحك في سرّها ثم ترد بلهجةٍ واثقة:
ـ متأكد؟
ـ طبعاً، هيّا اذهبي وأحضريها، إلّا إذا كنتِ قد تراجعتِ...!
تعود وتقترب منه مبتسمة مجدداً
ـ ستتذوّق أشهى ذرة في حياتك كلّها!

وتخرج من الغرفة لتتركه عالقاً بين صوتها، وبين صورة الذّرة الشهيّة التي بات ينتظرها بفارغ الصبر أن تأتي إليه.

****

لا وجوهَ شاحبة سوانا والسحاب.

- لكنّ آدم لم يخرج من البيت منذ زمن، وأظنّه لن يوافق على الخروج الآن يا سيلينا
- لا عليكِ خالتي، لن أخبره أنّنا سنخرج
- إذاً ماذا؟
- سترين الآن، لكن أريد إذنك أوّلاً بالخروج
- طبعاً يمكنكما! إنّني لا أصدّق حتى أرى آدم يخرج من المنزل ويترك غرفته المتعفنة الكئيبة تلك
- ممتاز! سأذهب لأجهّز نفسي إذاً
- حسناً سيلينا، كونا حذرين رجاءً..

تهزّ برأسها مبتسمةً، وتتّجه مسرعة إلى الغرفة لتجهّز نفسها.

كانت الساعة تقارب الثالثة ظهراً، والجوّ غائمٌ في الخارج، لكن لا يمكن لأيّ ظرفٍ مناخيّ أن يمنع فتاةً من الخروج!

تفتح خزانتها وتتأمّل جميع ملابسها، في كلّ مرة تنظر إلى ملابسها تقع عينها على ثوبٍ من الصوف، بلونٍ أصفر كمونيّ، دوماً ما ترغب في ارتدائه لكن تذكّرها لشيءٍ ما يمنعها من ذلك.. هي لم ترتديه سوى مرّة واحدة فقط، حين ارتدته بنشوة وخرجت من المنزل، ليصيح شابٌ كان يجلس مع مجموعة من رفاقه على الرصيف: "لقد شوّهتِ اللون الأصفر يا امرأة!"

إنّها في كلّ مرّة تمسك بهذا الثوب تستطيع سماع ذات الشاب يلقي نكتته المستهزئة بشكلها ويضحك، فيضحك رفاقه، ويضحك الناس، وتضحك الشوارع، وتضحك صيحات الموضة، ومعايير الجمال، ومساحيق التجميل! كلّ شيءٍ كان يستهزئ من شكلها...

تترك الثوب الصوفي الأصفر ذاك وتخرج من شرودها به، لتمسك بكنزةٍ رماديّة وترتديها على عجل، تتجّه إلى المرآة لتضع الماكياج كالعادة على وجهها، تمسك بالعلبة وتزيح شعرها عن نصف وجهها لتبدأ، لكنّها بعد ثانية،
ثانيتان،
ثلاث،
توقّفت وتأمّلت وجهها كاملاً، بندوبه، وتشوّهاته، وعيوبه، وقبحه، وشحوبه...
لكنّها لم ترَ أيّاً من تلك الأشياء هذه المرّة، كانت جملةٌ واحدة تدقّ في رأسها وهي تنظر إلى نفسها " أنتِ جميلة يا سيلينا!"
هذه الكلمات تدور وتدور في رأسها بصوت آدم المتعب والهادئ، للمرّة الأولى منذ أن تشوّه وجهها قد بدت لها جميع هذه الندوب على أنّها شيءٌ جميل في وجهها، دون أن تشعر وضعت علبة الماكياج من يدها وهي لا زالت تتأمّل ذاتها " أنتِ جميلة يا سيلينا!" ما زالت الجملة تدقّ في سمعها، لتتّجه بنظرها مجدداً إلى ثوب الصوف الأصفر في الخزانة.
تخلع كنزتها الرمادية لترتديه بسعادةٍ غريبة، تتّجه إلى المرآة لتمسك بعلبة الماكياج مجدداً، لكنّها بعد أن تنظر لوجهها سرعان ما تترك العلبة، وتغطي نصف وجهها بشعرها، وتترك النصف الآخر ظاهراً على طبيعته ودون مسحة ماكياجٍ واحدة، للمرّة الأولى تتجرّأ على الخروج بشكلها الطبيعي، دون أيّ شيء يلوّن شحوب وجهها أو يغطي ندوبها، هي لا تعلم لماذا تفعل ذلك الآن، كلّ الذي تعلمه أنّها في هذه اللحظة يمكنها الخروج من المنزل كما هي دون أن تشعر بأيّ إحراج..
لن تضع الماكياج هذه المرّة، وسترتدي اللون الذي تحبّه غير آبهة إن كان يناسب شحوبها أم لا، لأنّه لن ينظر إلى شكلها أبداً... وربّما لأن ذلك يمنحها الشعور بأنّ هناك شخصاً ما يراها جميلة في كل الأحوال دون أن يراها...
ترتّب شعرها الذي يغطّي نصف وجهها وتنظر في المرآة للمرّة الأخيرة، ثمّ تمسك بالكاميرا التي أمامها وتضعها في حقيبتها على عجل، وتغادر الغرفة متجهة إلى آدم بحماس.
تدخل غرفته وتنظر إليه وهو لا زال يجلس مكانه صامتاً
ـ حسناً، هيّا تعال معي لأكل الذرة!

ـ أوه أنتِ على قيد الحياة! ظننتكِ مُتِّ وأنا ما زلت أنتظر هنا!
ـ لا تكن سخيفاً! كنت أجهّز لك الذرة
ـ تجهّزين الذرة؟
يقولها بنبرة مستهزئة
ـ أجل، هيّا تعال سنأكلها
ـ لا بأس أحضريها إلى هنا لنأكلها
ـ لا ... سنأكلها في المطبخ
ـ وما الفرق!
تتأفّف منه ثمّ تقترب وتسحبه من على الكرسيّ عمداً
ـ هيّا قم ولا تكثر من الكلام!
ـ جميل ...تستغلين جوعي للسيطرة عليّ! ما هذا الاضطهاد!
تضحك بصمت وتبدأ بسحبه قليلاً قليلاً وقيادته خارج الغرفة، لكنّها تتوقف للحظة بعد أن جذب نظرها شيءٌ ما على المكتب، تترك آدم بسرعة وتضع ما رأته في حقيبتها
ـ لماذا توقفتِ؟
ـ أوه لا شيء، أحضرت حقيبتي، لقد نسيتها قرب سريرك، هيّا أكمل المشي.
تمشي به وهو مستسلم لعتمته وللطريق الذي يسلكه، كانت سيلينا تضحك بصمت ووالدته تراقبهما هي الأخرى مبتسمة لرؤية ابنها بحالٍ أفضل قليلاً مما كان عليه منذ زمن.
ـ كأن المطبخ بات أبعد من ذي قبل؟
ـ أوه.. لا، ربما لأنّك لست ترى الطريق، ها نحن بتنا أمامه
تقولها وهي تفتح باب المنزل بهدوء تام لئلّا يشعر، ثمّ تكمل:
ـ يمكنك الخروج... أوه! أقصد الدخول! امشي بضع خطوات ولا تقلق لا يوجد شيء أمامك.
يمشي خطوة، اثنتان، ومع الثالثة تخطّى عتبة المنزل دون أن يشعر وبات خارجاً، تلوّح سيلينا من خلفه لوالدته وهي تبتسم ثمّ تسرع لتمسك به لئلّا يكمل الطريق وتسير به بضع خطوات، لكنّه سرعان ما توقف بعد أن شعر بشيء من النسيم البارد يلامس وجهه وأن صوت المكان قد تبدّل، يقطب حاجبيه باستغراب وهو يقول:

ـ إذاً ...؟
ـ إذاً ماذا؟
ـ ألن تضعين لي كرسيّاً كي أجلس؟
لسوء الحظ يصدر صوت زمور سيارة مرّت من الشارع المقابل لهما، ليتحجّر مكانه ويقول بنبرة حازمة:
ـ سيلينا! أين نحن؟!
ـ في طريقنا لأكل الذرة!
ـ أنا لا أمزح! هل قُدتني لخارج المنزل لتوّك؟!
تكتم ضحكتها وتصمت، ليكمل وهو يصيح في وجهها:
ـ كيف تقومين بذلك دون أذني؟ ليس الحقّ عليكِ، بل على الغبي الذي جاراكِ، أعيديني إلى المنزل الآن! كيف تقومين باستغبائي هكذا!
تضحك بصوت منخفض، ثمّ ترد:
ـ أوه أنا لا أعرف طريق المنزل يا سيدي!
ـ هذا يكفي! نحن لم نبتعد عن العتبة حتّى!
ـ حقّاً! إذاً هيّا أسرع لنبتعد ونصل بأسرع وقت
يصرخ في وجهها:
ـ سيلينا هذا يكفي! أنا لا أمزح! أنا لا أطيق الخروج من المنزل وأنتِ تعلمين ذلك!
ـ وأنا لا أمزح أيضاً! ثمّ كفّ عن خلق الدراما لنفسك بهذه الطّريقة!
ـ أنا لا أخلق الدراما!
كانت ملامح الغضب تأكل وجهه! بحاجبيه المقطوبين ووجهه الأحمر من الصراخ، فيعلو صوتها أكثر وتصيح في وجهه بغضب:
ـ إذاً ماذا تسمّي الاعتكاف في غرفتك! وكأنّك تنتظر ملاك الموت ليسحبك من على سريرك المتعفّن من كثرة النوم عليه! تظنّ أنّك الرجل الغامض اليائس بينما أنت فعلياً تبدو كالدببة القطبيّة! هذا يكفي!
ثانية، اثنتان، ثلاث.. يصمت كلاهما، لا صوت سوى أنفاس سيلينا التي تلهث، ووجهه المقابل لوجهها تماماً، يأخذ آدم نفساً عميقاً، ثمّ يزمّ شفتيه رغماً عنه، لكنّه فجأة ينفجر بضحكةٍ عالية في وجهها.

ـ كماذا؟!! كالدببة القطبيّة! أنا كالدببة القطبية!
تفرد حاجبيها المقطوبين وتتبدّل ملامحها دون أن تشعر وهي تحدّق به مبتسمة باستغراب.
ـ لا أجد الأمر مضحكاً لهذه الدرجة!
لكنّه يكمل ضحكه وهو يردّد:
ـ لا يليق بكِ أن تكوني إنسانة صارمة، أنتِ فاشلة تماماً في ذلك!
ـ هاهاها، لئيم وتافه!
يتوقّف عن الضحك تدريجيّاً، ليقول وهو لا زال يقهقه:
ـ أوه، حسناً.. أنا آسف لكنّ الكلمة في منتصف صياحكِ أضحكتني رغماً عنّي
ـ لا يهم...
ـ أوه مهلاً، لمعلوماتك أنا من يجب أن يكون غاضباً!
ـ طبعاً لأنّني أنا من بدأت أصيح في وجهك!
ـ حسناً.. أنا آسف على هذا أيضاً لكنّك إنسانة مستفّزة!
ـ أنا ماذا؟!
ـ لا شيء... حسناً هيّا أنا آسف وحسب!
ـ اعتذارك غير مقبول
ـ أجل هيّا ستبدأين بالدلال الآن وكأنّني ارتكبت جريمة! وكيف يكون الاعتذار مقبولاً يا آنسة؟
ـ أن نذهب لأكل الذرة بدلاً من البقاء واقفين أمام المنزل لنصف ساعة كالحمقى!
يأخذ نفساً عميقاً ويتأفّف عالياً، ويقول ليخلق حجّةً:
ـ لكنّ الجو بارد، ويمكن أن تمطر في أيّة لحظة!
ـ دعنا نضيع في كلّ هذه الساحات الفارغة وحسب، وانسَ الوقت والطقس والظلام لمرّة واحدة!
يبتسم بهدوء، يمدّ يده بصمت أمامها.
ـ هيّا إذاً خذيني ...! أم أنّك تحاولين التخلص منّي بتركي أمشي وحيداً لحين أن تدهسني إحدى السيارات؟
ـ دائماً ما تسيء الظنّ بي

- بالمناسبة! هل تعلمين أنّكِ أخرجتني بثياب النوم؟!
- أجل.. ليس بالأمر بالمهم
- حقّاً! هل هي جميلة عليّ؟ كيف أبدو؟
- كالمشردين!
- شكراً على جعلي مصدراً للاستهزاء إذاً
- العفو، يسعدني ذلك!
- طبعاً لن يهمّك الأمر ما دمتِ بدّلتي ثيابك ولم تخرجي بمثل مظهري، أجزم أنّك لبستِ أفضل ما عندكِ لتبدين أجمل منّي أيتها الماكرة!
تضحك وهي ترد باستخفاف:
- لا تخف لم أفعل ذلك، إنّه مجرد ثوبٍ صوفيّ بلونٍ كموني... أكاد أجزم أنّه الأسوأ
- بل يبدو جميلاً، وهذا ليس عادلاً
- حسناً على الأقل وجهك ليس بقبح وجهي! لقد تعادلنا.
- أوه مهلاً! هل تقصدين أنّني وسيم!
- أنت تعلم أنّني لم أقل هذا
- بلى قلتِ!
- لم أقل، وهيّا اصمت لخمس ثوانٍ لنركب التاكسي فقط!
توقف التاكسي وتساعده على الصعود، ثمّ تخاطب السائق:
- خذنا إلى الميناء لو سمحت.
يردّ آدم:
- هل سنصطاد الذرة من البحر أم ماذا؟
- حين أقول اصمت هذا يعني ألّا تحاول إلقاء النكات أرجوك!

****

- إن لم يعطوك النقود فاقتلهم يا أنور ولا تتردّد!
تصعقها تلك الجملة وهي تنصت من خلف الهاتف إلى مكالمة سامي مع شقيقها أنور يتحدّث بصوتٍ منخفض بالكاد يمكنها سماعه، تكاد لا تصدّق ما تسمع وتقنع نفسها أنّها فهمته بشكلٍ خاطئ، لكن حديث سامي بأكمله كان يجعلها تندهش أكثر فأكثر

ـ أجل.. كن حذراً كالعادة لا أريد تنبيهك، ولا تقلق حصّتك ستكون مضاعفة هذه المرة، هيّا تحرك.
تسمعه وهو ينهي المكالمة لتحاول الابتعاد بسرعة عن الباب والأسئلة تتخبّط في رأسها، لم تلبث أن تقدّمت خطوة واحدة حتى فتح سامي الباب بشكلٍ مفاجئ، اتّسعت حدقتا عينيه بصدمة
ـ هل تتجسسين عليَّ يا لارا؟!
تتلعثم وهي تنظر إلى عينيه بخوف ثمّ تردد:
ـ هل.. هل طلبت لتوّك من أنور أن يقتل أحداً ما يا سامي؟ هل أمرته بالقتل؟!
يمسكها من ذراعها ثمّ يحدّق في عينيها بغضب:
ـ إنّها آخر مرّة أسمح لكِ بها أن تتجسسي على مكالماتي، أفهمتِ؟ وإلّا ستلقين ما لا يعجبك
ـ ماذا ستفعل؟ ستقتلني!
تصرخ في وجهه بذعر، ثمّ تكمل وهي تصيح عالياً:
ـ الآن أريد أن أعرف ما هو عملك يا سامي! أريد أن أعرف ما هو عمل الرجل الذي تزوّجته، أريد أن أعرف من أنت الآن يا سامي!! وما هو العمل الذي تجعل أخي يعمل به! تكلم الآن تكلّم!
ـ توقفي عن الصراخ!
ـ لن أتوقف! طلبت من شقيقي أنور أن يقتل من؟! ما هو عملك الحقيقي يا سامي!! إمّا أن تخبرني الآن وإلّا سأذهب إلى الشرطة الآن وأبلّغهم بما سمعت، أتفهم؟ لن أسمح لك بتوريط أخي في المشاكل!
يحدّق في عينيها لثانيتين بصمت، ثمّ يبدأ بالضحك عالياً وهو يقول بسخرية:
ـ أنا أورّط أخيك في المشاكل؟! أوه يا إلهي لقد أضحكتني، أخاكِ يقوم بكلّ شيء بإرادته يا امرأة!
ـ قلت لك أخبرني الآن ما هو عملك وإلّا سأخبر الشرطة بما سمعت!
ـ أنا أتاجر بالمخدّرات!
يقولها بانفعال وغضب ليضرب تلك الصاعقة في أذنيها ثمّ يكمل:

- وشقيقكِ أنور البريء هذا يساعدني في عملي ويتقاضى المال بكل سعادة! والآن ماذا تريدين؟ أن تخبري الشرطة؟ لا بأس هيّا اذهبي وأخبريهم.. هيّا! ولكن لتعلمي شيئاً واحداً قبل رحيلك، إن نطقتِ بحرف واحد عن هذا العمل فإنّني لن أتضرّر بشعرة واحدة، بل إنّ شقيقكِ أنور هو المتضرّر الوحيد هنا! هيّا، يمكنك الذهاب لتخبري الشرطة يا عزيزتي بكل شيء...
ثمّ يتّجه إلى باب المنزل ويفتحه وهو يبتسم ببرود وخبث بينما لارا تحدّق به وملامحها قد تجمّدت، كأن صاعقةً قد ضربت في رأسها عند سماعها لما يقول، كان الصمت يبتلعها وهي تقف متحجّرة في مكانها لثانية، ثانيتين، ثلاث.. لم تعد بعدها تشعر بأيّ شيء حولها.
سقطت على الأرض فاقدةً الوعي.
- لارا!

****

يقف وهو يفرك يديه بتوتّر، ماشياً ذهاباً وإياباً أمام باب الغرفة، تخرج الطبيبة بعد دقائق ليتجه إليها مسرعاً
- طمئنيني! هل هي بخير؟ ما بها ولماذا فقدت الوعي هكذا فجأة؟ هل هي مريضة؟؟ أجيبيني!
تخلع الطبيبة نظارتها الطبية ثمّ ترد بهدوء:
- لا داعي للقلق سيدي إنها بخير.
- إذاً لماذا فقدت الوعي هكذا؟
- لأنّك ستصبح أباً عمّا قريب! مباركٌ لكما!
تتّسع عيون سامي بدهشة، ولا إرادياً يبتسم فمه ابتسامةً عريضة وهو يردّد بدهشة:
- م.. ماذا قلتِ؟! سأصبح أباً! أنا سأصبح أباً!
- أجل سيدي، وسبب الإغماء هو أن زوجتك حامل وقد انخفض ضغطها بشكلٍ مفاجئ، عليك من الآن وصاعداً أن تعتني بها ودعها ترتاح حتى الولادة.
- هل يمكنني رؤيتها!
- أجل بالتأكيد

يتّجه إلى الغرفة والنشوة تملؤه، يفتح الباب بهدوء ليراها ممدّدة على السرير وهي شاردة بصمت دون أن تنظر إليه.

ـ عزيزتي لارا ...

لكنّها لا تلتفت إليه وتبقى محدّقة في الجدار متجاهلةً إيّاه، ليتقدم وهو لا يستطيع إخفاء ابتسامته ويجلس قبالتها:

ـ لارا... كيف أصبحت الآن عزيزتي؟

تبقى صامتة، يمسك بيديها ويقبلهما

ـ ألا تريدين التحدّث معي؟ حسناً... ولكن ربما ستغيرين رأيك حين سأقول لكِ خبراً سارّاً للغاية!

تنظر له قاطبةً حاجبيها باستغراب وهي لازالت صامتة، لينطق هو الآخر بابتسامةٍ عريضة:

ـ أخبرتني الطبيبة.. أنّكِ ... حامل!

تتّسع حدقتيّ عينيها بدهشة، تشهق وهي تقوم من سريرها وتجلس بصدمة وعدم تصديق، ولا إرادياً تضحك ولا تستطيع أن تتمالك نفسها لتبدأ تردد:

ـ ماذا! سامي ماذا تقول!

ـ أجل سيصبح لدينا طفل!

ـ لا أصدّق! سأصبح أمّاً!

ـ أجل! سنكون أفضل أمٍّ وأب!

تتلاشى ضحكتها تدريجيّاً لتحدّق به بصمت مرّةً ثانية، يفهم سبب ذلك ثمّ يمسك بيدها مجدداً:

ـ أنا آسف على ما حصل قبل قليل.. أعدك سنكون أفضل عائلة!

تسحب يدها من يده بنفور، وتشيح بوجهها إلى الحائط

ـ لارا... لا تنظري للأمر بهذه الحدّة، رجاءً

ـ أنت تعلم أنّ عملك هذا غير صحيح ولا يجوز، غير أنّه خطير ويجلب الكثير من المشاكل! كيف ستعمل بهذا العمل وبات لديك الآن طفلٌ على الطريق! أتريد ان نُربّي طفلنا في جوٍّ خطرٍ كهذا!

ـ لا لا... لا تقلقي.. الأمر ليس كما ترينه بالأفلام! إنّه ليس بهذه الخطورة!

ـ يكفيك كلاماً سخيفاً سامي، لا تستبسط الأمر وأنت تعلم أنّه كارثة!
ـ لكنّه حقاً بسيط وليس كارثة! ماذا أفعل أنا؟ إنّني تاجر كغيري من التُجّار
ـ لكنّها ليست تجارة عادية، إنّها تجارة مخدّرات!
ـ لارا، أنا لا أتعاطاها! أنا أتاجر بها وحسب! في هذه المدينة وفي زمن حربٍ كهذه من لا يقبل بهذه الأعمال سيموت جوعاً! ثمّ بماذا سأضرّ أنا القانون أو المجتمع أو القيم؟ ها؟ في هذه اللحظة هناك من يرتشي الملايين، هناك مجرمون يخرجون من سجنهم بفضل المال، هناك مئات السرقات ومئات جرائم القتل، هل سيتوقف كلّ هذا على تجارةٍ يعمل بها نصف سكان المدينة بالخفاء؟! وإنّني أعمل مثلهم، بالخفاء.. فلا تقلقي، ثمّ إنّني بهذه التجارة سأجمع الكثير من المال لنا ولولدنا ولأبنائنا القادمين، ما دمت لا أتعاطى المخدرات وإنّما أتاجر بها فقط فلا تقلقي!
ـ وشقيقي أنور...
ـ لا تخافي عليه، إنّ كل عمله هو توصيل الطلبيات لأصحابها واستلام النقود منهم، ثمّ إنّه هو الآخر يكسب الكثير من المال وهو في غاية السعادة، فلا تقلقي بخصوصه
المال، وسامي، وطفل يجعلها أم، عائلةٌ مع رجلٍ كسامي والكثير الكثير من المال، فتاةٌ كلارا بماذا سترغب أكثر من ذلك! تنظر له نظرة التردّد، بين الاقتناع وعدمه، لكنّها تُسلّم كلّ شيء لتنهيدةٍ تخرج قائلة:
ـ عِدني أنّ كل شيء سيكون بخير..
ينظر إلى هذه المرأة الشقراء التي أمامه محدّقاً في زرقة عينيها، ليردّ بنشوة:
ـ أعدكِ.. لا تقلقي ...
تبتسم، ويبتسم، ويتأملان أحلامهما الوردية التي يريدان تحقيقها فوق أكتاف المدينة المُتعَبة، إنّهم يكسرون المدينة، إنّهم يحرقونها من أجل ملذّة الدفء.

****

"أرسم الزهور كي لا تموت" **فريدا كاهلو**

ـ وصلنا! هيّا تعال لنجلس
تقوده ليجلسا على مقعدٍ خشبيّ عتيق مقابل للبحر تماماً، لولا السور الذي يفصل المكان عن البحر لربما كان الموج لامسهما، كانت الساعة حوالي الرابعة والنصف،

اللقالق تطير هنا وهناك، لم يكن المكان مزدحماً لكن أيضاً كان يوجد عدد لا بأس به من الناس منهم من يسير، منهم من يجلس، منهم من يقف متأمّلاً البحر بصمت، ومنهم، من كان يمر من أمام سيلينا وينظر لوجهها فينزعج من مظهره، أو إن صح التعبير بطريقةٍ مُشمئزّة!
لقد اعتادت أن ينظر الجميع إلى قبح وجهها وشحوبه وتشوّهاته بطريقة مشمئزّة، وأحياناً مشفقة، لكنّها بدأت في تلك اللحظة تشتم نفسها لأنّها لم تضع الماكياج وتغطي ندوبها وتشوّهاتها، ولأنّها ارتدت هذا اللون الذي لا يناسب شحوبها.
ـ إذاً... هل تحاولين الانتقام منّي بتركي جائعاً لأطول فترة ممكنة أم ماذا؟!
تخرج من شرودها على صوته، لتبتسم تدريجيّاً وترد:
ـ انتظرني لحظة واحدة، سأحضرها ولن أتأخّر.
تتجّه نحو العربة لتحضر صحنين من الذُرة الساخنة وتضع واحداً منهما بين يديه.
ـ والآن يمكنك تذوّق أشهى ذرة ساخنة في حياتك.
ـ هل نحنُ قريبان من البحر؟
يقاطعها بلهجةٍ هادئة..
ـ أوه أجل... نحن قريبان جداً منه، لولا السور الذي يفصلنا عنه لصعدت أمواجه إلينا.
ـ كم اشتقت لرؤيته ...البحر والسماء والأزرق الذي يملأ المكان... اشتقت لكلّ ذلك..
تبتسم بصمت وتمسك بحقيبتها مخرجةً الكاميرا منها، ثمّ تقول:
ـ رغم أنّك لئيم لكنّني إنسانة لطيفة، لذا... سأحنّط لك المشهد الذي يحيط بنا الآن كالعادة كي لا يفوتك شيء
ثمّ يتبع كلامها صوت التقاط صورة من الكاميرا، ليقول وهو يضحك:
ـ هل أحضرتِ الكاميرا معكِ إلى هنا أيضاً؟
ـ طبعاً، هل ظننت أنّ الأمر سيفوتني؟
ـ هناك اختراع اسمه الهاتف، إنّه جهاز مزوّد بالكاميرا ما يغنيكِ عن حمل الكاميرات، أتصدقين هذا؟! إنّ العالم يتطور بطريقة مرعبة!
ـ أوّلاً، لا تحاول إظهار ذكائك، وأمّا ثانياً فإنّي أفضّل التقاط الصور بهذه الكاميرا لأنّها تبدو أجمل ومن ثمّ أسحبها على جهاز الكمبيوتر وأضعها في الألبوم
ـ أتضعين كلّ هذه الصور التي تلتقطينها في ألبوم أيضاً؟!

ـ مؤكّد أنّني لا ألتقطها كي أضعها بالقمامة، انا أضعها في ألبوم لك كي تراها جميعها بالترتيب حين تستعيد نظرك.
ـ هه، خيالك واسع يا فتاة..
ـ ألن تكُفّ عن الثرثرة وتأكل؟
يبتسم بصمت ويقرّب الصحن من أنفه بحذر ثمّ يشمّ بخار الذرة ذو الرائحة الشهيّة، وهي تراقبه مبتسمة لشهيّته تلك، يأكل أوّل لقمة بهدوء.
ـ أووه يا إلهي هذه النكهة ... كم اشتقتها
ـ هل رأيت، قلت لك أنّك ستأكلها! دعني ألتقط لك صورة وأنت تمضغها بنهمٍ هكذا
ـ حسناً اعترف أنّك امرأة خارقة!
ـ هذا جيّد.. بدأت تتعلم كيف يمكن أن تكون لطيفاً
ـ مهلاً أنا لست بهذا السوء!
ـ تبدو صورتك طريفة وأنت تأكل الذرة هكذا!
ـ ولكن هل تلتقطين لي صوراً أبدو بها كالأبله! هيّا احذفيها!
ـ في أحلامك!
تكاد تكمل حديثها المازح معه، إلّا أن مرور امرأتين من أمامها بنظرات الإشفاق والاشمئزاز ربما قد أوقفها عن الكلام وخنق صوتها
ـ ما بكِ لماذا سكتِّ؟
ـ لا.. لا شيء
يبتلع اللقمة التي في فمه ثم يكمل:
ـ حقّاً ما بك؟ لماذا صوتك أصبح خافتاً هكذا؟ هل هناك شيء أزعجك؟
ـ لا أدري..
ـ تكلّمي!
تجيبه بتردّد وهي تتمالك نفسها لئلّا تبكي:
ـ الجميع ينظر إليّ هنا ...
ـ لم أفهم، ما المؤلم في الأمر؟
ـ نظراتهم لي ... هي الألم بحدّ ذاته، نظراتهم التي تشعرني بقبحي كلّما حاولت تجاهله! حزني يزداد كلّما مررت بنظراتهم يا آدم، أفهمت؟! تذبحني همسات الجميع الساخرة

على اللون الذي لا يناسب وجهي الشاحب، ونظرات الجميع لجسدي أحياناً، ولشفاهي الباهتة، ولقبح وجهي، الجميع يسخر من ملامحي، من الهالات السوداء التي تأكل عيوني، من الندوب البارزة في وجنتيّ...
إنّني.. إنّني دائماً ما أكتم بكائي عنوةً في منتصف الشوارع المزدحمة، بعد سماعي لشابٍ يسخر منّي مع رفاقه، ورؤيتي لنظرة امرأةٍ مشمئزّة من وجهي، وتعجّب الأطفال من ملامحي حين يسألون أمّهاتهم في الحافلات "لماذا شكلها هكذا؟! " فتتلعثم الأم وتزيح نظر ابنها عنّي.
تصمت وتأخذ نفساً عميقاً، تغمض عينيها لتخبّئ ما في داخلهما، تغمض وتغمض وتغمض، لكنّ الدموع كانت أقوى. بدأت بالبكاء رغماً عنها، كانت تريد أن يحصل أيّ شيء في هذا اليوم عدا أن يذكّرها أحد بقبح وجهها، كانت تريد أن تنسى ملامحها ليومٍ واحد فقط وأن تتذكّر روحها، لكنّها لم تحصل على تلك الفرصة أبداً، لم تكن تعرف كيف لها أن تصف لشخصٍ أعمى حجم الألم الذي تتركه نظرات الناس، كان الأمر مؤلماً، مؤلماً بحق...
شعر بها وهي تبكي بهدوء وصمت، وضع الصحن الذي في يديه على حضنه ثمّ استدار بوجهه إلى مصدر صوتها كي يخاطبها مباشرةً:
ـ سيلينا ... أعلم أن كلامي لن يؤثر بكِ ربما، لكن يجب أن تعلمي أنّك أجمل امرأة قابلتها في حياتي، أعلم أنّني اخبرتكِ بهذا مرّاتٍ عديدة من قبل، لكن أقسم لكِ أنّني في كلّ مرّة أنا لا أقول هذا بقصد المواساة أو المجاملة، أبداً.
أنا لم أرَ ملامحكِ يوماً، لم أنظر إلى طولكِ، ولا لوزنكِ، لم ألتفت إلى لون شعركِ، ولم أهتم إن كان طويلاً أو قصيراً، لم يهمّني إن كنتِ تمتلكين بشرةً بيضاء أو سمراء أو شاحبة، ولا إن كانت عيناكِ ملوّنتين أو تبتلعهما الهالات السوداء... إنّني طوال هذا الوقت كنتُ أرى فتاةً من النور، روحها ملوّنة، ويداها ناعمتان على الأوتار كثيراً، فتاة تستطيع أن تجعلك تتجرّد من كلّ ماديّات هذا الكون لتنتقل إلى عالمٍ قائم على الروحانيّات... على الفنّ، الموسيقى، الرسم، الكتابة، والتحدّث العميق العميق...
إن كنتِ ترين نفسكِ قبيحة فالعيبُ ليس في وجهكِ، إنّما في مراياكِ المعلّقة في عيونهم، هل ستتركين نظرات النّاس تحدّد لكِ من أنتِ بحقّ السماء! هيّا تجاهلي الجميع ودوسي على نظراتهم، وانسي وجهكِ لمرّةٍ واحدة!

توقّفت عن بكائها وقد اجتاحتها نوبة صمت، أتعلم ذاك الشعور حين تنصهر مشاعرك ويخفق قلبك فجأة ويهبط إلى أسفل الأرض، وحرارة جسدك ترتفع والقشعريرة تصيب حواسك جميعها، أجل، لقد شعرت هي بكلّ ذلك ... لوهلةٍ أرادت أن تعانقه من شدّة النشوة التي خلقها داخلها منذ قليل، أرادت عناقه وشكره على الجمال الذي يطبعه على ملامحها، لوهلةٍ شعرت أنّ هذا الشخص الذي أمامها هو كلّ ما تمنّته من العالم، لوهلةٍ شعرت أنّ هذا الرجل هو مرآةٌ سحريّة.. لوهلةٍ شعرت، بل وأدركت، أنّ قلبها قد وقع في حبّ هذا الرجل الذي لا يراها..

" أحبّك! "

كادت هذه الكلمة تخرج لا إراديّاً من فمها، لكنّ ظلّ تلك الفتاة التي يحبّها كان يقف في المنتصف، تمالكت مشاعرها المندفعة، ابتسمت من أعماق قلبها ثمّ مسحت دموعها وقالت بهدوء:

ـ شكراً على كلّ شيء يا آدم ... شكراً!

يبتسم الآخر بامتنان، ثمّ يقول مازحاً ليغيّر أجواء الحزن:

ـ أشكّ أنكّ خلقتِ هذه اللحظة الحزينة لتأخذي صحن الذرة خاصّتي دون أن أشعر!

ـ إنّ صحني لا زال ممتلئاً ولستُ بحاجةٍ لك أيها الفجع

تضع الصّحن مجدداً في يديه وهي تضحك، ليأكل الاثنان بصمت، لكنّ سيلينا حينها كانت تواجه صعوبة في ابتلاع الذرة، كان هناك شيءٌ ما لايزال عالقاً في حلقها... "أُحبّك".

****

ـ أهلاً بالعريس!

يقولها سامر وهو يضحك في وجه غيث الداخل إلى المقهى متجهاً إليه

ـ كيف حالك سامر ...

يسأله وهو يلقي بنفسه على الكرسي بتعب

ـ بخير! أنت كيف حالك؟ لم أرك منذ أسبوع، يبدو أنّ الزواج أنساكَ إيّانا!

يبتسم بسخريّة ويرد:

ـ يا رجل إنّني أعود إلى المنزل في منتصف الليل بعد عملٍ شاق، وأنت تحسدني على تعبي الآن! كما ترى بالكاد أستطيع القدوم يوم الخميس إلى هذا المقهى لأتنفّس قليلاً..
ـ حسناً إذاً دعني أطلب لك القهوة لترتاح قليلاً أيها المسكين
يراقبه غيث بعينيه المتعبتين وهو يطلب القهوة، ثمّ يتنهّد بتعب ليعود سامر ويسأله:
ـ وكيف وجدت الفتاة؟ هل أنتما على وفاق؟
ـ لا أدري... إنّها ربّة منزل جيدة، وتساعد والدتي كثيراً وتهتم بوالدي وهذا أهمّ شيء...
ينظر إليه سامر بمكر..
ـ لكن لا يبدو أنّك أحببتها ...تلك الفتاة!
ـ أغلق الموضوع يا سامر أرجوك ...
يقاطعهما النادل ويضع فنجانيّ القهوة، ثم يعودان لحديثهما، يمسك غيث بفنجان القهوة ويتأمله خافضاً رأسه..
ـ إن كنت لم تنسها بعد فلماذا تزوّجت إذاً يا غيث!
ـ ظروفي أجبرتني..
ـ هه! أيّة ظروفٍ هذه التي تجبر رجلاً على الزواج!
ـ أبسط مثال أن تكون والدتك قد ملّت من الاعتناء بوالدك العاجز، فلا تجد من يعتني به في غيابك أثناء تحصيل لقمة العيش لعائلتك!
ـ أي أنّك ما زلت تحبّها؟
يتنهّد سامر بألم وهو لا زال خافضاً رأسه متأمّلاً فنجان القهوة، ثمّ وبصمت يرفع كفّه ويمسح دمعةً سقطت عنوةً على خدّه، ليقول سامر باندهاش:
ـ غيث! هل أنت تبكي! ألا تخجل من البكاء وأنت تملك هذا الوجه الرجوليّ!
ـ وهل الرجال مصنوعون من حجر ليحرّم عليهم البكاء أم ماذا؟ هناك حرقةٌ في داخلي يا سامر.. لا أحد يشعر بالحريق الذي يخنقني يوماً بعد الآخر، لا أحد!
ـ أتبكي وتحترق من أجل فتاة! هذا هراء!
ـ لا يا سامر! أنا لا أبكي لأجلها فقط! أنا أبكي لأجل قبر أحلامي التي أرثيها كلّ صباحٍ عند استيقاظي، حلمي، دراستي، الفتاة التي أحببت، عائلتي، زواجي، عملي... كلّ شيءٍ يدفعني للهاوية وأنت تلومني لأنّني أسقط! لماذا؟ لأنّني رجل؟ تباً للرجال حين سيولدون

في حربٍ تجعل منهم خفافيش مقصوصة الأجنحة! أجل، أنا رجلٌ هنا أمامك وأبكي، لأنّني اتألّم! هل تمانع!
يبتسم سامر نصف ابتسامةٍ بخبث ثمّ يقترب من وجهه وهو يهمس بسخرية:
ـ الحرب؟ هه، صدّقني أنت رغم مأساتك هذه، لم ترَ من قساوة الحرب شيئاً، كل هذا الألم الذي تشعر به هو مجرد جروحٍ سخيفة وحسب!
ـ سخيفة! ... شكراً لك، لا عليك انسَ.. كنت أريد البوح عمّا في قلبي وحسب.
يقولها غيث وهو يمسح دموعه بغضب ثمّ يقوم من على الكرسي ليهمّ على المغادرة، يمسكه سامر من يده في اللّحظة الأخيرة ليمنعه من الرحيل ويقول وهو يبتسم ابتسامته الماكرة محدّقاً في عينيه:
ـ تعال معي، لأريك مدى سخافة ألمك يا غيث!

****

كان حيّاً شعبيّاً، يدخلان من حارةٍ ضيّقة ليخرجا من أخرى، كان غيث يمشي وراء سامر باستسلام واستغراب وهو يجول كلّ هذه الحارات الضيّقة وكأنّه في متاهة، كانت الأزّقة متراصّة بالبيوت ذات الأسقف المستعارة، الأطفال أصحاب الثياب الممزقة يلعبون في الوحل تحت المطر ويملؤون المكان، أصحاب المحلّات يلفظون الشتائم بين الحين والآخر، النّساء تصيح بشراسة على أولادها وهي تطلّ برأسها نصف المغطّى من نوافذ المنازل المنخفضة، والرجال العاطلون عن العمل يجلسون على عتبة المنزل دون أن تفارق السجائر شفاههم المتقشّرة.
ـ ما الذي أتى بنا إلى هنا يا سامر؟
ـ إنّني أسكن هنا، وسأعرّفك الآن على أصدقائي!
يقطب غيث حاجبيه باستغراب ويكمل السير معه صامتاً، لحين أن يتوقفا فجأة عند جدارٍ مليءٍ بالرسومات المبعثرة، والجمل الساذجة، والشتائم المكتوبة هنا وهناك بخطّ اليد.
ـ لماذا توقفت هنا؟
يسأله غيث باستغراب، ليلتفت الآخر إليه ثمّ يحدّق في عينيه ويقول بلهجةٍ جادّة:
ـ قبل أن ندخل أريدك أن تعلم أنّني لا أحضر أحداً إلى هنا سوى الذين أثق بهم حقّ الثقة، وإنّي قد وثقت بك يا أخي، فهل ستكون بحجم هذه الثقة وتصون السرّ؟

ثمّ يضع يده على كتف غيث ولازال يحدّق في عينيه بذات النظرة الثابتة، ليردّ عليه بلهجة مرتبكة:
ـ أ.. أجل طبعاً، إنّني لا أعلم عن أيّ سرٍّ تتحدّث لكنّني لست ممن يفشون الأسرار ولو على قطع رقبتي.
يبتسم سامر بهدوء ومكر
ـ ولهذا وثقت بك، ولهذا نحن هنا! هيّا تعال لتتعرّف على أصدقائك الجدد، لتتعرّف على الألم والأمل مجتمعين!
يلتفت سامر يميناً ويساراً بحذر في ذلك الزقاق الضيّق الخالي من أيّ أحدٍ سوى منهما، ثمّ بهدوء يطرق بيده على الجدار أربع طرقاتٍ متقطّعة وغيث يحدّق به بدهشة واستغراب مما يفعله، حتّى يأتي صوت همسٍ خافت جداً من وراء الجدار
ـ من؟
ـ سامر.
وفجأة تظهر فتحة في منتصف الجدار حتّى يدرك غيث أنّ هناك باباً خفيّاً فيه يخبّئ مقرّاً سريّاً خلفه بطريقة مبتكرة وذكيّة. يمسك سامر بيد غيث ثمّ بهدوء وخفّة يسحبه إلى الداخل لينغلق الباب من ورائهما.
كانت الغرفة قاتمة، بجدرانٍ متعفّنة ودهانٍ متقشّر بسبب الرطوبة التي تأكل المكان، لم يكن هناك مكانٌ لدخول الشمس بل مجرّد فتحةٍ صغيرة لدخول هواء التنفس بالكاد يمكنك رؤيتها بعد التركيز في الجدران لنصف ساعة، كانت الإنارة خافتة بشكلٍ مزعج، تصدر عن مصباح صغيرٍ ممددٌ من السقف فوق طاولة كبيرة مليئة بالأوراق والمخططات والحواسيب المحمولة.. التي أمام عشرة رجالٍ جالسين.
شعر غيث أنّه في فيلم، أو في مسلسلٍ غامض، بقي صامتاً مندهشاً لخمس دقائق يحدّق في كل شيء بصدمة، من يتوقع أن يكون هناك عالمٌ خلف ذلك الجدار المتسّخ!
ـ يا شباب، رحبّوا معي بأخي غيث!
يخرجه صوت سامر من شروده في المكان، لتتبعه أصوات الرجال والشبّان المتواجدين:
ـ أهلاً بك يا أخ غيث!
يردّ عليهم بتوتر وارتباك:

ـ شكراً لكم.. شكراً...
يأتي أحدهم باتجاهه مبتسماً حاملاً كرسيّاً له..
ـ تفضّل بالجلوس
يجلس والاستغراب لازال يسيطر عليه، ليقول رجلٌ آخر:
ـ لطالما حدّثنا سامر عنك كثيراً وشوّقنا للتعرّف إليك!
ـ حدّثكم عنّي أنا؟!
ويتّجه بنظره المستغرب إلى سامر، ليردّ عليه:
ـ أجل يا غيث! كنت أحدّثهم عنك كثيراً منذ تعرفت عليك يا أخي وأمدح أخلاقك!
ـ هذا صحيح، وأخبرنا أنّك تزوجت منذ فترة قصيرة، مباركٌ لك يا أخي!
وتبدأ عبارات المباركات تأتيه من جميع المتواجدين ليردّ عليهم بخجل:
ـ شكراً لكم يا شباب، هذا لطفٌ منكم!
يخاطبه سامر:
ـ إذاً يا غيث، دعني أعرّفك على الجميع واحداً واحداً هنا!
ويبدأ يشير إليهم واحداً تلوَ الآخر:
ـ هذا حسام، شابٌ في الثلاثين من عمره، إنّه مسؤول عن إخوته الصغار العشرة وعن والدته المريضة منذ وفاة والده في الخامسة عشر من عمره.
هذا سعيد، خرّيج من جامعة هندسة الشبكات، ترك عمله ليأتي إلى هنا ويساعدنا.
هذا أنس، خريج من كليّة الكيمياء، خسر يديه وساقه اليمنى في هذه الحرب، لكنّه رغم ذلك انضمّ إلينا ليساعدنا قدر المستطاع.
ينظر إليه غيث ويبتسم في وجهه، وفي داخله يشعر بالشفقة على حال هذا الشاب المبتور اليد، وسؤال يدور في رأسه "يساعدكم بماذا؟!".
يكمل سامر:
ـ هذا العمّ كامل، إنّه أكبر رجلٍ فينا وبركتنا جميعاً، رغم عمره الذي تجاوز السبعين إلّا أنّه قرّر أن يبذل ما تبقى من حياته في فعل الخير معنا.
يهزّ الرجل الشائب رأسه مبتسماً، ليرحّب به غيث بذات الابتسامة.
ـ وهؤلاء الشبّان الشجعان، لؤي، وليد، خليل، رائد، يزن، وشادي. جميعهم هنا للدفاع عن قضيتنا حتّى الرمق الأخير.

ـ تشرّفت بمعرفتكم جميعاً ...
يردّ الجميع بصوت واحد:
ـ سلمت..
ينظر غيث إلى سامر، ثمّ يقطب حاجبيه ويسأله باستغراب:
ـ ولكنني حتى هذه اللحظة لم أفهم شيء يا سامر، لماذا أنتم تجلسون في مخبأ سريّ لهذه الدرجة؟ وماهي هذه القضيّة التي تدافعون عنها أصلاً حتّى الرمق الأخير!
ينظر سامر بعينيه الماكرتين ويجيبه:
ـ سأترك لك هذه الإجابات لتكتشفها بنفسك يا أخي لأنّ الغاية من وجودنا هنا لا يمكن شرحها وفهمها من المرّة الأولى، إنّك حين ستفهم حجم ألم كلّ واحدٍ فينا هنا، حين ستشعر بضخامة جراح كلّ رجلٍ يجلس هنا مقارنةً بجراحك، حينها سترى القوّة التي نحاول التمسك بها حدّ الرمق الاخير للثأر لجراحنا، عندها ستفهم وستعرف وحدك من أجل ماذا نحن هنا وما هي قضيتنا وعن ماذا ندافع ...
ثمّ يضع يده على كتف غيث بحماس ويكمل:
ـ وأمّا الآن يا غيث، فإنّني لم أحضرك إلى هنا لأحدّثك عن هذه الأمور، إنني أحضرتك إلى هنا لترى كم أنت في نعمةٍ دون غيرك ولأثبت لك كم أنّ ألمك صغير مقارنةً بباقي النّاس. وإيّاك أن تظن أنّي أستخفّ بآلامك يا صديقي! على العكس تماماً يا أخي، إنّي أحاول مواساتك وتخفيف حجم همومك يا غيث!
تأمّل في عيون كلّ واحدٍ فينا هنا يا غيث، أنت تجلس مع مجموعة رجال كلّ رجلٍ فيهم قد فقد فرداً من عائلته، وفقد نصف حياته، وفقد كلّ أحلامه، وحتى جزءاً من جسده!
يحدّق غيث بالجميع وهو ينصت باستغراب لسامر الذي يتابع حديثه:
ـ أبسط مثال العمّ كامل الذي فقد أولاده الأربعة وزوجته بسبب قذيفةٍ على منزله!
لؤي، يزن، حسام، أنس، رائد، أنا والجميع! جميع من يجلس هنا سلبت الحرب منه أفراداً من عائلته، منّا من فقد أطرافاً من جسده كما ترى، منّا من فقد دراسته وعمله ومستقبله، نحن هنا نصنع الحياة لأنّنا فقدناها، ولسنا نجلس في المقاهي نبكي على أحزاننا يا غيث! نحن ننتقم للحياة كما يجب على رجال الحرب أن ينتقموا لها!
يأتي صوت سعيد وهو يحدّق في شاشة الحاسوب ويسأل:
ـ وما هو سبب ألم غيث سامر علّنا نخفف عنه؟

يجيب سامر وهو يضحك:
- تزوّجت الفتاة التي يحبها من رجلٍ آخر، ولم يستطيع إكمال دراسته، إنّه يعمل الآن كسائق على ميكروباص
يبتسم الجميع بسخرية ويرددون واحداً تلوَ الآخر:
"ليت كلّ المصائب هكذا!" "لا عليك يا أخي، ها قد تزوجت في كلّ الأحوال!" "على الأقل عائلتك ما زالت بخير والحمد لله!" "على الأقل مازلت بصحّتك وعافيتك وجسدك سليم للقدرة على العمل!" "على الأقل لازلت تجد عملاً!"
كان غيث صامتاً مبتسماً بقليلٍ من الألم، وهو يحدّق في الشاب المبتور اليد، في وجه الرجل العجوز الذي فقد عائلته، في وجه الشاب الذي يحمل مسؤوليّة عائلته ووالدته العاجزة وحده، ثمّ يحدّق في داخل نفسه وهو لا يعلم هل حقّاً ألمه سخيفٌ لهذه الدّرجة أمام هؤلاء الرجال! هل حقّاً الحرب لم تؤذه كما يجب؟ لا بل فعلت! لقد سلبت الحرب الكثير منه... مهما كان هذا الكثير بسيطاً، مهما كان.
يأتيه صوت سامر مجدداً:
- هيّا يا شباب اسكبوا الشاي لغيث ما بكم!
- لا يا سامر، شكراً، دعني أذهب وأرتاح في المنزل فأنا متعبٌ من العمل.
- ما بالك يا رجل! اليوم هو الخميس وغداً عطلتك، هيّا اشرب الشاي معنا وارتح هنا ورفّه عن نفسك، فإن الجلوس في ذاك المقهى سيجعل منك إنساناً متوحّداً وسنخسرك يا رجل.
يضحك غيث بسخرية:
- ليس لهذه الدرجة!
- بل وأكثر! هيّا تذوق شاي العم كامل وكفاكَ دلالاً، أراهنك أنّه أشهى من قهوة المقهى ذاك بألف مرّة! ثمّ إنّ مذاقه سينسيك كلّ همومك دفعةً واحدة.
- تفضّل يا بني، أهلاً بك
يضعها الرجل أمامه بابتسامة عريضة
- شكراً لك عمي، سلمت يداك.
كان الجميع يضحكون ويتحدّثون مع غيث وكأنّهم يعرفونه منذ زمن، الجميع يضحك في وجهه ويلقي النكات ويخفّف من ألمه ويسخرون من آلام بعضهم، أمّا غيث، فلم يكن

يفكّر بشيء، كان يضحك ويبتسم ويشاركهم الأحاديث وكأنّه يعرفهم منذ زمن هو الآخر، شعر أنّ الجميع أخوته هناك.
ونسي أن يفكّر من هم هؤلاء حقّاً ولماذا هم هنا في الأصل ومن أجل ماذا ...ترك الإجابة للوقت، الوقت سيكشف كلّ شيء.

****

"أنا أرى بالأسودِ والأبيض، أفكّر برماديّة، أكون في الشارع شفافاً لا يُرى. لكن عندما أحببتكِ، آمنتُ بالألوان."

فادي الحدّاد

ـ إنّها والدتك على الهاتف

"أهلاً خالتي، أجل لقد انتهينا للتو من تناولها كانت لذيذة! أجل.. أجل لا تقلقي أبداً... وداعاً"

ـ هل تحتاج شيئاً؟

ـ لا أبداً، إنها تطمئنّ علينا فقط وتوصيني ألّا نتأخر ...

ـ أصبحت في هذا العمر ولحدّ هذه اللحظة تخاف عليّ إن خرجت من المنزل

يقولها آدم وهو يبتسم..

ـ الأمّهات في الوضع الطبيعي يبقين قلقات على أولادهنّ، فما بالك إن كنت تتنزه في مدينة تسكنها الحرب والقذائف والرصاص والجرائم و..و.. إنّه أمرٌ طبيعي.

ثمّ تبتسم وتكمل:

ـ لقد كانت فرحتها كبيرة وهي تراك تخرج من باب المنزل

ـ أجل لقد تآمرتما عليّ!

تضحك ثمّ ترد بلهجة هادئة:

ـ أنت محظوظ بوالدتك يا آدم... عليك أن تبقى قويّاً لأجلها، لا تجعلها تقضي عمرها حزينةً عليك ويأكلها الهم لأجلك

ـ ماذا بوسعي أن أفعل إن كان قدري هكذا يا سيلينا! لم أختر أن أتألّم وأن أسبب الألم لغيري...
ـ بوسعك أن تفعل الكثير! أقلّ شيء هو أن تترك غرفتك وعزلتك فيها وتجلس مع والديك، صدقني سيأتي يوم وتتمنى لو أنّ بإمكانك الجلوس معهما للحظةٍ واحدة... واحدة فقط.
ثمّ تصمتُ للحظات..
ـ تشتاقين لهما أليس كذلك..
ـ كثيراً ... لا دفء في العالم يعوضك عن حضن أمك ولا قوّة تعوضك عن كتف أبيك يا آدم.
ـ أرجو من الربّ أن يجمعكم في الجنّة يا سيلينا...
ـ آمين...
يحاول كسر حزنها فيسألها فجأة:
ـ بالمناسبة أنتِ لم تحدّثيني عن عمل والدك من قبل!
ـ حقّاً؟!
ـ أجل حقّاً!
ـ أذكر أنّني أخبرتك أنّه كان شريكاً مع خطيبي السابق في شركة نقل
ـ لا لم تخبريني!
ـ حسناً لا يهم، لماذا سأخبرك بأمرٍ كهذا أصلاً
ـ أوه حقاً! أليس على الصديق أن يعلم كل شيء عن حياة صديقه؟
تضحك وهي تقول بسخرية:
ـ صديق؟ منذ متى أصبحنا أصدقاء يا سيد اللؤم؟
ـ لا أدري، حقاً لا أدري! لا أذكر كيف دخلتِ حياتي حتّى! أنا لم أجد نفسي سوى أخبركِ بأسراري وأحزاني وأستمع لأغنياتك ولعزف أوتارك وألقي عليكِ نكاتي الرائعة وأتناول الذرة معكِ!
ـ لكن أنا أذكر كيف طردتني من غرفتك أوّل مرّة!
ـ حسناً لقد جعلتِني أمرض بالمقابل!
ـ كنت تستحق ذلك!

ـ هذا يعني أنّنا متعادلان
ـ ربما...
ـ بل أجل يا صديقتي
تضحك للهجته الساخرة ثمّ تكمل:
ـ حتى وإن علمت كل شيء عن حياتي هذا لا يعني أنّنا أصبحنا أصدقاء
ـ أوه حقّاً يا متكبّرة! وماذا يجب أن أفعل كي نصبح أصدقاء؟
ـ أممم لا أدري ... أن تعلم عنّي سرّاً كبيراً هذا لا يعني أنّك صديقي، أنت لا تكون كذلك إلّا عندما تعلم ما هو ذوقي الموسيقيّ المفضّل، ما هو لوني المفضّل، ما هو كتابي المفضّل ...
ـ حسناً أخبريني بهم جميعاً إذاً
ـ عليك الاكتشاف بنفسك!
ـ يبدو أنني سأكتفي بجواد كصديقٍ لي! على الأقل ليس متكبّراً وصعباً هكذا
تضحك وهي تنظر إليه طوال الوقت، تسأل نفسها إن كان حقاً هذا الرجل الذي يجلس أمامها صديقها، لكنها تخاف الإجابة... تخاف كثيراً.
كانت الساعة تقارب الخامسة والنصف، مازال بعض النّاس هنا وهناك، وهما يجلسان على ذات المقعد المقابل للبحر، الشّمس تغوص خلف الموج أمامهما، واللقالق متناثرة، والسماء ملوّنة بألوان الغروب الذائبة في بعضها، كان صوت الرصاص البعيد يصدر بين اللحظة والأخرى، لكنّه أمرٌ عادي في مدينة أصبحت الحرب أعزّ سكانها.
يتحسس آدم جيبه ثمّ يلتقط علبة السجائر ويهمّ لإشعال واحدة، لكنّ سيلينا تسحبها من يده لتمنعه من ذلك
ـ انظري يا سيلينا، اللغاتُ تختلف والبكاءُ واحد.. لي سجائري ولكِ الأغاني.
ـ هناك ما يكفي من دخان الحرائق ليخنق هذه المدينة، لا تزد الأمر سوءاً عليها بسجائرك...
ـ بؤس المدينة يدفع إلى التدخين.
تلقي بالسيجارة على الأرض ثمّ تسحب العلبة كاملة من يده وهي تقف قائلة:
ـ انتظرني سأعود

وهو صامتٌ باستغراب لما تفعله فجأة، تعود إليه بعد ثلاث دقائق، تجلس وهي تضحك ثمّ تضع كوباً من الكرتون في يديه وهي تهمس:

ـ لماذا لا نستبدل كلّ هذا البؤس بكوبٍ من النسكافيه؟

يضحك الآخر ويمسك بالكوب بحذر وهو يرد:

ـ حسناً لكن هذه المرّة وحسب!

تضع علبة السجائر في حقيبتها بمكر وتغلق الحقيبة، ثمّ تتوقف فجأة وهي تنظر إلى ما في داخلها، تشعر أنها تريد إخراج ذلك الشيء الذي أحضرته من غرفة آدم الآن وفي هذه اللحظة، تأخذ نفساً عميقاً ثمّ تراقبه بصمت وهو يشرب لحين أن أنهى كوبه الصغير ذاك.

تنظر إلى السماء، ثم إلى البحر، ثم إليه، تفتح هاتفها وتبحث في قائمة الأغاني عن أغنية تكسر الصمت، ثم تختار أغنية

"*Beautiful people Beautiful problem*" لِـ لانا ديل ري.

يخرج من صمته فجأة ويقول بانفعال:

ـ ألا تكفّين عن الاستماع لهذه المرأة الكئيبة!

ـ إنّها سيدة الألم.

يبتسم وهو يسألها:

ـ بالمناسبة، ماهي أغنيتكِ المفضّلة؟

ـ ممم لا أدري، ليس لديّ أغنيةٌ مفضّلة، أنا أقدّس كلّ الأغاني التي تضمّد جراحي...وأنت؟

ـ أنا مثلك

ـ مثلي بماذا؟

ـ لديّ جروحٌ كثيرة وأغانٍ كثيرة ... يبدو أنّنا متشابهان في كثير من الأشياء!

تضحك بهدوء وهي تردّ عليه:

ـ أجل!

ـ كيف يمكن أن تجعلنا أغنية نسافر عبر الزمن...

ـ ربّما لأنّ الأغاني تحنّط الوقت لنا، تخزّن الذكريات لأجلنا، رائحة الذكريات تبقى منبعثة منها وكأنّها قد انسكبت عليها سهواً أثناء لهونا بقوارير الزمن...

- تماماً...تماماً
كانا كمعزوفةٍ من آلتين، تصمت واحدة فتنطق الأخرى، أو تنطقان معاً، أو تصمتان معاً...
- إن الأغنية مع المشهد الذي أمامنا تبدو رائعة!
يبتسم بحسرةٍ مجدداً وكأنّه يخبرها "لا فائدة من قول هذا لشخصٍ أعمى!"
تفهم الأمر وتأخذ نفساً عميقاً ثم تقول بحماس:
- آدم! أتريد أن تراه؟!
يقطب هو حاجبيه باستغراب ويصمت، لتكرّر سؤالها:
- أجبني أتريد أن تراه؟!
- أرى ماذا؟
- مشهد الغروب على البحر الذي أمامنا، أتريد أن تراه؟!
- إنّي أود أن أرى أشياءً كثيرةً يا سيدتي لكن ... ليس في اليد حيلة!
- إذاً أصغِ إليّ جيداً
يقطب حاجبيه باستغراب مجدداً منتظراً ما ستقول، ليأتي صوتها بهدوء:
- أنت الآن لا ترى سوى الظلام، والذكريات المبعثرة هنا وهناك، ووجوه الأشخاص المنبثقة من الأغنية.. لكن الآن أريدك أن تزيحها جميعاً من مخيلتك، هيّا أزحها من بصرك!
- لم أفهم!
- تخيّل الفراغَ الخالي من كلّ شيء وحسب! تماماً كالورقةِ البيضاء
يأخذ آدم نفساً عميقاً ثمّ يبتسم باستسلام، يصمت لثانية ثمّ يرد:
- حسناً تخيلت!
تمسك بحقيبتها بهدوء ثمّ تخرج ذلك الشيء الذي أحضرته من غرفته، كان دفتر الرسم الخاص به وعلبة الألوان، ثمّ قليلاً قليلاً تضع في حضنه الدفتر وتضع الريشة في يده بهدوء وهي تهمس "أمسك بهذا "
- ما هذا؟
- الآن في حضنك ذات الورقة البيضاء التي تراها، وفي يدك الريشة، وأمامك المشهد، كلّ ما عليك هو الرسم!

ـ أنتِ تمزحين أليس كذلك؟
ثمّ يمدّ يده تجاهها ليعطيها الريشة، لكنّها تتجاهله وتكمل:
ـ لماذا قد أمزح؟ لماذا قد تترك الرسم أصلاً! إنّني رأيت لوحاتك جميعها وأقسم لك أنّ إنساناً مثلك يرتكب جريمةً إن توقف عن الرسم! أرجوك يا آدم ارسم!
ـ عليكِ أن تفهمي أنّ الأمر مستحيل! أنا أتفهّم أنّك تحاولين تشجيعي وأنّك تحاولين إخراجي من عجزي وكآبتي وإنّي أقدر لكِ هذا، لكن افهمي! افهمي أنّ الأمر خارج عن قدرتي وقدرتك، العمى سلب منّي أشياءً كثيرة وقد تقبّلت ذلك لذا لن يقتصر الأمر على الرسم... لقد تقبّلت أن أتخلى عن الرسم كما تقبّلت أن أتخلّى عن نظري وعن دراستي وعن الفتاة التي أحببت وعن مستقبلي، لقد تقبّلت كلّ شيء لذا لا تحاولي قلب الطاولة.
ـ لماذا تفعل هذا يا آدم؟
ـ أنا لم أفعل شيئاً وهذا هو المؤلم في الأمر... أنا كنت المفعول به دائماً ولم أكن يوماً الفاعل.. دائماً ما أترك الحياة توجّه أفعال الصفع والركل إليّ وأبقى منصوباً، يابساً مكاني.
ثمّ يوجّه لها الفرشاة مجدداً بيده لتأخذها منه بهدوء..
تصمت ثانيتين.
ثمّ تهمس بصوتٍ منخفض وبنبرةٍ متوسّلة:
ـ انظر، في هذه اللحظة... هناك طفلٌ يموت، وشجرةٌ تُقطَع، وسقفٌ يدمّر. الحرب تأكل المدينة، الأطفال جائعون، والقطط الشاردة تنام داخل النار، العصافير يصطادها الرصاص، الأمّهاتُ تبكي، الآباء يشتمون الحياة. في هذه اللحظة، السماء تختنق من حرائق المنازل، والمدينة تحتضر.. اللون الرمادي يغطي كلّ شيءٍ يا آدم، اللون الرمادي يغطي المدينة، لذا أرجوك لا تترك الرسم للأبد وتزد الأمر سوءاً وأمسِك بفرشاة رسمك ولوّنها... لا تتركها باهتة هكذا، لا تترك الرسم يا آدم أرجوك، لا تترك الفن، لأن الفن هو آخر فرصة لنا للنجاة من هذه الحياة، لقد خسرت هذه المدينة أطفالها، وطيورها، وشبابها ونساءها، خسرت أطبّاءها ومهندسيها ومعلّميها، لقد خسرت الكثير الكثير لذا لا تدعها تخسر فنّانيها أيضاً أرجوك وإلّا تحولت إلى مقبرة، تمسّك بالفن فإنّ المكان الذي يخلو من الفنّ هو عبارة عن مقبرة باهتة، أرجوك لا تكن أنت الدفين..

ثمّ تعود مجدداً وبهدوء لتضع له الفرشاة في يده، وبعد ثانيتين من الصمت المتواصل وهي لا زالت تنتظره أن يمسكها محدّقةً به، يأخذ فجأةً نفساً عميقاً ويبتسم بهدوء وهو يتحسّس الفرشاة ليمسكها بأصابعه جيّداً، ثمّ يهمس باستسلام وبذات الابتسامة:
ـ ولكن كيف سأرسم لوحةً لا أراها؟ كيف سأرسم وأنا أعمى ولا يمكنني الرؤية، أنتِ لا تفهمين الأمر يا سيلينا!
ترتسم ابتسامة عريضة على شفتيها وتردّ بنشوة:
ـ لا يهم أن ترَ! يمكنك التخيّل، يمكنك الحلم، يمكنك الشعور!
يستدير بوجهه إلى مصدر صوتها، ليصبح وجهاهما متقابلين تماماً وكأنّه ينظر حقّاً إليها، وهي الأخرى كانت تتأمّله بنشوةٍ كبيرة وتشعر أنّ الكون قد تقلّص إلى تلك المسافة الضئيلة التي تفصل ظلّيهما، يقول بذات النبرة الهادئة وهو لازال يبتسم لها:
ـ وماذا سأرسم؟
ـ أيّ شيءٍ قد يخطر في بالك!
يتبع إجابتها تلك صوت الرصاص البعيد وصدى الانفجارات، لتكمل مبتسمة وتهمس بهدوء:
ـ ارسم المدينة!
ـ المدينة!
يقولها بابتسامةٍ مستغربة هامساً بذات الهدوء:
ـ وكيف يمكن للمدينة أن تتسع على ورقة؟
ـ لا أحد يعرف إجابة هذا السؤال سوى من يرسم المعجزات مثلك...
لا تلقائياً، اقترب منها قليلاً.
ـ وكيف سأعرف أين الألوان الصحيحة؟
ـ يداي هنا لترشدانك...
فيقترب...
ـ وماذا لو أخطأت الرسم؟
ـ نكرر اللوحةَ ألف مرّة!
فيقترب...

كان عند كلّ إجابة يجد نفسه يقترب منها أكثر ليسألها السؤال الآخر، حتّى شعر بحرارة أنفاسها تقابل وجهه تماماً وبصوتها يتغلغل مسام وجهه بهدوء، يسألها في النهاية بلهجةٍ مستسلمة وبهمسٍ عميق بينما هي تحدّق في تفاصيل وجهه المُبتسم بتعب:

- وما لون المدينة؟!
- كلون التعب...
- وما لون التعب؟
- كلون السماء...
- وما لون السماء؟
- كلون الحب...
- وما لون الحب؟
- كلون موسيقانا المتخثّرة، وكلون الحزن في عينيك...
- بل لربما كان له لونٌ مضيءٌ كلون روحك...
- ما لون روحي؟
- روحكِ المدينة والسماء والحبُّ والتعب...
- ....

الصمت حلّ عليهما فجأة، لا صوت يسمعه الاثنان سوى صوت أنفاس بعضهما وصوت الأغنية التي تردد:

“we’re just beautiful people with beautiful problems”

"نحنُ أُناسٌ جميلون، مع مشاكل جميلة"

ضجيج الشوارع، صراخ الناس، وصوت الموج، جميعها لم تكن مسموعة. لقد غرقا في لحظة لم يعلما ماهي، كانا قريبين من بعضهما وكأنّهما آخر اثنين على الأرض، يعلم أنّه لو كان يرى وجهها في هذه اللحظة لكان غرق في عينيها، أو لربما قبّلها بشكلٍ مفاجئ كما يحدث في الأفلام، لكن كلّ ما يريده الآن هو البقاء على هذه الحال، أن يشعر بدفء وجودها بجانبه وكأنّها الملاذ الأخير من كوارث الكون. وأمّا هي، فقد توقف زمانها عند تلك اللحظة التي نطق بها بجملته الأخيرة، وتحنّط مكانها عند مسافة الشعرة

التي تفصل وجهه عن وجهها، لم تكن تعلم بمَ تشعر، هل هذه الحرارة التي تتوهج في قلبها وتجعل جسدها يرتجف هي الحب؟ ربما...
ليس كلّ الحب يولد على مشارف القُبَل، بعض الحب يولد في زوايا الأغنيات... ولربما كانت هذه اللحظة هي لحظة ولادةٍ للحب، لحبٍّ طاهرٍ من كلّ مدنّسات الوجود، لحبٍّ مبنيٍّ على ما يمتلكه كل طرفٍ من مشاعر وليس من الجمال أو المال، لحبٍّ مبنيٍّ على الشعور بالروح وليس بالجسد..
بعد خمس ثوانٍ من الصمت، من صوت الأنفاس والشعور بها، من قُبلةٍ طاهرة شهد عليها البحر أنّها لم تحصل سوى عبر الغرق في أغنية، همست له وهي تبتسم رغم الدمعة المتخثّرة في عينيها:
ـ ما زالت الورقة تنتظرك أن تلوّنها ...
ليبتسم هو الآخر ويهمس:
ـ إذاً هيّا لوّنيها معي ...
ويمدّ لها ريشة الرّسم التي في يده مبتعداً عنها تدريجياً حتى عاد إلى وضعه الطبيعي السابق في الجلوس،
ـ أريد أن أبدأ باللون الأسود.
ـ انسَ السواد الذي يسكن عينيك واعتنق الألوان ولو للحظة.
ثمّ بلّلت الفرشاة باللون البنفسجي ووضعتها في يده،
ـ إذاً لنبدأ برسم سماء المشهد الذي أمامنا، ها هو اللون البنفسجيّ، اجعل سماء المدينة بنفسجيّة.
ـ لماذا البنفسجيّ؟
ـ لأن البنفسجيّ هو لون التعب ...
يأخذ نفساً عميقاً، وقليلاً قليلاً، بيدين مرتجفتين شعر بالريشة وهي تلامس الورقة، شعر بقشعريرة تسري في جسده لم يشعر بها منذ زمن بعيد... بعيدٍ جدّاً. توقف فجأة للحظة، ثمّ أخذ نفساً عميقاً وابتسم ابتسامة امتنانٍ عريضة، لتبدأ يده المرتجفة تتحرّك على الورقة بنشوة وكأنّه يرسم لأوّل مرّة في حياته، ويأتي صوت سيلينا في أذنه وهي تهتف بحماس:
ـ يا إلهي أنت ترسم أخيراً! أنا أجلس بجانب فنانٍ يرسم أخيراً!!
فيضحك أكثر وتزداد نشوته قائلاً بحماس:

ـ هل أرسم جيّداً؟
ـ أجل أجل تابع على ذات النسق! سأصف لك كلّ شيء وسترسمه بذات هذا الإحساس وستبدو لوحةً خرافيّة!
ـ ربّاه!
يقولها وهو يتنهّد السعادة في رئتيه، بينما سيلينا كانت تزرع التفاصيل فيهِ لوناً لوناً.
وصفت له كلّ شيء، السماء، الموج، البحر، النوارس
" هناك سورٌ كبيرٌ يفصلنا عن البحر " " هناك مقاعد خشبيّة كثيرة القريب منها علينا يقدّر بستّة مقاعد، إنّها مهترئة. " الأرضيّة مبللة بالمطر " " الناس يقفون هنا وهناك ويمشون ويجلسون، دعك من رسمهم سيفسدون اللوحة بتغيير مكانهم في كلّ ثانية "
استمرّت لساعةٍ وهي تصف له كلّ شيءٍ بدقّة، كان يتخيّل كل التفاصيل في رأسه ثمّ يحاول رسمها بأقرب تجسيدٍ لوصفها الدقيق لتلك التفاصيل، في كلّ مرّة كان يخطئ بها بوضع الريشة على المكان الصحيح في الورقة كانت تمسك بيده وتصحّح الأمر له حتى يكمل الرسم باطمئنان أنّ لوحته بخير، كلّ شيء في تلك اللحظة كان يشعره أن الأمور على ما يرام، وأنّه يرسم باحتراف، كان ذلك الإحساس يعطيه الشعور بالقوّة التي افتقدها منذ زمن، في تلك الساعة نسي أنّه أعمى، نسي أن العجز كان قد حلّ عليه يوماً، نسي السواد الذي سيطر على نظره، كلّ الذي كان يراه أمامه هو ما تصفه له سيلينا. في تلك الساعة، وفي ذلك اليوم تحديداً قد شعر آدم أنّه رجلٌ قويّ كما لم يشعر منذ زمن ...
"كان من الممكن أن يعيش أكثر، لو أنّه وجد الحب، وحصل على حضن امرأةٍ يحتويه"
هذا ما كتبه سيجموند فرويد مُعلّقاً على خبر انتحار الرسّام فان غوخ، لربما لو كان فرويد على قيد الحياة ورأى نشوة آدم وهو يرسم بالقرب من سيلينا، لكتب "في العالم الموازي، غوخ مازال على قيد الحياة، لأنّ امرأةً من المستقبل أنقذته من الموت الأسود واستبدلت الفرشاة بالبنفسجيّ."

ـ انتهت؟
ـ انتهت ...

تردّ عليه بانبهار وعينيها تتأمّلان اللوحة التي انتهت بعد ساعةٍ من الرّسم، كانت النشوة تملؤها لأن فتاةً مثلها شهدت على ولادة لوحةٍ كهذه. رغم أنّ بعض الأمور لم تكن مشابهة طبق الأصل للموجودة في الواقع وذلك لأن آدم رسمها دون أن يراها، لكنّها كانت بشكلٍ عام نسخة طبق الأصل عن المنظر الذي أمامهم.
الشمس التي تغرب، السماء، موج البحر المرتطم بالسور الحجري، النوارس المبعثرة، طفلان يمرحان بسترات صفراء، الأرضية المبلّلة بالمطر، الغيوم التي تنذر بهطول المطر بعد قليل، المقاعد الخشبيّة المهترئة، وكلّ شيء، كلّ شيء...! كان مرسوماً بذات الألوان وذات التفاصيل وذات المشهد.
يسألها وهو يبتسم بفرح:
- كيف تبدو؟!
- إنّها.. إنّها مذهلة! آدم إنّها رهيبة! أنا لا أستطيع وصفها بكلمة واحدة! أنت فنّانٌ عظيم! أنت فنّانٌ عظيم يا آدم أنت فنّانٌ عظيم!!
تهتف له بحماسها وانبهارها لتزداد نشوته ويشعر في داخله أنّه عظيمٌ فعلاً! رغم أنّه لم يرَ اللوحة التي رسمها، لكنّه كان متأكّداً من جمال ما رسم من خلال الدّهشة التي تعتريها ونشوة الانبهار التي تتحدّث بها، كان فخوراً بهذه اللوحة أكثر من أيّة لوحةٍ رسمها من قبل، ذلك لأن هذه هي أول لوحة يرسمها بإحساسه وليس بنظره.
- شكراً لكِ، حرفيّاً شكراً لكِ على كلّ شيء!
يقولها وهو يدير بوجهه إلى جهة سيلينا،
- أنا لم أفعل شيئاً ... أنت الذي فعلت كلّ شيء، شكراً لك لأنّك سمحت لي أن أشهد ولادة لوحةٍ كهذه!
- ربما أنتِ أوّل شخصٍ يؤمن بي ...
ثمّ يصمت لثانية ويكملُ بنبرة ساخرة:
- لا أذكر أنّ أحداً حثّني على الرسم بهذه الطريقة من قبل، الجميع كان يعتبر الأمر مجرّد هوايةٍ سخيفة ... حتى هي، أقصد الفتاة التي أحببتها، لا أذكر ولا مرّة أنّها طلبت أن ترى شيئاً مما أرسم... أصدقائي، عائلتي...ولا واحدٌ منهم قد آمن بي بهذه الطريقة، ولهذا شكراً من أعماق قلبي يا سيلينا!

كانت تنظر له بعينين حزينتين، تعلم أنّ طيف تلك الفتاة يبقى معه دائماً في أيّ وقت أو مكان ومهما كان يفعل، إنّه حتى لا يذكر اسمها وكأنّه يخاف عليه ويريد تخبأته داخل قلبه للأبد. وكان ذلك يؤلمها، لا تعلم لماذا، أو بالأحرى هي تعلم أنّ مشاعر الحب تسلّلت إلى قلبها رغماً عنها وهي تحاول إقناع نفسها بعدم تصديق ذلك، في الحالتين هو لا يراها لا في قلبه ولا في نظره، ففي عين قلبه يرى طيف امرأةٍ أخرى، وفي عين نظره إن حدث ورآها يوماً فسيسرع ليتجاوز رؤية ذلك الوجه القبيح ويبحث عن آخر صالحٍ للحب. لكن مهما حاولت إقناع نفسها بأنّها لم تقع في حبّه دون أن تشعر لن تفلح في ذلك، لأن الحبّ الذي نحاول اقتلاع جذوره منذ البداية هو ذلك الحب المتشبّث بقوة رغماً عن قلوبنا.

تكتم دمعتها المتخثّرة وتخرج من شرودها في وجه آدم، لتبتسم وترد:

ـ لا داعي لأن تشكرني يا آدم، لأن كلّ الذي فعلته أنّني آمنت بالحقيقة، آمنت بأنّك إنسان عظيم، وها هي الحقيقة جليّة أمامي على هيئة لوحةٍ عظيمة، أنت فنّان ...

يبتسم لها بامتنان وهي تتأمّله وتحمد الرب أنّه لا يستطيع رؤية نظراتها المتأمّلة فيه بألم وغرق،

ـ سيلينا، هيّا عليكِ أخذ صورةٍ لنا مع اللوحة، أم أنّك تأخذين الصور فقط عندما لا أكون جاهزاً؟!

يخرجها من صمتها وهو يقول ذلك ضاحكاً بسعادةٍ كبيرة،

ـ أجل طبعاً كنت سأقوم بذلك، هيّا ابتسم حتّى أصورك معها

ـ لا لا، أقصد أن نتصوّر ثلاثتنا، أنا وأنتِ واللوحة، هيّا!

ـ أوه.. ولكن ...

ـ لكن ماذا؟

ـ أنا لا أحب الظهور في الصور

ـ هل يوجد امرأة في هذا الوقت لا تحبّ أن تلتقط الصور لنفسها! هيّا بحقّك كفاكِ الآن ودعينا نلتقط صورةً واحدة.

ـ لست امرأةً تصلح للصور، ولست بمظهرٍ مناسب الآن لصورة.

ـ لكن صورتنا مختلفة، أنا وأنتِ لا نلتقط الصّور لنتذكر كيف كان شكلنا في هذه اللحظة، بل لنتذكر أنّه في مثل هذا اليوم هناك امرأةٌ روحها جميلة لدرجة لن تستطيع كاميرا

غبية التقاط جمالها، آمنت برجلٍ أعمى وعاجز تماماً وجعلت منه فنّاناً رسم لوحةً كاملة عبر عينيها
تصمت سيلينا وهي تحدّق به وتبتسم، ليكمل:
ـ جمالك أكبر من أن يظهر في صورة.. لذا هيّا تصوري كما تشائين ودون أن تكترثي بشيء!
لتبتسم له أكثر وتفتح الكاميرا بعد أن أقنعها كلامه بأن تظهر في الصورة، تشغّل الكاميرا الأماميّة ثمّ تمدّ بذراعها لفوق كي تلتقط الصور.
ـ هيّا أمسك باللوحة جيّداً في حضنك وانظر إلى جهة صوتي.. حرّك رأسك إلى اليمين قليلاً كي يظهر وجهك، أجل.. أجل تماماً لا تتحرّك.
تتأمّل الشاشة قبل التقاط الصورة، آدم يبتسم واللوحة في حضنه، ونصف وجهها المغطى بشعرها حيث لا يظهر من نصفه الآخر سوى القليل. شيءٌ ما في تلك اللحظة، لربما كان شعوراً بالرضى، جعلها تزيح شعرها عن نصف وجهها الآخر فظهر وجهها كاملاً بالصورة، تتأمّله وهي تبتسم، ثمّ توشك على التقاط الصورة، واحد، اثنان، ثلا...
ـ هل تحاولين تحنيطنا أم التقاط صورة؟
يقولها آدم فجأة وهي تكبس على زر الالتقاط، لتضحك سيلينا رغماً عنها بشدّة لحظة التقاط الصورة وتذهب ابتسامتها الصغيرة تلك ليحلّ مكانها ضحكة عريضة وعفويّة بعينين يشعّ منهما الفرح.
ـ لقد أفسدتَها في اللحظة الاخيرة!
تقولها وهي تضحك،
ـ ظننتكِ نمتِ وأنتِ تلتقطينها!
ـ كنت أشغل الكاميرا لكنّك عديم الصبر!
ـ حسناً على أيّة حال كيف تبدو؟
تفتح سيلينا الصورة وتتأمّلها وهي تبتسم بشدّة، ابتسامة آدم ونظره الموجّه بغير دقة لاتجاه الكاميرا، يديه الممسكتين باللوحة، ووجهها هي الكامل، ضحكتها العفوية تلك والمفاجئة وهي تنظر إلى الكاميرا، ثوبها الأصفر، ملامحها المجرّدة من المكياج والمليئة بآثار الندوب، كلّ ذلك كان يضحكها، بل يجعلها تشعّ من السعادة! لترد عليه وهي تبتسم بنشوة كبيرة:

ـ إنّها أجمل صورة التقطّها في حياتي!
ـ أمرٌ مؤكّد ستكون كذلك لأنني موجودٌ فيها!
ـ أجل ربما هي جميلة لذلك السبب حقاً...
ـ بل من المؤكّد!
ـ حسناً من المؤكّد!
تنظر إلى الساعة وهي لازالت تضحك،
ـ إنّها السابعة إلّا ربع! يا إلهي علينا العودة لقد تأخّر الوقت!
ـ إنني لم أشعر بالوقت حقّاً، حسناً هيّا بنا دعينا نذهب..
ـ إذاً... هل أنت جاهز للمشي الطويل؟
ـ لم أفهم
ـ أقول إننا سنعود مشياً إلى المنزل. عليك تحريك قدميك بعد سباتك الطويل أيها الدب القطبي الضخم.
ـ أنتِ تمزحين أليس كذلك؟
ـ أبداً
ـ ومن أخبرك أنني موافق! امرأةٌ مجنونة، هيّا أوقفي تاكسي الآن.
تمسك بيده بهدوء..
ـ عليك أن تعودَ أنتَ، أنتَ الرجل الذي رسم اللوحة منذ قليل، أنظر إلى خطوط يديك!
ـ خطوط يديّ؟ هل ستصبحين بصّارةً الآن أم ماذا؟
تضحك بهدوء وهي تجيب :
ـ أجل لو أردت!
ـ إذاً اقرأي لي ما تقوله يدي!
ـ قبل الرسم أو بعد الرسم..؟
ـ قبل الرسم.
ـ يداك باتتا تشبهان مرفأ المدينة، أنت الآن تصنع من الزوارق حكايةً للرحيل، تترك كلّ شيءٍ يُغادرك وفقط تلوّح له من بعيد، النوارس تقترب منكَ أيضاً، لديك الكثير من اليُبسِ في قلبك، لكنّه طعامٌ رديء بالنسبةِ لطائرٍ يريد أن يُكملَ حياته خفيفاً بين الموجةِ والغيمة...

ـ وبعد الرسم؟
ـ خطوط يديك تضحكُ الآن، الريشُ الملوّن ينبتُ فوق جلدك ويطلب منكَ ان تطير!
يصمت مطوّلاً وهو يبتسم بعمق،
ـ عليكِ أن تعلميني كيف تخدعينني هكذا
تسحبه من ذراعه وهي تضحك وتمشي به رغماً عنه.
ـ الطريق طويلٌ جداً، توقفي أيتها المجنونة
ـ ليس طويلاً إن استمتعنا به، هيّا الآن
ـ وكيف سنستمتع به؟
ـ نضع أغنية!
ـ أوه حسناً دعيني أحزر، الآن ستقومين بتشغيل أغنية لتلك الامرأة الكئيبة مجدداً، ما كان اسمها..
ـ لانا ديل ري! أصبت!
تضحك ثمَ تكمل،
ـ حسناً لأكون عادلة سأدعك تختار أغنيةً لها، ما رأيك؟
ـ من أخبركِ أنني أعرف أغانيها أصلاً لأختار منها؟
ـ سأعدد لك أسماء البعض

"Love, darke paradise, born to die, cherry.."

ـ حسناً حسناً يكفي! سأختار "Dark Paradise " " جنّة سوداء"
ـ لا أعتقد أنّها مناسبة لوقتٍ كهذا.. اختر غيرها
ـ حقّاً؟ ومتى تكون مناسبة إذاً؟ حين تختاريها أنتِ؟
تضحك ثم ترد:
ـ لا أبداً، لكنّها أغنية يمكن للمرء سماعها عند موت (حبيبه أو حبيبته) عندها ستكون أغنيّةً بكامل لذّة الالم...
ـ أوه حسناً لدينا ما يكفي من الآلام لا نحتاج لخلق الجديد منها، إنني أمنحك الصلاحية في اختيار الأغنية الأنسب.

تبتسم بصمت وهي تراقب ضجره أثناء مشيه ممسكاً بيدها، ثم بصمت تمسك بسماعاتها مبتسمة، ثمّ تضع طرفاً في أذنها اليمنى والطرف الآخر في أذنه اليسرى، وتضع أغنية "Born To Die" " ولِدنا لنموت"، ليأتي صوت الكمنجات معلناً عن بداية الأغنية.
كانت الشمس قد غربت، وظلام الليل قد حل، صوت الرصاص والانفجارات البعيدة اختلط مع صوت الرعد، المطر بات يهطل بغزارة كبيرة جداً، والناس في الشوارع يختبئون منه تحت المظلّات، ما عدا اثنين... كانا يركضان تحته بلا أيّ شيء، عاريين من كلّ شيء، من الحزن، والندوب، والظلام، والألم، والفقد.
تحت المطر كان كلّ الناس يختبئون تحت المظلات، ما عدا اثنين يرقصان تحته بنشوة الروح عاريين من وجودهما.

“Lost but now I am found, I can see but once I was blind”
" ضائعة لكنّي قد اهتديت الآن، أستطيع أن أبصر ولكنّي كنت عمياء ذات مرّة..."
“I was so confused as a little child, tried to take what I could get
Scared that I couldn’t find all the answers honey”

" لقد كنت قليلة البصر كطفلٍ صغير، أحاول جاهدة أن أمتلك كل ما أراه،
لخوفي من عدم استطاعتي على إيجاد كلّ الإجابات "
كانت تمسك بيده وتركض به في الساحات، في الشوارع، في الطرقات المبتلة، ثيابهما غرقت بالماء، وأجسادهما تغلغلت ببلل المطر، يدوسون في الطين فرحين كالأطفال، أجل.. كانوا في تلك اللحظة كالأطفال، يرقصون تحت المطر غير آبهين بالمرض لأن كلّ الذي يريدانه هو الشعور بالسعادة!
“Don’t make me sad, don’t make me cry… sometimes love is not enough and the road gets tough I don’t know why”
" لا تجعلني أحزن، لا تجعلني أبكي ... فأحياناً الحب لا يكون كافياً ودربه يصبح مليئاً بالعثرات لا أعلم لماذا.. "
“Keep making me laugh, let’s go get high… the road is long, we carry on, try to have fun in the meantime”

" استمر بجعلي ضاحكة، دعنا نثمل ونتنتشي... فالدرب طويل وسنسلكه، فلنحاول أن نستمتع بمضي الوقت"

"Choose your last words, this is the last time
Cuse you and I,
We were born to die"

" اختر كلماتك الأخيرة، فإنّها المرّة الاخيرة
فأنا وأنت،
قد ولدنا لنموت... "

بقيا يمشيان ويركضان تحت المطر لساعةٍ ونصف كاملة حتّى وصلوا إلى المنزل وهما يضحكان عالياً بنشوة كبيرة لم يشعر كلاهما بها منذ زمنٍ طويل...طويلٍ جداً!
دخلا المنزل وهما لازالا يضحكان عالياً، لتجد سيلينا والدته تجلس قرب المدفأة بهدوء لتقف بسرور عند دخولهما وكأنّها كانت تنتظر، لكنّها لا توشك على الترحيب بهما إلّا وتشهق متفاجئة من منظرهما ذاك، كانا غارقين بماء المطر تماماً، ثيابهما تنقط من الأعلى إلى الأسفل، شعرهما غارق بالماء، كان مظهرهما وكأنّ موجة تسونامي قد ضربت بكليهما.
- يا إلهي لماذا أنتما غارقان بالماء هكذا!
تقولها بصدمة، فيضحك الاثنان أكثر ويجيب آدم:
- هذه هي ضريبة من يخرج مع امرأةٍ مجنونة
تضحك والدته لمظهرهما، وتستمر سيلينا بالضحك هي الأخرى
- بالتأكيد لم أكن لأدعك تفوّت فرصة المتعة بالركض تحت المطر هكذا!
- حسنا كان أمراً غبياً ربّما، لكنّني ضحكت عن سنة كاملة، لذا سأسامحك!
- أحقّاً استمتعت يا عزيزي؟
تسأله والدته وهي تنظر إليه بسعادة، وكأنّها لا تصدّق أنّ هذا الرجل هو ابنها المكتئب منذ زمنٍ طويل. ثمّ تقترب وتضع يديها على وجهه بحبّ، ليتحسسهما ثمّ يمسك بهما ويقبلهما قائلاً:
- أجل يا أمي، لقد استمتعت كثيراً، لا تقلقي أنا بخير، بخيرٍ كثير!

تتأمّله وكأنّها لا تصدّق، وسيلينا الأخرى كانت تنظر لهما بسعادة كبيرة، لتقول وهي تحاول طمأنة والدته:
ـ انظري خالتي!
وتمسك اللوحة بيديها ثمّ تكمل:
ـ لقد رسمها آدم ونحن جالسان، لقد رسم المكان الذي كنا نجلس به، أليست رائعة!
تتسع عينا والدته وكأنّها لا تصدّق ما تراه، تتأمّل اللوحة، ثمّ تظن أن سيلينا تمازحها فتقول بتشكيك:
ـ هل تمزحين معي؟
ـ لا أبداً! أقسم لكِ أنّه رسمها!
ـ لكن كيف! أقصد.. كيف استطاع رسم المكان دون رؤيته بهذا الجمال!
ـ عبر عيون سيلينا...
يقولها بهدوء مبتسماً، ثمّ يكمل:
ـ لقد وصفت لي كلّ شيء وساعدتني في الرسم ... أخبريني ما رأيكِ باللوحة؟
ـ إنّها مذهلة!
ثمّ تنظر إلى سيلينا بامتنان وهي تريد أن تشكرها على جعله سعيداً هكذا، لتفهم هي الأُخرى مقصدها دون أن تنطق فتهزّ رأسها مبتسمة.
ـ عليكما تبديل ثيابكما بسرعة لئلّا تمرضا! هيّا يا آدم لئلّا تمرض كالمرّة السابقة، سأخرج لك ثيابك، غيّرا ثيابكما وتعالا لأحضّر لكما شيئاً دافئاً تشربانه
ـ لا خالتي شكراً، أنا متعبة وسأخلد للنوم
ـ أوه حسناً لا عليكِ، اذهبي وارتاحي ابنتي، تصبحين على خير. وأنت آدم، أجلس هنا بالقرب من المدفأة ريثما أحضّر لك ثيابك.
تتجه إلى غرفته، لتهمس سيلينا:
ـ أرأيت كم هي سعيدة بك!
ـ أجل..
يصمتان للحظة ثمّ تتنهّد وهي تقول:
ـ حسناً... تصبح على خير أيّها الفنان العظيم!
ـ سيلينا!

يناديها فجأة وهي تهمّ بالمغادرة،
ـ أجل؟
ـ أنا أعترف ...
ـ تعترف بماذا؟
ـ أعترف أنني شعرت بالمطر دون أن أراه! أعترف أنني معكِ أشعر بكلّ شيءٍ دون أن أراه! وشكراً لكِ على هذا ... على جعلي أشعر!
تبتسم ابتسامة كبيرة وهي تتذكّر اليوم الأول الذي التقته به، حين فتحت له النافذة وتجادلا وبدأت تطلب منه الاعتراف بالشعور بالمطر رغم أنّه أعمى ولا يراه، ابتسمت بامتنانٍ كبير لأنّه يقول لها ذلك، وكأنّها تريد شكره على الشكر! ثمّ ردّت بهدوء:
ـ أخبرتك يا آدم لا تشكرني، لأنّني لا أفعل شيئاً سوى أنّني أؤمن بالحقيقة وحسب... والآن، تصبح على خير.
يردّ الآخر وهو يبتسم بامتنانٍ كبير:
ـ تصبحين على خير، أيتها الروح الجميلة ...
تستدير وتعود إلى غرفتها مبتسمة، رغم أنّ تلك الدمعة المتخثّرة لا زالت في عينيها ... الدمعة التي لا تريدها أن تنزل كي لا تعترف لنفسها أنّها وقعت في حبّ رجلٍ قلبه مع فتاةٍ أخرى ... وقعت في حبّ رجلٍ بعيد رغم قربه ...لا تعلم متى، لا تعلم كيف، ولا تعلم أين بدأ ذلك.. لكنّها الحقيقة، وهي فتاة تؤمن بالحقيقة، وتخافها دوماً.
إنّها تتألّم، تلك الفزّاعة التي ترغبُ بعناق العصفور وتقبيله فوق حقل القمح.

****

" من قال لك أنّني لا أحبك! لكنّك رأيت أنّهم زوجوني رغماً عنّي! قل لي هيّا ماذا كان بوسعي أن أفعل! "
يقاطع بكاءها صوت باب المنزل وهي تتحدّث بصوتٍ منخفض على الهاتف،
" عليّ إغلاق الهاتف فوراً.. "
تغلق المكالمة بسرعة وتمسح دموعها التي تملأ خديها بارتباك
ـ جمانة، أيمكنني الدخول..

يأتي صوت غيث مع ثلاث دقّاتٍ على الباب،
ـ أ..أجل تفضل.
يدخل إليها بوجهٍ مبتسم، ممسكّاً باقة من الورود الحمراء في يده والتي اشتراها بعد أن حاسبه صاحب العمل فوراً، يحاول أن يكون زوجاً مثاليّاً معها لأقصى درجة وإسعادها كلّ ليلة وكل يوم. وكأنّه يحاول تعويض جميع خساراته عبر الفوز بإرضائها، إنّه يريد أن يكون ناجحاً في شيءٍ واحدٍ على الأقل عبر حياته، أن يكون له عائلة تعوّضه عن كلّ شيء.
يتقدّم ويجلس على السرير بجانبها وهو يبتسم لها بحب،
ـ هذه لكِ..
تنظر إليه بعينيها المحمرّتين من البكاء دون أن تبدي أيّ علامة سرور على وجهها.
ـ شكراً.
تقولها بكلّ برود وهي تأخذها من يده.
يحدّق بها وهو مستغرب، لا يعلم لماذا يعود كلّ يوم ويجدها حزينة بهذا الشكل، ويبدأ يسألها ككلّ ليلة:
ـ لماذا أنتِ حزينة يا جمانة ... أخبريني إن كان هناك شيء ما يزعجك حتّى أحلّه!
لكنّها تبقى صامتة، فيكمل:
ـ هل هناك أحدٌ ما أزعجكِ؟ أخبريني
ـ لا أبداً.
ـ هل أمي أزعجتك بشيء أو أتعبتك؟
ـ لا.
ـ لماذا أنتِ حزينة إذاً؟
" لأنني لا أريدك! لأنهم أجبروني على الزواج بك رغماً عنّيّ عندما اكتشفوا أنني على علاقة حب بشخصٍ آخر! " تمنّت لو أنّها تستطيع الصراخ بكلّ هذا، لكنّها تبقى صامتة وتنهي الحديث كالعادة بجملتها:
ـ لست حزينة، رأسي يؤلمني وحسب...
ـ هل آخذك إلى الطبيب أخبريني؟

ـ لا داعي لذلك، حين أنام سأرتاح
ـ حسناً عزيزتي، هيّا ارتاحي، وأخبريني إن لم تتحسني في الصباح حتى آخذك إلى الطبيب ...
ينظر لها وهي تستلقي على السرير بكلّ صمت وتغطي وجهها، يقلقه أمرها كثيراً، لقد أحبّها كزوجةٍ له وبات يقلق لأمرها ويخاف عليها، صحيحٌ أنّه لم يعش معها قصة حب كتلك التي عاشها مع ليلى، لكنه يحترم أن هذه الامرأة هي زوجته الآن ولها عليه حق، وبات يؤدي حقّها بأكثر ما يستطيع...
ربما ذلك لا يكفي ليكون كلّ شيءٍ بخير. ربما لا شيء يكفي، إلى الأبد.

****

ـ أتريده ذكراً أم أنثى؟
ـ لا يهم، المهم أن يأتي بخير.
ـ من سيسميه؟
ـ أممم دعينا نتفق، إن كان ذكراً فسأسمّيه أنا، وإن كانت انثى فتسمّينها أنتِ
ـ موافقة، شريطة أن يعجبني اسم الذكر!
ـ اتفقنا إذاً!
يقولها وهو يبتسم، ثمّ يقبّل رأسها ذو الشعر الأشقر المستلقي على كتفه، لتقول بنبرةٍ حائرة وهي تحرّك يدها على بطنها:
ـ سامي ...
ـ أجل
ـ أرجو...هل عملك ذاك لا يعرضك للخطر، إنني خائفة دائماً..
ـ عزيزتي لارا قلت لكِ لا تقلقي ليس علينا أيّ خطر فكلّ شيءٍ مدروس في عملنا، لا تشغلي رأسكِ بهذه الأمور ولا تخافي، التوتر ضار بصحتكِ وبصحة صغيرنا الذي في بطنك.
ـ وأخي أنور ليس عليه خطر أليس كذلك؟
ـ أجل عزيزتي، ليس عليه أيّ خطر ...
ـ أتمنى أن يكون كذلك...

ـ ثمّ ألا تريدين أن نؤمّن مستقبلاً لأولادنا؟ بل لأحفادنا وأولاد احفادنا، سيكون لدينا قبيلة، ما رأيك!
يتلاشى العبوس من وجهها وتضحك باستهزاء وهدوء لكلامه
ـ هذا ما أريده، أن تنسي الخوف لأرى ضحكتكِ هذه يا صاحبة الوجه الجميل!
****

" يا صاحبة الروح الجميلة ..."
مازالت جملتك تلك تدور في رأسي يا آدم منذ الأمس، إنني لم أنم من فرط سعادتي وتعاستي، ربما لو لم تقلها كان أفضل، لربما لو لم تشعرني أنّ هناك إنساناً في هذا الكون يعتبرني جميلة لكان أفضل!
لا أدري أيجب أن أشكرك على جعلي أشعر بذلك أم يجب أن أتألم منك؟
إنّني معك فقط امرأة بحق، امرأة جميلة، امرأة متوهجة، امرأة ملوّنة رغم وجهها الشاحب. لكنني لا أريد ذلك.. لا أريد الوقوع في حبّك!
من سيرغب بتقبيل هارمونيكا صدِئة ليمنحها الصوت والحياة...
أعلم أنّ قلبك معها، مع تلك الفتاة التي خذلتك رغم عظمتك، تلك الفتاة التي تبقى حريصاً ألّا تذكر اسمها في الأحاديث العابرة وكأنّك تقدسه، وكأنّك تخاف عليه من السمع، لا يهمني أن أعلم اسمها.. أعلم أنها جميلة جداً كما رسمتها في لوحاتك وكما وصفتها لي، أعلم أنها كانت جميلة للحدّ الذي استطاعت خطف قلب إنسانٍ مثلك.
لماذا لم تحبّك وأنت تستحق كلّ الحب؟ لماذا تحبّها وهي لا تستحق كلّ هذا الحب؟ لربما لذات السبب الذي جعلني أحبّ سامي رغم أنّه لم يستحق حبّي له.
نحن لا نحب من يحبّنا، لأننا مشغولون بحب من لا يحبنا.. أجل، هذا ما اكتشفته مؤخراً، معك اكتشفت أموراً كثيرة أتعلم ذلك، ربما لا، أنت لا تعلم.
أنت لا تعلم ماذا يعني أن تكره فتاةٌ ما ملامحها، لا تعلم معنى ألّا يظهر منها في هذه الطرقات المزدحمة سوى نصف وجهها، فتاة تكره أن تلتقط الصور لأنّها تعلم أنّها ستبدو قبيحة في جميع الأحوال، أنت لا تعلم كلّ هذه الأمور.. ولا تعلم أيضاً، ماذا يعني أن تنسى هذه الفتاة كل تلك الأمور جميعها وتشعر أنّها جميلة معك، معك وحدك

وحسب... هذا يعني شيئاً واحداً يا آدم، وهو يقيني المؤسف بأنني أحبّك...أحبّك من بعيدٍ دون أمل، كشمعةٍ تحترق من أجل شخصٍ أعمى ... "

****

"جميعُنا صور، وأنا صورةٌ مُمزّقة."

ميس أخرس

- إنّك تكرر هذه الأغنية للمرّة السابعة، ظننتُكَ لن تحب أغاني هذه الامرأة يوماً.
- من يأكل الألم قلوبهم هم فقط من يستطيعون سماعها باللذّة الصحيحة. ألم تخبريني بهذا سابقاً؟
- أجل، فعلت.
- إنّ الألم يأكلني الآن، وطفلٌ هو الليل في حضرة الموسيقى، وأنا صغيرٌ صغيرٌ في حضنكِ. أعيدي تشغيل الأغنيةِ واحضنيني.
ليهربَ الليل.
ليهربَ الألم.
ولأبقى معكِ داخل أُغنيةٍ للأبد.

ثلاث طرقاتٍ على الباب،
- ادخل.
- كنت أعلم أن سيجارةً ما ستكون في يدك لذا...
تقولها وهي تضحك متجهة للجلوس بجانب كرسيّه القريب من النافذة، تضع له كوب النسكافيه بين يديه،
- دعنا نستبدل كلّ هذا البؤس بكوبٍ من النسكافيه
ثمّ تسحب السيجارة من يده بهدوء وتطفئها، ليضحك الآخر دون جدال
- شكراً لكِ

ـ العفو
ثمّ يسود الصمت لثانيتين أثناء شرب كليهما من الكؤوس، تفتح سيلينا هاتفها كالعادة وتشغّل أغنية لتكسر الصمت، أتى صوت الكمنجات بحزن، ثمّ صوت لانا ديل ري بحزن:
"I don't belong in the world, that's what it is, something separates me from other people"
"أنا لا أنتمي إلى هذا العالم، هذه الحقيقة، شيءٌ ما افترق به عن بقيّة الناس."
"Everywhere I turn, there's something bloking my escape"
"أينما أدخل، هناك شيءٌ ما يحجب هربي."

ـ هذه المرأة الكئيبة مجدداً! هذا يكفي!
ـ ليست كئيبة، إنّها سيدة الألم.
ـ لا أجد ذلك صحيحاً!
ـ ذلك لأنّه ليس أيّ شخص يحبّ الاستماع إليها، الكثيرون يظنون أنّها كئيبة أكثر من اللازم. لكن، الأشخاص الذين يغرقون في أغانيها، في كلماتها، وفي ألحانها، ومن يأكل الألم قلوبهم، هم فقط من يستطيعون سماعها باللّذة الصحيحة!
ـ حسناً، أعترف أن الألم أكل قلبي لكن ليس لدرجة أن أحب هذه الأغاني
تبتسم وهي تردّ على سخريته:
ـ إذاً أتمنى أن تحبّها يوماً ولكن دون أن يأكل الألم قلبك
ثمّ تنظر إلى النافذة القريبة منه، كانت الأمطار تسيل على الزجاج بهدوء، وأوراق الأشجار الصفراء تغطّي الأرض، الطيور تختبئ في أعشاشها، والسماء أرجوانيّة.
تقوم من مكانها وتحضّر له عدّة الرسم، ثمّ تقول:
ـ هناك لوحةٌ أمامك عليك رسمها أيّها الفنان!
ـ حسناً غرفتي جميلة ولكن ليس لهذه الدرجة!
ـ كفاك سخريّة، أنا جادّة، إنّ المنظر من النافذة ساحر!
ـ لا رغبة لي في الرسم
ـ لقد حضرت لك النسكافيه حتى تقول لي هذا!

ـ ظننتها مجانية! ما هذا الاحتيال؟!
ـ حسناً، إن كان هناك فنانٌ مثلك فعلينا استغلاله قدر ما نستطيع، والآن هيّا!
ثمّ تسحب الكوب الفارغ من يده، وتضع له الفرشاة مكانه.
ـ إذاً...هل ستسمحين لي بالرسم عبر عينيك هذه المرّة أيضاً؟
ـ هذه المرّة ، وكلّ مرة...
ـ بالمناسبة، ما لون عينيكِ يا سيلينا؟
ـ بنيٌّ داكن، لماذا؟
ـ داكنتان وتجعلانني أرى كلّ شيءٍ بإثنى عشر لوناً من السماء..
تنظر له سيلينا باستغراب دون أن تفهم، يصمت هو لثوانٍ ثمّ يكمل:
ـ أعرف امرأةً ذات عيونٍ زرقاء، لم تزد السواد في عينيَّ إلّا سواداً.
ـ أما زلت تحبّها...؟
تسأله سيلينا بصوتٍ مخنوق،
ـ لا!
يقولها بانفعال وكأنّه يحاول تبرير شيءٍ ما، يصمت الاثنان، لم تفهم سيلينا سبب انفعاله ولم يستطع هو الآخر النطق بما يجول في رأسه وقلبه، كلّ الذي فعله أن أخذَ تنهيدةً طويلة بألمٍ وهي تحدّق في وجهه، ليهمس:
ـ انتهت الأُغنية، هلّا تعيدين تشغيلها؟

****

ـ مرحباً سامر
ـ أهلاً غيث! كيف حالك؟
ـ أنا بخير، لقد انتهيت من العمل ومررت على المقهى ولم أجدك توقعت أن تكون هناك في مثل هذا الوقت ...
ـ أوه أجل أنا هنا مع الشباب ويبعثون لك بالسلام، لم أذهب إلى المقهى اليوم
ـ حسناً ... أراك في وقتٍ لاحق، أوصل لهم سلامي أيضاً
ـ لماذا لا تأتي إلينا؟
ـ أوه لا إنني ...
ـ هيّا يا رجل تعال واشرب الشاي معنا، الجميع أحبوك وستتسلى قليلاً

ثمّ يأتي صوت الرجال من خلف صوت سامر " تعال هيّا! "
ليتردد غيث قليلاً ثمّ يكمل:
ـ حسناً أنا قادم
ـ نحن بانتظارك!
وقبل أن يقفل الخط يستوقفه سامر
ـ أوه غيث انتظر لا تغلق
ـ أجل؟
ـ كن حذراً وأنت قادم إلى الباب من أنّ يراك أحد
ـ أجل.. أجل لا تقلق.
بعد نصف ساعة من محاولة تذكر الطريق، وصل أخيراً إلى ذلك الجدار الذي يخفي الباب السريّ. تلفّت يميناً ويساراً ثلاث مرّات، ثمّ طرق الباب بارتباك
ـ أهلاً بك
رحب به الجميع بعد أن دخل مبتسماً وهو يلقي التحيّة، لكنّه ما لبث أن تجمّد مكانه وتحجّر نظره حين رأى ما على الطاولة، كان هناك عدد من البنادق أمامهم، والكثير من الأوراق والمخطوطات، وذخيرة الرصاص.. بقيَ يحدّق بتلك الطاولة لخمس دقائق، ليأتي إليه صوت سامر وهو ممسك بإحدى البنادق:
ـ ما بك يا غيث؟ هيّا اجلس
ينظر لسامر وهو مصدوم، ليسأله بتوتر:
ـ ما كلّ هذا؟!
ـ ما هو؟ ألم ترَ بنادق من قبل يا رجل!
يقولها بسخريّة ليرد عليه أحد الجالسين باستهزاء " مهندسٌ محترم من أين له أن يمسك السلاح؟ "
لكن غيث يتجاهله وهو لا زال يحدّق في سامر ليسأله مجدداً:
ـ ما كلّ هذا يا سامر؟!
ـ هذا؟ هذا واجبنا، لا عليك، هيّا اجلس
يجلس غيث بهدوء أمام تلك الطاولة،
ـ ماذا تفعلون بكلّ هذه الأسلحة والمخطوطات!

ـ نحن ندافع عن الوطن، عن هذه المدينة التي لا أمل لها سوى أبناؤها!
ـ تدافعون عن الوطن!
يقولها غيث وهو يقطب حاجبيه باستغراب، ثمّ يكمل:
ـ تدافعون عن الوطن من أجل ماذا!
ـ من أجل انتصارنا!
ـ انتصاركم! انتصاركم على من! أخبرني من أنتم يا سامر!
ـ انتصارنا على الفساد الذي في المدينة.. ونحنُ أبناء المدينة يا غيث!
يحدّق به غيث ويغرق في النظر بعينيه والأفكار تتخبّط في رأسه،
ـ تريد الفساد عبر السلاح والقتل والتدمير؟ حين تكون الثورة ضد أبناء وطنك فعندها لا تسمى ثورة، بل تسمى إرهاباً يا سامر!
ـ بل هي ثورة لأنّها تريد نيل الحرية!
ـ أيّة حرية يا سامر! ألا تلحظ أنّ المدينة بخير والوطن بخير لكن أنت وأمثالك تقودونه للدمار باسم الحرية! هذا ما زرعته الدول الخارجية في عقولكم وبدأت تتلاعب بكم أنت وكثير من الناس، حريتكم هذه التي تطالبون بها هي سبب وصولنا إلى هنا!
ـ حقّاً؟
يقولها سامر ثمّ ينظر إلى عينيه بتحدي ويبتسم ثم يرد عليه بهدوء:
ـ حسناً يا غيث، أنا لن أعارضك في كلامك هذا لأنك مثلك مثل الكثير من الناس، لكنّك إن نظرت جيّداً أمامك سترى الحقيقة جليّة ... ولا حاجة للابتعاد كثيراً، أنت أكبر مثالٍ لإثبات كلامي!
ـ أنا؟!
ـ أجل أنت، أنظر لنفسك يا غيث، أنظر لحياتك، أنظر لمستقبلك الذي ضاع في بلادٍ كهذه، دراستك التي خسرتها، وحياتك كلّها التي انقلبت رأساً على عقب. أنت تكدّ طوال اليوم لتطعم عائلتك، تعمل عملاً لا يناسب دراستك الجامعية، ودراستك الجامعية لم تناسب الحلم الذي حلمته.
ـ وما شأن الفساد والثورة في كلّ هذا؟! ليس للحرب شأنٌ بما يجري معي!
ـ بل أجل! هناك أناسٌ لا يتعبون نصف تعبك هذا، لا يعلمون معنى أن تسهر لأجل حلمك لأنّهم يشترون أحلامهم وأحلام غيرهم ببعض النقود، لا يعلمون معنى التعب من

أجل البقاء على قيد الحياة لأنّ هناك من يتعب لأجلهم، لم يخسروا أحداً من عائلاتهم كما خسرنا، لم يذوقوا علقم الموت، لم تُبتر أعضاءٌ من جسدهم، ولم يتركوا أحلامهم وراءهم لأن هناك ما هو أهم منها، وهذا هو الفساد الذي يسود الوطن وعلينا إنقاذ بلادنا منه. لا يوجد عدلٌ في هذا الوطن ونحن هنا نثور لأجل تحقيقه! إن الحرب أقوى من كلّ شيء يا صديقي، المتعلم يمسح أحذية الناس بشهادته بينما الأميّ يضع لنا مخطط المستقبل!

- لكنّكم هكذا لا تحققون أيّ عدل! أنتم حين تحاربون ضد أبناء وطنكم تقودون الوطن للهلاك، مهما كان حجم الاختلاف بينكم وبين الطرف الآخر فإنكم رغم ذلك تبقون أبناء أرضٍ واحدة! وبحربٍ كهذه تقتلون الوطن يا سامر!

- حينَ تكون الثورة في سبيل نيل الحريّة فعليك قتل الوطن مئة مرّة لتمنحه حياةً كريمة في النهاية ... ونحن يا غيث لو لم تحرق الحرب قلوبنا لما نكن هنا، حدّق في وجوهنا واحداً واحداً، كلّ واحدٍ هنا سلبت منه الحرب حياته بطريقةٍ ما، كلّ واحدٍ هنا خسر فرداً من عائلته، ابنه، ابنته، زوجته، أقاربه، خسر منزله، خسر أطراف جسده، خسر مستقبله... ابتداءً منّي أنا الذي خسرت عائلتي كلّها دفعةً واحد، انتهاءً بأنس الذي فقد كلتا يديه وساقه اليسرى ورغم ذلك اختار أن ينقذ وطنه، نحن هنا لنثأر لجروحنا وخساراتنا يا غيث ولنثبت أننا موجودون على هذه الأرض، لنقدّم لبلادنا ما يجب على ابن البلاد تقديمه ...

كان غيث غارقاً في النظر داخل عيون سامر، لقد تفاجئ حين علم في تلك اللحظة أنّ سامر، هذا الرجل الشاب الذي لا يُظهر سوى القوّة والحماس للحياة، قد خسر كلّ عائلته في الحرب دفعةً واحدة! ثمّ بات يحدّق في وجوه الجميع واحداً واحداً وهو يتساءل كم من فاجعةٍ ألمّت بكلّ واحدٍ منهم، يتأمّلهم ابتداءً من العمّ كامل الذي فقد عائلته هو الآخر انتهاءً بأنس الشاب المبتور الأطراف، يسأل نفسه متعجباً أيّة قوّةٍ هذه تجعل شاباً أطرافه مبتورة مثله يتمسّك بإصرارٍ كهذا للدفاع عن فكرةٍ فاسدة في رأسه ؟!، لوهلةٍ خجل من نفسه أمامهم، كلام سامر ترك أثراً غريباً في داخله رغم أنّه لم يقنعه تماماً ... ليعود ويخرجه من شروده قائلاً له بهدوء وهو يبتسم بخبث:

- لتعلم يا غيث أننا لا نحضر أيّ إنسانٍ إلى هنا، ولولا أنّني وثقت بك لما أحضرتك وعرّفتك على عملي وقضيتي هذه ...

ثمّ يصمت لثوانٍ وغيث ينتظره أن يكمل،
ـ ولولا أنّني لم أجد بك إنساناً يشبهنا منذ اللحظة الأولى التي التقيتك بها ما كنت لأثق بك، لكنّني شعرت أنّك إنسانٌ دهسته هذه الحرب مثلما دهستنا، شعرت أنّ مكانك هنا يا غيث.. لذا، ما رأيك أن تنضم إلينا وتثبت نفسك لوطنك؟
جاء سؤاله مفاجئاً لغيث، لا بل صاعقاً! ليجاوب بارتباك:
ـ أنا؟! هه، لا.. لا يا سامر، هذا أمرٌ مستحيل تماماً! أنا إنسان بعيد عن المشاركة في مثل هذه الأمور كامل البعد ...
ـ لماذا يا غيث؟ ألا تشعر أنّ لوطنك عليك حق وعليك تسديده؟ ألم تؤلمك الحرب؟ ألم تحرقك؟ ألا تريد إثبات نفسك والقيام بشيءٍ واحدٍ عظيم في حياتك على أكمل وجه؟ ألا..
ـ لا لا لا!
يقاطعه غيث وهو يحاول التهرّب من هذا النقاش:
ـ لا يا سامر ... هذا يكفي، انظر أنا أحترم وجهة نظرك هذه والهدف الذي تعمل من أجله رغم أنّني أراه خاطئاً، لكنّني في النهاية أحترمه.. ومع ذلك هذا لا يعني أنّني اقتنعت ويمكن أن أنضم لمثل هذا الامر، بتاتاً!
يبتسم له سامر، ثمّ يرد عليه بهدوء:
ـ حسناً يا غيث، لا بأس يا أخي! وحتى لو لم ترغب في الانضمام إلينا ولم تقتنع بأهدافنا لكن يمكنك أن تأتي إلى هنا متى تشاء، ومتى ما شعرت أن الكون ضاق عليك تعال إلى هنا فنحن عائلة قبل أن نكون مشتركين في أمرٍ كهذا، أو لربما يمكنك القدوم إلى هنا لتنسى حزنك... سنكون بجانبك.

ـ شكراً لك، شكراً لكم جميعاً.
ـ هيّا يا شباب، ألن تقدموا الشاي لأخينا أم ماذا؟!
ـ إنّه جاهز
ويضع العم كامل كأس الشاي أمامه، ليكملوا الأحاديث المرحة من جديد وهم يرتبون أسلحتهم ومخطوطاتهم وكأن الأمر طبيعيٌّ للغاية. كان غيث يشاركهم الأحاديث وهو يراقبهم، وفي ذات الوقت متعجّباً من نفسه ومن جلوسه وبقاءه معهم رغم ما عرفه منذ قليل. لكنّه لم يتوقع أبداً أن يلتقي بأحد من هؤلاء وأن يجلس معهم أيضاً، كان متعجّباً

من بقائه وصوتٌ ما في داخله يخبره أنّ عليه القيام والمغادرة وعدم العودة من جديد أبداً، لكنّ شيئاً غريباً لم يعلم ما هو كان يجبره على البقاء، كان يجعله يبقى محاولاً إسكات ذاك الصوت الذي في داخله، وكأنّ كلام سامر أدخل الشك إلى قلبه ونجح بإقناعه قليلاً، لكنّه حاول تكذيب ذلك، لأنّ ذلك الصوت كان يصرخ في أذنه " هذا هو الهلاك بحدّ ذاته ...! "

إنّ أكبر سرطانٍ يُمكن أن يصيب وطناً ما، هو أن يتفشى الإرهاب به تحت مسميّات قيم الحريّة والعدالة، أكبر سرطانٍ يمكن أن يصيبه، هو أن ينجح الإرهاب في الاندساس بقلوب الناس كالسّم ويقنعهم أنّه بريء... في تلك اللحظة كان غيث يتساءل كم كان قلب سامر مسموماً، كم أنّ السرطان كبير.

****

"فلم نمت، ولم نعد، ولم نكن في الأصلِ موجودَين.

أخفانا الضبابُ كما الغيم."

شام رمّانة

" والآن أرتّب اعتذاراتي،
اعتذارٌ لحلمي الذي صحوت منه باكراً.
اعتذارٌ لك لأنني لم أحفزك بالشكل الكافي لتلوّن كلّ الظلال التي تسكنك.
اعتذارٌ له لأنني لم أعد صالحة للحبّ.
اعتذارٌ لها لأنني حاولت اغتيال ذكراها في قلبك.
اعتذارٌ للظلام الساكن في عينيك، لأنني لم أملك النور الكافي لأكون شمعتك الأبديّة...
لكن هذه المرّة عليَّ إنقاذ نفسي قبل فوات الأوان ..."

تكتب آخر كلمة ثمّ تغلق قلمها ودفترها وتضعهما جانباً، كانت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، بقيت تتقلّب في فراشها منذ الساعة الثانية عشرة وهي تفكّر فيه، في وجهه، في صوته، في الشعور الذي يعتريها حين تكون معه، في الشعور الذي استطاع هو وحده منحها إيّاه، وجدت نفسها غارقة به، متى وأين لا تدري، هو الحبّ هكذا يأتي بغتة دون أن يعطيك فرصة لأخذ أنفاسك والتفكير، أحبّته عبر أغنية، عبر لوحة، عبر أسرارٍ دفينة واعترافاتٍ ليليّة في سهرهم، كان قلبها لازال متألّماً ولم يُشفَ بشكلٍ كامل حين وجدت نفسها تقوده مرّةً أخرى لذات الألم. لذا.. تلك الليلة قررت أن تنتفض، وتعود إلى وعيها وواقعها، قررت أن تتبع عقلها وترمي قلبها بعيداً هذه المرّة مهما كان الأمر

سيكلفها من ألم، هي تسأل نفسها " إلى أين أنتِ ذاهبة بحبٍّ كهذا يا سيلينا ...؟! ما الفائدة من أن تحب امرأةٌ ما رجلاً يستحيل أن ينتبه لمشاعرها يوماً؟
ما الفائدة من أن تقع امرأة ما بحبّ رجلٍ قلبه مع امرأةٍ أخرى؟ " كانت تجد الإجابات جليّةً أمامها " لا فائدة من ذلك، بل لا شيء سوى الألم.. وكلّ الألم! في النهاية،
ما هو الحب يا سيلينا...؟ ما هو الحب...؟"
وحتى إن أحبها.. وماذا بعد؟ سيعيش معها قصة حبٍّ طويلة ...؟ ثمّ ماذا؟ ثمّ سيأتي يوم ليستعيد نظره ويفتح عينيه ويرى وجهها، عندها سينتهي كلّ شيء.
ربما سيستغرق الأمر وقتاً، وجهداً كثيراً، أن تنساه حين تستمع للأغاني، وألّا تفكر به بعد الساعة الثانية عشرَ ليلاً، وألّا تتمنى مشاركته اللوحات، أو تحدّثه عن كتابها المفضل وفيلمها المفضل ... سيستغرق ذلك جهداً كبيراً أجل، لكنّها قررت أن تبذله مهما كان علّها تنقذ نفسها من مشاعر وعذاب وألم هي في غنى عنه.
وكأنّها قد أعلنت في تلك الليلة تحريم الحبّ على قلبها، للأبد. ولذلك قررت أن تغادر منزلهم في الصباح دون أن تعلم إلى أين يمكنها أن تذهب. كلّ الذي تريده أن تهرب، أن تهرب من الحب.

"ما هو الحب...؟"
"شكسبير: الحبُّ جحيمٌ يُطاق"

شعور الحزن كان كبيراً في داخلها وهي تحاول نسيانه بعد أن وقعت في حبّه، كذات شعور الأم التي تحاول إجهاض جنينها وهو في أيّامه الأولى، رغم أنّها انتظرته طويلاً... لكنّها كانت راضية عن ذاك الحزن، على أمل أن تشفى تماماً بعد ذلك ...
أخذت نفساً عميقاً وأغمضت عينيها لثلاث ثوانٍ، ثمّ فتحتهما بهدوء ونظرت إلى كمانها، هذا الحزن الذي في داخلها يستدعيها للعزف، لكنّها لم تكن تريد أن يسمع آدم الصوت ويأتي إليها هذه الليلة، هذه الليلة تحديداً التي قررت نسيانه بها.
قامت ونظرت لباب غرفته المقابل لها وهو مفتوح، ثمّ بهدوء أغلقت باب غرفتها جيّداً كي لا يصل صوت عزفها إليه، أمسكت بكمانها، أسندته إلى كتفها ثمّ أسندت رأسها الثقيل بالأحزان عليه، وبدأت بصوتٍ خافت ...

ذات المقطوعة، تلك التي تجعل آدم يخرج من غرفته رغماً عنه ليصل إليها، عزفتها بكلّ ألم وكأنّها لم تعزفها من قبل، كانت مشاعرها مزدحمة تماماً كالنوتة المليئة بالخربشات والأسهم والعلامات الموسيقيّة، شخصٌ واحد يستطيع أن يفهمها، وهو من قام بكتابتها.

عزفت وعزفت، حتى وصلت إلى منتصفها، ولكن فجأة أوقفها صوت أربع طرقاتٍ متتاليّة على الباب، لتصمت لثانيتين، تفكر هل يجب أن تفتح له أم لا. لم تُرِد أن تجعله يشعر بشيء غريب، لذا قررت أن تفتح له دون أن تتراجع عن قرارها، ستتعامل معه بشكلٍ طبيعيّ في هذه الساعات الأخيرة المتبقيّة.. ستمنع نفسها من الداخل بالانجراف بمشاعرها حتى الصباح، عاد صوت الطرق على الباب، واحدة، اثنتان، ومع الثالثة مسحت دمعتها التي نزلت رغماً عنها، وفتحت.

- هل هناك شيءٌ ما يحزنك؟

سألها فوراً عندما سمع صوت فتح الباب، وكأنّه كان يراها بحق! تأمّلته سيلينا وهي تعضّ على قلبها ولوهلة تمنّت أن تجاوبه بِـ " نعم، أنت! "

- لا أبداً...لكن ما الذي جعل سؤالاً كهذا يخطر في بالك في هذا الوقت من الليل؟

- لماذا تغلقين الباب على نفسك وتعزفين بهذه الطريقة المؤلمة لوحدكِ؟

- لا.. لاشيء، لكن رأيت ألّا أوقظك.

- لكنّها ليست أوّل مرة أترك بابي مفتوحاً بها كي أسمع عزفكِ وأنتِ تعلمين هذا!

صمتت دون أن تعرف بماذا يجب أن تردّ عليه، بقيت صامتة حتى سألها بهدوء:

- هل يمكنني الدخول؟

أجابته مرتبكة:

- أ.. أجل بالطبع.

وابتعدت عن الباب لتتركه يتحسس الطريق الذي لطالما حفظه، لكنّه هذه المرة لم يجلس على الكرسي بل على الأرض، ثمّ بدأ يربت بجانبٍ منه على الأرض وهمس لها:

- تعالي واجلسي هنا ...

ارتبكت لثانيتين ثمّ بهدوء جلست بقربه، ساد الصمت للحظات ليهمس لها مجدداً:

- ألن تعزفي لي هذه الليلة؟

تأمّلته بهدوء وألم.

ـ أجل.. أجل طبعاً!
أمسكت بكمانها وبدأت بهدوء بسحب القوس على الأوتار لتعزف له، كانت تعزف بذات الحزن الذي يعتري المقطوعة كلّ مرة، لكن بالنسبة لها كان الحزن مضاعفاً هذه المرّة، وكان يسمعها وذات القشعريرة تسري في جسده كلّ مرة وكأنّه يسمعها للمرة الأولى، كان يستمع لها بذات النشوة وذات الألم وكلّ المشاعر المختلطة والأحزان المالحة والذكريات الرماديّة.
ـ سيلينا ...
أوقفها صوته فجأة في منتصف عزفها وهو يهمس مبتسماً،
ـ أجل؟
ـ هل يمكنني أن أسألكِ سؤالاً؟
ـ أجل.. طبعاً.
ـ لقد آمنتي بقدرة أعمىً مثلي على الرسم، وفعلاً كنتِ صائبة وجعلتِني أرسم، فهل تعتقدين أن أعمىً مثلي يستطيع تعلّم العزف؟
تبتسم لا إرادياً لسؤاله ثمّ تجيبه بثقة:
ـ أجل بالتأكيد يمكنك كلّ ما تحتاجه الموسيقى هو الشعور...وأنا واثقة أنّك مليءٌ به في داخلك.
ـ حتى لو لم أرَ شيئاً؟
ـ أجل حتى لو لم ترَ شيئاً.. وكدليلٍ على هذا، هل تعلم ما السبب الذي يجعل الإنسان يغمض عينيه لا شعورياً أثناء الغناء؟ أو السبب الذي يجعل العازفين يغمضون أعينهم وهم يخالطون آلاتهم؟
لأنّهم يتخلون عن كلّ إحساسٍ بشريّ في حضرة الموسيقى لتقتصر حداثة شعورهم على خارطة الإيقاع، يغمضون أعينهم ليس لمجرد أنّهم مندمجون، بل لأنهم يريدون الهروب من رؤية تشوّهات واقعهم إلى فراغٍ سماويّ النغم. ولهذا أجل يا آدم، يمكنك العزف حتى لو لم ترَ شيئاً، المهم أن تشعر.
ـ إيمانكِ بالشعور يجعلني أقوى دائماً
ـ أنت أيضاً عليك الإيمان به إذاً
ـ حسناً.. إن كان عليَّ ذلك، هل بإمكاني أن أطلب منكِ طلباً؟

ـ تفضل ...؟
يصمت لثوانٍ بتردد، ثمّ يكمل:
ـ هل بإمكانك تعليمي العزف؟
تبتسم أكثر ثمّ تضحك وهي تقول باستغراب:
ـ أنا؟!
ـ أجل أنتِ ... لن أجد أحداً يستطيع أن يعزف على الكمان بالطريقة التي تعزفين بها، أعترف أنني كنتُ مغرماً بالموسيقى لكنكِ جعلتِني أهيم بها أكثر، جعلتِني أشعر بها بطريقة مختلفة!
تريد إخباره أنّها ستغادر غداً، لكنّها لم تستطع، شيءٌ ما كان يربط لسانها عن النطق أمام ابتسامته تلك.
ورغماً عنها تنظر له وعينيها مليئتين بالحب، ثمّ ترد:
ـ حسناً إن كنت ترى الأمر هكذا، فبالتأكيد يسعدني أن أعلّمك
ـ حقّاً!!
ـ حقّاً.
ـ إذاً هيّا دعينا نبدأ!
ـ الآن؟!
ـ أجل الآن! وأريد أن تكون مقطوعتكِ هذه هي أوّل شيءٍ أتعلّمه وأعزفه!
ـ أوه تمهّل، عليكَ تعلّم كيفية الإمساك بالكمان أولاً
ـ إذاً هيّا علميني!
تأخذ نفساً عميقاً ثمّ تبتسم ابتسامة لا إراديّة، تمسك بكمانها وهي تقول:
ـ حسناً إذاً... عليك حمل الكمان بيدكِ اليسرى ولكن أوّلاً أجلس جيّداً وشُدَّ ظهرك جيّداً
جلس كما طلبت منه ثمّ مد يده اليسرى إليها، وضعت سيلينا الكمان له فيها ثمّ أسندت الجزء السفليّ منه إلى كتفه الأيسر وكان يبتسم بنشوةٍ كبيرة وهو يسند رأسه إليه، وهي الأخرى تراقبه مبتسمه.
ـ والآن عليك أن تحفظ كيف يجب أن تمسك بالقوس بوضعيةٍ صحيحة
ـ حسناً معلمتي!
تضحك وتضع له القوس في كفّه الأيمن، ثمّ تمسك بأصابعه وتضعها بالطريقة الصحيحة

ـ أعلمت كيف؟ هكذا أتشعر جيّداً كيف أمسكتك إيّاه؟
ـ أجل
ـ إذاً دعنا نجرّب
استمرّت المحاولة ستة مرّات حتى نجح في الإمساك به بشكلٍ صحيح جزئيّاً
ـ جيّد جيّد.. حسناً الآن في البداية لن أعلّمك شيء سوى كيف تحرّك القوس على الوتر بالطريقة الصحيحة، سيستغرق الأمر محاولاتٍ كثيرة لذا عليك ألّا تمل.
ـ لن أفعل أعدكِ..
ـ حسناً دعنا نبدأ من الوتر الأوّل ...
أمسكت بذراعه ثمّ ثبتتها بالوضعيّة الصحيحة للعزف، جعلت القوس على الوتر الأوّل، ثمّ وقفت خلفه وأخذت نفساً عميقاً وبدأت تقول:
ـ هيّا، حرّك القوس للأسفل والأعلى وأنت على هذه الوضعيّة التي جعلتك بها دون أن تغيّر في اتجاه يدك أبداً!
ظنّ آدم أنّه عند أوّل سحبة على الوتر سيشعر بالقشعريرة تسري في جسده وبمشاعر غريبة ورائعة تتحرّك في دمه وأنّ قلبه سيخفق بسرعة كبيرة، لكنّه عند أوّل سماع لذاك الصوت النشاز الذي صدر صُدِمَ وتوقف فجأة، ليأتي صوت سيلينا:
ـ لا تتوقف هيّا! ولا تضغط على الوتر أبداً فقط أجعل القوس يلامسه بلطف!
حاول مجدداً، لكن صوت النشاز ذاك عاد عاليّاً ومزعجاً، لكنّه لم يكترث، كان مستمرّاً ويضغط بقوة على الوتر عبر القوس ظانّاً منه أنّه كلّما شدّ عليه بهذه الطريقة سيصدر الصوت أفضل، كانت سيلينا تراقبه بصمت ولم تشأ أن توقفه طالما أنّ وضعية ذراعه لا زالت صحيحة، لكنّه حين شعر أنّ ذاك الصوت المزعج قد ثقب أذنيه توقف فجأة قائلاً بنبرة يأس:
ـ يبدو أنّها كانت فكرةً غير جيّدة، انسِ الأمر..
وأنزل الكمان من على كتفه ليعطيها إيّاه، لكنها ردت عليه بحزم:
ـ أمن المحاولة الأولى ستيأس!
ـ لكنّكِ سمعتِ كيف كان الصوت الذي لا يبعث بالتفاؤل أبداً!
ـ هذا أمرٌ طبيعيّ بالنسبة لأيّ شخص، لقد بقيت مدّةً طويلة أصدر هذا الصوت حين بدأتُ العزف!

ـ لكنّ الأمر مختلفٌ بالنسبة لكِ، أنا لا يمكنني رؤية الوتر...
ـ ليس عليك رؤية الوتر، عليك الشعور بلمسه وحسب!
صمت الاثنان ثمّ أخذت سيلينا نفساً عميقاً، وأمسكت بالكمان وأعادته ليد آدم بالطريقة الصحيحة ووضعت جزءه السفلي على كتفه مجدداً، ثمّ قالت بهدوء:
ـ والآن أرني كيف تمسك بالقوس؟
فتحسسه آدم قليلاً قليلاً ووضع أصابعه عليه،
ـ أعِد المحاولة
همست سيلينا بتشجيع، وبالفعل أعاد المحاولة ما يقارب السبع مرات حتى أتى صوتها مشجعاً من جديد:
ـ رائع! أتعلم أنني بقيت ثلاثة أيام حتى استطعتُ الإمساك به بشكلٍ شبه جيّد هكذا؟!
ثمّ وقفت خلفه مجدداً
ـ سيلينا ...
همس لها مبتسماً قبل أن يبدأ،
ـ أجل؟
ـ شكراً لكِ لأنكِ تؤمنين بي.. شكراً لأنكِ الوحيدة التي تفعل ذلك.
ـ العفو...
كان شيءٌ ما يعضُّها من قلبها في تلك الليلة، آخر ليلة، لم تدرك أنّ الوداع دون وداع سيكونُ بهذه الصعوبة.
ـ والآن هيّا ابدأ قليلاً قليلاً، اشعر بالوتر، ودع القوس يلامسه بلطف.
لكنّه كان مرتبكاً وبقي صامتاً لا يعلم من أين سيبدأ،
ـ هلّا أمسكتِ بيدي وعلّمتني؟
يسألها بهدوء، لتنظر له سيلينا من الخلف بارتباك دون أن تعلم بماذا يجب عليها أن تجاوبه، تعلم أنّه من الصعب جداً أن يتعلم العزف إن لم تمسك بيده وتعلمه الطريقة الصحيحة، أخذت نفساً عميقاً ثمّ اقتربت منه بهدوء حتى شعر بأنفاسها في أذنه، أمسكت بارتباك يده اليمنى وكانت يدها ترتجف، لكنّها حاولت تثبيت نفسها، أمّا هو فقد شعر في تلك اللحظة حين لامست يدها يده أنّه بأمانٍ كبير من كلّ هذا الكون ومن كلّ الظلام الذي يراه.

"ما هو الحب...؟"
"أرسطو: هو جسدانِ بروحٍ واحدة."

بقي الاثنان صامتان للحظات حتّى همست سيلينا في أذنه بصوتٍ مرتجف وهي تبدأ بتحريك يده للأسفل قليلاً:
- بلطفٍ كبير... اشعر بالوتر فقط، لا تضغط عليه، ولا يهم أن تراه، اشعر به وهو يهتز، وهو يئن، قليلاً قليلاً، وكأنّك تحاول النوم بهدوء بعد نوبة بكاءٍ كبيرة، تماماً هكذا.
بدأ صوت الوتر يبدو هادئاً ليشعر آدم في تلك اللحظة أنّ تلك القشعريرة تسري في جسده، المشاعر الغريبة والرائعة تتحرك في دمه، قلبه بدأ يخفق بسرعة كبيرة، لكنّه لم يعلم إن كان ذاك الشعور بسبب السحبة الأولى على الوتر أم بسبب لمسة يدها...
كان صوت أنفاسهما وصوت الأوتار هما الصوتان الوحيدان المسموعان في الغرفة، كانت ممسكة بيده بارتجاف وتحرّكها للأسفل والأعلى معه من الخلف، ثمّ انتقلت للوتر الثاني فجأة لكنّه تابع التحريك بصمت، ثمّ الثالث وبدأ قلبه يخفق أكثر فأكثر ويدها ترتجف أكثر فأكثر، ثمّ الرابع، حيث بدأ يحرك باندفاع متناسب مع إيقاع قلبه المتسارع، هي الأخرى باتت تسرع بذات الاندفاع ليتصاعد الإيقاع بسرعة دون أن يعلما لماذا، عندها حرّكت سيلينا القوس باتجاه الوتر الأوّل مجدداً، لكنّه فجأة شدّ على كفّها المرتجفة متوقفاً عن العزف، ليظهر صوت أنفاسها المتسارعة والخائفة في أذنه أوضح وأعلى.
يشعر بارتجاف يدها الكبير، ويجد نفسه هو الآخر في ذات الحال، يلهث بسرعة وبصوتٍ عالٍ ولكنّ قلبه هو الذي كان يرتجف، لخمس ثوانٍ، بقيَ ممسكاً بيدها يشدّ عليها وكأنّه يخاف إفلاتها، يستدير بوجهه إلى وجهها بصمت ويشعر بارتجافها وأنفاسها يزدادان أكثر فأكثر
- سيلينا...
يهمس اسمها دون شعورٍ منه وكأنّه تحت التخدير.. وهي، بقيت صامتة تحدّق في ملامحه القريبة من عينيها وتسمع لصوت أنفاسه، لم تكن تشعر بشيءٍ سوى بطبلٍ يدّق يسار صدرها.
- سيلينا...

يكرر همس اسمها بذات الخدر والارتجاف، كان ينطق به كرشفةٍ من النبيذ تلامس شفتيه، وكانت أنفاسه الحارة في وجهها تبتلع صوتها، لاشيء سوى الصمت والنوم في وجهه لساعاتٍ طويلة، لسنينٍ طويلة، بل كانت دقائق، دقائق طويلة.

- سيلينا ... أ.. أنا ... أنا أحبكِ.

شعرت أنّ قلبها تحوّل لقطعة جليد ضخمة، ثمّ بحممٍ ملتهبة هطلت عليه حتى ذاب ووقع على الأرض. آخر شيءٍ كانت تتوقع أن تسمعه منه هو ذلك! لم تعلم بماذا تشعر.. بالحزن أم بالفرح أم بالنشوة أم بالألم.. كلّ مشاعرها اختلطت سويّة، وبدأت يداها ترتجفان أكثر وأكثر، ولا إرادياً بدأت تسحب يدها من يده، لكنّه لم يشأ إفلاتها.. وشعر أنّ شعور الأمان ذاك سيتلاشى عند أول ثانية تترك يدها يده، ثمّ أمسك بيدها وشدّ عليها، كمن يعزف آخر لحنٍ له ويخشى أن ينقطع به الوتر.

همس لها بصوته المرتجف:

- سيلينا إنني أحبكِ!

- لا يا آدم ...

وحاولت سحب يدها، لكنّها كلّما حاولت أكثر كان يشدّ عليها أكثر مردداً:

- أرجوكِ لا تتركيني، لا تفلتي يدي..

- آدم... هذا يكفي أرجوك..

- بل لاشيء يكفي! إنني أحبّكِ يا سيلينا، وهذه الكلمة لا تكفيني، كلّ هذا الكلام لا يكفيني!

وجهاهما ملتصقان، وسيلينا صامتة لا تستطيع النطق بحرف، تشعر أنّ صوتها قد تبخّر

- سيلينا...

- لكنّ قلبك معها يا آدم!

تقولها باندفاع ودموعها تحرق جفنيها بهدوء.

- كان معها!

- ومازال...

- غير صحيح! غير صحيح سيلينا! كلّ الذي أعلمه أنّ قلبي الآن هو مع امرأةٍ واحدة وهي أنتِ! لقد كنت أعمى في عزّ بصري، أما الآن فإنني أرى كلّ شيء كما يجب أن أراه رغم العمى، أنا أريدك أنتِ، أنتِ وحدك كلّ ما أريده يا سيلينا!

ـ ربما هو شعورٌ مؤقت وحسب... ولهذا سأغادر يا آدم، لا أريد لمزيدٍ من القلوب أن تنكسر.
ـ تغادرين إلى أين! صدّقيني لم أشعر بشيءٍ راسخٍ في قلبي كرغبتي في الوجود معكِ دائماً! لم يعد يهمني العالم بأسره، كلّ الذي يهمني أن أكون بقربكِ وحسب! لا تبعديني عنكِ أرجوكِ! وحدكِ من يمنح الوجود بداخلي لوناً، ولا أريد لهذا كلّه أن ينتهِ قبل أن يبدأ!

"ما هو الحب...؟"
"روسّو: قد يولد الحبُّ بكلمة، ولكن لا يمكن أبداً أن يموت بكلمة."

ـ لن تستطيع ...
تقولها وهي تشهق بصوتٍ خافت في بكاءها، ثمّ تسحب يدها من يده رغماً عنه وتستمر في البكاء، ليسألها بصوتٍ مرتجف:
ـ لماذا لا أستطيع ...؟
ـ أخاف أن تكون بعيداً رغم قربك هذا... إنّني دائماً ما أجري وراء أحلامي المستحيلة، لكنني كلّما اقتربت باتت الشمس أبعد وأبعد...
هل ستستطيع الوقوع في حبّ امرأةٍ يؤمن الجميع بقبحها؟ امرأة تكره ملامحها الضائعة، تلعن المرايا كلّ يوم، وتلعن نظرات الناس ألف مرّة، امرأة يزداد حزنها كلّما أشفق عليها أحدهم ووصفها بـ"الجميلة" .
هل ستؤمن بجمال روحي عوضاً عن وجهي؟ أخبرني هل يمكن أن يتبدّل الفيلم ويقع الرجل الوسيم في حبّ وجه فتاةٍ قبيحةٍ مثلي؟ لا أظن ...
إنني أخاف أن أفقدك بعد أن تفتح عينيك لتراني جيّداً... لن ترغب بالوقوع في حبّ امرأةٍ مثلي، لها مساحيق تجميل لكن داخلها وليس على وجهها ... أفهمت يا آدم؟ ربما مشاعرك هذه هي مشاعر عابرة ستندم عليها فيما بعد، لذا ابتعد عنّي قدر ما استطعتِ...
أنهت كلمتها الأخيرة وهي تبكي بشدّة، وكأنّها كانت تنتظر لمسة واحدة حتى تنهار بالكامل، شعر أن كلامها دخل كسكينٍ في قلبه، كان يتألم لأجلها، ويسمع صوت بكاءها وشهقاتها فيشعر بقلبه يعتصر.

ـ لكنني أحبكِ يا سيلينا، أقسم لكِ أنني لم أحب أحداً بهذا الشعور من قبل! إنني أحبّكِ شئتِ أم أبيتِ أتفهمين! لماذا تقفلين على قلبك بهذه الطريقة! لماذا تحرمين الحب عن روحٍ كروحكِ أخبريني!
ـ لأنّني قبيحة ألم تفهم بعد! مشوّهة! إنّني أرتدي الحب، إنّ الحب يتعرى مني، من سيقع في حبّ امرأةٍ تعيش بنصف وجهٍ واحد مثلي أخبرني!
ـ رجلٌ ليس لديه لا نصفٌ ولا كلٌّ! رجلٌ عاجزٌ في هذا الوجود، فتأتين إليه أنتِ ليملأ نصفكِ كلّ كلّه، ليس نصفكِ فقط، لا بل ظلّكِ وطيفكِ وحضرتكِ وروحكِ ... أنتِ بما أنتِ وكيفما أنتِ وحدكِ من تحتوين هذا الطفل الشائب الذي يبكي بصمت في داخلي!

"ما هو الحب...؟"
"أفلاطون: هو نصفٌ يبحثُ عن نصفه الآخر."

ـ أنا رجلٌ تعيس، رجلٌ مظلم، لا يملك في هذه الدنيا شيئاً سوى عتمته، يأتي إليكِ كلّ مساء لتضيئين ظلامه، أنا لا شيء بدونكِ وكلّ شيءٍ معكِ يا سيلينا ... أتفهمين هذا؟
تتوقف عن البكاء تدريجيّاً وهي تحدّق به بكلّ الحب والألم وكأنّها تخاف من هذه النشوة التي يخلقها كلامه، تخاف من النهاية وهي التي اعتادت على النهايات المفجعة ... ليبحث آدم بيديه المرتجفتين وبكلّ هدوء عن يديها وقليلاً قليلاً يقوم بالإمساك بهما، يبدأ يتحسسهما بدفءٍ كبير وكانت هي ترتجف، وقلبها يخفق بشدّة، للحظّة التي كرر لمسة يديه ليديها، عندها توقف الزمن وأغمضت عينيها وكأنّها لا تريد لهذه اللحظة أن تنتهي، وفي عزّ ذلك الصمت همس لها وهو يتحسس دموعها ويمسحها:
ـ لقد نظرت لكِ بعين قلبي وليس عين نظري يا سيلينا ، إنني لم أهتم للون بشرتكِ يوماً، ولا لطول شعركِ، ولا لشكل ملامحك، ولا لوزن جسدكِ، لم ألتقِ بشفاهكِ يوماً ولم أتأمّل لون عينيكِ ورغم ذلك وقعت في غرامكِ، ذلك لأنني كنت أرى داخلكِ وليس خارجكِ، كنت أرى النور الذي يشعُّ من روحكِ النقيّة، روحكِ الملوّنة والدافئة التي استطاعت محوَ جروحي الباردة، وحدكِ من استطعتِ إخراجي من كآبتي وعزلتي ومن ذكرياتي السوداء وجروحي الساذجة، وحدكِ من آمن بي حين كفر الجميع برماديتي وحتى أنا، وحدكِ من استطاع إشعال شمعةٍ لي في منتصف الظلام الذي يبتلعه العمى

في عيوني... أعلم أنني رجلٌ أعمى وعاجز ومن الغير المنطقي أن يطلب من إحداهنَّ منحه قلبها... لكن هذا ما حدث! إنّني أحبُّكِ والأمر لا يمكن تكذيبه.
ـ إنّكَ لستَ عاجزاً ولستَ أعمى! إنّك الوحيد الذي استطاع منحي لوناً رغم شحوبي الباهت، ولهذا أنا أحبّك! وأنا أحبّك يا آدم وهذا هو ما يؤلمني!

"ما هو الحب...؟"
"بلزاك: الحب كالموت، لا يعترف بالطبقات ولا بالثروة ولا بالحياة."

ـ لماذا يؤلمكِ!
ـ لأنني أحُبّك، وكلّ ما أحبّه يتلاشى في النهاية كالسراب.
ـ لكنني لن أتلاشى ... أعدك
ـ لا يمكنك أن تعدني، إن عاد لك نظرك يوماً، ورأيت وجه هذه المرأة التي تؤمن بجمالها الآن والتي تعدها بالبقاء، ألن تندم وتتركها؟ بلى ستفعل، أنا لا أريدك أن تندم ولا أريد لقلبي أن يندهس مجدداً ومجدداً ومجدداً...
ـ سيلينا...
يقاطعها بهدوء،
ـأقسم أنني شعرت بكِ كما شعرت أثناء العزف على وترٍ لا أراه منذ قليل، ألمس جماله المختبئ خلف الصوت فقط وليس خلف شكله... لن يهمّني شكلك بعدما رأيت جمالكِ الحقيقيّ أبداً، الآن ورغم العمى ورغم كلّ هذا الظلام الذي يسكن عيوني، إلّا إنني استطعتُ الإبصار كما لم أفعل من قبل، كنتِ الوحيدة التي تضيء النور أمامي.
ـ ماذا لو أتى يومٌ وانطفأت...لو أشرق الجميع عليك وأصبح نوري باهتاً بينهم.
ـ أنتِ شمسي، والشمس لا تنطفئ.
كان يلهث، أنفاسه تعصف في وجهها. وكانت ترتجف، يشعر بارتجاف يديها وكأنّ زلزالاً يضرب في قلبه. بهدوء، يضع كفّيه على وجهها الذي يتأمله دون وعي، كان الصمت المُطلق يبتلعهما، كلّ شيءٍ بخير الآن، لا ليس كذلك، بل هو كذلك. لا تعلم بِمَ تشعر. كلُّ ما تشعر به هو الخدر والأمان الذي بقربه.
ـ سيلينا... أرجوكِ، أعطي ال"نحنُ" فرصةَ أن تكون.

"ما هو الحب...؟"
"جورج صاند: خيرٌ لنا من أنّ نُحِبَّ فنخفق، على ألّا نُحِبَّ أبداً."

تشعر باطمئنانٍ كبير، بهدوءٍ تام وبكامل ارتجافها تحضن وجهه بكلتا يديها هي الأُخرى.
بات الوجهانِ ملتصقان لدرجةِ أنّهما يتنفسانِ ذات النسمة.
تهمس له مغمضة العينين:
- ما هو الحبُّ يا آدم؟
- الحب هو إيمانكِ بوجودي حين كفرتُ أنا بنفسي.
- بل الحب هو اعترافك بجمالي حين كسرتني جميع المرايا.

لطالما في تلك الليلة التي قرّرت فيها أن تهرب من حبّه، رسّخته وقدّسته أكثر فأكثر في قلبها ... هكذا هو الحب، كلّما قررت الابتعاد عنه يلتقطك لتلتصق به بغتة.

. عزفتهُ لحناً بكمانٍ مكسور، فراح يئنُّ بكلِّ أوتارها. "بشّار جيفو"

هكذا هو بعض الحب، يجب أن يكون مستحيلاً، خُرافيّاً، يكسر كلّ المعجزات والأساطير ليكون ملحمةً يخلّدها التاريخ. كأن تقع غيمةٌ يتيمة في حبّ بركان، أن تقع راقصة باليه في حبّ عازف روك، فيكلّفها الرقص على موسيقاه تحطيم جسدها بالكامل، لكنّها رغم ذلك تصمّم على الاستمرار حتى لو كانت سترقص على رمشٍ واحد من أجله، كأن تقع فراشة في حبّ كفٍّ من الجمر، أن تقع عصفورة في حبّ صانع الأقفاص، أن يقع طيفٌ أزرق في حبّ الشمس، فكلّما حاول العناق انكوى وتلاشى قبل أن يصل حتى إلى قبسٍ من النور ...
بعض الحب يجب أن يصيبنا بالتعب، حدّ الثمول في الأغنيات ...

****

- ليس في اليدِ حيلة إلى الآن. لا أعلم ماذا أفعل، لاشيء يساعدني لأمسك طرف خيطٍ واحد يخرجه من هناك!
- إنني لا أفهم كيف لهم أن يصدقوا كل هذا الهُراء يا جواد! كيف يصدّقون تلك الكاذبة!

ـ ولكن لا تنسي أنّهم لم يُثبتوا التهمة عليه حتى الآن فلا دليل بين أيديهم، علينا أن نتماسك.
ـ إذاً لماذا لازال هناك! لماذا لم تخرجه حتى الآن أجبني!
ـ عليهم إيجاد المتهم الآخر لتثبت براءة أحدهما. وحتى الآن، آدم هو المُتهم الوحيد.

****

ـ كنتُ أعلم أنّ هذا سيحصل، أخبرتك، أنت واقعٌ في غرامها.

كان يتأمّله ويتأمّل جميع التفاصيل ليكتشف إجابةً واحدة، آدم ليس آدم، هو ليس آدم الكئيب بعدما أصابه العمى، ولا حتى آدم العادي قبل أن يصيبه العمى، آدم الآن إنسانٌ جديد لم يولد من قبل!
باتت غرفته مليئة باللوحات الجديدة، نافذة الغرفة دائماً مفتوحة وكأنّه يستطيع رؤية المنظر خارجاً والاستمتاع به، عاد هوس الأغاني والموسيقى إليه مجدداً، بات يستمع للكثير من الموسيقى ... بات يتحدث عن العزف على الكمان كثيراً، أصبح يعشق المطر والجري تحته كالطفل الصغير، أصبح يضحك كثيراً ويأكل كثيراً، أعقاب السجائر اليوميّة باتت أقل، أصبح يهتم بوالديه كما لم يفعل من قبل ويحاول إظهار سعادته بقدر ما يستطيع أمامهم كي يشعرهم بالطمأنينة، لقد بات إنساناً آخر تماماً في بضع شهور، وكلّ ذلك بفضل امرأة.
ـ وحدها من استطاعت انتشالي من كلّ هذا يا جواد.
لكن والدته تقاطع حديثهما بانفعال:
ـ آدم! أنا أتفهّم حقيقة مشاعرك هذه جيّداً ومن يراك سابقاً ويراك الآن يجزم أنّ سيلينا هي امرأة رائعة دون نقاش، ولكن...
ـ لكن ماذا؟
ـ عليك أن تفهم أمراً يا آدم!
ـ ما هو أُمي؟
ـ آدم ... ربما أنت أعمى الآن لكن لا أنا ولا أنت نعلم ما الذي قد يحصل في المستقبل، ربما تجد متبرّعاً ويعود لك نظرك و...
ـ أكملي!

ـ آدم ... ربما حين ترى وجهها ستتغيّر مشاعرك هذه تماماً وحينها ستجرح هذه الفتاة جرحاً عميقاً لا ذنب لها فيه، ربما حين ترى وجه الفتاة الذي أحبته سـ...
ـ أُمي...
يقاطعها آدم،
ـ لقد رأيت كثيراً من النساء في حياتي، ورأيت نساءً جميلات بعدد شعر رأسي، لكن صدّقيني، إنّني لم أرَ امرأة أجمل منها، لا يهمني وجهها ولا ملامحها ولا شكلها ولا قبحها الذي تؤمنون به، لأنّني رغم العمى أستطيع رؤيتها أفضل منكم جميعاً! ولن يهمني شكلها إن رأيته يوماً ما وستبقى جميلةً دائماً في نظري، ذلك لأنني وقعت في حبّ روحها لا شكلها، عليك أن تعلم ما هو الحب الحقيقيّ يا جواد حتى تفهم ما أشعر به الآن وما أتكلم عنه ...
ـ آدم أنا صديقك وأعلم نوع النساء اللواتي كنت تقع في غرامهنّ، لارا أكبرُ مثال، ربّما سيأتي يوم لترى فيه سيلينا باهتة أمامك، وما ذنبها حينها؟ لا أريد لك أن تندم لاندفاعك لاحقاً يا آدم!
ـ أنتما لا تفهمان ما في داخلي يا جواد! حُبّي لها هو اليقين الوحيد الذي لا شكّ فيه لا الآن ولا لاحقاً! لأنّه حبٌّ مختلف! الحبُّ القائم على المشاعر والفن والأرواح لا يموت بل يعيشُ إلى الأبد. أنت لا تفهم معنى أن يقع اثنين مُتعبين بالحب، كلانا يعلم ندوب الآخر جميعها، لقد تحسّسنا جروح بعضنا كما تتحسس أقواس الكمنجات الوتر، كلانا يعلم تماماً حجم البؤس الذي في الآخر، ولكن كلانا يؤمن بالآخر كما لم يؤمن بهِ أحد. لم يرانا أحدٌ كما رأينا بعضنا البعض!
يمكنك القول أنّنا آلاتٌ موسيقيّة التقت في منتصف مستودعٍ للأسلحة، ربّما نحنُ الحب الصحيح في المكان والزمان الخطأ. لكن رغم ذلك، يبقى صحيحاً.
والدته، جواد، وهو. جميعهم يعلمون أنّ سيلينا أعادت الحياة إلى هذا الرجل الذي كان في طورِ التحوّلِ إلى جثّة. تقترب والدته من رأسّه وتقبّله،
ـ أتمنى لَكما الأفضل يا عزيزي، أعلم أنّها فتاةٌ بروحٍ لا مثيل لها، إن كان مظهرها لا يهمّك، فاعلم أنّ السماء قد أهدتك الشخص المناسب.
ـ إنّها امرأةٌ من السماء في كلّ حالاتها وكيفما كانت. هي امتناني الوحيد للقدر.

****

" لم يكن هناكَ سببٌ يجعلنا نركض وراء الشمس

سوى فضولنا لتجربةِ الاحتراق."

فرح ياسين

ـ تشبهين الفن.
ـالموت والفن وجهان لعُملة واحدة.

ـ بعد ثلاثةِ أشهر ـ
ثلاثة أشهر كاملة من الحب، من الأغاني، من اللوحات، من الرسم، من العزف، من الجلوس قرب الميناء على ذات المقعد، من التقاط الصور لكلّ مشهد وكلّ مكان، من الضحك، من الذكريات، من السهر، من الأسرار، من الركض تحت المطر متشاركين السماعات ذاتها، من الجنون، من الأحلام، من الأمنيات، ومن الحب، من الحب، من الحب.

****

ـ ما تفعلينه ليس صائباً! عليكِ أخذ الجرعات الكيماويّة وبأسرع وقت! إنّ المرض ينتشر في جسدك!
ـ دعني يا سامي، قلت لك لن أفعل!
أغمض عينيه ثمّ تأفّف بقوّة، لقد سئم من هذا النقاش الذي يتكرّر كلّ يوم منذ ثلاثة أشهر، حين ذهب مع لارا في ذلك اليوم في أوّل زيارة للطبيب من أجل حملها واكتشفوا بعد تكرار العديد من الفحوصات والتحاليل أنّها ليست حامل، بل إنّ تلك الكتلة التي في

رحمها كانت... سرطاناً خبيثاً. اعتقادهم بالحمل كان خاطئاً نتيجة الفحص الايكوغرافيّ السريع للبطن والحوض من قبل الدكتورة، عندما وجدت كتلةً مبهمة في الرحم حسمت الأمر بسرعة ولم تتجشّم عناء إجراء اختبار الحمل، لتخبرهما حينها أنّ لارا حامل وتزرع سعادةً في قلبهما لم تدم سوى لفترة قصيرة ... لكنّ سامي رفض إخبارها أنّهم قد يُضطروا لاستئصال رحمها إن لم تعطِ الجرعات الكيماويّة التأثير المطلوب، فضّل أن يحتفظ بهذا الخبر وأن يحاول إقناعها بالجرعات قدر ما يستطيع لئلّا يفوت الاوان.
لكنّها هي، منذ تلك اللحظة ترفض فكرة العلاج الكيماوي رغم أنّ المرض يزداد أكثر وأكثر مع الوقت، ترفض فكرة الخروج من وهم الأمومة، تتمنّى لو أنّ ذلك الوهم استمرّ لوقتٍ أطول وأطول.. لو أنّه لم ينتهِ! وكالعادة، وككلّ مرّة في نهاية هذا النقاش، دخلت في نوبة بكاءٍ شديد...
ينظر لها سامي دون أن يعرف ماذا يجب أن يفعل، بدأ يشعر بالملل من هذا الوضع.. لكنّه يتمالك نفسه وكالعادة يحضنها ويحاول تهدئتها قدر ما يستطيع.
ـ لا بأس لارا ... لا بأس، كفّي عن البكاء
ـ كنتُ أظن أنّني سأصبحّ أمّاً وسنكون عائلة رائعة..
ـ والوقت لم يفت يا عزيزتي! يمكنكِ العلاج والتعافي وستصبحين أمّاً ونشكّل أفضل عائلة!
تتوقف عن البكاء تدريجيّاً ليستمرّ في كلامه:
ـ لارا عزيزتي ... إن كنتِ تريدين أن تصبحي أمّاً فعليكِ أن تسعي لذلك، وأن تتمسّكي بالإصرار والعزيمة وتأخذين الجرعات كي تتعافي في أسرع وقت وتهزمين المرض.
تصمت هذه المرّة وكأنّ كلامه بات يقنعها، أو بالأحرى بدأت تقتنع أن لا مهرب من الأمر وعليها مواجهته ...
ـ هل تظن أنّني سأتعافى يا سامي... هل سأتجاوز هذا كلّه لأصبح أمّاً...؟
تسأله وهي تبكي بهدوء..
ـ أجل بالطبع!
تغمض عينيها بتعب، لقد استسلمت للأمر الواقع، تريد أن ترتاح من كلّ هذا. يسألها بعد أن شعر أنّه نجح أخيراً في إقناعها:
ـ إذاً.. هل ستقومين بذلك؟ هل ستأخذين الجرعات؟

ـ أجل ... سأفعل
ـ وهذا هو القرار الصائب صدقيني
يصمت ثانيتين ثمّ يقول محاولاً تخفيف حزنها:
ـ لديّ خبرٌ سارٌّ لكِ!
تنظر له وتنتظره أن يكمل قوله:
ـ ما هو؟
ـ بما أنّ تجارتي تلك ما زالت مستمرّة بدون مشاكل، وبما أنّ الأرباح منها ازدادت بشكلٍ جيّد، قررت أن أشتري نصف الشركة من سيلينا بدلاً من الاستمرار في البحث عنها لإقناعها بمنحه لي دون أمل، سأشتريه بنقودي وتصبح الشركة كلّها بإسمي وتزداد الأرباح أكثر وأكثر!
ـ أحقّاً سامي!
تصيح وهي تحدّق به مبتسمة دون تصديق
ـ أجل! هناك حمولة ستصلني ويقوم شقيقكِ أنور ببيعها للرجل الذي يريدها، ومتى ما أحضر لي أنور النقود سيكون المبلغ كلّه مع ما أملكه من نقودي في البنك كافٍ لشراء نصف الشركة براحةٍ تامّة وسيزيد، كل ما علينا هو الدعاء بأن تتمّ هذه الصفقة على خير وأن تصل الحمولة بأسرع وقت ليوصلها أنور لهم.
ـ صفقة لحمولة مخدّرات؟ ألم تكتفي من هذا الأمر يا سامي...
ـ لكن لا تقلقي كلّ شيء تحت السيطرة
تبتسم مجدداً:
ـ حسناً هذا خبرٌ رائع ولكن...
ـ لكن ماذا؟
ـ كيف ستصل إلى سيلينا؟ هل عرفت مكانها؟
ـ لا لم أعرف أين مكانها، لكنّ بريدها الإلكترونيّ ما زال موجوداً عندي وسأبعث لها رسالة لأعرض الأمر عليها ولكن من حسابٍ بغير اسمي، لأنّها تتجاهل رسائلي.
ـ آمل أن يتمّ الأمر بخير، إنّه لأمر رائع، ستصبح الشركة كلّها لك حينها!
ـ أجل هو كذلك!
لربما كان ذلك الخبر مخففاً من حزن لارا ومرضها، ولكن إلى أيّة درجة...

****

- وما به صوتكِ؟
يسألها وهي تحاول أن تكتم بكاءها قدر ما تستطيع عنه أثناء مكالمتهما، لكنّها عند ذلك السؤال لم تعد تستطيع إخفاء الأمر لتجيبه بنبرةٍ مرتجفة ودموعها تنهمر بصمت ويدها على بطنها:
- أريد أن اخبرك بأمر لكن...
- لكن ماذا؟
- هل تعدني أنّك لن تتخلّى عني إن علمت به؟
- أجل أعدك، قولي ماذا هناك؟
- أنا... أنا حامل
ليصمت صوته فجأة وتبقى المكالمة صامتة وجمانة تبكي بشدة، - أرجوك لا تتخلى عني ...
- أ..أنتِ حامل؟
تجيبه وهي تبكي بحرقة:
- أجل ...
يبتلعه الصّمت الكبير، ليتركها تردد باكية:
- آلو.. آلو.. أرجوك لا تفعل هذا! قل أيّ شيءٍ أرجوك! آلو!
لكنّه لم يجبها بحرفٍ واحد ...لينفتح الباب فجأة عليها فتفزع وترمي بالهاتف بعيداً وهي تغلق المكالمة. يدخل غيث وهو ينظر إليها بنظرات لا يمكن تفسيرها، تملؤها الصدمة وعدم التصديق مما سمع قبل دخوله الغرفة والحال التي رأى بها زوجته في تلك اللحظة.
لكنّه ضبط نفسه وسألها بصوتٍ مرتجف:
- مع.. مع من كنتِ تتحدثين؟
- لم أكن أتحدث مع أحد
تجيبه بنبرةٍ خائفة وهي تبكي:
- قلتُ لكِ يا جمانة مع من كنتِ تتحدثين؟ ولماذا تبكين هكذا؟

ثمّ يتجه إلى الهاتف المرمي على الطرف الآخر للسرير، لتسرع وتحاول منعه من الإمساك به لكنها تفشل في ذلك، يمسك بالهاتف رغماً عنها ثمّ يبتعد ويحدّق في شاشته، ينظر إلى سجل المكالمات، آخر مكالمة كانت مع " أيهم"، وصورة شابٍ تظهر بالقرب من الاسم، يحدّق بها وهو يسألها بنبرةٍ غاضبة:
ـ من هو أيهم؟! أجيبي هيّا من هو هذا!
لكنّها تبقى صامتة وهي تبكي بشدّة، يتجه غيث إلى باب الغرفة ثمّ يغلقه لئلّا يصل صوته إلى الخارج وتسمعه والدته رانيا.
ـ أجيبي الآن من هو هذا الرجل! من هو الذي تخشين أن يتخلى عنك إن علم أنّك حامل؟!!
لكنّها تستمر بالبكاء والبكاء وهي تغطي وجهها بكفّيها المرتجفتين، ليزيحهما عن وجهها ثمّ يحدّق في عينيها بغضب وهو يكرر سؤاله للمرّة الثالثة:
ـ قلت لكِ من هو أيهم!
ـ الرجل الذي أحببته ومازلت أحبّه!
تصيحها في وجهه لتتجمّد ملامحه وتتحجّر نظراته وكأنّ صاعقةً قد ضربت به، يفلت يديها بهدوء وهو يبتعد عنها قليلاً قليلاً محاولاً استيعاب ما قالت، لتكمل وهي تبكي متوسلة:
ـ أرجوك يا غيث! أرجوك سأشرح لك كلّ شيء!
ـ م..ماذا ستشرحين؟! ماذا ستقولين بعد الذي قلتيه للتو!
ـ أرجوك يا غيث اسمعني قليلاً ..
ـ اصمتي! لا أريد سماع أيّة كلمة منك!
تتجه إلى يده وتركع على ركبتيها متوسلة:
ـ أرجوك يا غيث ... أرجوك اسمعني أولاً ثم احكم عليّ، أرجوك لا تخبر أهلي بشيء، تمهل واسمعني أتوسّل إليك!
يأخذ نفساً عميقاً ويغمض عينيه لثانيتين محاولاً تمالك أعصابه، فتستغل هدوءه في تلك اللحظة وتبدأ قائلة:

ـ باختصار يا غيث لقد أحببت هذا الرجل لسنواتٍ وأحبني، ولكن قصتنا لم يحالفها الحظ واكتشف أهلي أنّني على علاقةٍ به ما أثار غضبهم ليحرموني منه، فأتى إليهم وتقدم لخطبتي كي يثبت لهم أنّه يحبني بحق، ولكن...
ثم صمتت وهي تأخذ أنفاسها باكية
ـ ولكن ماذا؟
ـ لكنّ أهلي لم يقبلوا به
ـ لماذا؟
ـ لأنّه ... لأنّه كان معروفٌ عنه أنّه مدمن ...
تتسع عيون غيث وهو يحدّق في عينيها، لتقول مسرعة مدافعة عن نفسها وعنه:
ـ أقسم أنّه تخلّص من إدمانه وكان يتعالج منه! لكن أهلي رفضوه وتمسكوا بفكرتهم السيئة عنه ولم يبالوا بقلبي ولا بمشاعري، وقاموا بحجزي في المنزل وقد أقسم أبي أن يزوجني لأول عريسٍ تقدّم لي مهما كان، ومن ثمّ أتيت أنت و...
ـ وتزوجتك وقلبك مع رجلٍ آخر!
قالها غيث بثقة وهو يتذكر قصته مع ليلى، ذات الموقف والمشاعر والحب والخيبة، لتكمل جمانة قائلةً وهي تبكي:
ـ أقسم لك أنني حاولت إخبارك قبل زواجنا إلّا أنهم لم يسمحوا لي وهددوني! أنا لم أختر أن يصبح هذا يا غيث ...
تبكي بشدةٍ أكثر ثمّ تمسك يده من جديد وهي تتوسل إليه:
ـ أرجوك يا غيث لا تخبر أحداً! أرجوك! أعدك أن أفعل ما تريد وألّا أتكلم معه بعد الآن أبداً وأن أزيله من قلبي، أرجوك يا غيث أتوسل إليك!
ترك غيث يديها، ثمّ اتّجه إلى السرير بكلّ هدوء وجلس عليه بصمت، أخذ نفساً عميقاً وأخرجه ماسحاً وجهه بكفيه، استجمع هدوءه قدر ما يستطيع، وبدأ يفكّر ... ماذا لو أعطاها فرصةً أخرى؟ ربما لا ذنب لها، هي مثله ومثل ليلى، ضحايا القدر ليس إلّا ... ولا ينكر أنّه فكر بالاتصال بليلى بعد زواجها مرّاتٍ كثيرة، إلّا أنّه كان يمنع نفسه في آخر لحظة. يجبره صوتٌ طيّبٌ في قلبه أنّ عليه منح زوجته فرصةً أخيرة، لأجلها ولأجل طفلهما الذي في بطنها ...
نظر في عينيها وهي تبكي، ليقول لها بهدوء:

ـ اسمعي يا جمانة ... أنا رجلٌ آلمته الدنيا بما يكفي لحدّ اليوم، لذا لن أسمح لكِ أن تزيدي الأمر عليّ... سأعطيك فرصةً أخرى وأخيرة بشرطٍ واحد، إن خللتِ به انتهى طريقنا معاً ...
تتوقّف عن البكاء وهي تسأله باندفاع:
ـ ما هو؟
ـ أنتِ امرأة متزوجة الآن وإضافة إلى ذلك حامل في شهركِ الثالث، أي أنّك ستصيرين أمّاً بعد ستة شهور. سأعتبر نفسي لم أسمع ولم أرَ اليوم شيئاً، بشرط أن تعديني أنّك ستقطعين علاقتك به واتّصالاتكِ معه منذ اليومِ ومنذ هذه اللحظة!
تبتلع دموعها التي توشك على الانهمار مجدداً، لتجيبه بهدوءٍ وألم:
ـ أعدك ...
ـ سأكتفي بوعدك هذا لأنني أثق بك، أرجوكِ لا تدعيني أندم على ذلك، لأنّني تلقّيت من الخيبات ما يكفيني طيلة حياتي، أتفهمينني؟
ـ أفهمك ...
ليقوم متجهاً لمغادرة الغرفة وهو يقول:
ـ سأحضر لكِ كأس ماءٍ كي تهدأي
لكنّ صوتها يستوقفه وهو يفتح الباب
ـ غيث
يلتفت إليها مجدداً..
ـ أجل؟
ـ أنت إنسانٌ رائع ...
يبتسم ابتسامةً حزينة،
ـ شكراً ...

****

ـ هل تريدين شيئاً قبل مغادرتي؟
يسألها سامي ببرود محدّقاً بها، يحاول جاهداً الّا يظهر لها أنّ شيئاً ما قد تغيّر منذ بدأت تأخذ جرعاتها الكيماويّة. يحاول ألّا يشعرها أنّ شعرها الأشقر بدأ يتساقط كثيراً،

وألّا يشعرها أن وجهها الشاحب تماماً قد بات يزعجه، وأنّه بدأ يتعب منها. يحاول ألّا يشعرها بكلّ ذلك، لكنّها رغم ذلك كانت تشعر ...

ـ لا عزيزي أنا لا أحتاج أيّ شيء...

قالتها وهي تستلقي على السرير بتعب، لقد أنهكتها الجرعات الكيماوية بشدّة، كانت تعود في كلّ مرة وهي تتمنّى أن تكون هذه هي المرّة الأخيرة. تحدّق في المرآة متأمّلةً وجهها الشاحب وملامحها المتعبة، تخاف أن تمشّط شعرها لئلّا يسقط أكثر وأكثر، لم تتقبّل فكرة أن تقوم بقصه وتصبح امرأةً بدون شعر، لذلك تركته يسقط محاولةً تجاهل الأمر وإقناع نفسها أنّ كلّ ذلك سيتوقف قريباً. كلّ ما تخافه أن تخسر سامي كما خسرته سيلينا بسبب شكلها، باتت تشعر ماذا يعني ان مظهر الإنسان خارج عن إرادته، تحاول وضع مساحيق التجميل قدر ما تستطيع لتخفي عنه شحوبها وملامحها المريضة خشيةً أن ينفر منها وتخسره... لكنّ مساحيق التجميل رغم ذلك تفشل في إعادة رونقها الذي كان سابقاً..لتبكي كلّ ليلةٍ وهي تمسحه محدّقةً في المرآة.

تحاول أن تظهر له أنّها أفضل اليوم، فتقوم من السرير وتعدّل جلستها رغماً عنها. ثمّ تبتسم ابتسامةً خفيفة وهي تسأله بلطف:

ـ عزيزي، ماذا حدث بخصوص موضوع الشركة؟ هل أرسلت لسيلينا؟

ـ أجل فعلت، وقد اتفقنا أن تأتي للشركة لنتفق على كلّ شيء.

تتسع عيونها بفرح وهي تسأل:

ـ أتعني أنّها وافقت؟

ـ أجل على ما يبدو

ـ يا إلهي! هذا خبر رائع!

يبتسم ببرود وهو يرد:

ـ أجل ... لكن لن يكتمل إلّا حين تتم صفقة العمل ويأتي إليّ شقيقكِ أنور بالمال، فالمبلغ الذي سأربحه منها ضخمٌ جداً هذه المرة ولن أستطيع شراء الشركة دونه

تضع يديها الباردتين على يديه ثمّ تهمس له بوجهها الشاحب مبتسمة:

ـ أتمنّى أن يتمّ كلّ شيءٍ على ما يرام..

يشعر ببرود يديها، يحاول عدم إظهار ذلك مبتسماً في ملامحها المتعبة وهو يرد:

ـ وأنا أيضاً آمل ذلك...

"حياتُنا مصنوعة من موت الآخرين"

ليونـاردو دافنشي

ـ إنني وبعد كلّ هذا لا أستطيع أن أتذكّر كم يوماً قضينا سويّةً وكم أغنيةً تشاركنا، كلّ تلك السيمفونيّة الطويلة التي عشناها لم تكن سوى انتقالٍ من ال دو إلى ال ري دون أيّةِ سكتةٍ موسيقيّة.
كان حبّاً أقصر من عمر السجائر وأطول من عمر الأشجار.
ـ بل كان حبّاً بعمر أُغنية، أغنية واحدة تكررها مراراً وتكراراً خوفاً من أن تنتهي وينتهي عُمر الحب. لكن تكرار الأغنية لن ينقذها من الانتهاء.
ـ تؤمنين بها؟
يسألها وهي تكرر للمرّة الخامسة الأغنية التي تردد بصوت "لانا"

"You and I, we were born to die"

"أنا وأنت، ولدنا كي نموت"

ـ أؤمن بماذا؟
ـ بالأغنية
ـ أجل أؤمن، في النهاية هكذا هو الأمر، لقد ولدنا لنموت.
ـ ألم نولد لنقع في الحب؟
ـ الموت يأكل كلّ شيءٍ في النهاية ولكن يبقى الأثر، ربما ولدنا للأثر!

"You and I, we were born to die"

"أنا وأنت، ولدنا كي نموت"

كانت الساعة تشير إلى الثالثة فجراً، وهما يجلسان بالغرفة كالعادة، ولكن هذه المرّة في غرفة آدم الذي طلب ذلك، لم يكن يريد أن يعزفا ولا أن يرسما، كان يحاول قول شيءٍ ما لها انتظر قوله طويلاً ليردد الآن "هذا هو الوقت المناسب"
- سيلينا...
تنظر له بفضول وهي تترقّب ما يحاول قوله منذ بداية الليل، وحتى منذ بداية اليوم
- أذكر أننا حين سمعنا هذه الأغنية لأوّل مرة، عند عودتنا من الميناء راكضين تحت المطر، في ذلك اليوم تحديداً أدركت كم أنني أُحبّكِ!
يصمت لثانيتين ثمّ يكمل بدفعةٍ واحدة:
- إنّنا معاً في هذا الحب منذ ثلاثة شهور وأريد أن نبقى إلى الأبد!
ثم يقوم من مكانه بجوارها ليركع على ركبتيه. لم يكن يحاول صنع مشهدٍ من فيلمٍ فرنسيّ، لم يتخيّل نفسه أمام برج إيفل يرتدي بذلةً سوداء من تصميم رالف لورين أو أن التي أمامه ترتدي ثوب سندريلا الأسطوريّ.
هو يدرك أنّهما في غرفته المليئة باللوحات والخربشات، يرتدي البيجاما، ولا يعلم كيف يبدو مظهر حبيبته التي يركع أمامها على ركبتيه الآن، لكنّه وبكلّ اليقين، ينطق بسؤالٍ واحد:
- أتقبلين أن تتزوجينني لنصنع الأبد معاً يا سيلينا؟

ثانية، ثانيتان، خمس.
تعتريها الدهشة، الابتسام، الصمت، وكل المشاعر التي لا تعريف لها، وهو بذات الوضعيّة يمدّ يديه ليمسك بيديها ثمّ يردد:
- هنا، وأمام كلّ هذه الفوضى من اللوحات التي رسمناها، وأمام أغنياتك المفضلة، وأمام عقارب الساعة في منتصف هذا الليل، أسألكِ، هل تقبلين الزواج برجل بائس يحتاج الاتّكاء عليكِ طوال العمرِ يا سيلينا!
- آدم!
تهمس اسمه بصوتٍ مرتجف من السعادة، وهو لازال يبتسم منتظراً كلمةً واحدةً منها.
- نعم!
تقولها بانفعال ثمّ تعاود ترديدها:

ـ نعم أقبل يا آدم! أقبل! أقبل!
كان من الطبيعيّ أن تنهمر دموعها بالبكاء لفرط سعادتها، لم تجد نفسها سوى تعانقه بقوّة وكأنّها تضمّ الكون كلّه لذراعيها، وكان الآخر يعانق وجودها بين يديه وكأنّه يمسك بعينيه في حضنه، وكأنّه يمسك النور في قلبه.
كان عناقاً استمرّ لخمس دقائق وأغنية وسنين طويلة.
ـ لقد انتهت، ألن تكررينها للمرّة السادسة!
يهمس في أذنها مازحاً بعد انتهاء الأغنية
ـ يبدو أن تكرارها لن ينقذها من الانتهاء. ولكن أتعلم يا آدم، لن أكرّرها، ربّما لأنني أعلم الآن أننا لم نولد لنموت، لقد ولدنا لنقع في الحب، أريد أن أبقى هنا، في هذه اللحظة، أن أمضي العمر بين ذراعيك، لقد ولدتُ لأقع في حُبّكَ يا آدم.
ـ ولدتِ لتكوني شمسيَ الوحيدة يا سيلينا.

"" ـ كيف تنتحر الشموع؟
ـ تحاول معانقة الهواء لتتنفّس، لكنّها تنطفئ.
ـ وكيف ننتحرُ نحن؟
ـ نعانقُ الأحلام في وضح النهار.""

****

بوجهها الشاحب والمتعب كانت تجلس معه على طاولة الفطور والصمت يبتلعهما تسأله محاولةً خلق حديثٍ معه علّ ذاك البرود الذي يزداد كلّ يومٍ بينهما أكثر وأكثر يتلاشى:
ـ ألم تعرف متى ستأتي سيلينا إليك لإتمام إجراءات صفقة البيع؟
ـ لا نحن لم نحدد يوماً معيناً، لكنّها أخبرتني أنّها ستأتي خلال هذا الاسبوع لذا سأتوقع مجيئها في أيّ يوم.
يردّ ببرود وهو يبتلع طعامه.
ـ حسناً ... هذا جيد عزيزي..
كانت تراقبه وهو ينظر إلى ساعته طوال الوقت بتوتر وكأنّه ينتظر أمراً مهمّاً.
ـ هل تنتظر شيئاً عزيزي؟

ـ أنتظر مكالمةً هامة من أخيكِ أنور، من المفترض أن يتصل بي منذ ساعة ونصف لكنّه لم يفعل حتى الآن!
فهمت وقتها أنّ الأمر متعلقٌ بصفقة المخدرات الهامّة لسامي، تدعو سرّاً في داخلها أن يمضي هذا الأمر على خير وكما يريدان، ليقاطع أفكارها تلك صوت رنين هاتف سامي فجأة فينتفض من مكانه وهو يردّ بسرعة:
ـ أجل أنور، لماذا تأخّرت في المكالمة هكذا إنني أنتظرك منذ ساعةٍ ونصف! هيّا أخبرني، كلّ شيءٍ على ما يرام أليس كذلك؟
صمت لثانيتين ينتظر جوابه، ليكرر مجدداً:
ـ أنور تحدّث! ماذا حدث هيّا لا تُثر غضبي بصمتك هذا!
....
ـ أجل؟ وماذا حدث بعد أن أوصلت البضاعة إليهم؟ لقد أعطوك النقود أليس كذلك؟
....
ـ تكلّم هل أعطوك النقود؟!!
....
تتسع عيناه فجأة ويتحجّر نظره وكأنّ صاعقةً قد ضربت فيه، ولارا تراقبه بتوتر وبعينين خائفتين وهي تترقب كلّ كلمةٍ منه لتعرف ماذا يجري، يصيح سامي فجأة:
ـ أين أنت الآن هيّا قل!!
ثمّ ينطق بنبرةٍ حازمة ومهددة:
ـ اتّجه إلى المستودع الذي خلف الشركة ولا تتحرّك من هناك حتى أصل إليك، وإلّا جعلت رجالي الذين يراقبونك يقومون بقتلك في أرضك، أفهمت؟!
ثمّ يغلق الهاتف ويخرج من المنزل بسرعة، لتنتفض لارا وتقوم باللحاق به وهي تصرخ:
ـ سامي توقف! سامي ماذا هناك!! سامي!!
****
تنزل من التاكسي ثم تمسك بيده لتساعده على النزول
ـ ما كان عليكَ القدوم معي في مثل هذا الجو العاصف.
ـ أريد أن أرافقكِ في خطوةٍ كهذه، هل تمانعين!

تبتسم بامتنان،
ـ لا طبعاً..
ـ إذاً هل وصلنا؟
ـ أجل نحن أمام بناء الشركة الآن
تقولها وهي تتأمّل البناء الذي أمامها مسترجعةً شريط ذكرياتها دفعةً واحدة، تتنهّد بعمق وهي لا تزال تتأمّله بصمت، يشعر هو الآخر بشيءٍ من الحزن في تنهيدتها
ـ سيلينا... أنتِ متأكدة أنكِ ترغبين ببيع حصتكِ لهذا الرجل؟
ـ أجل... اتخذتُ قراري وانتهى الأمر، كلُّ ما أريده الآن أن تجري الأمور على ما يرام لأتخلّص في هذا اليوم من أيّ شيءٍ يربطني بسامي وبالماضي الذي معه.
يتحسس يديها ويمسك بهما بدفء مردداً:
ـ سيكون كلّ شيءٍ على ما يرام، أنا معكِ، لا تقلقي.
يصمت لثانية ثمّ يكمل محاولاً كسر توترها:
ـ إذاً، هيّا صِفي لي كيف تبدو؟
تبتسم سيلينا وهي تحدّق بها وتقول بهدوء:
ـ إنّها كبيرة... ومليئة بالذكريات أيضاً.
ـ هل كنتِ تأتين إليها في العادة؟
ـ أجل كثيراً ... منذ صغري كنت آتي أحياناً مع أبي وأجلس معه في المكتب، كان هناك أحد الموظفين لديه فتاةٌ في عمري، أذكر أنّ اسمها كان مرام، وحين كنت ألتقي بها هنا كنّا نذهب إلى المستودع، كان عالمنا الخاص أنا وهي لأنّه كان فارغاً إلا من بعض الأغراض المرميّة ولا أحد يذهب إليه كثيراً، كنا نأخذ ألعابنا ونعتبره منزلنا ونمضي كلّ وقتنا به ...
ثمّ تصمت لثانيتين متذكّرة آخر مرة قدمت فيها إلى هنا، حين اكتشفت زواج لارا وسامي... لتبتسم بألم وهي تقول:
ـ خرجت آخر مرّةٍ من هنا مكسورة لألف قطعة...
ـ لكنّك عدتِ الآن أكثر صلابة!
تبتسم بصمت، ليقول مازحاً مرّةً أخرى محاولاً مسح ذكرياتها عنها:

ـ حسناً إذاً، أنتِ تصوّرين لي كلّ مكانٍ نذهب إليه، والآن حين أتينا إلى هنا لن تصوّري لي المكان الذي أمضيت به طفولتكِ وعالمكِ الخاص في صغرك؟! ما هذا الهراء!
ـ ماذا تريد أن أصوّر لك المستودع!
ـ أجل ولِمَ لا؟! ألا تريدين مني أن أرى تفاصيل طفولتكِ أيضاً إن كان سيعود نظري لي كما تقولين؟
ـ أجل بالطبع أريد، لكنّ المستودع مكانٌ ليس بالهام، إنّه مليءٌ بالأغراض التي لا قيمة لها ولا أعلم حتّى إن كان مفتوحاً الآن بالتأكيد هو مقفل
ـ حتّى لو كان خرابةً لا بأس، ثمّ إن كان مقفلاً فصوّري الباب لي
ـ المهم أن تثير تعبي؟
ـ أجل تماماً!
تسحب الكاميرا من حقيبتها وهي تضحك ثمّ تكبس على زر تشغيل الفيديو وهي تقول:
ـ حسناً قل مرحباً للكاميرا!
وتوجه الكاميرا باتجاه وجهه وتبدأ بتصويره وهو يثرثر كالعادة ويضحكان، تمسكه من يده ثمّ تمشي به للمستودع ...
المستودع ... هناك حيث كان سامي وأنور ولارا، كان الباب نصف مفتوح والظلام يأكل المكان، وسامي يصيح في وجه أنور:
ـ تكلّم وإلّا قتلتك! أين النقود؟!!
ثمّ يمسك به من قميصه ويحدّق به والنار تشتعل في نظراته، ولارا تبكي بشدة وجسدها يرتجف وهي تتوسل إليه أن يهدأ وألّا يؤذي أحدهم الآخر وهي تصيح:
ـ أرجوك سامي توقف! أرجوك لا تؤذيه أتوسل إليك أن تهدأ!
ـ اصمتي أنتِ! وأنتَ.. لآخر مرّةً أقول لك تكلّم!
كانت لارا تشهق بالبكاء خائفة، لحين ابتلع شقيقها أنور لعابه وقال وهو يرتجف وبلهجةٍ متقطّعة:
ـ حسناً ... حسناً سأتكلم لكن أرجوك أنّ تصدقني!
ـ تكلّم!
صمت الجميع لثانيتين، كان صوت شهقات لارا وصوت أنفاس الاثنين هما ما يملآن الغرفة، لحين أن عاد أنور ليفتح فمه وينطق مرتجفاً من جديد:

ـ لقد ...سلمتهم البضاعة كما أخبرتني، كاملة وأخذت منهم النقود، لكن..
ـ لكن ماذا؟! أين النقود أيها الوغد!!
ـ لقد أرسلوا ورائي مجموعة من الرجال، كانوا مُلثمين، وفي منتصف طريقي إليك أوقفوا سيارتي وأنزلوني مرغماً، ثمّ طلبوا منّي حقيبة النقود لكنني أبيت إعطاءهم إيّاها... عندها أوسعوني ضرباً مبرحاً، لم يكن هناك أحدٌ في الطريق الفارغ ليساعدني، كنتُ أصيح وأتوسل إليهم لكنّهم استمروا في ضربي حتّى حطموني، وفتحوا السيارة وأخذوا الحقيبة ورحلوا مسرعين وأنا لازلت على الأرض دون أن أستطيع النطق بكلمةٍ واحدة ... صدّقني لم أستطع منعهم صدّقني!
كانت أنفاس سامي تثور أكثر وأكثر وهو ينظر له بعينين من الجمر، وبالرغم من أنّ جسد أنور ووجهه كانا مليئين بالكدمات التي توحي أنّه تلقى ضرباً مبرحاً إلّا أنّه لم يصدّقه وبدأ يكرر وهو يصيح:
ـ أنت تكذب! أين ذهبت بالنقود هيّا قُل وإلّا قتلتك!
ـ أقسم لك أنّها الحقيقة!
تصيح لارا:
ـ سامي أرجوك!
يصيح بها الآخر:
ـ قلت لكِ أنتِ اصمتي!

كانت لارا تجهش بالبكاء وهي تتوسّل إليه، وشقيقها يرتجف بضعف خائفاً منه.

في تلك الأثناء، كانا آدم وسيلينا يقتربان من المستودع أكثر وأكثر، سيلينا تصور آدم ويضحكان، لحين أن وصلا إلى أمام الباب
ـ الباب، إنّه نصف مفتوح، غريب هم لا يتركونه هكذا عادةً، ربما أحدهم في الداخل
ـ لا يا عزيزتي لقد علموا أنني قادم ففتحوه لي
" أنت كاذب ومحتال! "
تسمع سيلينا صوتاً قادماً من وراء الباب وهو يصيح بهذه الجملة، لتتسع عيناها وهي تسأل آدم:

ـ أسمعت؟!
ـ لا ماذا؟!
ـ ششش، انتظر
تقولها وهي مازالت تمسك بيده لتقترب من الباب أكثر، تسمع صوت بكاءٍ وشهقات عالية، ليبدأ قلبها يدق أكثر وأكثر وهي خائفة، يهمس لها آدم بصوتٍ خافت وباستغراب بعد أن سمع صوت البكاء هو الآخر:
ـ ما هذا البكاء يا سيلينا؟ يبدو أنّ أحدهم بالداخل
ـ أجل هذا صحيح
تتقدّم خطوةً فخطوة وهو الآخر يتبع خطواتها ممسكاً بيدها بتوتر.
خطوة أولى،
خطوة ثانية،
"أقسم لك أنّ الأمر هكذا!!"
فالثالثة،
"كاذب!! آخر مرّة أقول لك بها تكلّم! أين نقودي وإلّا قتلتك مكانك!"
فالرابعة، فالخامسة، لتقف مكانها وتتسع عيونها بصدمة وذهول وهلع لما تراه، كانت تقف خلف لوحٍ خشبي كبير وتنظر من وراءه للمشهد الذي أمامها متخفيّة، رغم الظلام الذي كان يغطّي المكان تماماً، إلّا أنّها استطاعت تمييز وجوههم جيّداً، كانت تحدّق بلارا وهي تبكي بخوف وتشهق عالياً، وسامي الممسك بأنور من قميصه بغضب وبطريقة مرعبة وعيونه كالجمر وهو يلهث عالياً من شدّة غضبه، بقيت صامتة ومستغربة مما تراه، هي لم ترَ سامي بهذه الحال من قبل أبداً! كان آدم الآخر يقف ملتصقاً بها وهو لا يزال يمسك بيدها مستمعاً لصوت البكاء الذي بات قريباً للغاية منهما، كان يهمّ على الهمس لها لكنّها استعجلت ووضعت يدها على فمه بسرعة كي تمنعه من الكلام ففهم هو الآخر مقصدها، كان همس سامي وهو يخاطب أنور قائلاً " أنت تكذب! هيّا اعترف أين خبّأت النقود التي سرقتها؟! " يبدو غير واضحٍ لهما، كانا يسمعان صوت همس لكن لم يفهما ماذا يقول.
ـ أرجوك لا!

جاء صوت لارا وهي تصيح إلى سامي الذي أخرج سكيناً من جيبه فجأة وهو يحدّق في أنور طالباً منه أن يتكلم لآخر مرّة، شعر آدم ولوهلة أن الصوت مألوفٌ عليه، لا بل إنّه يعرف هذا الصوت جيّداً، لوهلةٍ خطرت له لارا لكنّه سرعان ما أزاح تلك الفكرة الغريبة من رأسه، ليشعر بسيلينا وهي تسحب يدها من يده بشكلٍ مفاجئ تشهق بذعر لما ترى مغطيةً فمها بكلتا اليدين، أوشك على سؤالها " ماذا هناك؟! " لكنّ فجأة أتى صوت لارا وهي تصيح من أعماق قلبها بذعر:

- لا!! لا!!

لتشهق سيلينا عالياً معها في ذات اللحظة مذعورة لما ترى

كانت الدماء تسيل من أنور وسكين سامي لازالت في بطنه، كان الصمت يعتري المكان بشكلٍ مخيف، مازالت سيلينا تقف وتحدّق في سامي وفي أنور وهو يلقط أنفاسه الأخيرة وعيونه تنغلق قليلاً قليلاً ... حتى مات.

اجتاح الصمت لارا وهي لازالت تحدّق في سامي وأنور وكأنّها في كابوسٍ ما، صدمتها في تلك اللحظة جعلتها تشعر وكأنّ الشلل قد خدّرها، كانت تلهث بعدم تصديق دون أن تنطق بحرفٍ واحد وهي تجثو على ركبتيها قليلاً قليلاً حتى جلست على الأرض وهي عاجزة عن الصراخ أو النطق بأيّة كلمة، وأمّا سيلينا فقد باتت تمشي بعدم وعيٍ باتجاه سامي ولارا، وأنور الذي تحول منذ ثانيةٍ إلى جثّة!

ليشعر آدم بخطواتها تبتعد عنه فيمشي لاحقاً إيّاه دون أن يفهم ماذا يجري ولماذا ابتلع الصمت كلّ المكان فجأة، لحين أن نطقت سيلينا بصوتٍ مرتجف وبعدم تصديق وهي تقترب من سامي بهدوء في ذاك الظلام:

- سـ..سـ.. سامي!

يلتفت بذعر وراءه فيرى ظلّها الغائص في الظلام وظلّ الرجل الذي يقف وراءها، آدم. تتسارع أنفاسه أكثر وأكثر، يحدّق في السكين التي لازالت في بطن أنور والتي تمسك بها يده، يحدّق في لارا التي تنظر له ولشقيقها بعدم تصديق ونوبة الصمت اجتاحتها وهي جاثية على ركبتيها، يحدّق في سيلينا التي استطاع تمييز صوتها دون أن يرى وجهها بوضوح وفي آدم الذي يقف وراءها دون أن يعرف من هو، ينظر إليهم جميعاً بسرعة وهو يلهث بصوتٍ عالٍ، ثمّ ينتزع السكين بقوّة من بطن أنور، وبسرعةٍ كالبرق يركض باتجاه الباب ليهرب من المستودع في ثانيةٍ كالوهم...

سيلينا ولارا مازالتا في صمتٍ مخيف، آدم يستمع إلى صوت الأنفاس العالية والمتوترة، وإلى صوت خطوات سامي الذي ركض منذ قليل من قربه، لكن دون أن يعلم ماذا يجري... يهمس لسيلينا بتوتر:

- سيلينا ... ماذا هناك؟

لكنّها تبقى صامتة تماماً، تمسك بيديه بذعر ليشعر الآخر بارتجاف يديها، ثمّ تشغّل الضوء من هاتفها بتوتر وارتباك، وتمشي باتجاه جثّة أنور ممسكةً بيد آدم الذي يتبع خطواتها دون أن يعلم إلى أين ...

وبارتجاف تسلّط الضوء على لارا وهي جاثية على ركبتيها أرضاً بنوبة صمت وأنفاسٍ متقطّعة، تحدّق بها لثانيتين ثمّ بتوتر وبصوت أنفاسٍ يعلو أكثر وأكثر في أذن آدم، تقترب من جثّة أنور أكثر وتسلّط الضوء عليه ...

ليعلو صوت أنفاس لارا فجأة بعد أن رأت بوضوح شقيقها وهو جثّة، تبدأ تلهث بعنف أكثر وأكثر،

- أ..أنور.. أخي..

ترددها بصوتٍ خافت وكأنّها لا تصدق أيّ شيءٍ حتى الآن

شعر آدم بصوتها يرنّ في أذنه، شعر أنّ الدم توقف عن الجري في عروقه، هذا الصوت هو صوتها، أجل هو كذلك! لكنّه بات يحاول تكذيب نفسه وهو يحدّث ذاته من الداخل، وفجأة...

يخرجه من أفكاره تلك صوت صرخةٍ مدويّة مع نحيبٍ عالي وهي تصرخ:

- لاااا! أنور لاا لاا! ماذا فعلت! لماذا حصل كلّ هذا!

ثمّ تقترب منه وتضع يدها على وجهه وسيلينا لا زالت تمسك بالضوء محدّقةً بها بذعر وصدمة ليعود صوت نحيب لارا وهي تصرخ مرددة:

- أنور! أنور ردّ عليّ! أنور أتوسّل إليك أن تفتح عينيك هيّا افتحهما افتحهما!!

ثمّ تجهش بالبكاء أكثر وتضرب على صدره وهي تشهق وتصرخ باسمه،

- لـ.. لارا ...

تقولها سيلينا بصوتها المرتجف ليشعر آدم عند تلك اللحظة أن الزمن توقف، كان يسمع كلّ شيء لكنّ العمى يمنعه من أن يفهم شيئاً، هذا الصوت وهذا الاسم، هل هي لارا حقّاً! لكن لارا ماذا ستفعل هنا وكيف ولماذا! سيلينا من أين تعرف لارا بالأساس!

تنطق سيلينا بصوتها مجدداً:
ـ لارا ...
تقوم لارا من على صدر أخيها وهي مجهشّة بالبكاء والنحيب والصراخ، تنظر لسيلينا، هي لم تعد تفهم شيئاً، تشعر أنّها في كابوس، تسأل نفسها ما الذي تفعله سيلينا هنا لكن زوبعة الأسئلة تتخبّط في رأسها، تحدّق وهي تبكي عالياً بسيلينا ثمّ تنظر للرجل الذي وراءها، تحدّق به لعشر ثوانٍ كاملة، تغلق عينيها ثمّ تفتحهما مجدداً، هل هذا حقّاً كابوس فيه جميع الناس الذين تعرفهم؟ تسأل نفسها ذاك السؤال وهي تغلق عينيها من جديد وتفتحهما، لكن ذات الرجل كان يقف ملتصقاً بسيلينا...
ـ آدم! آدم ..!
شعر آدم أن قلبه قد هبط للأسفل، في تلك اللحظة قد قتل الشّك باليقين، لا يعلم في أيّ متاهةٍ أو في أيّ دوامةٍ هو، كلّ الذي يعلمه هو أنّ هذه المرأة التي تبكي بنحيبٍ وتصرخ هي لارا، وأنّ لارا تقف أمام سيلينا، وأنّ سامي خطيب سيلينا السابق كان واقفاً هنا مع لارا وهرب بعد أن نطقت سيلينا باسمه!
شعر أنّ رأسه بات ثقيلاً محمّلاً بالأسئلة التي لا جواب لها، شعر أن كلّ شيءٍ يدور من حوله وهو لا يرى ولا يفهم شيئاً. وسيلينا كانت بذات الحال، تحدّق بلارا التي نطقت باسمه منذ ثانية وتحدّق به الذي اعترت الصدمة ملامحه بعدها، ولارا تحدّق بهما الاثنين دون أن تفهم ماذا يفعلان هنا، سويّةً!
نوبة صمتٍ اجتاحتهم الثلاثة وما زالت الجثّة تسيل دماءها على الأرض..
حاول آدم أن يفهم أيّ شيء، ليهمس:
ـ سيلينا ... اشرحي لي ماذا يجري، الآن!
ـ آدم! إنّه أنت!
لتنظر سيلينا إلى لارا وهي تقول:
ـ لارا! ما الذي يجري ومن أين تعرفين آدم أصلاً!
ـ سيلينا أنتِ من أين تعرفين لارا!
ـ آدم ماذا تفعل هنا! وأنتِ أيضاً سيلينا، هيّا قولوا ماذا تفعلون هنا! هل هذا كابوس! هيّا أجيبوني الآن هل هذا كلّه كابوس!!

تردّد بهيستيريا صارخة وهي ترتجف وتشعر برأسها يصبح أثقل وأثقل وبغثيانٍ شديد، تنظر لشقيقها مجدداً وهي تضع رأسها على يديها محاولةً إسكات صوت الأسئلة التي في رأسها، محاولةً إخراج صورة سامي وهو يطعن أنور، محاولةً تجاهل جثة شقيقها الملتصقة بها على الأرض، لكن لا شيء يزول من رأسها وصوت صراخ سامي وأنور والطعنة ووجه آدم وسيلينا المقابلان لها يدوران ويدوران ويدوران لحين أن صرخت وهي تبكي وترتجف:

ـ أخرجوا!! هيّا أخرجوا من هنا!

لكنّ آدم وسيلينا يبقيان متجمّدان مكانهما وهما مثلها لا يفهمان شيئاً مما يجري، تكرر وهي تقوم متجهةً نحوهما تصرخ وتبكي وتضربهما دافعةً بهما باتجاه الباب:

ـ قلت لكم اخرجوا! اتركوني وشأني أخرجوا من هنا، الآن! لا أستطيع احتمال كلّ هذا! اتركوني مع جثته الآن!

****

أعتقد أنّ الناس ينبتون على الأشجار، الجميع يستمر بالتساقط.

صمتٌ... صمتٌ مطلق، لم ينطق أحدهما بحرفٍ واحد منذ أن دخلا المنزل صباحاً، وحتى الآن، الساعة الثانية عشرة ليلاً. كان هو يجلس على سريره، وهي الأخرى تجلس على الكرسيّ المقابل له، كان يشعر بأنفاسها المضطربة وبتوترها، وهو أيضاً كان يشعر بنفسه تائهاً في عالم أسود لا يفهم من ماهيّة طريقه شيئاً ...

ـ من أين تعرفينها يا سيلينا ...؟

يهمس لها بهدوء بعد كل ذاك الصمت والسكون.

كانت يداها مازالتا ترتجفان بشدّة، جسدها بارد، عقلها مشوّش، ردّت عليه بكلّ هدوء وبصوتٍ خافت وهي لاتزال تحدّق في الأرض:

ـ لارا هي صديقتي، أو بالأحرى كنت أظنّها كذلك ... كنت أعرفها منذ زمنٍ طويل منذ أيام الدراسة، والدها ووالدتها مُطلقان، عاشت هي وشقيها أنور عند جدّتها والدة أبيها بعد أن تخلّى والدهما عنهما، بعد وفاة جدتها بقيت هي وشقيقها يعيشان سويّةً، كانت تشتكي دائماً من وضعها الماديّ، من معيشتها المتواضعة، من حياتها الغير مرفّهة.

كانت دائماً ما تطمح للثراء، أكبر أحلامها أن تعيش حياة الأثرياء المرفّهة... لحين أن أشفقت عليها مرّة لشدّة شكوتها من وضع حياتهما الماديّ هي وشقيقها ومن عدم إيجاد شقيقها لعملٍ يجلب لهما الدخل الجيد، واقترحتُ أن يأتي شقيقها أنور ويعمل لدينا في شركة النقل ، وأوصيت سامي بهما... ومن حينها بدأت ترى سامي كثيراً ، وتحدّثه كثيراً ، ولم أكن أعلم بكلّ هذا أو أشعر به، لقد احترفا التمثيل جيّداً وإخفاء الأمر لأطول فترة ممكنة، كنت طوال الوقت أظنّ أنّها صديقتي و شقيقتي، وأنّه الرجل الذي يحبني للأبد... لحين أن اكتشفت زواجهما وأدركت حقيقة كلّ شيء...
كان يستمع لها بصمتٍ وبعدم تصديق، أيّ الأقدار هذه! وأيّ المتاهات هذه! التي تقطع الخيوط من أطراف لتشبكها بأخرى!
- تقصدين أنّ لارا هي المرأة التي تركتكِ سامي لأجلها! تمزحين أليس كذلك!
ترفع رأسها بهدوء وتحدّق به بارتجاف،
- أجل، لارا هي تلك المرأة.. ولكنني إلى الآن يا آدم لم أفهم من أين لك أن تعرفها...
كانت تخشى أن تكون إجابته هي ذاتها التي تدور في رأسها، ليردّ عليها بهدوء:
- إنّها هي، التي خذلتني، لارا! المرأة التي تخلت عنّي في منتصف الطريق بعد قصة حبٍّ طويلة، هي التي تركتني عند أول انكسارٍ لي...
تغمض عينيها لتسيل دموعها بصمتٍ وألم. لماذا يحدث كلّ هذا؟ لماذا هي بالذات!
بقيت تبكي بصمتٍ مطلق لئلّا يشعر بها آدم، الذي صمت هو الآخر لثوانٍ ثمّ بدأ يردد بهذيان:
- حبيبتي السابقة تركتني من أجل خطيبكِ السابق، وخطيبكِ السابق تركَكِ من أجل حبيبتي السابقة، لنلتقي أنا وأنتِ في النهاية، ربما علينا الامتنان للقدر يا سيلينا...
لكنّ جملته الأخيرة تلك لم تواسيها، بل وضعت كفّيها على وجهها لتكتم صوت بكاءها الذي ازداد أكثر وأكثر، كانت تبكي بحرقة دون أن تعلم لماذا، كلّ الأشياء الحزينة والمخيفة والمؤلمة والمرعبة والخاذلة كانت تدور في رأسها دفعةً واحدة، لتبكي أكثر وأكثر محاولةً منع صوت شهقاتها من الوصول لأذن آدم، صمتها ذاك أثار استغرابه، وفشلها في إخفاء صوت بكاءها، جعله يقوم من مكانه، ويتبع صوتها الخافت قليلاً قليلاً حتى وصل إليها وجلس جاثياً على ركبتيه أمامها... مدّ يديه قليلاً قليلاً حتى شعر بهما يصلان إلى وجهها، وضع كفّيه على وجهها البارد والمليء بالدموع التي شعر بها

تتغلغل في مسام أصابعه، كان الارتباك في قلبه يدّق كطبل الحروب وكان صوت بكائها يئنّ كنايٍ متعب.
ـ سيلينا...
لكنّ بكاءها بحرقة زاد أكثر وأكثر، ليبدأ بتحسس دموعها ويمسحها من على وجهها المتعب،
ـ سيلينا... لماذا تبكين؟
ـ أخاف ان أخسرك بعد كلّ هذا! أخاف أن أتذوق الخذلان للمرّة الثانية ولنفس السبب، أتفهمني يا آدم؟! اخاف أن أفقدك أتفهم!
ـ لكن يا سيلينا أنتِ لن تفقديني! من قال أنّ أمراً كهذا يمكن أن يحصل! من قال إنني سأستطيع خذلانكِ! أأخذلكِ وأنتِ الوحيدة التي جعلت منّي إنساناً على قيد الحياة!
ـ أخاف أن يكون ظلّها مازال عالقاً في قلبك... أخاف أن يسرقك الهواء مني، أن تدهسك الذكريات فلا أستطيع إنقاذك، أن يبتلعك الندم وتجد نفسك عالقاً هنا... أخاف من كلّ احتمالات خسارتك..
ـ إن قلتُ لكِ أنّني ممتنٌّ لها، ولخذلانها لي، ولتحطيمها قلبي وقلبكِ، وللقدر الذي جلبك إلى هنا كي تعيدي جمع أشلائي من بعد كلّ هذا، هل ستصدقيني؟
تصمت وهي تتأمّل به تاركةً دموعها تسيل على وجهها،
ـ هل ستصدقيني؟
ـ أنا دائماً أصدّقك يا آدم ...
ـ إذاً دعينا ننسى كلّ شيءٍ يا سيلينا، دعينا نترك لهم كلّ شيء، لا يمكننا نسيان الذكريات القبيحة لكن يمكننا صنع ذكرياتٍ جميلة الآن، لا يهمني كلّ الذي مرّ علينا ودهسنا طالما أنّنا الآن معاً، أريدك أن تبقي معي في هذا العالم الذي صنعناه معاً وألّا تتركيني أموت وحدي كلونٍ باهت.
ـ وكيف لي أن أتركك يا آدم، كيف يمكن للّوحة أن تترك الفنان الذي لونها، أنا أشدّ لوحاتك الباهتة والتي استطعت تلوينها، بصمتُك الفنيّة محفورةٌ على جبهتي، إنّني أنتمي إليك مهما أراد الزمن.
كلّ شيءٍ سيكون على ما يرام، أعدكِ.
تتوقّف عن البكاء، تصمت شاردة في كلّ إشارات الاستفهام التي لا جواب لها إلى الآن.

ـ لقد كان قاتلاً... لولا كلّ هذا لكنت الآن خطيبة شخصٍ قاتل!
يتنهّد الآخر بعمق وبذات الحيرة:
ـ أتساءل ما السبب الذي دفعه لارتكاب جريمةٍ كهذه، أن يقتل شقيق زوجته!
ـ لا أدري... مسكينةٌ لارا... لقد فقدت شقيقها اليوم، لقد رأت زوجها يقتل شقيقها! أتساءل ما الذي ستفعله الآن ... هل عليّ أن أسكت عمّا رأيت يا آدم أم عليّ أن أخبر الشرطة بكلّ شيء! الاسئلة تأكل رأسي! إنّها تأكله!
ـ لا تقلقي... اهدأي أرجوكِ، أعتقد أنّ لارا بالتأكيد ستقوم بإخبار الشرطة عن كل شيء. وفي النهاية نحنُ سنسأل جواد ليرشدنا إلى ما يجب فعله، لا تقلقي يا سيلينا.
ـ أجل.. أجل ستفعل.. لارا ستخبر الشرطة مؤكّد ستفعل..
يقاطع حديثهما صوت جرس المنزل والطرق العنيف على الباب بشكلٍ مفاجئ، تنظر سيلينا إلى الساعة التي كانت تشير إلى الواحدة والنصف ليلاً
ـ من سيكون في وقتٍ كهذا؟!
ـ لا أعلم ... دعني أرى
تغادر سيلينا الغرفة تاركةً آدم فيها لتتوجه وتفتح الباب،
ثانية
ثانيتان
تتسّع عيناها باستغراب وهي تنظر إلى رجال الشرطة الواقفين أمامها، تهمس بقلق:
ـ ت... تفضل؟؟
ـ هل المدعوّ آدم موجود؟
ـ أ..أجل، لماذا؟
ـ من هناك على الباب ابنتي سيلينا؟
يأتي صوت والدة آدم من خلفها، لتتجه هي الأخرى نحو الباب وتستغرب بذعر من وقوف رجال الشرطة أمامها، يكمل الشرطي سائلاً:
ـ هل هو في المنزل؟
ـ أجل...
يدير بوجهه إلى بقية العناصر وهو يشير لهم هاتفاً:
ـ أدخلوا وأحضروه هيّا!

تتسع عيون سيلينا وهي تصيح:
ـ مهلاً! مهلاً ماذا هناك! إلى أين ستأخذونه!
قاموا بتفتيش جميع الغرف حتى خرج اثنان وهما يقودان آدم خارج المنزل، وبدأت والدته تصيح بذعر:
ـ إلى أين تأخذون ابني! ماذا أصابكم!
وسيلينا الأخرى تصيح:
ـ لا يمكنكم أخذه هكذا! توقفوا هو لم يفعل شيئاً!
يصرخ آدم هو الآخر:
ـ اتركوني! فقط أخبروني ماذا فعلت!!
ـ أنت متهمٌ بجريمة قتل يا سيدي المحترم! هيّا خذوه إلى السيارة بسرعة..
تجمدت سيلينا ووالدته في مكانهما، شعرت سيلينا أن الكون ضاق كلّه فجأة وانحسر في سيارة الشرطة تلك وصدى جملة الشرطي " أنت متّهمٌ بجريمة قتل"، صعد إلى السيارة وهو لا يفهم شيئاً مما يجري والعمى يمنعه من رؤية أيّ شيءٍ حوله، ووالدته كانت تصيح وهي تبكي بذعر وصدمة، أما سيلينا، فكانت لاتزال واقفةً مكانها تحاول إيجاد أجوبة للمئة سؤال في رأسها، لكنّها لم تجد... وسيارة الشرطة ابتعدت أكثر، وأكثر، حتى اختفت...

****

ـ أهذا هو الذي قتل شقيقكِ؟
يسألها الشرطيّ، لترفع رأسها باتجاه آدم بصمت مطلق، ثمّ تحدّق به لعشر ثوانٍ كاملة دون أن تنطق بحرفٍ واحد، فيكرر الشرطيّ سؤاله بحزم:
ـ سيدتي، سألتكِ هل هذا هو المتهم الذي قتل شقيقكِ؟
كان آدم يقف مستمعاً للحديث الذي لا يرى من وجوه أصحابه شيئاً، كان متجمّداً من كلّ شيءٍ يحدث، ما الذي أتى به إلى هنا ولماذا وكيف ومتى؟! كلّها اسئلة تتخبّط في رأسه وهو لا يفعل شيئاً سوى الصمت وانتظار إجابة السيدة التي أمامه والتي يعرف حقّ المعرفة أنّها لارا! لكنّه كان يقول لنفسه " من المؤكد أنّني هنا من أجل التحقيق معي، لأنّني كنت أثناء وقوع الجريمة لا أكثر..."
ـ أجل هو ...

جاء صوت لارا بتلك الجملة في أذنه وكأن صاعقةً قد ضربت به وقطعت كلّ أفكاره التي يطمئن بها نفسه، لوهلةٍ ظنّ أنّه أخطأ السمع وأنّها لم تقل ذلك، لكنّها حين كررت:

ـ هذا هو الذي قتل شقيقي...

أدرك أنّها حقاً تقوم بذلك، أنّها تكذب وتتهمه بشيءٍ لم يفعله. تجمّد مكانه وهو لا يعلم أين تجلس لارا تحديداً ليخاطبها، كان وجهه باتجاه الشرطّيّ ولارا تجلس إلى يمينه، ليقول دون أن يحرّك رأسه وهو مصدوم مما سمع:

ـ لارا! ماذا تقولين!!

ـ اصمت ولا تتكلّم حتى أسمح لك بذلك!

يصيح به الشرطيّ..

ـ لكن يا سيدي إنّها تكذب!

ـ قلت لك اصمت!

تبدأ أنفاسه بالتزايد أكثر وأكثر، ويشعر أنّ الكون كلّه بدأ يضيق فجأة، كيف لها أن تقول أمراً كهذا وهي تعلم أن زوجها هو الذي قتل شقيقها! كيف لها أن تفعل ذلك مع شخصٍ أحبّها لسنوات! كيف لها أن تكون سوداء القلب هكذا! كيف لها أن تكون بهذا القبح!!

يأتيه صوت الشرطيّ:

ـ حسناً سيدتي، أعيدي لنا رواية أحداث الجريمة بهدوء.

يركّز وهو يترقب ماذا ستقول وكيف ستجعل منه مجرماً، ليأتي صوتها مرتجفاً من يمينه بعد أن صمتت للحظات.

ـ لقد ... كان معه سكين، و..وكان قريباً من أخي كثيراً، لم نكن نرى سكينه لأنّه كان يخفيها في جيبه، ثمّ اقترب من أخي أكثر وأكثر وأسنده إلى الحائط، لم يكن شقيقي أنور يتوقع أيّ حركةٍ مؤذية لأنه كان يدرك أن آدم أعمى ولن يستطيع إيذاءه، لكن... لكن آدم فجأة بدأ يمدّ يده ببطء ويتحسس جيبه لحين أمسك بالسكين وتحسسها جيّداً وهي في جيبه دون أن نراها، ثمّ وبلمح البصر أخرجها و...وطعن أخي بها في بطنه ...

ثمّ بدأت بالبكاء بصوتها المرتجف ذاك وآدم مصعوق مما يسمعه لدرجةٍ لم يستطع أن ينطق بحرفٍ واحد! في تلك اللحظة كان سؤالٌ واحدٌ يضرب في رأسه وقلبه معاً...

"كيف أحببت امرأة كهذه يوماً! كيف! "

يسألها الشرطي وهي تبكي:

ـ وما سبب قتله لشقيقكِ؟
ـ كانا يتشاجران بعنف ...
ـ على ماذا؟
تصمت قليلاً ثمّ تجيب بارتباك:
ـ لقد كنّا في علاقة حبٍّ أنا وآدم ثمّ انفصلنا ... وتزوجت، لكن زوجي مسافر لذلك بقيت في ذات المنزل مع أخي الذي كان يحاول دائماً إبعاد آدم عني وفي كلّ مرّة يتشاجران، وكان هذا هو آخر شجار، حين هدّده أخي بالسجن إن لم يبتعد عنّي، لكنّ شجارهما احتدّ أكثر وأكثر... لحين أن حدث ما حدث...
ـ لكن سيدتي كيف استطاع أن يأتي إلى مكان عمل شقيقك وهو أعمى؟
ـ كان معه أحد يرشده على الطريق ويوصله إلينا في كلّ مرّة ثمّ يختفي ... وأظن أنّه كان يراقبنا حتى تبعنا إلى مكان العمل ...
كان آدم لايزال صامتاً لكنّه من شدّة الهراء الذي اخترعته لارا، لا إرادياً ابتسم بسخريةٍ على ما تقوله وعلى مدى سخافة مخيلتها وخباثتها اللامتناهية والقصص التي تختلقها أمامه دون خجل. ليسأله الشرطي:
ـ هل الكلام الذي قالته لارا صحيح؟
ـ لا!
يجاوبه وهو يبتسم نصف ابتسامة مستهزئة بسخرية
ـ هل حقّاً كنت في علاقة حبّ معها؟
ـ نعم، للأسف.
لم تكن لارا تنظر إليه، كانت تحدّق في الأرض بصمت، لم يكن لديها القوّة على النظر له رغم إدراكها أنّه لا يراها ...
ـ وهل كنت تثير المشاكل مع شقيقها حقّاً؟
ـ أساساً لم أكن أعرف أنّ لها شقيقاً، حتى اليوم... هي لم تكن تخبرني بأيّ شيءٍ عن عائلتها سوى أنّهم توفوا جميعاً في حادث سير.
يعود الشرطيّ ليوجّه أسئلته للارا:
ـ من هو الشخص الذي قلتِ أنّه يوصله ودائماً ما يكون معه؟
ـ لا أعلم ...

ـ حسناً ... وما دليلك على ارتكابه الجريمة؟
ـ لست أملك دليلاً سوى وجودي لحظة الجريمة...
ـ ماذا كنتِ تفعلين في مكان عمل شقيقك؟
ـ أنا كثيراً ما أذهب إليه، وقد ذهبت له حينها لآخذ له طعام الغداء ...
ـ أين السكين التي ضرب بها المتهم الضحيّة؟
ـ لا أعلم ... لقد أخذها معه وهرب بعدها ...
يعود ليسال آدم:
ـ أين السّكين أيها المتّهم؟
يجيبه آدم بذات الثقة والسخرية:
ـ كيف سيكون هناك سكين إن لم يكن هناك جريمة يا سيدي؟!

****

يخرج من المكتب بيدين مكبّلتين، ورجال الشرطة يمسكان به ويقودانه إلى الطريق. تنتفض سيلينا من مكانها ويقف جواد الذي قدم إلى مركز الشرطة فور اتصال سيلينا به. تنظر سيلينا لآدم بعينين خائفتين ثمّ تركض باتجاهه وهي تردد اسمه بهلع:
ـ آدم! آدم عزيزي ماذا يجري؟!! إلى أين تأخذونه توقّفوا أرجوكم!
ـ سيدتي من الأفضل أن تبتعدي عن طريقنا
يقولها رجل الشرطي بحزم، لكن سيلينا تبقى متصلّبةً مكانها وهي تمسك بهلع وارتجاف بيديّ آدم المكبلتين والذي كان صامتاً تماماً وهذا ما أثار خوفها أكثر.
ـ دعني أحدّثه لدقيقتين أرجوك!
يتأفّف رجل الشرطة وهو يومئ برأسه للشرطيّ الآخر أي " توقف قليلاً"، ليقفا مكانهما ممسكين بآدم، تبدأ سيلينا بالبكاء وهي تنظر له وتنطق باسمه، لكن سرعان ما انتقل نظرها إلى المرأة الخارجة من المكتب وراءه.
ـ ولكن لارا ماذا تفعلين هنا! ماذا يجري فليخبرني أحدكم وإلّا سأفقد عقلي! ماذا فعلتِ يا لارا هيّا قولي!
لكنّ لارا تحدّق بها لثانيتين بصمت وبنظرات مرتبكة، ليسأل آدم بانفعال:
كانت تتنفّس بذعر وجسدها يرتجف وارتبكت أكثر من كلامها، ليكمل:

ـ أنتِ أقبح امرأةٍ رأيتها وسأراها في حياتي يا لارا! الجميع سيدركون ذلك، الجميع سيدركون مدى قبحكِ!
يصيح آدم بعد إدراكه أنّ لارا بقربهما
لوهلةٍ حين سمعت جملته تلك ظنّت أنّه يقصد وجهها الذي بات شاحباً جدّاً بسبب الجرعات الكيماويّة، وشعرها الخفيف الذي باتت كثافته الضئيلة واضحة بشكلٍ ملحوظ، ظنّت أنّه يعني بجملته تلك جمالها الذي بات أقل بكثير مما سبق، لكنّها سرعان ما تذكّرت أنّه الآن أعمى وأنّ صورتها المطبوعة في مخيلته مازالت صورة تلك المرأة الجميلة صاحبة الشعر الأشقر والبشرة البيضاء. كان آدم يكرر:
ـ أنا حقّاً لا أدري كيف أحببت امرأةً بهذا القبح يا لارا! لكنّني أحمد الله ألف مرّة أنّه أنقذني منك أيتها الحقيرة!
شعرت بتوترٍ كبير وبدأت تتعرّق لتنسحب مبتعدةً عنه هاربة باتجاه الباب
ـ آدم هذا يكفي!

ـ أنتِ أقبح امرأةٍ في هذا الكون يا لارا! أتسمعينني؟ أنتِ أقبح امرأةٍ في الكون! وعاجلاً أم آجلاً سيكتشف الجميع أنّك قبيحة لأقصى درجة! صدّقيني وسينتهي كلّ هذا وستندمين!
خرجت من مركز الشرطة وهي تركض، وكان الشرطيان يجرّان آدم وهو يصرخ ويأمرانه بالصمت، وسيلينا تصيح باكية:
ـ أرجوكم إلى أين ستأخذونه ما الذي فعله! هو لم يفعل شيئاً!
وتجثو على ركبتيها بعد أن أبعدها الشرطيّ رغماً عنها.
ـ آدم لا يفعل شيئاً! آدم بريء من كلّ جرائم الكون!
يصيح لها آدم وقد ابتعد عنها:
ـ سيلينا ... كلّ شيءٍ سيكون على ما يرام!
لكنّها تستمرّ في البكاء وهي تراه يبتعد عنها حتى اختفى، لتبقى على الارض مجهشةً بالبكاء الشديد، وكان جواد يحاول أن يجعلها تقف على قدميها وهو يحاول أن يهدّأ من حالها مردداً:

ـ سيلينا توقفي، هيّا توقفي عن البكاء سنعرف كلّ شيء وسنساعد آدم! هيّا تعالي معي هيّا!

****

ـ ولكن كيف يمكن أن يحدث هذا!! كيف يمكن لها أن تتّهمه بجريمةٍ كهذه وهي تعلم أن سامي هو القاتل! كيف يا جواد كيف!
ـ لا أعلم... لكن كما سمعتي من الشرطيّ، هذه هي تهمته...
تضع يديها على رأسها وهي لا تصدّق ما تسمعه، كانت تبكي بشدّة دون أن تعلم ماذا تفعل، تشعر أنّها مربّطة لا تستطيع الحراك بخطوة واحدة، تسأل جواد وهي تبكي:
ـ ولكن كيف يصدّقونها! كيف يصدقون أنّ رجلاً أعمى فاقدُ البصر يمكن أن يرتكب جريمة قتل!
ـ في القانون يا سيلينا، أيّ جريمة مقصودة من قبل شخصٍ كامل الأهلية فإنّه يُحاسب عليها...
ـ أرجوك يا جواد! أرجوك علينا أن نخرج آدم من هناك! آدم بريء يا جواد أقسم لك أنّه بريء!

ـ أعلم يا سيلينا، لكن من دون دليل لا يمكننا فعل شيء ... علينا أنّ نستغل الوقت وأن نعمل أثناء التحقيق في الجريمة من قبل الشرطة، والأهم من هذا على المدعوّ سامي أن يظهر عاجلاً أم آجلاً!
ـ إن دخلت وأدليت بشهادتي أنّني رأيت سامي وهو يقتله، هل يمكن أن أساعد آدم بهذا!!
ـ ليس تماماً ... لن يفيدنا الكلام إن لم يكن بيدنا دليلٌ واحد!
ثمّ يصمت لثانيتين وهو يفكّر، ليسألها:
ـ قلتِ لي أنّكم كنتم في مستودع الشركة، أليس كذلك؟
ـ أجل ...
ـ هل يوجد هناك كاميرات مراقبة؟

ـ لا ... أنا أعرف ذاك المكان جيّداً، لم يضعوا فيه كاميرات مراقبة إطلاقاً لأنّه مقفل طوال الوقت ولا أحد يدخله سوى العاملون في الشركة وفي أوقات الضرورة، وحتى لو كان هناك، فبالتأكيد سيكون سامي قد تدارك الوضع ...
كانت تبكي بشدّة وهي تشعر باليأس من استطاعتها في مساعدة آدم بشيء، كان العجز يأكلها، وجواد صامت يفكّر فيما يجب أن يفعل.. وفجأة توقفت سيلينا عن البكاء تماماً وهي تنظر له وكأنّها قد تذكرت شيئاً، ليسألها باستغراب:
ـ ماذا؟!
ـ الكاميرات ... أجل الكاميرات!
ـ قلتِ للتو أنّه لا يوجد كاميراتٌ هناك!
ـ ليست كاميرات المراقبة! بل الكاميرا خاصتي!
تقولها وهي تتذكّر أنّها كانت تقوم بتسجيل فيديو مع آدم قبل أن يدخلوا إلى المستودع، وأنّها لم تقم بإطفاء الكاميرا، لتكرر بشيءٍ من الأمل:
ـ الكاميرا يا جواد! الكاميرا خاصتي!!

****

ضوءٌ خافت في غرفة يبتلعها الظلام، كرسيٌّ بجانب النافذة، المطر يكاد يحطّم الزجاج، أغانٍ، وهو.

ـ إذاً الآن أنا الأكثر امتناناً للقدر، ممتنة لما منحني من خيبات كي أصل إليك. لو أنّ كل هذا لم يحصل لما كنتُ معك الآن. أعلم الآن لو أنّنا التقينا صدفةً في شارعٍ ما ربما كنت ستنظر لي بشفقةٍ مؤمناً بقبح وجهي ثمّ ستتجاهلني وأنا أسير من أمامك محاولاً نسيان ملامح هذه الفتاة القبيحة. ستفتح هاتفك وأنت تحمد ربّك على حبيبتك الجميلة وتقوم بالاتصال بها مكملاً يومك بشكلٍ طبيعيّ. بينما أنا أكمل طريقي، أحبس دموعي رغماً عنّي بسبب نظرتك النافرة من ملامحي.. ربما كنت ستؤمن بندوبي أكثر من روحي دون أن تعلم عنّي شيئاً كما يفعل الجميع. لولا الذي حصل لكلينا ما كنّا لنلتقي في أغنيةٍ أبداً، ما كنّا لنقع في الحب...

يحدّق متأمّلاً بها وهي تتكلّم، كلّ الذي يرد به هو
ـ وأنا كذلك، سأبقى ممتناً للقدر الذي جعلني أعمى ثمّ أهداني الرؤية الحقيقيّة.
تبتسم، هي لا تفعل شيئاً سوى الابتسام منذ جلوسها أمامه بثوبها الأصفر ذاك
ـ هل حقاً التقينا في أغنيةٍ يا سيلينا؟
ـ أجل.
ـ في أيّة أغنية؟
ـ في كل الأغاني التي لم يفلح التكرار في إنقاذها من الانتهاء...
ضوء خافت في غرفة يبتلعها الظلام، كرسيٌّ بجانب النافذة، مطرٌ يكاد يحطّم الزجاج، وهو...
صوت الرصاص في الخارج مازال عالياً، وبين كلّ دقيقةٍ والأخرى يسمع صوت الانفجارات القويّة ذاتها لكنّه لا يهتم ولا يتحرّك من مكانه، ربما لأن الموت لم يعد قدراً قبيحاً بعد الآن.
مازال على نفس الطاولة منذ دخوله مقترباً من ذات النافذة، الغبار يملأ المكان حوله، الدفتر الموضوع على الطاولة، الحقيبة الطويلة المستندة إلى الحائط، قصاصات الورق، كلّ شيءٍ مملوءٌ بالغبار... وصوت "Lana Del Rey" يأتي خافتاً في أرجاء الغرفة.
ـ منذ متى وأنت تستمع لها؟ كنت تصفها بالكئيبة...
ـ ألم تقولي يوماً أنّنا فقط حين نتذوق الألم بشكلٍ لذيذ، سنعرف كيف نقدّس أغاني لانا...؟ إنني أتذوق الآن. إنني أقدّس هذه الأغنيات.

****

الوتر الرابع

في غيابك تائهٌ أنا،

كإيقاعٍ مشنوق

بين الوتر ودموعِ العازف...

"الوقت يتقن كيف يجعلُ من الأغاني الجميلة مسيحاً مصلوباً لقومِ الانتظار."

فرح ياسين

ـ لكننا كنّا قد أحببناها يا آدم، حين ارتدينا الأثواب الصفراء التي لم تناسب بشرتنا الباهتة يوماً، كنا قد احببنا الحياة. حين قررنا وضع أحلامنا الكبيرة في جيوبنا الضيّقة وتركناها تتعفّن كمنديلٍ منسيّ، حينها فقط، كنا قد رضينا بقبح الحياة وابتسمنا للمطر الفاتر فوق جباهنا المليئة بالغبار.
ـ لماذا قد نقبل بقبح الحياة يا سيلينا!
ـ لأننا جميلون.

ومضى، الشهر الأوّل، الشهر الثاني، الشهر الثالث.. ومازال يمضي، الشهر الرابع، والخامس، والسادس. والآن أنتظرك، بكلّ ما خلقت الساعات من انتظار.
أنتظرك والوقتُ أزرق، لتأتي بكلّ تعبك وتشرّدك وبؤسك. لتأتي ونشتم المدينة سويّةً في المساء ثم نعود لنعشقها في الصباح.
تعال لتحدّثني عن هزائمك، عن عجزك، عن ظلّ فتاة تركتك لأنّك لست بطل فيلمها.
تعال لتستند على كتفي الأيمن، ويستند الكمان على كتفي الأيسر، فأشعر أنّي ملكتُ السماء والجنّة وكلّ أغنيات الزمن.
تعال لنبكي، لنحترق، لندفن رمادنا في علامة موسيقيّةٍ سوداء حيث لا أحد سيعرف قبرنا إلّا الأوتار الصدئة.
تعال لأحدّثك عن قبحي وعن جمال الأغنيات.

ـ لا يهمّني كلّ ما حصل ويحصل وسيحصل، لا يهمّني أين أنا الآن وماذا أعيش هنا، كلّ الذي يهمّني هو أن أكون معكِ وحسب...
ـ أنت معي طوال الوقت ...
تقولها وهي تشدّ على يديه وتبكي بصمت متأمّلةً وجهه المقابل لها، ثمّ تكمل محاولةً إعطاءه القليل من القوّة:
ـ سنخرجك من هنا يا آدم صدّقني، لا بد من ظهور الحقيقة في نهاية الأمر!
ـ منذ ستّة شهور وإلى الآن، أشعرُ أنني في كلّ لحظة أموت، لست أموت من وجودي في السجن، لا أبداً، لكنّ الظلم هو أقبح أنواع السّم يا سيلينا!
ـ آدم، ستخرج من هنا أعدك، الإله لن يتركنا وحدنا نصارع كلّ هذا البؤس.
يسمع صوت بكاءها يعلو أكثر وأكثر، ليفلت يديه من يديها ويمدّهما باتجاه وجهها، يتحسس ملامحها قليلاً قليلاً ويبدأ بمسح الدموع التي شعر بها دافئةً على أصابعه
ـ لم أستطع مساعدتك بشيء! أنت هنا منذ ستة شهور ولم أستطع مساعدتك بأيّ شيء! حتى شريط الفيديو ذاك والذي كان أملنا الوحيد لم يُفلح في مساعدتك! إنّني أختنق وأنا أراك هنا دون أيّ ذنبٍ منك، بينما المذنب الحقيقيّ يعيش حياته خارجاً دون أن يعلم أحدٌ أين هو! أنا آسفة يا آدم، آسفة على كلّ هذا البؤس الذي تعيشه وحدك هنا!
ـ سيلينا...
يقول وهو يقرّب وجهها من وجهه أكثر، ثمّ يهمس لها بصوتٍ خافت:
ـ لا تقلقي، أخبرني جواد أنّ اختفاء سامي المثير للشكّ هو لمصلحتنا نوعاً ما. إنّني أصبر هنا ما دمتِ معي، صدّقيني، أستطيع أن أتحمّل شوك الطريق كلّه، لأنّني أعلم في نهاية الأمر أنّني سأنام في فردوس أحضانك ... لا تقلقي، سأكون دائماً بخير مادمتِ تصلّين، وتعزفين، وتكتبين لأجلي ... سأبقى بخير إن انتظرتني أنا ولوحاتي الباهتة لنرتمي في ألوان حضنك مجدداً ...
ـ جميع الصلوات، والألحان، والحروف، واللوحات، تسحتضر طيفك لي في كلّ ثانية، أنت معي للأبد، وانتظاري لك لن ينتهي يا آدم، أنت ستخرج من هنا أعدك!
يبتسم شاعراً بحرارة أنفاسها على وجهه، وبهمسها يتغلغل في أذنه كالموسيقى النائمة، شدّ على يديها بكلّ حبّ وصمت، كانت قلوبهما رغم كلّ ما يجري تدّق وكأنّهما أمام البحر جالسين على مقعدهما المعتاد، لقد خطفهم الوقت والصمت وصوت الأنفاس

والهمسات الخافتة حتّى نسوا تماماً أنّهم في زيارة سجين... لكنّ سرعان ما تلاشى كلّ شيء، حين انفتح الباب وفجأة أتى صوت الشرطيّ
" انتهت الزيارة "
متوجهاً إلى آدم، نازعاً يديه من يديّ سيلينا ليكبّلهما. وككلّ مرّة تنتهي فيها الزيارة تشعر سيلينا أنّ قلبها يتقطّع وهي تنظر لخروج آدم مع الشرطي، لتبدأ دموعها بالانهمار بصمتٍ أليم.
- اعزفي لي كلّ ليلة وكأنني موجود معك لنسهر كالعادة حتّى الفجر! أتعدينني بذلك؟
تبتسم بصمت والدموع لازالت تنهمر منها دون أن تردّ عليه، ليهتف لها مجدداً:
- انتظريني يا سيلينا واعزفي لي! اعزفي مقطوعتنا كلّ يوم كي أسمعها في منامي.. حين ستتوقفين عن العزف، سأعلم أنّكِ مللت انتظاري...
- سأعزف بقدر انتظاري لك، وهذا يعني أنني سأعزف مدى حياتي ...
تقولها له وهو يخرج من الباب، تاركاً دفء يديه، وملمس بشرته، وحرارة أنفاسه، جميعها معها ...
لم يستطع آدم الخروج من السجن حتّى الآن، لم يستطع شيءٌ إثبات براءته، ولا حتّى شريط الفيديو الذي زاد الطين بلّة بدلاً من أن يساعده. لم يفدهم بشيء فالظلام كان دامساً طيلة التصوير بسبب المستودع المظلم ولأن الكاميرا كانت موجّهة إلى الأرض طوال الوقت فسيلينا لم تكن تركز بالتصوير في تلك اللحظة بل كانت تراقب ما يجري، ولذلك لم تعترف المحكمة بذاك الدليل وقامت برفضه ... ومازال آدم مسجوناً منذ ستة شهور، في انتظار المحاكمة، ومازالت قلوبهم تعتصر. وما زالت تنتظره، تنتظر المعجزات وحسب.
" - هل تؤمنين بالمعجزات يا سيلينا..
- أجل، أؤمن.
- هل الموسيقى معجزة...؟
- أؤمن أنّ الموسيقى قادرة على تحويل البُعدِ ما بين كوكبين، إلى المسافة بين جناحيّ حمامة. لذا أجل، هي معجزة!
- اعزفي الموسيقى مجدداً إذاً، لتحصل معجزة تنتشلني من هذا الليل."

مازالت تعزف وحسب.
****

ـ كيف حالكم جميعاً!
ـ أهلاً بغيث!
يردّون بصوتٍ واحد مرحبين، ليصيح سامر مازحاً:
ـ يبدو أن الأبوّة جعلتك أجمل يا غيث!
يضحك غيث وهو يجلس واضعاً كيس الطعام على الطاولة، ويجيب:
ـ إنّها أجمل ما حصل في حياتي صدّقني
ـ تستحق كلّ الخير يا أخي
يبتسم غيث بنشوة وامتنان، ثمّ يضع لهم الكثير من فطائر اللحم على الطاولة مكملاً:
ـ وأمّا الآن فهيّا تعالوا للغداء، لقد وجدتها خارجة للتو من المخبز وقلت لنفسي أن أحضر لكم القليل فعلى الأرجح الجميع جائع، هيّا تفضلوا!
يمدّ الجميع أيديهم ويأخذ كلٌّ منهم حصته شاكراً. ليضع العم كامل يده على كتف غيث وهو يقول مبتسماً بهدوء " حفظ الله لك زيدان الكبير وزيدان الصغير يا بنيّ " ليبادله الآخر الابتسامة وهو يردّ بامتنان " شكراً عمّي، وحفظك لنا! "
لربما لم يشعر غيث بسعادةٍ تملأ قلبه منذ زمنٍ بعيد، بعيدٍ جدّاً ... كما يشعر الآن. منذ ولادة ابنه في آخر الشهر الماضي وإلى هذه اللحظة كان كلّ العالم ورديّاً بالنسبة له، لقد نسيَ أحلامه الضائعة جميعها، وحزنه المتراكم، وحسرات قلبه، والغصّات التي بقيت عالقةً في جوف روحه... كلّ تلك نسيها دفعةً واحدة حين رأى وجه ابنه لأوّل مرّة...
منحه اسم ـ زيدان ـ على اسم والده، الأمر الذي جعل قلب والده يرقص أكثر وأكثر بالرغم من عجزه عن الحركة وشلله الكلّي، طوال الوقت يطلب ممّن في البيت أن يقربوا الطفل منه كي يشمّ رائحته. يحاول تحريك شفتيه وتقبيله بأقصى ما يستطيع، لقد نسي هو الآخر كلّ شيء... نسي ما خسر، نسي اشمئزاز زوجته من عجزه، نسي الهمّ الذي كان يحمله على عاتقه وهو يراقب كلّ شيءٍ بصمت دون حراكٍ أو كلمة، لقد أزهر قلبه مجدداً لمجرّد رؤية حفيده الأوّل والذي يحمل ذات اسمه.

وحتّى رانيا، تلك التي لا قلب لها، كانت منتشيةً من فرحها بحفيدها الأوّل حدّ الطيران، تحدّث جاراتها عنه صباحاً ومساء، وتحصّنه كلّ يومٍ من عيون الناس وكأنّه أوّل وآخر مولودٍ في الكون. وشقيقتا غيث الطفلتان ـ سمر ورغد ـ تريدان حمل الطفل طوال الوقت واللعب معه وكأنّه دمية. ذاك الطفل قد أزهر الفرحة في قلوب الجميع ... لكنّ قلباً واحداً كان يعتصر طوال الوقت بصمت رغم فرحه الكبير بهذا الطفل، قلب والدته، جمانة.

ـ إذاً كيف هو عملك يا غيث؟
يسأله سامر وهو يبتلع اللّقمة،
ـ بخير ... الحمد لله، من الميكروباص إلى المنزل ومن المنزل إلى الميكروباص، كالعادة، لا شيء آخر
ـ هذا جيّد ... جيّد
يكررها سامر وهو يهزّ رأسه مبتسماً بغموض وغيث يراقبه،
ـ ما بك؟ أرى أنّ في فمك كلاماً تودّ قوله ...
ـ في الحقيقة هناك الكثير من الكلام، لكن لا أعلم إن كان يهمّك أن تسمعه ...
ـ بالطبع سأسمع!
يردّ عليه غيث بانفعال وهو يركّز معه، لطالما أصبح سامر صديقه المقرّب أكثر من قبل بكثير ... ليس سامر وحسب، بل جميع الرجال في ذاك المقر، لقد وجد فيهم غيث ما يخفف من حزنه قليلاً، كان يشعر بهم كإخوةٍ له خاصةً في اليوم الذي رُزِقَ فيه بطفله الأول، حينها أتوا جميعاً يحملون له الهدايا حسب استطاعتهم الماديّة المتواضعة وقاموا بزيارته فرحين له. وقتها، كان قد شعر بهم أنّهم إخوته بحق، وبدأ يقدّرهم أكثر وأكثر وتوطدت علاقته معهم أكثر وأكثر، ولا إرادياً بدأت أوقاته معهم تزداد أكثر. بات يأتي إليهم بعد العمل، وفي أيام عطلته، وأوقات فراغه. على الرغم من أنّ ما يقومون به ويخططون له لا يعجبه ولم يقتنع به، وما يسمونه بِـ ـ تضحية لأجل المدينة والوطن ـ لم يقنعه أبداً، ودائماً ما يضع حدوداً في هذا الأمر لئلّا يُشرك نفسه معهم، لكنّه ورغماً عنه، بعد كلّ نقاشٍ سياسيٍّ يجد نفسه مقتنعاً بأمرٍ ما مما يقولونه.
ـ لدينا مخططٌ عمليّةٍ كبيرة! سيبدأ عملنا الحقيقيّ نحو الانتصار قريباً جدّاً يا غيث!
يقولها سامر بنشوة، ليقطب غيث حاجبيه باستغراب، فيكمل الآخر:

- ورأيت أن أسألك إن كنت ترغب بمساعدتنا في هذه العمليّة العظمى!
يبتسم غيث نصف ابتسامةٍ ساخرة قائلاً:
- هه يا رجل! وما هي هذه العملية العظمى؟ بماذا سأساعدكم وأنت تعرف رأيي أصلاً في أعمالكم ومعتقداتكم هذه!
- تستطيع أن تساعدنا بالكثير، بحكم دراستك لو أردت ...
- أنا لن أستغل الدراسة التي قدّمها لي الوطن ضدّ الوطن يا سامر! يستحيل هذا الأمر مهما كان.
- أنت لا تستغلّها ضد الوطن يا غيث، أنت تستغلّها لأجله! لكي تمنحه ما يستحق!
- أمنحه ما يستحق عبر تدميره؟! بحقك يا سامر، لقد تناقشنا في هذه الأمور لآلاف المرّات، وأنت تعرف رأيي، دعنا نغلق الموضوع.
- ألا تريد أن تثبت نفسك للوطن؟ إن أردت فهذه العملية العظيمة هي أعظم فرصةٍ لك
- أوه حقّاً! لم تقل لي، ما هي هذه العمليّة العظيمة؟
- سنقوم بإضعاف البنية التحتيّة للدولة!
يقولها سامر بثقة، ليبتسم غيث بسخرية مجدداً ويسأله باستنكار:
- قلت لي إضعاف البنية التحتيّة ها؟ وكيف؟
يعدّل سامر جلسته، ثمّ يقترب من غيث، ويحدّق في عينيه هامساً بثقته تلك:
- سنفجّر المحكمة!
يتجمّد الدم في عروق غيث، وتتجمّد نظراته وهو يحدّق في عيون سامر الواثق أمامه، يصمت لثانيتين، ثمّ يقول بصدمة:
- ماذا تقول أنت! أتظنّ نفسك تقول أمراً سهلاً وصائباً!
- ولماذا قد يكون غير صائب؟!
- كيف لك أن تفكّر بفعل أمرٍ كهذا وتقول أنّه لأجل الوطن!
- علينا تخليص الوطن من البؤس الذي هو به يا غيث! عليك أن تفهم!
كان جميع الرجال صامتين لا يشاركون بالحديث ويكتفون بالأكل مستمعين لغيث وسامر بصمت..
- وأنتم ستخلّصونه من بؤسه والذي هو أساساً غير موجود؟!
- أجل نحن! إن لم نبدأ بأنفسنا لن يتشجع أحدٌ غيرنا، الوطن مسؤولية الجميع!

يأخذ غيث نفساً عميقاً وكأنّه يأس من إقناع سامر بأنّ أفكاره خاطئة، وينهي الحديث ككلّ مرّة بجملته:
ـ حسناً كما تريد، لكلٍّ منّا رأيه في النهاية، ولكن لا تعتقد لوهلة أنّ إنساناً مثلي قد يشارك بمثل هذا الأمر يا سامر! أبداً!
يصمت سامر هو الآخر وقد فهم رغبته بإغلاق ذاك الجدال، ليأتي فجأة صوت العم كامل وهو يجلس بجانب غيث ويضع يدّه على كتفه ويسأله بعيونه العجوزة:
ـ ألا ترغب في مساعدتنا ومساعدة وطنك يا بنيّ غيث؟
لطالما يحترم غيث هذا الرجل العجوز كثيراً، ودائماً يحاوره بهدوءٍ إلى النهاية حبّاً واحتراماً له، لذلك تمالك أعصابه حتّى هدأ قليلاً وأجابه:
ـ أنت تعلم رأيي في هذا الموضوع وفي غيره يا عم، وتعرف نظرتي لهذه العمليّات وغيرها ... وحتى وإن كنت أوافقكم الراي، فبماذا سأستطيع مساعدتكم أساساً!
ـ بإمكان كلّ شخصٍ أن يقدّم المساعدة لوطنه، وبإمكان خبرتك الدراسيّة أن تفيدنا كثيراً...
كان غيث يائساً تماماً من إيجاد طريقةٍ لإقناع أولئك الرجال بأنّ ما يفعلونه هو " تدمير " وليس " تحرير " للوطن، لكنّه اضطرّ لمسايرة العم كامل وسأله:
ـ أنا لا أعرف كيف يمكن أن يخطر لكم فكرة كهذه ولكن فضولي يدفعني للسؤال، كيف لكم أنتم أن تفجروا محكمة ؟!أيُّ سلاحٍ أو قذيفةٍ أو صاروخٍ هذا الذي تمتلكونه لتدمروا وطنكم بإيديكم! أو عفواً ـ ثمّ يكمل باستنكار ـ لتحرروه وتساعدوه.
صمت الجميع في تلك اللحظة، وتركوا سؤال غيث معلّقاً في الهواء، كان الجميع ينظرون إلى بعضهم بنظراتٍ غريبة وصامتة، ليسأل غيث باستغراب:
ـ ما بكم؟ لماذا لا تجيبون؟
يتنهّد العم كامل ثمّ يجيبه بلهجةٍ يبدو الحزن فيها:
ـ نملك أنفسنا!
ـ لم أفهم يا عم؟!
ـ المقصود يا غيث، أنّه بعد تنفيذ هذه العملية العظيمة، سيكون هناك رجلٌ ناقصٌ منّا لم نحدده حتّى الآن.
مرّةً أخرى، يتجمّد الدم في عروق غيث وتتحجّر نظراته، وهو يردد بعدم تصديق:

ـ سيقوم أحدكم بعمليةٍ انتحاريّة ليفجّر محكمةً مليئة بالناس الأبرياء! ليفجّر نفسه ووطنه! أنتم تمزحون... بالتأكيد أنّكم تمزحون!
ـ ليست عمليّةً انتحاريّة، إنّها عملية تضحية! لأجل الوطن! لأجل جميع الناس! لأجلنا نحن!
يقولها العم كامل بانفعال وهو ينظر في عيون غيث، ثمّ ورغماً عن شاربه، ولحيته، وشعره الشائب، تنهمر الدموع بهدوءٍ على وجهه ليحدّق به غيث بصدمة دون أن يفهم شيئاً،
ـ أنا مستعدٌّ لأن أفجّر نفسي وأنتهي من هذا الخراب والبؤس! لقد فقدت عائلتي كلّها دفعةً واحدة! وماذا سنستفيد من هذه الحياة إن كانت مليئة بكلّ هذا البؤس الذي نعيشه رغماً عنّا؟! أجل، أنا مستعدٌّ أن أفجّر نفسي وأثبت ذاتي لوطني، على الأقل سيبقى لي أثرٌ محفور بدلاً من أن أموت رجلاً عجوزاً فقد كلّ ما يملك في حياته دون أيّ إنجازٍ يُذكر! حين تجد نفسك أنّك مجرّد نكرة، لا قيمة لك، خسرت كلّ شيءٍ في لحظة، وكلّ من تحبّهم، ولم تحقق أيّ شيءٍ من مبتغاك، ستودّ أن تصرخ بكلّ قوتك! لكنّنا حتى وإن صرخنا فلا أحد سيشعر بنا! حتى صراخنا بات كموتِ أوراق الخريف عند السقوط، انتحارٌ صامت. ولهذا إن تذوّقت جرح كلّ واحدٍ فينا سترغب مثلنا في أن تصرخ وتثبت نفسك أنّك موجود في هذا الوطن، وذلك عبر التضحية وليس ما تسميه أنت بالانتحار!

اجتاح الصمت غيث وهو يحدّق في هذا الرجل العجوز
"حتّى صراخنا بات كموت أوراق الخريف عند السقوط، انتحارٌ صامت." تدور وتتكرّر في رأسه منذ أن نطق بها، شعر أنّه حقّاً دائماً ما كان يصرخ ولكن بصمت، عند كلّ خيباته وفقدانه والخذلان الذي يتعرض له. لكنّه سرعان ما خرج من أفكاره تلك ليردّ على العم كامل بتأنيب:
ـ لكنّ أن ننهي حياتنا ونموت بهذه الطريقة ليس حلّاً يا عم، ولن يفيد بشيء...
ـ وماذا لو اعتقدت طيور الأقفاص، أنّ السماء هي المنفى البعيد؟ يلزمك الكثير يا غيث لتدرك أنّ الموت قد يكون هو بداية الحياة التي انتظرتها.

****

ـ هل انتهيتِ من تنظيف الصحون يا جمانة؟

تسألها رانيا وهي جالسة في غرفة الجلوس بينما هي تجفف يديها مغادرةً المطبخ، تقف أمامها متعبة وتجيب بهدوء:

ـ أجل خالتي، لقد انتهيت للتو، سأذهب إلى غرفتي لأرتاح قليلاً مع الطفل، أتريدين شيئاً آخر؟

ـ لا أبداً، يمكنك أن تذهبي

كان زيدان يراقب زوجته رانيا ككلّ يوم بانزعاج منها دون أن يستطيع الحراك أو النطق بكلمة، كان ينزعج كيف تجعل زوجة ابنها تعمل طوال الوقت وتلك الأُخرى لا تنطق بحرف، لطالما كانت غاية رانيا منذ قرارها بتزويج غيث هو أن تحضر فتاةً لهذا المنزل ليس كزوجةٍ لابنها، بل كامرأةٍ تقوم بأعمال المنزل عنها وتتحمّل مسؤوليّة زوجها زيدان والذي " قرفت هي من عجزه ومسؤوليّته" كما كانت تقول. حين قررت تزويج ابنها لجمانة ابنة شقيقتها كانت تعرف تماماً أنّ فتاةً مثلها لا تزال في مقتبل العمر، تبلغ الثامنة عشر من عمرها، أهلها يسيطرون على حياتها تماماً، لن تستطيع النطق بحرفٍ والتذمّر مهما ألقت عليها من مسؤوليّات، كانت تعرف العائلة التي تربّت بها جمانة، عائلة متعصّبة الأفكار، تعتقد أن زواج الفتاة هو كلّ مستقبلها، وأنّه يجب عليها أن تتحوّل لعبدة عند زوجها مهما كان، أن تصمت إن كان الحقّ معها أو ضدّها، عائلة تنظر لطلاق الفتاة على أنّه دمار، وأنّ الفتاة المطلّقة هي عالةٌ على هذا المجتمع بأسره. كانت رانيا تعرف أنّها اختارت الفتاة المناسبة لمتطلبات رفاهيّتها، فتاةٌ لا تجرؤ على النطق مهما حرق المجتمع شفاهها... وجمانة بدورها كانت تصمت وتتحمّل جميع ما يجري معها، ربما من حسن حظّها أنّ غيث هو زوجٌ صالح، لأنّها في كلتا الحالتين كانت ستتحمّل ما يحصل رغماً عنها، إنّها تتحمّل مسؤوليّة المنزل، ومسؤوليّة زيدان والد غيث، وأوامر رانيا، وزاد على ذلك كلّه مسؤوليّة ابنها زيدان الصغير... والأقسى من ذلك، أنّها تتحمّل قلبها الذي يحترق بصمت رغماً عنها منذ شهور، حين كشف غيث مكالماتها مع عشيقها " أيهم " ومنذ وقتها وعدته أن تقطع اتصالاتها به خشيةً أن يخبر أهلها أو يطلّقها، وبالفعل ... منذ ذاك اليوم كانت تمنع نفسها في اللحظة الاخيرة من الاتصال به، خشيّةً من كلّ شيء، وشعوراً منها بالذنب اتجاه غيث، لكنّ ذلك لا يعني أن حبّها لذاك الشاب كان قد توقف للحظةٍ واحدة.

تدخل إلى الغرفة متنهّدةً من التعب وتغلق الباب، تغلق عينيها لثانيتين وكأنّها تريد الهروب من كلّ ما يجري، لكنّها سرعان ما تفتحهما مبتسمةً وهي تنظر إلى سرير الملاك النائم في سريره، طفلها هو الوحيد الذي يجعلها تصبر على كلّ ما تعيشه...
تذهب وتحمله بين يديها بحب وهي تتأمّل ملامحه الملائكيّة، تشعر أنّ وجهه هو نافذة الخلاص الوحيدة في هذا السجن، " أحبّك يا كلّ حياتي " تهمس له في أذنه وتقبّله على جبينه بدفء وحبّ، ليخرجها من هدوئها ذاك رنين هاتفها فجأة ...
تنظر للهاتف الموضوع على الطاولة المقابلة، لتضع طفلها في السرير مجدداً وتتجه للرد متأكّدةً أنّ المكالمة من والدتها كالعادة. لكنّها حين أمسكت بالهاتف لم يكن اسم والدتها هو الذي على الشاشة، لم يكن هناك أيّ اسمٍ حتّى، كان رقماً غريباً ... تشعر بأن قلبها يرتجف فجأة دون أن تعرف السبب، بدأت يداها ترتجفان لا إراديّاً، حدسها يخبرها أنّه هو، أيهم، لكنّها من شدّة ارتباكها تخفض صوت الرنين للدرجة الأخيرة وتضع الهاتف مكانه دون أن ترد.
استمرّ في الرنين لخمسين ثانية كاملة، ثمّ انطفأ. ابتلعت أنفاسها بارتباكٍ وتوترٍ كبير. إنّها حتى الآن لا تزال تحفظ رقمه في ذاكرتها، لكنّ هذا الرقم ليس له، ورغم ذلك قررت ألّا تجيب، مع أنّ قلبها كان يعتصر لمجرّد التفكير بأن صوته خلف السماعة.
ومرّةً أخرى، عاد رنين الهاتف مجدداً! ومرّةً أخرى شعرت أن قلبها هبط للأسفل وكانت يداها متسمّرتين في الارتجاف. تركته يرن، ويرن، ويرن، حاولت أن تمسك نفسها بقدر ما تستطيع ولكن..
- آلو
قالتها بصوتٍ مرتجف وهي تترقّب الصوت الذي سيردّ عليها بارتباكٍ كبير.
- جمانة!
يأتي صوته إلى قلبها كالثلج والنار معاً، ثلجٌ أذاب نار اشتياقها له، ونارٌ أشعلت لهيب الخوف والقلق في قلبها.
- أ..أيهم، أرجوك، يجب ألّا تتصل بي مجدداً، أرجو أن تنسني وإلّا ستؤذني!
- أريدك أن تسمعيني يا جمانة هذه المرّة فقط ثمّ قرري ما ستفعيلنه أرجوكِ!
كان صوته متوسّلاً لها بطريقةٍ غريبة، حزينة، متألّمة!

ـ أيهم... أنا لا أستطيع. يجب أن أغلق الهاتف وإلّا سمعني أحدهم! أرجوك لا تتصل بي مجدداً، أبداً...
كانت تتكلّم بصوتٍ مرتجف وخائف وهي تنظر إلى الباب المغلق طوال الوقت خشيةً من أن يسمعها أحد.
ـ جمانة! أقول لكِ فقط اسمعيني هذه المرّة ومن بعدها قرري ما ستفعلين! أعدكِ من بعد قراركِ اليوم، ألّا أزعجكِ أبداً وأن أنساكِ إن أردتِ!
تأخذ نفساً عميقاً بخوف، وتصمت في انتظار ما سيقول،
ـ جمانة أجيبيني، هل أنتِ سعيدة في حياتكِ الآن؟
ـ هذا ليس وقته يا أيهم، قل ما عندك بسرعة أتوسل إليك!
ـ أجيبيني عن أسئلتي يا جمانة! هل أنتِ سعيدة في حياتك الآن؟!
يصرخ بها على الهاتف، لتنهمر دموعها رغماً عنها وهي تجيبه:
ـ أنت تعرف إجابتي يا أيهم! أنت تعرف!
ـ هل مازلتِ تحبّينني؟
تبكي أكثر وهي تجيبه بحرقة:
ـ أنا لم ولن أتوقف عن حبّك ليومٍ واحد.
يصمت لثانيتين، ثمّ يقول بنبرةٍ جادّة:
ـ أنظري يا جمانة، لقد أفلتت فرصة الحياة السعيدة مننا مرّة، لكن هناك فرصةٌ أُخرى لكلّ شيء. الآن أنتِ من سيقرر إن كنّا سنمسك فرصتنا الأخيرة أو نتركها ترحل كما السابقة، أنتِ من بإمكانه أن يقرّر إن كنتِ تريدين أن تكملي حياتكِ مع رجلٍ لا تحبينه ورغماً عنكِ، أو أن تكمليها معي، أنا أيهم الذي أحببته وما زلتِ تحبينه حتى اليوم، أن تكمليها معي أنا، الرجل الذي لم يستطع نسيان حبّكِ للحظةٍ واحدة حتى الآن!
ازدادت خفقات قلبها أكثر وأكثر وباتت أنفاسها تتسارع لتسأله بصوتٍ متقطّع:
ـ م..ماذا تقصد أيهم؟!
ـ أتهربين معي ونسافر سويّةً! نسافر بعيداً عن كلّ ما عشناه ونعيشه حتّى هذه اللحظة!
تشعر أن قدميها لم تعد تستطيع حملها، تصمت والدم قد تجمّد في عروقها، تشعر أنّها فجأة وقفت في منتصف زوبعةٍ لا ترى منها شيئاً... بالكاد تستطيع أن تجمع مفرداتها وقوّتها لتنطق بصوتٍ خافت:

ـ ولكن ماذا تقول أنت! هل أنت واعٍ لما تقوله!
ـ أجل أنا بكامل وعيي يا جمانة! هلْ تسافرين معي لخارج البلاد بعيداً؟
ـ إنّه أمرٌ مستحيل!
ـ إن كنتِ تحبينني حتى الآن فليس هناك أمرٌ مستحيل!
ـ هل فقدت عقلك يا أيهم! إنني فتاةٌ متزوّجة الآن، بل ولديها طفل!
ـ يمكنني أن أكون أباً لطفلكِ! سنكون عائلة مثاليّة! ما الفائدة إن كنتِ متزوّجةً من رجلٍ لا تحبيه يا جمانة؟ فكّري في الأمر... إنّها آخر فرصة لكِ، إمّا أن تأتي معي لنبني جنّتنا، أو تبقين في جحيمكِ هذا للأبد!

****

هل تستطيع التخيّل بأن اليد التي تصفع وجه الطبل، هي ذاتها التي تلامس الوتر بارتجاف؟
على ذات الوتيرة، فإن الشخص الذي وعدك بالبقاء يوماً هو أوّل من غادر جنازتك.

"أنا أعلم أنّك تقرأ جميع رسائلي، وأعلم أنّك تنصت لجميع هذه الرسائل الصوتيّة. لا تريد أن تجيب؟ لا يهم.. لكن كل ما أردت قوله هو أن هذه ستكون الرسالة الأخيرة، في حال لم تجبني، عليك أن تعلم أنّ رسالتي القادمة ستكون باتجاه قسم الشرطة. إمّا أن ترد عليّ لتسدد ما عليك من حياتي وحياة أخي، أو سأعترف بكل شيء، القرار بين يديك الآن يا سامي.. ولا يهمني ما سيحصل لي بعدها."
تغلق الهاتف وهي تمسح دموعها التي تنهمر بهدوء، على تلك الأريكة المخمليّة في غرفة الجلوس، تجلس محدّقةً في المرآة الكبيرة التي أمامها ذات الطلاء الذهبيّ.
تجاعيد وجهها الشاحب ازدادت في هذه الستّة شهور كثيراً، لكنّها لا تعلم هل ذلك بسبب الجرعات الكيماويّة، تنظر إلى رأسها وهي لازالت تحدّق بصمتٍ كبير في تلك المرآة، رأسها الخالي من الشعر تماماً... بعد أن استسلمت للأمر الواقع الذي كانت تحاول تكذيبه طوال الوقت، وحلقت ما تبقى منه لتبقى برأسٍ عارٍ من شعرها الأشقر ذاك. جسدها النحيل تماماً، عيونها الصفراء، وجهها الباهتَ والأصفر الشاحب، رأسها الأصلع،

تتأمّل ذاك كلّه وهي تبكي بصمتٍ كبير... هي لم تعد تلك الامرأة الجميلة... هل ستعود كذلك يوماً؟ وإن عادت أو لم تعد، الأمر لم يعد مهماً.
عاصفة من الأصوات والذكريات تضرب في رأسها. أصوات جميع الشبّان الذين صادفتهم في حياتها، كانت الجملة التي يكررونها جميعاً هي "أنتِ جميلة وكأنّك دمية باربي"
دمية باربي... دمية باربي... صوت أنور، أجل هي تستطيع الآن سماع أصواتها هي وشقيقها في الطفولة يتشاجرون على الألعاب.
" ـ أريد دُميتكِ يا لارا!
ـ دُمى الباربي فقط للفتيات!"
دمية باربي... دمية باربي... كان سامي أيضاً يخبرها أنّها تشبه دمية الباربي.

" لديّ إحساسٌ عميق بأنني لستُ حقيقيّة، إنني زيف مفتعل ومصنوع بمهارة."

ـ مارلين مونرو قبل انتحارها ـ

****

" لديك رسالة جديدة "
يقاطعها صوت الهاتف من هذيانها، بكلّ برود تسحب الهاتف وتحدّق بالرقم الغريب الذي على الشاشة وهي متيقنة أنّه سامي، وأخيراً.
" بعد ساعة، قرب المحطة الشمالية المهجورة، لا تحاولي أن تعبثي معي وتحضري أحداً يا لارا، أنتظركِ لنتفاهم على كلّ شيء وننهي الأمر بهدوء. لا داعي للشرطة."
بذات البرود، تنتشل نفسها من على الأريكة، لترتدي المعطف وتخرج إلى العنوان المحدّد. تدرك أنّه كان عليها أن ترسل هذه الرسالة الأخيرة منذ الرسالة الأولى. لم تعلم لماذا استهلكت كلّ هذا الوقت تنتظر من سامي أن يردّ عليها دون أيّ تهديد، لا يهم، تفتح باب المنزل للخروج، تتوقف لثانيتين، تّتجه إلى المطبخ ثمّ تحدّق بسكينٍ حادة، إنّها تتظاهر بالقوة لكنّها تعلم من الداخل أن الخوف يأكلها.. تضع السكّين تحت معطفها وهي تدرك ما قد يحصل، وتخرج.
"ـ لقد ركبت في سيارتها الآن وتبدو مستعجلة سيدي.

ـ الحقوا بها وإيّاكم أن تفوّتوا أيّة حركةٍ منها، راقبوها بحذر وانتبهوا من أن تظهروا أنفسكم.
ـ عُلِم سيدي."
يغلق رجل الشرطة الهاتف، ليلحق بها مسرعاً مع العناصر الثلاثة الآخرين بسيارةٍ مدنيّة لئلا يثيروا الشك.
رجال الشّرطة الثلاثة الذين يراقبون جميع تحركاتها منذ وقوع الجريمة، وحتى هذه اللحظة.

****

"أتمنى لو كنّا فراشات، نعيش لثلاثةِ أيّامٍ صيفيّة.
ثلاثة أيّامٍ كهذه معك،
قادرة أن تحتوي من السعادة ما لا تحتويه خمسون عاماً بدونك."

جون غيتس

ـ غنّيت كل الأغنيات الطويلة، كنتُ شاهداً على كلّ شروقٍ وغروب، قرأت جميع كتب الخيبات، لكنّك حتى الآن، وبعد كل ذلك، لم تأتِ.
ـ لكنّني لم أرحل حتى أعود.
ـ ألم ترحلي!
ـ لا، لا تقلق، أنا هنا. أنا لا أرحل.
ـ لكنني شاهدتكِ ترحلين!
ـ الموسيقى تعيدني إليك كحمامةٍ تريد الظل، ولهذا أنا لا أرحل، حدّق بي جيّداً، أنا هنا.
ـ أنتِ دائماً ما كنتِ هنا...

المحطة الشماليّة المهجورة.
تنزل من السيارة بقدميها المتعبتين.. يمين، يسار، تستمرّ بالالتفات لكنّها لا تجد أحداً.
تمسك الهاتف وتحاول الاتصال بالرقم الذي أرسل لها منذ قليل، لكنّه خارج الخدمة.
خمسُ دقائق، الانتظار والخوف يأكلان رأسها. تشعر أنّ عليها العودة
" لكن لا، الأمر ليس بهذه السهولة يا سامي." تردّد في داخلها.
" رقم مجهول آخر" يقاطعها رنين الهاتف.

ـ أخبركِ لآخرِ مرّة، إن كنتِ قد فكرتِ بإحضار الشرطة فعودي أدراجكِ يا لارا، ستندمين لاحقاً.
ـ لو كنتُ أريدها أن تقبض عليك لفعلتها منذ المرّةِ الأولى.
ـ إلى اليمين، ثمّ إلى الداخل.
تغلق الهاتف وتتجه إلى هناك. بخطواتٍ متثاقلة، خائفة لكنّها حاقدة، الحقد يجعلها قويّة.
قويّة كدمية باربي من البلاستيك القاسي جدّاً...
" ـ أريد دُميتكِ يا لارا!
ـ دُمى الباربي فقط للفتيات!"

تنظر إلى الخلف لمرّةٍ أخيرة لتتأكّد أن لا أحد يتبعها، وتدخل.
ها هو، أمامها الآن، بظلّه الأسود الكبير.
ها هي، أمامه الآن، بجسدها الأصفر النحيل. كدمية باربي قديمة...
" دمية باربي.. دمية باربي. كان سامي أيضاً يخبرها أنّها تشبه دمية الباربي..."

ـ ما هذه الشجاعة! ظنّنتُك لن تأتِ!
يقولها وهو ينفث دخان سيجارته من طرف فمه بسخرية.
ـ إن كان هنا شخصٌ عليه أن يخاف فهو أنت يا سامي، أنت وحدك.
خطوة، اثنتان، خمسة.. يتقدّم ليصبح أمامها مباشرةً، يتأمّل رأسها الأصلع، وجهها الشاحب، وجسدها الهزيل، يحدّق بها بنظراتٍ صفراء، ينفخ آخِر ما تبقى من سيجارته حتى الرمق الأخير، ثمّ يرميها على الأرض في بقعةِ مياهٍ متّسخة.
ـ أخاف؟ لماذا قد أخاف؟ ما دامت هذه المرأة التي أمامي قد ضحّت بكلّ شيءٍ لتحميني، كم أنّ حبّكِ صادقٌ يا لارا!
يقولها بسخرية ويقهقه باستهزاء.
ـ تباً لك وللحب يا سامي، تباً لك! تظنّ أنّني مغفلة؟ تظنّ أنّني لم أبلّغ عنكَ لأحميك؟ لأنني أحبّك؟ أنت وغدٌ كبير، وغدٌ كبير لدرجة الاشمئزاز يا سامي!
ـ أعلم، أعلم

يهز رأسه وهو يبتسم مردّداً ذلك، ثمّ يكمل:
ـ أعلم أنّكِ امرأة سافلة، لم تشأ الإبلاغ عن قاتل شقيقها الوغد لتستغل الجريمة قدر ما تستطيع، يبدو أنّ الوقت الذي أمضيته معي جعلكِ أكثر ذكاءً ها؟
ثم يكمل الضحك، يشعل سيجارة ثانية وينفخها بنهم.
ـ كم تريدين؟
ثانية، ثانيتان، وتبقى صامتة.
ـ أجيبي كم تريدين وأنهي الأمر هيّا!
ـ ما تملكه من الشركة ربّما؟
ضحكة هيستيريّة لحقت بجوابها ذاك
ـ الشركة!
يستمر بالضحك وهو يردد:
ـ الشركة إذاً ها؟ يا لكِ من حمقاء يا لارا
ـ سيكون الأمر سهلاً على هذه الحمقاء أن تخبر الشرطة بكلّ شيء، حتّى لو كلّفها ذلك التورّط في السجن معك، الشركة يا سامي، وإلّا إمضاء ما تبقى من حياتك في السجن.
ـ تظنين أنّ دماء شقيقك الوغد تستحق كلّ هذا الثمن؟ لا يا عزيزتي لارا، أنتِ تبالغين باستثمار روحه
ـ اخرس!
ـ انظري أيتها الحمقاء.
يسحب الرمق الأخير من روح السيجارة الثانية، ثمّ يرميها على الأرض في ذات البركة المتّسخة إلى جانب جثة السيجارة الأولى.. يُخرِج ظرفاً من جيب سترته الداخليّ، ثم يكمل:
ـ توقّعين على ورقة الطلاق هذه، أوقّع لكِ على مبلغٍ لا بأس به من دفتر الشيكّات، يمكنكِ صرفه متى ما أُغلِقت القضيّة وزال الحجز عنٍ أموالي، وأنا أعمل على ذلك لا تقلقي! وهكذا نكون قد أنهينا كلّ شيءٍ بالتعادل. فهمتِ؟
ـ الأمر ليس بهذه السهولة
ـ عليهِ أن يصبح كذلك
ـ وإلّا ماذا؟ ها؟ وإلّا ماذا أجبني!

تصرخ في وجهه ثم تقترب منه بضع خطوات حتى أصبحت ملتصقةً به.
ـ لقد أنهيت حياتي يا سامي! أنهيت حياتي تماماً وعليك دفعها كاملة!
ـ حياتكِ لا تساوي هذا الثمن.
تحدّق به، تضحك، تبدأ بالضحك الكثير ثمّ تبكي، تبكي وهي تضرب جسده الجداريّ بذراعيها الهزيلتين.
ـ لقد قتلت شقيقي! قتلتَ كلّ شيءٍ في حياتي! لقد أنهيت حياتي تماماً وتخليتَ عنّي وعليك دفع الثمن!
ـ حياتك منتهية بكلّ الأحوال أيتها الحمقاء! كم تبقى لكِ؟ يوم؟ شهر؟ سنة! أنظري إلى نفسكِ أنتِ تحتضرين، لا شيء سيعيد لكِ شعركِ الأشقر أو عينيكِ اللامعتين!

" كان سامي أيضاً يخبرها أنّها تشبه دمية الباربي..."
ـ إنّكِ ستموتين قريباً في جميع الأحوال، لماذا تريدين بالنقود؟ تضعينها في تابوتكِ الذي ينتظرك؟ حياتكِ منتهية دون تدخّلٍ منّي أيتها الغبيّة!
وضعت يديها على رأسها الأصلع، تشدّ عليه بكل قوّتها وكأنّها لا تريد سماع شيءٍ ما.
أهو صوت سامي؟
" لاشيء سيعيد لكِ الحياة التي رحلت."
لا، لم يكن صوته، كان صوتَ آدم.
" أنتِ أقبحُ امرأةٍ في هذا الكون يا لارا! أتسمعينني؟ أنتِ أقبحُ امرأةٍ في الكون! وعاجلاً أم آجلاً سيكتشف الجميع أنّكِ قبيحة لأقصى درجة وستكونينَ وحيدة!"
ـ وقّعي على الورقة هيّا وخذي النقود ودعينا ننهي الأمر.
" لا شيء سيعيد لكِ شعركِ الأشقر"
ـ هيّا يا لارا!
" ولا عينيكِ اللامعتين!"
ـ اصمت!
" أنتِ أقبحُ امرأةٍ في هذا الكون يا لارا!"
ـ وقّعي وإلا سأنهي الأمر بطريقتي!
"وستكونينَ وحيدة!"

ـ قلت لك اصمت! اصمت!
تبكي وهي تعاود ضربه من جديد بهيستيريّة. لاشيء يوقفها عن البكاء والصراخ.
ـ ستنهي الأمر بطريقتك! كيف ستنهيه؟ قل كيف ستنهيه! ستقتلني؟ هيّا اقتلني ودع كلّ شيءٍ ينتهي هيَّا!!
ـ هل نتدخّل سيدي؟
ـ تجهّزوا في أيّة لحظة سننقضّ على الاثنين.

ـ أجل!
يصرخ وهو يبعدها عنه بقوّة
ـ أجل أقتلك!
ثمّ وبسرعة يسحبُ مسدّساً من خاصرته محدّقاً بها
ـ أخبرتكِ، لا تحاولين العبث معي يا لارا! هيّا أذهبي وأخبري الشرطة بالحقيقة.. كلّ ما سيكلّفني لإنهاء حياتك بعدها هو رصاصةٌ واحدة تخترق جلد رأسكِ الأصلع الرقيق.

" كان سامي أيضاً يخبرها أنّها تشبه دمية الباربي..."
" لا شيء سيعيد لكِ الحياة التي رحلت."
ـ ليس قبل أن أنهي الأمر بطريقتي أنا يا سامي!
بثانيةٍ واحدة..
لارا تسحب سكّينها بجنون وتركض باتّجاه سامي
الشرطة تصيح: "مكانكما أنتما محاصران!"
سامي يطلق الرصاصة دون تفكير باتجاه رأس لارا قبل أن تصل سكّينها إلى جلده. يحاول الهرب، لكن بعد فوات الأوان.
" خذوه إلى السيارة بسرعة وسأرى وضع الفتاة" يصرخ الشرطيّ وهو يركض باتجاه لارا.. إنّها هنا، سقطت مُمدّدة على الأرض، ورأسها في بركة الماء المتّسخة بجانب سجائر سامي التي سحب أرواحها، كانت تبدو كسيجارةٍ ثالثة، صفراء، نحيلة، مُنتهية.
" ميّتة " يقول الشرطي. ثمّ يكمل " هاتوا الجثّة "

الجثّة، هذه المرّة اسمها ليس لارا، ولا الجميلة، ولا كلّ كلمات الغزل، هذه المرّة ولأوّل وآخر مرّة، اسمها الجثّة.
إنّها دمية باربي منتهية الصلاحيّة الآن.
" ـ أريد دُميتكِ يا لارا!
ـ دُمى الباربي فقط للفتيات!"
في لحظتها الأخيرة، بين الخطوة والرصاصة والسقوط، كانت قد أدركت أنّ دُمى الباربي ليست للفتيات فقط، كان سامي أيضاً يخبرها أنّها تشبه دمية الباربي، لم تدرك يوماً أنّها كانت دميته المفضلة، دميته البشرية التي استهلكها وخرّبها، ورماها بعيداً فور انتهاء صلاحيتها وإفسادها. لقد أمضت طفولتها تتمنى أن تكون دمية باربي، أمضت حياتها تتمنى أن تعيش كدمية باربي، ولم تكن تعرف أنّها كانت كذلك فعلاً، كانت دمية باربي سهلةَ الكسر، تخلّص منها فور تخريبها وملله منها.
دمى الباربي لا تعيش طويلاً في أيدي الرجال.

****

"إذاً، الوقتُ له أسنانٌ حادّة." تقولها في نفسها وهي تتأمّل الساعة المستديرة التي أمامها على الحائط. "والخوف يا جمانة، الخوف له أسنانٌ حادّةٌ أكثر، أنظري كيف يعضّ قلبكِ!"
إنّها ومنذ تلك المكالمة تهذي بالحديث إلى نفسها هكذا.
" إنّه حبّ حياتي..." تقنع نفسها. " لكنّ حياتي منتهية الآن.. إنني أموت هنا بصمت."
" الحب أم الموت يا جُمانة! اختاري!"
" الحب." تجيب نفسها، ثمّ تنظر إلى يمينها، هناك حيث تغفو الحياة، طفلها زيدان.
إن اختارت الحب، إن رحلت، إن هربت، إن سافرت، أتتركه هنا!
"لا! لا يا جمانة!"
" إذاً الموت."
تغمض عينيها باستسلام.
"اختاري الموت يا جمانة. إنّه الواقع، أكملي حياتك وموتي هنا بصمتك."

"لكنّني أريد الحبّ والحياة! أنا لا أريد الموت هنا، أريد أن أختار الحب والحياة معه، معه وحسب! ومع طفلي... أريد أن نكون ثلاثتنا.."
"وغيث"
"......."
"لا ذنب لغيث..."
"ولا ذنب لي أيضاً."
" إذاً الحب أم الموت يا جُمانة...؟ الحبُّ أم الموت...؟"
****
كَلونين في لوحةٍ واحدة.

"وذكر مراسلنا بأنّها ماتت برصاصةٍ منه في الرأس قبل أن تستطع طعنه، وحاول هو الآخر الهرب مسرعاً إلّا أنّ الشرطة كانت قد أمسكت به.. وتُفيد المعلومات بأنّ حكم الإعدام سيُنفَذُ بحقّه غداً.. وعليه، فقد تم الإفراج عن المتّهم آدم ليلة أمس وأغلِقت القضيّة."
ـ لا أفهم كيف حدث كلّ هذا، لا أفهم كيف تجري الأمور بهذه السرعة...
تضع الجريدة جانباً، ثمّ تتنهّد وهي تجلس بجانبه
ـ سامي سيموت، لارا ماتت، وأنت أخيراً هُنا... أكاد لا أصدّق شيئاً، لا أصدّق أنّ كلّ هذا قد انتهى وأنّنا الآن معاً!
ـ صدّقي يا سيلينا، عليكِ أن تصدّقي، نحنُ معاً لأننا نستحق أن نكون معاً، إنّها سيمفونيّة كبيرة يا سيلينا، أنا وأنتِ والحب الذي بيننا، وحدنا كنّا الجمهور الصادق من بين ملايين الجماهير.. انظري، جميع من كانوا في المقاعد الأولى تلاشوا الآن، وحدنا من احتملنا بؤس الكواليس. حين كان الجميع يؤمنون بجمال زخرفة الكمنجات، كنّا نؤمن بجمال صوت الوتر، كانوا يرون لمعان الزخرفات، وكنّا نلمس الصدأ، صدأ الوتر. أدرك الآن، أنّه في عالمٍ سطحيٍّ كهذا، يُعدُّ الغريق في عمق القاع هو الناجي الحقيقي، لقد جعلتني أدرك هذا الأمر وعليه أنا مدينٌ لكِ لآخر لحظةٍ في حياتي.
ـ لقد نجونا لأننا غرقنا يا آدم، غرقنا لأننا معاً. وتعلم أنّني التي عليها الامتنان لك على اللون الذي منحتني إيّاه

يبتسم، ثمّ يمسك بيديها بدفء ليكمل:
ـ أتؤمنين بالأبد؟
ـ معك، أجل أؤمن.
ـ أريد من الأبد أن يُتوَّج بعد ثلاثة أيام يا سيلينا!
تقطب حاجبيها بعدم فهم وتبقى صامتة، ليستأنف:
ـ لقد تحدّثتُ مع جواد، سنلقاه بعد ثلاثة أيام في المحكمة كي يكون معنا في عقد القران
ـ عقد القران! بعد ثلاثة أيام!
ـ أجل! إن لم يكن لديكِ أيّةُ مشكلة!
تنظر له وهي تقبّله بعينيها مبتسمةً بعدم تصديق، هي معه الآن، وغداً ستكون معه، وبعد ثلاثة أيام، وطوال الأيام، وإلى الأبد دون أن يخافا! كان الأمر يبدو مثل حلمٍ غريب، كل ما فعلته حينها هو أنّها عانقته بقوّة وهي تبكي من شدّة امتنانها للسماء.
ـ كل الكوابيس انتهت، أنا أعدكِ، كلّ ما تبقى لنا من الحياة هو أن نعيش كما تحبين، وكما علمتِني أن أعيش. أن نعزف ونرسم ونرقص كثيراً. أن نكون معاً وحسب! أريد أن نبقى معاً وحسب يا سيلينا
ـ سيحملنا الفن على جناحه للأبد، ولذلك حتى الموت لن يبعدني عنك، أعدك أن أبقى معك، لأنني أُحبّك يا آدم، والحب كالفن، سيجعلنا خالدَين كلونين في لوحةٍ واحدة.

****

ـ هذه لكِ يا جمانة، أتمنى أن تعجبكِ... لقد طلبت تصميمها خصيصاً لكِ منذ شهور...
يقولها مبتسماً وهو يفتح العلبة المخمليّة الحمراء أمامها، ليظهر عقدٌ من الذهب على شكل اسمها بزخرفةٍ مدهشة.
تبقى صامتةً دون أن تبدّل ملامحها أبداً، لكنّها تتأمّل العقد الذي يبدو غالي الثمن وتحاول أن تظهر له الامتنان..
ـ لكنّ هذا يبدو مكلفاً يا غيث، من أين أتيت بثمنه؟!
ـ لا يهم، لقد كنتُ أدّخر النقود من عملي لشهورٍ طويلة، المهم أن ينال إعجابكِ!
لكنّها تبقى صامتة أيضاً، ليكرر سؤاله باستغراب:

ـ ألم يعجبك يا جمانة؟
تتنهّد وترسم ابتسامةً خفيفة على وجهها الحزين، ثم تقول محاولةً إظهار السعادة له:
ـ شكراً لك يا غيث، شكراً على كلّ هذا ...
ـ لا تشكريني على واجبي يا جمانة
ثم يقترب ويضعه حول عنقها هامساً:
ـ لا تنزعي هذا العقد من عنقكِ أبداً يا جمانة، دعيه يزيّن عنقكِ للأبد.
الزواج واجب، وكان غيث يحاول تأدية واجبه الوحيد المتبقي له في الحياة لعلّه يفلح بشيءٍ ما على الأقل... العائلة.
ـ غيث...
ـ أجل؟
تصمت لثانيتين وكأنّها تخاف من النطق، ثمّ تقول بلهجةٍ متقطّعة:
ـ هل... هل يمكنني زيارة أهلي غداً؟
يضحك غيث باستغراب.
ـ طبعاً يمكنكِ! منذ متى تأخذين إذني في مثل هذه الأمور!
ترتبك ثمّ تجيبه وهي تحدّق في الأرض:
ـ لا ولكن، أقصد أريد البقاء عندهم أسبوع ليس لديك مانع أليس كذلك؟
ـ طبعاً لا، إنّهم أهلك.. جهّزي نفسكِ غداً لأوصلكِ، ستتعذبين بحمل زيدان وحقيبة ثيابكما وحدكِ.
ـ لا!
ـ ...؟
ـ أقصد لا داعي أن تتعطّل عن العمل، ولن آخذ الكثير من الثياب، لا تخف يمكنني حملهما.
ـ متأكّدة؟
ـ أجل..
ـ حسناً كما تريدين عزيزتي
ـ شكراً..
يبتسم، ثمّ يلتفت إلى وجه الملاك النائم في السرير الصغير

ـ ألا يريد أن يستيقظ، لقد اشتقته!
ـ لا تقلق بعد قليل يحين موعد استيقاظه كالعادة جائعاً
يضع إصبعه في كفّ ابنه الصغيرة، ثمّ يقبّلها هامساً بهدوء لئلّا يوقظه:
ـ هكذا تغفو الملائكة يا قلبَ أبيك...

****

لم يؤمن أحدٌ بخطواتنا.
كنّا نريد أن نحلم كثيراً، وأن نموت كثيراً.
وكان الليل لا يتّسع لحكايةٍ تُروى قبل النوم.

ـ بعد ثلاثة أيام!
يقولها غيث بانفعال، لكنّ سامر والجميع يبقون صامتين، يحدّق في وجوههم بألم واحداً واحداً، ثمّ يعود إلى وجه سامر ليكرّر سؤاله والحزن يأكل ملامحه:
ـ أما زلتم مصمّمين على هذه العملية يا سامر! ما زلتم مصمّمين أنّ تفجير المحكمة وقتل الأبرياء هو عملٌ عاقل وسينقذ المدينة من البؤس!
ـ بل سينقذنا نحن يا غيث! سينقذنا نحن! هذا يكفي الآن!
ـ أيّ بؤسٍ هذا! أجبني أيُّ بؤسٍ الذي تتوهمون انتهاءه بهذه الطريقة!!
ـ قلت لك يكفي!!
يصيح سامر في وجهه ليبقى غيث محدّقاً به بصمت، يتنهّد سامر عميقاً، يضبط أعصابه ويبتسم ابتسامته الهادئة الماكرة، تلك الابتسامة التي لم يفهمها غيث يوماً... يضع يده على كتفه بهدوء، ثمّ يهمس مبتسماً:
ـ انظر يا غيث، ربما أنت لن تفهم الأمر أبداً، لكن ربما يوماً ما وفي لحظةٍ ما، ستشعر كما نشعر نحن الآن، أن لاشيء تبقى لك في هذا الكون لتعيش لأجله، ستشعر مثلنا أنّك لا تستطيع الصراخ رغم أنّ الوجع الذي في داخلك يهدم الجبال، ستدرك أنّ الفرصة الوحيدة المتبقيّة لك لتحيا، هي أن تموت! إنّنا في هذه العملية لا ننتحر يا غيث، بل نثبت أنفسنا للوطن، نثبت جراحنا علّ أحداً يراها، نثبت صراخنا علّ أحداً يسمعه ... ربما أنتَ لست شجاعاً بالقدر الكافي لتثبت نفسك للوطن وللجميع بأنّك موجود، وأنا آسف

على قول هذا، لكن نحن يا غيث تعترينا الشجاعة الكافية لفعل هذا، وأصلاً، ما الفائدة من البقاء على قيد الحياة إن خسرت كلّ شيءٍ تملكه؟! ما القيمة للحياة حين نخسر كلّ شيءٍ بها، أجبني يا غيث! لقد خسرنا كلّ شيء. وحين ستشعر بالعجز الذي نشعر به نحن الآن، ستعلم أنّ الموت لمرّةٍ واحدة والبقاء حيّاً في السماء، أفضل بألف مرّة من أن تموت مئة مرّةٍ على هذه الأرض الغير عادلة والتي لا يشعر فيها أحدٌ بالآخر، حين ستكتفي من الألم، ستختار الرحيل صارخاً في وجه الحياة. وعلى الأقل حين نقوم بهذه العملية، سيخلّد أثرنا للأبد بعد الموت، نحن الذين لا أثر لنا ونحن على قيد الحياة...

ثلاث ثوانٍ كاملة من الصمت، وغيث غارقٌ في كلامه. هو حتّى هذه اللحظة لم يفهم كيف يمكنُ لإنسانٍ أن يتخلّى عن حياته بهذه الطريقة، رغم أنّه يؤمن بأنّ آلام هؤلاء الرجال عميقة للحدّ الكافي الذي يجعلهم يتمنون الموت، لكن حقّاً لم يستطع فهم طريقتهم هذه لإثبات نفسهم وجراحهم، ولم يفهم كيف ينظرون للموت على أنّه نجاة...

ـ من... من سيقوم بتفجير نفسه؟ أقصد... بتنفيذ العملية...

يسأله بعدما طال صمته وتحديقه في عيون سامر بألم، بصوتٍ مبحوح ومتقطّع وكأنّه يخشى سماع الإجابة مهما كانت

كان الجميع صامتاً، شعر غيث أنّه لا يريد سماع أيّ اسمٍ منهم، لم يستطع تخيّل أنّ شخصاً من الموجودين معه في هذه اللحظة، سيكون ميّتاً! جميعهم مع الوقت أصبحوا أخوته، أصبحوا عائلته، لم يستطع تخيّل موت أيّ أحدٍ منهم!

ـ من سينفّذ العمليّة يا سامر؟

ـ أنا

يشعر غيث بأن الدماء تجمدت في عروقه، يحدّق في وجه سامر، ثمّ في وجوههم جميعاً، ثم يعود إلى سامر، فإليهم، فسامر، لم يستطع إيقاف نفسه من النظر إليه، لم يستطع أن يصدق أنّه في هذه اللحظة يودعه، أنّ جسده سيكون أشلاءً!

ـ لا يا سامر! أرجوك لا تفعل هذا! أرجوك يا سامر! أتوسل إليك!

يهمس بنبرةٍ متوسلة وصوتٍ خافت كمحاولةٍ أخيرة لمنعهم من ذلك، لكنّ سامر يبتسم، ذات الابتسامة، ويرد بالصوت الهادئ:

ـ لقد قررنا يا غيث وانتهى الأمر، ادعُ لنا بالتوفيق.

ـ لكنّك ستموت! سيموت الكثير من الأبرياء! أنتم لا تفهمون هذا الأمر! فكروا بأرواحهم على الأقل إن لم تفكروا بأنفسكم!
ـ سيعيشون في السماء حياةً أفضل من هذه، سيشكروننا حينها.
ـ هراء! هذا هراء! توقف عن قول هذا الهراء المغفل يا سامر هذا يكفي!
ـ لا شأن لك يا غيث! إن كنت جباناً ولا تستطيع فهم هذا النوع من الألم، هذا النوع من الحزن والشجاعة، فلا شأن لك! هذا يكفي! لقد طلبنا منك المشاركة لمرّةٍ واحدة وأنت رفضت ونحن فهمنا. إننا لا نطلب منك أن تكون معنا أكثر من ذلك. كل ما أطلبه الآن هو أن تتذكرني بالخير وتدعو لي.
ابتلع الصمت غيث وهو يتأمل سامر الذي أنهى آخر كلمةٍ بانفعال في وجهه. خمس ثوانٍ كاملة من السكوت لم يقل بعدها غيث سوى:
ـ أجل. أنت الشجاع، وأنا الجبان، لطالما كنتُ كذلك دائماً.
ثمّ يقوم من مكانه وكأنّه جثّة، ويتجه إلى الباب. إنّه حتى لم يقوَ على عناق سامر للمرّة الأخيرة.
ـ غيث! إيّاك التهوّر وإخبار أحد.
وتذكرني دائماً يا غيث.
وبعدها... لم يحدث أيّ شيء، ولم يصدر أيُّ صوت. لم يفعل غيث شيئاً سوى السير إلى الباب بصمت، بصمتٍ مُطلَق، التفاتةٌ أخيرة إلى وجه سامر، ويرحل.

****

بالكاد استطاع أن يصل إلى منزله، طوال طريق العودة كان يبكي بصمت دون أن يخجل من دموعه. يسأل نفسه إن كانت الحياة سيئةً لهذه الدرجة! لدرجة أن تدفع الناس بقتل أنفسهم كي يهربوا من عذابها! سامر.. سامر سيموت، سيرحل، لن يكون هنا بعد الآن وبمنتهى البساطة!
يضع مفاتيحه في الباب والحزن أثقله، لكنّه يحاول تمالك نفسه ونسيان الأمر لئلّا تظهر ملامح حزنه على عائلته.
كانت رانيا وزوجها زيدان وشقيقتيه في غرفة الجلوس، الطفلتان تلعبان، والده يحدّق في اللاشيء، ووالدته تحدّق في التلفاز.
يحاول صنع ابتسامة ويلقي التحيّة ببرود

ـ مساء الخير
ـ أوه غيث بُني، لماذا تأخرت في العمل اليوم!
ـ لا أمي، لقد أنهيتُ عملي باكراً وذهبت لرؤية أسامر والأصدقاء قليلاً... لأرفّه عن نفسي ليس إلّا.
يتجه بنظره إلى والده الجالس على كرسيّ المقعدين ذاك، يبتسم له ويسأله:
ـ كيف حالك اليوم أبي؟
يغمض له عينيه أي" بخير" وهو عاجزٌ عن تحريك أيّ جزءٍ آخر من جسده.
يجلس على الكنبة إلى جانب والدته، يتنهّد بتعب دون القدرة على النطق بكلمةٍ واحدة.
يحاول أن يتوقف للحظةٍ واحدة عن التفكير في أمر سامر، في أمر عمليته، في أمر كلّ شيء! أليس عليه أن يخبر الشرطة؟ إن أخبر الشرطة ألن يضرّ سامر وأصدقائه؟ مهلاً، سامر سيموت إن لم يفعل ذلك، إضافة للمئات الأبرياء! لكنّ سامر وثق به، ما هو الصواب يا غيث! ما هو الصواب الآن! ما هو ال...
ـ غيث!
يستعيد وعيه من الهذيان الذي في رأسه على صوت أمه بجانبه، يدرك أنّه كان مغمضاً عينيه لخمس دقائق واضعاً يديه على رأسه بطريقةٍ أثارت قلق رانيا لأمره
ـ ما بك!
ـ لاشيء... لاشيء أمي، رأسي يؤلمني
يصمت لثانيتين، ثم يكمل كمحاولةٍ لكسر غرابة اللحظة..
ـ سأتصل بجمانة لأطمئنّ عليها وعلى الصغير، لم أتّصل بها سوى مرّةً في الصباح لأطمئنّ على وصولها إلى بيت خالتي
ـ لقد أخبرتني قبل خروجها أنها ستبقى عند أهلها لأسبوع! لماذا كلّ هذا الوقت يا غيث! أنا أشتاق لزيدان ولا يمكنني البقاء أسبوعاً كاملاً دون رؤيته! أخبرها ألّا تبقى كلّ هذه المدّة..
ـ هذا حقّها يا أمي، حقّها الكامل ولا يمكننا منعها من هذا! ولا تقلقي، سأحضر لكِ زيدان خلال الأسبوع وأعيده كي ترينه.
يمسك هاتفه بتعب، يختار اسمها ويتصل.
" الرقم المطلوب مُغلق، حاول مجدّداً."

يقطب حاجبيه، يعيد الكرّة مرّةً أُخرى.
"الرقم المطلوب مُغلق، حاول مُجدّداً"
ـ هاتفها مُغلق، يبدو أنّها نسيَت شحنه، سأتصل بهاتف خالتي.
خمسةُ رنّاتٍ في الطرف الآخر و..
ـ آلو...
ـ مرحباً خالتي كيف حالك!
ـ أهلاً غيث! أنا بخير، وأنت، كيف حالك يا بُني والجميع!
ـ الجميع بخير خالتي ويرسلون السلام
ـ وكيف حال صغيري العزيز؟
يضحك غيث..
ـ أنتِ أعلم بحاله الآن، لابدّ أنّه سعيد في حضنك أو أنّه نائم
صمتٌ على الطرف الآخر
ـ لم أفهم غيث، اعذرني فأنا في حالة النعاس أكون قليلة الاستيعاب
تقهقه ثمّ تكمل..
ـ كيف هي جمانة إذاً؟
شعر غيث بوخزةٍ في داخله، لم يفهم ما هي، ابتسم بسخرية وهو يقول بصوتٍ متقطّع:
ـ يبدو أنّ كلانا نعِس، لم أفهمكِ خالتي
ـ أسألك يا بُني كيف هي جُمانة
لم يكن غيث في منتصف حزنه ذاك بوضعٍ يسمح باستحمال المزاح أكثر من ذلك، لذا وبلهجةٍ تنهي الحديث بطريقةٍ لَبقة يردّ:
ـ أوه خالتي كفاكِ... أعطني جُمانة من فضلك هيّا لقد اشتقتها واشتقت الصغير
ـ كفاك أنت يا غيث، هذه المقالب لا تنطلي عليّ
ـ خالتي...
تصاعدت لهجة غيث بملل، وشيءٌ ما يستمرّ بوخزه في قلبه
ـ غيث، أعطني جمانة.
تقولها خالته هي الأُخرى بنبرةٍ مازحة لكنّ قلق الأمّ يتخلّلها بوضوح
ـ خالتي أنا لا أمزح! من فضلك أعطِني زوجتي الآن!

ـ زوجتك ليست عندي! كفاكَ يا غيث، أعطِني إيّاها لقد سئمت!
ـ لقد تحدّثت معها صباحاً وقالت أنّها وصلت إليكم، لذا الحيلة مكشوفة، يكفي الآن.
ـ وصلت إلينا!
تقولها بنبرةِ الذعر، باتت تقتنع أنّ غيث لا يمزح
ـ أجل، هيّا أعطني إيّاها
ـ أنت تمزح أليس كذلك؟
يتأفّف غيث بملل منها، لكنّها تكمل مُشكّكة بخوف:
ـ غيث، أقسم لك أنّ جُمانة ليست هُنا! أين هي جمانة يا غيث! إن كان هذا مقلباً فأرجوك توقف، أقسم لك، قلبي لا يحتمل!
ـ مقلب ماذا!! أريد زوجتي وحسب خالتي! دعيها تكلّمني، الآن!
ـ أقسم أنّها لم تأتِ إلينا يا غيث!! أين ابنتي!!!
ـ جمانة... جمانة ألم تأتي إليكم صباحاً!
ـ لا! نحن لم نرها منذ فترة !!ماذا تقول يا غيث! أريد أن أفهم ماذا تقول!!
يشعر غيث أن عاصفةً تبدأ بالهبوب، تتصاعد قليلاً قليلاً، لا يعلم إن كان هذا كلّه مزحة أو حقيقة، لكنّ صوت خالته الذي بدأ يبكي ويرتجف ويسأل بهلع قد أثبت أن كلّ هذا لا يمكن أن يكون مزحةً إلى الآن!
ـ غيث! لماذا تسكت! أين ابنتي!!
ـ ماذا هناك يا غيث؟
تسأله رانيا بقربه بعد أن رأت ملامح الذعر التي أصبحت جليّةً على وجهه.
ـ أغلق الخطّ يا غيث! لا بد أنّك تمزح! سأتصل أنا بابنتي!!
ـ لقد اتصلت بها وهاتفها مُغلق ولهذا اتصلت بهاتفكِ!! هاتفها مغلق! مغلق!!
ـ ماذا تقصد!! ابنتي أين هي الآن! ماذا جرى لها!!
يصيح غيث بانفعال وذعر أكثر وأكثر:
ـ أقول لكِ أنّها خرجت صباحاً وأخذت زيدان وقالت أنّها آتية لتمضي أسبوعاً عندكم! يستحيل ألّا تكون عندكم يستحيل!! لقد اتصلتُ بها صباحاً بعد خروجها بقليل وقالت أنّها وصلت!!

تبدأ خالته بالبكاء والصراخ بهلع، تردد اسم زوجها مناديةً إيّاه غير مصدقة لما تسمع، تُغلَق المكالمة، ويُترَك غيث مشنوقاً على الطرف الآخر منها.
ـ ماذا هناك يا غيث!! هل زيدان به شيء! أجب لقد أثرت خوفي!
ـ جُمانة وزيدان لم يصلا إلى بيت خالتي حتى الآن يا أمي...!!
****
يومان كاملان مرّا، لم يتركوا مشفىً إلّا وسألوا بها، قسم الشرطة ملّ من سؤالهم المتكرر عن أيّ خبرٍ قد يصل إليه، وجميع الشوارع والزُقاق الصغيرة كانت قد حفظت وجه غيث وهو يبحث عن زوجته وابنه في كلّ زاويةٍ من المدينة حتى الآن.
ـ ليس هناك أخبار؟؟ أرجوك يا غيث.. قل أنّك وجدتَ حفيدي!
يحدّق في وجه والدته التي لم تكفّ عن البكاء الهيستيري للحظةٍ واحدة منذ اختفائهما. إنّها تهذي باسم حفيدها طوال الوقت، جاراتها لا يتوقفن عن محاولة تهدأتها لكنّها تنهار أكثر وأكثر. مثلها مثل والده الذي لم يتوقف عن البكاء الصامت للحظة واحدة. مثله مثل والدة جمانة التي تهذي باسم ابنتها وحفيدها في المشافي والشوارع مع زوجها.
ـ ابنتي يا غيث... لقد أصابها مكروه، حدس الأم الذي بداخلي يخبرني بذلك يا غيث...
هو لا يعلم ماذا يجيب، إنّه يحدّق في وجوههم وحسب، طوال اليومين الذين أمضاهما خارج المنزل كان قد حدّق في وجوه نساء المدينة وأطفالها أجمعين، وجوهٌ حزينة، وجوهٌ مليئة بالصمت المؤلم، لكن ولا وجهٌ منهم كان وجهها أو وجه طفله.
منذ خمس دقائق دخل المنزل بعد أن بحث بين كلّ حجرين في المدينة، بين كلّ زهرتين، بين كلّ خرابتين، لقد بحث عنهما في كلّ مكانٍ تماماً، لكنّه لم يجد أحداً...لوهلة خُيّل إليه أنّ عليه العودة للبيت، فتح الباب بهدوء ككل يوم، والدخول، خُيّل إليه أنّه سيجد جمانة ككلّ يوم في الغرفة بعد أن أنهت عمل المنزل، تحدّق في وجه الملاك الصغير، الملاك الصغير الذي ينام في سريره ككلّ يوم، لكن... لكن لاشيء.

ـ رانيا!!! غيث!! افتحوا!!! افتحوا الباب يا غيث!!
صوت الجارة صديقة رانيا تصرخ ليفزع الجميع، كانت تطرق على الباب موشكةً على كسره
ـ رانيا...افتحي يا رانيا...يا إلهي.. يا إلهي...

تحدّق رانيا في وجه غيث بخوف، ثمّ وبلحظة أملٍ زائف تُقنع به نفسها تهتف وهي تّتجه لفتح الباب:
ـ لابد أنّها تحمل أخباراً عنهما! لقد وُجِدوا بالتأكيد!!
يركض غيث إلى الباب هو الآخر، ووالدة جمانة ووالدها، ووالد غيث يراقب الجميع من مكانه بهلع محاولاً رميَ عينيه إلى الباب
ـ ماذا هناك! قولي ماذا هناك! هل عرفتِ شيئاً! هل وجدتهما!!
تردّد رانيا دون صمت، وجارتها تحدّق بها ممسكةً بهاتف في يديها.
ـ رانيا...
تقولها ثمّ تبدأ بالبكاء بهدوء ويديها ترتجفين
ـ ماذا هناك!!!
يصرخ غيث وقد فقد أعصابه في وجهها، لتمدّ الهاتف إليه بصمت وبكاء شديد دون القدرة على النطق بحرفٍ واحد.
عيون الجميع الآن على شاشة الهاتف، كانت الجارة قد فتحت لهم "الفيس بوك" ليظهر منشورٌ واحد أمامهم يعرض صوراً كثيرة مُرفقةً بخبرٍ فوقها...
ـ ما هذا!!
يسألها غيث بانفعال
لكنّها كانت تبكي بهدوء دون شجاعةٍ منها على نقل ما شاهدته، لتصيح والدة جمانة
ـ أعطِني الهاتف يا غيث!!
يحدّق غيث في شاشة الهاتف، هو لا يعلم ما الذي قد يكون مكتوباً هنا، لكنّه يخاف، يخاف من القدر المكتوب..
" وقد تم العثور على حوالي العشرين جثّة حتى الآن من المسافرين غير الشرعيّين والذين غرقوا في البحر المتوسط أثناء السفر، ووفق الإحصائيات فإنّ معظمهم من الشباب في العشرينيات والثلاثينيات من العمر، إضافة إلى عدد لا بأس به من الأطفال والنساء "
قطب غيث حاجبيه بعد قراءته الخبر بصمت، ينظر إلى الجارة التي كانت تستمر بالبكاء
ـ لم أفهم! لم أفهم ما علاقة جمانة في الأمر! يكفي ألغازاً هيّا تكلمي!!

لكنّها لم تتكلّم، بل كلّ الذي فعلته، أن اقتربت منه وبدأت بفتح الصور أدنى المكتوب وتقليبها بيدٍ مرتجفة ورانيا وشقيقتها تحدّقان بها بهلع وخوف دون فهم
استمرّت بالتقليب وهي تبكي، وغيث يحدّق بشاشة الهاتف وبصور الغرقى التي تظهر أمامه،
صورة
صورتان،
رجال ونساء كُثر، أطفال، عجائز...جميعهم جثث مرميّة على الشاطئ
صورة ثالثة، فالرابعة، فالخامس...
لا، بات يهذي بالموت بسبب فكرة فقدان سامر، بات يرى الموت في وجوه الجميع.. إنّه يهذي.. إنّه يهذي. إنّه...!
صرخة، تليها صرخة، تليها صرخاتٌ كثيرة!! صراخ والدته وخالته دوى في أرجاء المكان وشقّ زلزالاً في صدره، حينها علم، أنّه لا يهذي، وأنّ وجه هذا الطفل الذي يستلقي مع خمسة جثث لأطفالٍ آخرين، هو وجه طفله، زيدان.
ـ ليس هو! توقفوا ليس هو!! كفّوا عن الصراخ!!
كان يردد مكذّباً لما يرى، يحاول إسكات الجميع لأنّه لا يريد أن يصدّق، لا بدّ أنّه يشبه طفله وحسب!
ـ هذا ليس طفلي! أنتِ تكذبين! هذه الصورة ليست له، إنّه يشبهه وحسب!!
لكنّ جارته تبكي أكثر وكلّ ما تفعله هو أن تقلب الصورة التالية، وجه امرأةٍ من بين تلك النساء، تشبهها كثيراً، لها ذات الملامح، ذات لون الشعر، كلّ شيءٍ كان يقول أنّها هي لكن غيث كان يسخر من تلك الأفكار السوداء التي تضرب رأسه، إلّا أنّ أمراً واحداً كان كالصاعقة التي ضربته ولم يستطع الهروب منها أبداً...
عقدٌ من ذهب، يلتف على عنق تلك الامرأة، مصقولٌ على شكلِ اسمٍ قد جعل غيث يتجمّد في مكانه.. " جُمانة ".
يُقرّب الهاتف من عينيه، الجميع يصرخ، الجميع يبكي، لكنّه صامتٌ تماماً. هو متأكّد أنّ ما يراه مجرّد وهم، إنّه كابوس! كابوسٌ وحسب! أجل، أجل إنّه وهم! يعيد قراءة الخبر بهدوء، هناك خطأ ما، سيعيد كلّ شيءٍ من البداية ثمّ يستيقظ...

" وقد تم العثور على حوالي العشرين جثّة حتى الآن من المسافرين غير الشرعيين والذين غرقوا في البحر المتوسط أثناء السفر، ووفق الإحصائيات فإنّ معظمهم من الشباب في العشرينيات والثلاثينيات من العمر، إضافة إلى عدد لا بأس به من الأطفال والنساء "

ثمّ من جديد، يفتح صور الغرقى، يحدّق في وجوههم واحداً واحداً وصورةً صورة، من المفترض أن ينتهِ هذا الكابوس عند الصورة الخامسة، حينما صرخت والدته، أجل، ها هي، الصورة الأولى، الثانية، الثال... لكنّه توقف عند الثالثة، قبل صورة طفله بكثير...وجه هذا الرجل.. هذا الرجل.. ليس هو، ليس من المفترض أن يكون هو... لا يريد أن يتذكّر، إنّ تذكّر الأمر سيثبته لنفسه! لا يريد...لا يريد!!

كان الجميع يصرخون في رأسه، وصوت أنفاسه بات أعلى وأعلى، وقدماه تفتّتا من كثرة الارتجاف إلى أن انهار على الأرض.

والدته لا تتوقف عن النحيب والهيستيريا، والده يحدّق بهما وهو لا يستطيع فهم ما يجري بهذا السرعة، شقيقتيه مذعورتين. أهل جمانة، والجميع. وهو، يعاود فتح الصّور مجدداً، متأمّلاً وجه طفله على الشاشة، إنّه طفله! هذه الجثّة الصغيرة الزرقاء والمليئة بالرمال هي طفله!! كلّ ذلك كان ضوضاء غير مفهومة، تتكرّر في رأسه كعاصفة وهو لا يزال يحدّق في شاشة الهاتف ويراقب الصورة، يمسك الهاتف، يعاود تقليب الصور من الأسفل إلى الأعلى.. صورة جمانة، إنّها هي! صورة الطفل، إنّها هو زيدان! لحين أن عادت صورة ذلك الرجل..

بدأ يصرخ، يقبّل الشاشة الباردة، كان صوت صراخه يبدو خافتاً رغم ضجيجه، كان يبكي، كان يشهق، كان يقبّل الشاشة ويتوسل الله بأن يكون كلّ شيءٍ كابوساً! ثمّ يكرّر صورة تلك المرأة، تلك الجثّة التي ترتدي عقداً منقوشاً باسم" جُمانة"، ليبتعد عن تقبيل الشاشة ويبدأ بضرب زجاجها بكلتا يديه وهو يصرخ " لماذا!! لماذا!!!"

كان يضرب الشاشة بعنف لكنّه عاجزٌ عن كسرها، إنّه عاجزٌ عن تحطيم من حطّموه حتّى! إنّه إنسانٌ عاجز! عاجز!!

"عاجز" تلك الكلمة التي تأبى أن تفارقه، تريد الالتصاق به طوال الزمن، طوال الحرب، طوال العُمر، هل يجب أن ينتهِ العمر كي ينتهِ العجز!

لا يريد التذكّر! لا يريد الاعتراف لنفسه بالحقيقة، لا يريد التذكّر!

"ـ قلت لكِ من هو أيهم!
ـ الرجل الذي أحببته ومازلت أحبّه!"
لقد تذكّر. لقد خسر. لقد أدرك... أدرك أنّ الأمر أكبر من كونه كابوساً، إنّها حياة، والحياة لا تنتهي بهذه البساطة عند اللحظة التي نريد... لكنّه يريدها أن تنتهي الآن.. أن تنتهي وحسب...
"انظر يا غيث، ربما أنت لن تفهم الأمر أبداً، لكن ربما يوماً ما وفي لحظةٍ ما، ستشعر كما نشعر نحن الآن، أنّ لاشيء تبقّى لك في هذا الكون لتعيش لأجله، ستشعر مثلنا أنّك لا تستطيع الصراخ رغم أنّ الوجع الذي في داخلك يهدم الجبال.. ستدرك أنّ الفرصة الوحيدة المتبقيّة لك لتحيا، هي أن تموت."
****

"وهكذا أتركُ هذا العالم، حيث يجب على القلب أن يتحطّم أو يتحوّل إلى رصاص"

نيكولاس سباستيان شامفورت

ثلاث ساعاتٍ كاملة مضت، آخر ما كان قد سمعه قبل خروجه من المنزل هو صراخ والدته للفاجعة الكبيرة، ثمّ ترديدها بهلعٍ أكبر "إلى أين تذهب يا غيث! إلى أين تذهب أيضاً!"

كل الضوضاء التي في رأسه، والضجة، والصرخات، والبكاء، والضحك الهيستيريّ، وشاشة الهاتف، ووجه طفله المتخثّر بالغرق والمليء بالرمال، والاسم الذهبيّ الذي عمل لشهورٍ كي يدفع ثمن نقش أحرفه " جُمانة"، ودراسته، ومستقبله الذي ضاع، وليلى ... وكلّ شيء! كلّ شيءٍ قاد خطاه الثقيلة دون وعي، إلى بابٍ واحد.. باب الموت الذي يدقّه بكلتا يديه وبكامل هذيانه ووعيه.

ـ غيث!

في تلك الليلة، ولربما كانت أول وآخر ليلة، ولأوّل مرّةٍ في حياته يشعر غيث أنّه يقول أمراً بكلّ إرادته مستسلماً بتعب، دون أن يقوى على الركض خطوةً أُخرى بعد، أساساً... ما الذي قد تبقّى لإنسانٍ مثله لكي يركض لأجله؟

ـ هل أتيت لتودعني...؟

ـ بل لأودّع نفسي.

ـ ......؟

ـ لم يتبقَّ شيءٌ يا سامر... أنا أَولى منك الآن بهذا الموت، كلامك كان صحيحاً...ما نفع حياةٍ خسرنا بها كلّ شيء! يبدو أنّ الحياة لا تريدني، ترغب في تقيّؤي بأيّة طريقة. دعني أُساعدها وأصنع نهايتي بيدي على الأقل... أنت، ابقَ هنا، اجعله معروفك الأخير لي. ربما سيكون هذا هو الأمر الوحيد الذي سيجردني من عجزي،

الموت.

****

" في أعماقي موسيقى خفيّة، أخشى عليها من العزف المنفرد."
محمود درويش

الأغاني، تلك الأغاني التي نكرّرها لمراتٍ متتاليّة، التي نسمعها تحت المطر ونركض على إيقاعها فرحين، التي نتشاركها مع شخصٍ واحدٍ فقط، التي تبعث السعادة في قلبنا رغم أنّ كلماتها مرعبة، هذا النوع من الأغانّي، دائماً ما يكون لحناً تنبؤيّاً، دائماً ما يكون إشارةً من القدر لحصول أمرٍ ما... كأن تزول تلك السعادة المرافقة للنغم، وتبقى الكلمات المرعبة وحدها هي التي تتكرر...
تلك الأغاني،
التي نكررها لمراتٍ متتالية، التي نسمعها تحت المطر ونركض على إيقاعها فرحين
كما فعل آدم وسيلينا ذات يوم، حين ركضوا تحت المطر، مكرّرين أغنيةً واحدة...
"you and I, we were born to die"
" أنت وأنا، ولدنا كي نموت "
عليه أن يخاف، من لا يؤمن برؤى القصائد والأغاني.

المحكمة
هنا، في المحكمة، يأتي المئات من الناس يوميّاً، هنا تنتهي العلاقات وتبدأ، اثنان يأتيان للزواج، واثنان للطلاق.
هنا يبحث المظلوم عن حقّه، ويشعر الظالم بالقلق.
هنا يبدأ الحب. هنا ينتهي الحب. هنا قد يموت الحب دون أن يموت.

تقف التاكسي الصفراء مقابل باب المحكمة، بعيدةً عنه قليلاً

ـ أخبرني جواد أنّه سينتظرنا عند الباب
يقول آدم، لتنظر سيلينا عبر نافذة التاكسي باحثةً عن جواد
ـ لكنّني لا أراه يا آدم
ـ حسناً دعينا ننزل لنبحث عنه
ـ لا بأس، سأنزل أنا وأجده لربما يقف في الداخل، لا تنزل من أجل والدك يا آدم، سأجد جواد وأحضره إلى هنا كي يساعدك في النزول يا عمي.
ـ شكراً لكِ يا ابنتي
يردّ عليها والد آدم الجالس في المقعد المجاور للسائق
ـ ما كان عليكما الحضور أنتِ وأبي يا أمي، إنّ أبي بالكاد يستطيع المشي، كان عليكما الارتياح في المنزل
ـ ما هذا الكلام يا آدم!
تقول والدته وهي تكمل مبتسمة:
ـ أنا ووالدك نريد أن نفرح بلحظة عقد قرانكما، إنّها لحظة لا تأتي كلّ يوم!
ـ مثلما قالت والدتك يا آدم، إنّها لحظة لا تأتي كلّ يوم يا بُني...
يبتسم آدم وتنظر له سيلينا مبتسمة هي الأُخرى بنشوةٍ وسعادة لم يكن بوسعها وصفهما، تأمّلته بصمت لثلاث ثوانٍ بعد أن نزلت من التاكسي، نظرت له وهو يرتدي بذلته الرسميّة تلك، ذات اللون الأسود والقميص الأبيض، شعرت أنّها لا تريد أن تتركه لثانيةٍ واحدة! لكنّها استمرّت بالابتسام وهي تغلق باب التاكسي قائلة:
ـ سأرحل الآن، لأجد جواد، لن أتأخّر.
تتّجه إلى المحكمة، وتدخل الباب، بثوبها البنفسجيّ الطويل، وشعرها المفرود على كتفيها، ووجهها المشرق رغم ندوبها وتشوّهاتها، ورغم نظرات الناس إليها، إلا أنها في ذلك اليوم، كانت راضيةً عنه ولم تتردّد في إظهاره كاملاً وعدم تغطيته بشعرها، ربما كانت أول فتاة تذهب إلى عقد قرانها بدون وضع الماكياج، فقد كانت تشعر أنّها جميلة، جميلة جداً بالنسبة لشخصٍ واحد، ويكفينا أن يُشعرنا إنسانٌ واحد بأننا جميلون حتى نكسر كل المرايا وننظر لأنفسنا من خلاله.
" في العالم الموازي أريد أن أكون أغنية.
أغنية لديها فرصة للبقاء إلى الأبد حتى ولو ماتت في أذنِ أحدهم."

بقدميه اللتين تقودانه إلى الموت الآن، خطوةً خطوة، كان يتقدم باتجاه باب المحكمة وشريط حياته يمرّ أمام عينيه. يشعر بالحزام المتفجّر الذي تحت ثيابه ينتظر العدّ التنازليّ، وبكلّ ما تحمله روحه من زهدٍ في تلك اللحظة، قام بتشغيله، ليقترب من احتضان الموت أكثر، ناسياً كلّ شيء، متذكّراً كلّ شيء.... كان الألم يخدّره بطريقةٍ مُرعبة، كافية لإنهاء كلّ شيء عبر عدٍّ تنازليّ يبدأ من العشرين.. بقي عشرون خطوةً لمعانقة الموت والنجاة من الحياة.

عشرون، تسعة عشر، ثمانية عشر
دو
سيلينا بين الحشود تبحث عن جواد لكنّها حتى الآن لم تجده.
"أريد أن تتحوّل روحي بعد موتي إلى عصفورٍ يمكنه أن يراك مع كل موسمِ برتقالٍ يزهرُ في المدينة."

سبعة عشر، ستة عشر، خمسة عشر
ري
يرنّ هاتف والدة آدم فجأة،
- إنّه جواد يا آدم
- حقاً؟ أعطني إياه لأجيب!
" في العالم الموازي، أريد أن أكون فراشة، وأن يكون لجناحيّ غبارٌ ملوّنٌ كثيف كي أصبغ جراحك به، أو حتى موجةً تنتهي عند شواطئ كفّيك بمنيّةٍ زرقاء."

أربعة عشر، ثلاثة عشر، اثنا عشر
مي
يقف أمام باب المحكمة، يتأمّل وجوه الناس جميعاً، يشعر أنّه يرغب بالصراخ! الصراخ في وجههم وحسب، لكنّ شيئاً ما ورغم كلّ ما حصل يمنعه من ذلك، وجملة تتكرر في ذهنه كلّما اقترب أكثر:

" حتى صراخنا بات كموت أوراق الخريف عند السقوط، انتحارٌ صامت."
يذكر الآن، في عمر السادسة.
" أبي، ما معنى اسمي!"
" الغيث هو المطر، أنت مطرٌ يا غيث ولكلٍّ من اسمهِ نصيب."
يسأل نفسه، كيف يمكن لإنسانٍ عاش حياةً ثقيلةً كهذه أن يموت بتلك الخفّة؟
كقطرة مطر تعلم منذ لحظة ولادتها أنّها ستموت في اللحظةِ التالية، بعد حياةٍ من نصف ثانية أمضتها كلّها في السقوط.
" أنت مطرٌ يا غيث، ولكلٍّ من اسمه نصيب."

أحد عشر، عشرة، تسعة
فا
- أين أنت يا جواد؟
- لم أصل للمحكمة بعد يا آدم كان لديّ عمل ضروري واضطررتُ للتأخير رغماً عن إرادتي أنا آسف.
- لا عليك يا أخي، ولكن سيلينا دخلت للبحث عنك، فقط اتصل بها وأخبرها أنّك لست في الداخل
- حسناً ثانيتان وأكون عند باب المحكمة وأتّصل بها لتلقاني
- حسناً
"أريد أن أكون حمامةً جناحاها غيمتان، تحمل دعائك في كلّ مرّةٍ تنظر بها إلى السماء دون أن تتحدّث."

ثمانية..
" سأصبح طبيباً وأحقق حلمك وحلمي يا أبي"
" أريد أن أكون تنهيدةً في فمِ شخصٍ أخرس."
سبعة..
" - أحبّكِ يا ليلى...

ـ وأنا أيضاً أحبّك يا غيث... "
" أن أكون قصيدةً تبكيك قافيتها."

ستّة..
صول
" أنتِ زوجتي يا جُمانة وأعدك أن أسعدكِ للأبد، وهذا طفلنا، زيدان! انظري لملامحه الملائكيّة يا جُمانة..."
"أن أكون نهاية فيلمٍ سعيدة."

خمسة...
لا
يقف عند الباب، يحاول الدخول إلى المحكمة لكنّ رجال الشرطة يوقفونه للتفتيش،
ـ دعني وشأني أريد الدخول!
ـ لا يمكنك الدخول دون تفتيشٍ سيدي ألا تفهم!
" أن أكون مطراً في الصيف، يهطل فوق مدينةٍ بأكملها لأن هناك قطة واحدة تشعر بالعطش."

أربعة..
سي
سيلينا، بالثوب البنفسجيّ الطويل لاتزال تبحث عن جواد إلى أن رنّ هاتفها باسمه، همّت على الرد عليه لكنّ صوت الصراخ والضجّة التي كانت تأتي من الباب استوقفها لتتجه إلى الباب بفضول علّها تفهم ما يجري...
" أن أكون لوحتك المفضلة."

ثلاثة..
دو
ـ قلت لك ابتعد عن طريقي ودعني أدخل وإلّا!
ـ وإلّا ماذا؟

صاح رجل الشرطة في وجهه.
صوت العم كامل في أذنه يردد:
" ماذا لو ظنّت طيور الأقفاص، أنّ السماء هي المنفى البعيد؟"
يرمي بنفسه ورغماً عن رجال الشرطة إلى الداخل..
إلى داخل المحكمة...
" ـ لماذا نسهر كثيراً يا سيلينا؟
ـ لأننا نخافُ أن نحلم."

اثنان
سكتة
" أحبّك يا ليلى."
"سأصبح طبيباً."
"أنتِ زوجتي يا جمانة وسأكون زوجاً صالحاً ونكوّن عائلة تعوّضني عن كلّ شيء."
"ما أجملك يا بُني، يا زيدان الصغير، أنت ابن قلبي يا ولدي."

واحد!
علامة بيضاء!
" دع الموسيقى تذكّرك بي دائماً يا آدم، وارسمني دائماً.
دعي اللوحات تذكركِ بي دائماً يا سيلينا، واعزفيني دائماً. "

صفر.
علامة سوداء.
" أنتِ أجمل امرأةٍ يا سيلينا.
أنت أقوى رجلٍ يا آدم."
" في العالم الموازي، أريد أن أكون أغنية.
أغنية لا تملّ سماعها أبداً حتى ولو ماتت في أذنك، فإنّك تستمرّ بترديدها قبل النوم.
وهذا ما سيجعلني سماءً مزروعةً في داخلك تعيش بامتدادٍ سرمديٍّ إلى الأبد."

انفجارٌ كبير..
هزّ المكان
كما تهتزّ الكمنجات
بعد جهد العزف الكبير،
إلى أن ينقطع الوتر.

“You and I, we were born to die”

" أنت وأنا، ولدنا كي نموت "

****

السماءُ في كلّ مكان.

"اعزف لي يا آدم بعد موتي، اعزف مقطوعتنا التي علّمتك إيّاها في ليالي سهرنا الطويلة.
ولا تتوقّف عن الرسم أبداً، إن توقّفت يوماً فاعلم أنّك هجرت طيفي الذي يسكن في لوحاتك.
أخبرتك يا آدم، الفن هو الفرصة الأخيرة التي تبقّت لهذه المدينة كي تنجو، أخبرتك أنّ مدينتنا خسرت أطفالها ونساءها ورجالها وأطباءها ومهندسيها وعامليها، لا تدعها تخسر فنانيها أيضاً يا آدم!
ارسم لأجلي، ولأجل المدينة، الشوارع باهتة، لوّنها...
ولا تيأس يوماً، ولا تكتئب مجدداً! إن شعرت أنّك حزين أو باهت تذكرنا، تذكر مقعدنا في الميناء، تذكر أغنياتنا والرقص تحت المطر كالأطفال، تذكر جميع الألوان واللوحات التي رسمناها سويّاً.
وفي كلّ مرّةٍ تهبّ الرياح من لوحتك على طيف شمعتنا، تذكرني.
وإن لم تتقن استحضاري إلى الذاكرة، فغنِّ أغنيتنا اليتيمة.
وإن لم تتقن الغناء وحيداً، فارقص على إيقاع الصور.
وإن لم تتقن الرقصة، فخذ ظلّ جناحي الكسير
وطِر، طِر إليَّ، إلى هنا،
إنّي أعيش في لوحتك.

لأنّني مثلك، لا أتقن الرقص ولا الغناء ولا ترميم أعشاش الذاكرة
جميع جماهير السطوح ترفضنا، ولوحتك عميقة وموطنٌ للغارقين أمثالنا
الذين لا يتقنون شيئاً من الحياة سوى الحياة.
فاترك لهم السطح مظلماً وطِر إليّ لنغرق، في العمق المنير هنا، في لوحاتك.
شكراً لك يا آدم، لكونك المرآة الوحيدة التي لم أكره النظر لنفسي من خلالها أبداً.

ضوءٌ خافت في غرفةٍ يبتلعها الظلام، كرسيٌّ بجانب النافذة، مطرٌ يكاد يحطّم الزجاج، أغانٍ، وهو.
إنّه يقرأ كلّ ما كتبته في هذه الصفحات، كان يلتهم كلماتها التهاماً، ويكررها صفحةً صفحة، لم يعلم إن كان السبب بغرقه في كلّ كلمةٍ هو سعادته بكونه بات يستطيع الرؤية، وإنّه الآن يقرأ خطّها، ويقرأ هذا الدفتر الذي كانت تحدثه عنه كثيراً، بقي ممسكاً بالصفحة الأخيرة تلك، ويشعر بالنار تضرب في قلبه وقد أعاد قراءتها للمرّة الثالثة عشر. كان صوت الأغنية خافتاً جداً، بالكاد يستطيع سماع كلماتها التي تتكرر في رأسه
"You and I, we were born to die"
" أنت وأنا، ولدنا كي نموت "
ـ ينهار الانتظار قليلاً قليلاً منّا، كما يذوب الوقت في قمم الشموع.
قالتها له وهو يعيد تشغيل أغنية " Born To Die " للمرّة الرابعة.
كان يتأمّلها وهي تجلس أمامه مرتديةً ذاك الثوب الأصفر، كان يتأمّل ملامحها ووجهها الجميل، كان يشعر بأنّ كل ندبةٍ في وجهها هي نافذةٌ للنور، أراد أن يخبرها بمدى سعادته أنّه رآها أخيراً لكنّه اكتفى بتكرار الأغنية، يتأمّل ملامحها مجدداً ثمّ يبتسم ويهمس لها بصمت:
ـ لا أعلم منذ متى بدأت أحبّها هكذا!
ـ أخبرتك مرّة، إنّك حين ستغرق في ماهيّة الشعور يوماً، ستعرف كم هي كبيرةٌ لذّة الألم مع الاستماع لأغانيها.
تلاشت ابتسامته قليلاً قليلاً وهو ينظر في عينيها، أخذ سيجارته الثالثة ثمّ أشعلها، لكنّها سرعان ما سحبتها من يده كالعادة لتطفئها وهي تبتسم هامسة:
ـ هناك ما يكفي من دخان الحرائق في هذه المدينة، لا تزد الأمر سوءاً عليها بسجائرك.

ـ هل الموت مؤلم؟
ـ إنّه كما الأحلام.
ـ وهل الأحلام تؤلم؟
ـ لها ذات لسعة الأغنيات.
ـ وهل تلسعنا الأغنيات لحظة الموت؟
ـ إنّها تلسعني وتلسعك مع كلّ حلمٍ يا آدم...

ثم تكمل:
ـ هل أعجبتك الصور التي التقطّها لك؟
ـ لقد آلمتني يا سيلينا...
ـ لا أريدك أن تتألّم، أريدك أن ترى الكون مجدداً، أتذكّر حين كنت تقول لي أنّه من المستحيل عودة نظرك لك مجدداً، وأنّك لن ترى كلّ هذه الصور التي ألتقطها لك في نزهاتنا، ولن ترى اللوحات التي رسمناها سويّة.. ولن تقرأ دفتري الذي أكتب فيه جميع قصائدي، أتذكر كلّ هذا؟ وها أنت الآن! ترى كلّ شيء! عليك أن تكون سعيداً يا آدم، أريدك أن تكون سعيداً لرؤية الحياة مجدداً.
ـ لكنني لا أريد رؤيتها بدونكِ يا سيلينا! كان الكون يبدو أجمل من خلال عينيكِ!
ـ وإنّك الآن تراه من خلال عينيّ أيضاً! وستبقى كذلك للأبد!

شعر برعشة كبيرة وبدأ يفرك عينيه، والأغنية تردد بصوتها الخافت:
“Choose your last words, this is the last time”
" أنطق كلماتك الأخيرة، إنّها المرّة الأخيرة "
ـ والسماء يا سيلينا؟
ـ ما بها السماء؟
ـ هل سنلتقي في السماء؟
ـ من يدري، ربما لنا عشٌّ هناك...
حدّق فيها، وبداخل عينيها، وبثوبها الأصفر، وبندوبها، الجميلة.
ـ ألن تكمل القراءة؟

ـ إنّني أقرأها كلّ يوم...
ثمّ يحدّق فيما تبقى من الرسالة، إنّه دائماً ما ينتزع قلبه منه حين يصل إلى هذا الجزء، لكنّه رغم ذلك، في كلّ مرة، يكمل قراءته.
" لا أعلم لماذا أكتب رسالةً كهذه الآن، موت أبي وأمي، موت سامي، موت لارا، جعلني أدرك أن الموت قد يأتينا في أيّة لحظة، إنّه يحيط بنا من كلّ مكان يا آدم. لقد تأمّلت كثيراً في سماء هذا الصباح، كانت الشمس تشرق بحدّة، لطالما دائماً ما كنت تقول لي بأنني شمسك، عاودت النظر إلى السماء ليلاً من ذات النافذة، الشمس قد رحلت تماماً وكأنّها لم تكن للحظة، حينها سألت نفسي، ماذا لو كنت شمسك التي ستغيبُ يوماً؟ أنا لا أريد للنور أن يتركك، لا أريد أن تشعر بالظلام للحظةٍ واحدة ولا أريد أن أغيب عنك! لذا، وبكلّ حبّي واندفاعي لك، بدأت أكتب لك هذه الرسالة والتي استمرّ بكتابتها الآن، لقد قررت أن أعطيها لجواد صباحاً وأن أخبره بأمر وصيتي الوحيدة، عيناي لك... بل كلّي لك يا آدم.
إن أضعتني يوماً، تجدني في الموسيقى، أؤمن أنّ الموسيقى هي أُمي الروحيّة.
ولدتُ من خاصرةِ الكمنجات، أعيشُ حياةً بالأسودِ والأبيض في زاوية بيانو عتيق الأزل. وغداً، قد يدفنوني في تابوتٍ على شكل غيتارٍ فارغ. بعد أن ينشروا النوتات المهترئة ويقولون " هذه نعوةُ فتاةٍ انتحرت من أعلى السلّم الموسيقيّ، لأن الماضي كان ينقضُّ عليها عبر الأغنيات حدّ التمزّق والموت."
ولكن، حتّى لو مات العازفون، فالموسيقى لن تموت.
لا عليك... لا يهم هذا الآن ولا أعلم لماذا أكتب هذه الثرثرات.
كلّ الذي أعلمه أنّك حين ستقرأ هذه الرسالة يوماً ما ستكون وصيتي قد نُفِّذت في منحك هاتين العينين اللتين لم تملّا من تأمّلك يوماً.
إن أتى يوم وقرأت هذه الرسالة، فصلِّ لأجلي، شغّل الموسيقى واكتب رثائك لي بالقصائد، اعزف مقطوعتنا اليتيمة تلك، انظر إلى ألبوم الصور الذي جمعته لك، أو ارسمني.. لكن لا تتألم بصمت.
فقد أخبرتك يا آدم، أن الألم بصمت هو طريقة العاجزين في الحزن.
حين تريد أن تصرخ، غنِّ.
حين تريد أن تنزف، ارسم.

حين تريد أن تسقط، ارقص.
حين تريد تفاني الفناء، عِش للنصف الأوّل من تلك الكلمة.." الفن".
لأن الفنّ هو طريقة العظماء في الحزن.
حين ستقرأ هذه الرسالة سأكون قد مُت، وكتفي لن يكون هنا لتستند عليه.. لذا، لقد تركت لك الكمان، أستند عليه كلّما أرهقك التعب، سيوفر عليك عناء الأنين، وسأكون قريبةً منك، إنني في خاصرة الكمنجة أنتظرك، وفي زاوية اللوحة، وعلى هامش القصيدة.
إنّني معك في كلّ مكانٍ يا آدم، إنّني سأبقى على قيد الحياة طالما أعيش في لوحاتك، طالما تجمعنا أغنياتٌ وصورٌ ورقصاتٌ كثيرة، إنّني معك!
لا تدع الوتر ينقطع يا آدم، تحسّسه بهدوء واشعر به، لأنّه إن انقطع، سأموت.
أُحبّك يا آدم!"

"You and I, we were born to die"
"You and I, we were born to die"
"You and I, we were born to die"

" أنت وأنا، ولدنا كي نموت "
" أنت وأنا، ولدنا كي نموت "
" أنت وأنا، ولدنا كي نموت "

- لماذا تنتهي الأغنيةُ بومضةٍ واحدة! ولماذا سترحلين يا سيلينا!
- لأنّك تحلم، عليك أن تؤمن بالحقيقة، دعنا نقف لحظة لنفهم الحقيقة، أو بالأحرى لنصدق ما نحاول تكذيبه، دعنا نعترف أنه لا شيء جميل في هذا العالم يدوم للأبد، نحن نشعر بنشوة كلّ شيء لمرة واحدة أو لمئة مرة لكن في النهاية هناك فراق ينتظرنا عند نهاية الطريق.

كنشوة الأغنيات والموسيقى الشهيّة، نغرق نحن حتى آخر نقطة في عمق النغم، ثمّ سكتة موسيقيّة واحدة، تجهضنا إلى هذا الواقع الرمادي من جديد، لا شيء يدوم يا عزيزي سوى الأحزان وندوب الذاكرة.. تكرار الأغنيةِ لن ينقذها من الانتهاء.
- أخاف أن أفتح عينيّ ولا أجدكِ يا سيلينا... الحلم وحده من يحضركِ إلى هنا.
- إنّني لم ولن أتركك للحظة، وأنت أيضاً لا تتركني، اعتنق الفنّ للأبد، فالفن هو الذي يجمع الموتى بالأحياء على هذه الأرض.
- في غيابكِ تائهٌ أنا، كإيقاعٍ مشنوق بين الوتر ودموعِ العازف، دعيني أعانقكِ لأشعر بلون وجودي مرّةً واحدةّ بعد...
يقولها بصوتٍ مرتجف، يريد أن يبكي، يستمرّ بتأمّلها مادّاً ذراعيه ليعانقها، أراد عناقاً طويلاً يُخدّر وجوده، لكن الأغنية صمتت تماماً، وسيلينا تقف، تمشي باتجاه الباب، وتغلقه وراءها، جدران الغرفة كاملةً تهتز من قوّة الصوت، ليس صوت إغلاق الباب، بل صوت الرعدة التي أيقظته من نومه على الطاولة.
لا أغنية هنا، لقد انتهت للمرّةِ الرابعة، تكرار الأغنية لم ينقذها من الانتهاء.
بصعوبةٍ فتح عينيه، كان رأسه مستلقياً على الطاولةِ بتعبٍ فوق السطور الأخيرة من تلك الرسالة
" لا تدع الوتر ينقطع يا آدم، تحسّسه بهدوء وأشعر به، لأنّه إن انقطع، سأموت.. أُحبّك يا آدم!"

وفي يده تلك الصورة، التي لم يتوقف عن تأمّلها كلّ يوم. يتأمّل وجه سيلينا وهي ترتدي ذات الثوب الأصفر، وكانت تبتسم للكاميرا رغم أنّ الحزن يبدو لامعاً في عينيها. وينظر إلى نفسه من خلفها وهو يبدو محدّقاً في العدم، يتذكّر ذاك اليومِ جيداً... حين اصطحبته للميناء، حين أكلوا الذرة، حين ضحكوا كثيراً وتحدثوا كثيراً، حين رسم أوّل لوحةٍ معها... إنّه يتذكر ذلك كلّه، ويبكي بصمت.
يقلب الصورة ليجد عبارةً مكتوبة على ظهرها:
" شكراً لك يا آدم، ففي هذا اليوم جعلتني أشعر ولأوّل مرّةٍ في حياتي أنّني جميلة! لقد جعلتني ولأوّل مرة أظهر بوجهي الكامل في الصور، وجهي المليء بالندوب، وجهي القبيح، وأرتدي ثوباً أصفر لا يناسب لون هذا الوجه الباهت. إنّني أكتب هذا الآن لأشكرك حين سترى هذه الصورة يوماً ما، ولأخبرك أنّني في هذا اليوم ولأوّل مرّة

خرجت بثوبٍ لم يناسبني، ودون أن أضع الماكياج على وجهي، لأنّني كنت جميلة، معك أنت وحسب."
ماذا يريد الآن؟ أن يبكي؟ أن يصمت؟
لا.. إنّه يريد أن يصرخ.. لذا، كلّ الذي يفعله أنّه يشغّل الأغنية. لأنه يؤمن بما تقول سيلينا، وسيلينا قالت مرّةً:
" للأغنيات والصرخات صدىً واحد يرتدُّ عن ذات الجدار."

"Darke Paradise"

مشهدٌ واحد يحضر إلى ذاكرته في كلّ مرّة يعيد تشغيلها.
الميناء.
الجدال حول أغاني لانا.

"ـ حسناً لأكون عادلة سأدعك تختار أنت أغنيةً لها، ما رأيك؟
ـ من أخبركِ أنني أعرف أغانيها أصلاً لأختار منها؟
ـ سأعدد لك أسماء البعض

Love, darke paradise, born to die, cherry…

ـ حسناً حسناً يكفي! سأختار " Dark Paradise" " جنّة سوداء"
ـ لا أعقد أنّها مناسبة لوقتٍ كهذا.. اختر غيرها
ـ حقّاً؟ ومتى تكون مناسبة إذا؟ حين تختاريها أنتِ؟
تضحك ثم ترد:
ـ لا أبداً، لكنّها أغنية يمكن للمرء سماعها عند موت (حبيبه أو حبيبته) عندها ستكون أغنيّةً بكامل لذّة الالم..."
هل هو بلذّة الألم الآن؟ لا يعرف.
كل الذي يعرفه أنّه تمنى لو لم تأتِ اللحظة التي تصبح بها هذه الأغنية هي المفضلة لديه، لو أنّ نبوءة هذه الأغنية لم تتحقق.

"Every time I close my eyes, it's like a dark paradise.."

" كلّ مرّةٍ أغلق بها عينيّ، يبدو الأمر وكأنّه جنّةٌ سوداء..."

****

السماءُ في كلّ مكان، أنتِ في كلّ مكان.

"الوقت هنا من بعدكِ يمضي بلونٍ بنفسجيّ، لأنّكِ أخبرتِني مرّةً أنّ البنفسجيّ هو لون التعب. إنّني أتساءل يا سيلينا، هل تعدّنا النجوم مثلما نعدّها؟ ام أنّنا باهتون ويصعُب التمييزُ بيننا وبين غبار المجرّة؟
هل تبكي الأغنيات حين تسمع صوتنا؟ أو تحاول الصور تمزيقنا؟
هل تغرق اللوحات في ملامحنا المتجمّدة؟ أو تقرأ القصائد آلام الخذلان في جباهنا المتكرّرة؟
لا أعلم يا سيلينا، وأنتِ أيضاً لا تعلمين.
كلّ الذي أعلمه أن هذه المدينة حين تغدو باردة، تهجرها جميع أسراب الحمام.
وأدرك أنّ جناحيكِ قد تجمّدا حتى هذه اللحظة، لكنّني أرجوكِ ألّا تهجري ظلّي البارد هذا.. لا ترحلي مع أسراب الحمام يا سيلينا...
مضت سنتان...
سنتان لم أَملّ بهما من الكتابة والحديث معكِ يوماً، آمُل أنّ ملائكة السماء لم تتعب من إيصال رسائلي إليكِ.
المدينة تغدو باهتة أكثر من بعدكِ، والميناء كذلك، كلّ شيءٍ بدونكِ يبدو أكثر سواداً من لون الوجود حين كنتُ أعمى، وحدكِ من كنتِ تمنحين الأشياء لونها، أعلم أنني أرى بعينيكِ الآن، لكن رغم ذلك، فإنني حين كنتُ أرى من خلالِ قلبكِ كان الوجود أكثر بريقاً يا سيلينا...
قدّر لإنسانٍ مثلي أن يخسر نظره مرّتين. مرّةً حين فقدتُ عيوني، ومرّةً حين فقدتكِ.
الجميع هنا يفتقدكِ، والدتي، والدي، جواد، وأنا.
لا تقلقي، لا تظنّي أنني دمّرتُ الإنسان الذي قمتِ بخلقه داخلي، أعترف أنّني حين فقدتكِ، تكوّرت على نفسي لشهورٍ في غرفتكِ، أعزف على كمانك، أقرأ دفترك، وأحدّق في الصور التي قمتِ بالتقاطها لي وفي اللوحات التي رسمناها، حين فقدتكِ فقدت كلّ شيءٍ ما جعلني أعود إلى ذات الوضع الذي التقيتني به لأوّل مرّة، إنسانٌ منعزل، كئيب، يموت تدريجيّاً متعفناً في الغرفة، ويعيش على الذكريات.

لكنّكِ إنسانةٌ لا تُرثى بالدموع ولا بالأحزان، أنتِ أعظم من ذلك بكثير! ولأنّكِ دائماً ما كنتِ توصيني بألا أترك الحياة، ألّا أترك الفن، كنتِ توصيني بأن أعيش، بأن أتنفس. دائماً ما تزور أحلامي لتخبرني بألّا أترك وحش الكآبة يلتهمني من جديد بعد أن أنقذتِني منه، صورتكِ دائماً ما تحدّق بي وتقول " لا تترك الفنّ يا آدم، لا تترك الحياة!"

ولهذا أنا هنا الآن، أرسم، وأعزف، وأكتب حتى... إنني أنفّذ وصيّتكِ، أحاول تلوين الحياة قدر ما أستطيع، لأن الشيء الذي منحتني إيّاه كان كافياً ليجعلني أرى الحياة وأنا أعمى أوضح مما كنت أراها بعينين مفتوحتين، إنّني أعيش الحياة كما علمتني إياها. رغم أنّ كلّ شيءٍ يبدو باهتاً بدونكِ، إلّا أنّ صوتها وهي تهمس في أذني " لوّن اللوحات يا آدم، لوّن المدينة، ولا تترك حياتك سوداء وبيضاء " ذاك الصوت، يجعلني أحاول الاستمرار في مواجهة الحزن والاكتئاب كي لا أخذلكِ.

إنّني أمضي بهذه الحياة لأجلك، لأنّكِ علمتني أن أعيش ودائماً ما طلبتي منّي ألّا أموت. لأنّكِ على قيد الحياة داخلي. وحدكِ من نجوتِ من هذه الحياة بنزاهةٍ يا سيلينا جميع من آذوكِ قد رحلوا الآن دون أثر.. لارا، سامي، وحتى زوجة عمّكِ تلك، سمعت أنّ الأمر انتهى بها في مشفىً للمجانين بعد موت ابنها وزوجها، الجميع انتهى.

انظري، الجميع يرحل، وأنا سأرحل، لكنّكِ الثابتة التي لن ترحل.

أغنيتي، لوحتي، وحبيبتي دائماً، سيلينا.

أعلم أنّ رسالتي لكِ طويلةٌ اليوم، لكنّها رسالة تخرّجي من الجامعة غداً، ولا أريد إهداءها لأحدٍ سواكِ، أعلم أنّكِ تسمعينني، لم تملّي من ذلك يوماً، شكراً على كلّ شيءٍ منحتني إيّاه، إنّني الآن وحين أنظر إلى نفسي في المرآة وأحدّق في عينيكِ على وجهي، أشعر وقتها أنّك تحتضنينني، إنّك حتى وبعد موتكِ تركتِ لي الكثير...تركتِ لي عينيك. معكِ لم أشعر للحظةٍ واحدة أنّني رجلٌ ناقص، عاجز، أعمى، معكِ كنتُ بكامل قوّتي لأواجه هذا الكون، لقد غيّرتي حياتي تماماً، لقد لوّنتني ذاك الرجل البائس والكئيب والباهت.

سيلينا... تلك الشظيّة التي قتلتكِ في صدركِ لم تقدر أن تميتكِ. أنتِ لا تموتين، أنتِ تضيفين للغياب رهبةً لا أكثر، قد ترحلين بعيداً لكنّ ظلّك يبقى كنفح الوحي يحوم حول حواسي، أنتِ لا تموتين يا سيلينا! لأنّكِ كقصائد درويش، وسيمفونيّات بيتهوفين،

ولوحات فان غوخ، لأنّك حزن الثملين على الزقاق ورعشة الطفولةِ المتبقيّة لهذه المدينة. شكراً لكِ على تغيير حياتي وعلى جعلي أتذوّق لذّة الحياة الحقيقيّة.
من يدري يا سيلينا، ربما غداً قصّتنا ستكون روايةً ما، سيقرأها الأطفال والكبار.
أو لربما سنكون يوماً رواية لن تروق لأحد، لأن بطلها كان رجلاً عاجزاً بدلاً من البطل المثاليّ ذو القوّةِ والثروة، رواية بطلتها لم تكن الفتاة الجميلة ذات الملامح الفاتنة، لم تكن كذلك بالنسبة للجميع، إلّا أنا، يا جميلتي دائماً.
ربما سنكون روايةً لن تروق لأحد يا سيلينا، لكن سيكفينا شرفاً طوال الحياة وما بعدها، أنّه حين كان الجميع يؤمنون بجمال زخرفة الكمنجات، كنّا نؤمن بجمال صوت الوتر.
كانوا يرون لمعان الزخرفات، وكنا نلمس الصدأ، صدأ الوتر...
أعدكِ أن أرسم وأعزف وأكتب وأغني لأجلكِ للأبد، وبذلك لن تموتي للحظةٍ واحدة.
سيلينا، ملاكي الحارسُ دوماً،
سأحبّكِ إلى حين أن نلتقي، للأبد.
مع قلبي وكل ألواني،
آدم"

By: Atay Vayissov

حقوق النشر والتوزيع محفوظة

ببلومانيا للنشر والتوزيع